

دوستويفسكي

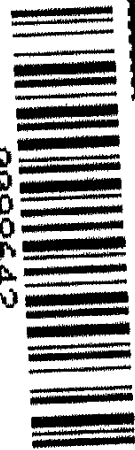
الاعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

نوبة
كارامازوف ٢



Bibliotheca Alexandrina



0098642



الأعمال الأدبية الكاملة
المجلد الثامن عشر

دوستوفيسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

الإفوة كارمازوف

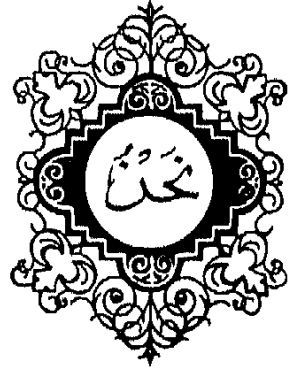
٣

جميع الحقوق محفوظة

الجزء الرابع

الباب العاشر: الضباب

١ كوليا كراسوتكين



في أول شهر تشرين الثاني (نوفمبر) * درجة البرودة احدى عشرة * المياه تتجمد * وقد هطل على الأرض المتجلدة في الليل ثلج ناعم * فهذه هي الريح الجافة الحادة تسفعه الآن في الشوارع الكالحة من مدينتنا الصغيرة ، فتثيره أكداً كبيرة على ميدان « السوق » * الصباح يملؤه الضباب ، ولكن الثلج انقطع عن الهطول *

انك ترى ، غير بعيد من الميدان ، قرب متجر آل بلوتنيكوف ، منزلاً صغيراً ، نظيفاً في الداخل والخارج على السواء ، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين * ان الموظف كراسوتكين الذي كان سكرتيراً حكومياً (*) قد مات منذ زمن طويل ... فقريباً يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة ؛ ولكن زوجته ، وهي امرأة حسنة الوجه باشة الهيئة ، في نحو الثلاثين من عمرها ، ما تزال تعيش من ايراداتها ، في منزلها النظيف * وهي تعيش في هذا المنزل حياة شريفة محتشمة ، لأن لها طبعاً متواضعاً رقيقاً حنوناً ، وان تكن على شيء من المرح * لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها ، وهي لم تعش معه الا سنة

واحدة ، أى الزمن لدى كان لازماً لانجاب ابنها . ومنذ ذلك الحين ، منذ ان يوم الذى ترملت فيه ، لم تعش الا من أجل هذا الصغير ، فوفقت حياتها كلها على ابنها كوليا وحده . ولذنها ، على حبها ابنها ، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر ، حباً حنوناً لا حدود له ، قد عانت من العذاب ، كما تتصورون ذلك ، أكثر كثيراً مما ذقت من الفرح ، فهى كل يوم ترتعد خوفاً وتموت هلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد ، أو أن يمرض ، أو أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه ، فيتسلق كرسيًا فيسقط ، الخ وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية ، ثم حين قبل بعد ذلك فى المدرسة الثانوية بمدينة ننتا ، أسرعته أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه فى مذاكرة دروسه . وأسرعته تتعرف كذلك بمدرسيه ، بل وببنائهم أيضاً ، وتعلقت برفاق صفه ، فهى تدللهم وتتفانى فى بذل جميع اللطافات لهم ، حتى لا يلحقوا بابنها أية اساءة ، حتى لا يسخروا منه أو يضربوه . وقد بلغت من ذلك أن الصبية انتهوا حقاً الى السخرية منه بسببها ، فأخذوا يناكدونه ، مطلقين عليه اسم « حبيب أمه » . ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه . انه طفل شجاع ، « قوى قوة هائلة » ، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت فى نفوسهم . وكان حاذقاً بارعاً ، قوى الطبع صلب الارادة جريئاً مغامراً جسوراً . وكان الى ذلك تلميذاً ناجحاً متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق فى الرياضيات وفى التاريخ العام على الأستاذ داردينالوف نفسه . ولكنه رغم أنه ينظر الى الآخرين من عل ، يعرف كيف يحافظ ، فى وضعه ، على أن يكون بسيطاً وأن يكون نعم الرفيق . ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه ، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف والكياسة فى معاملتهم . وكان يعرف خاصة كيف يحافظ على القصد والاعتدال ، كان قادراً على ضبط

نفسه عند الاقتضاء ، فهو لا يتجاوز قط ، في علاقاته برؤسائه ، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها ، ولا يُعدُّ تخطيها الا تمرداً وتردياً في الفوضوية وخروجاً على المشروعية . على أنه كان يجب كثيراً أن يتحرر بعض التحرر ، ولا يعدم أبداً فرصة تحقيق هذه الرغبة ، فينطلق في افعال مرحة طائشة ، كسائر الصبية الصغار ، لا بدافع « الشيطنة » والحق يقال ، بل نشداناً للذة ابتكار شيء ما ، واحداث أثر في النفوس ، ولفت الأنظار اليه ، وتأكيد ذاته بجرأة وجسارة ، والقيام بدور من الأدوار . وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه ، وقد استطاع أن يسيطر على أمه سيطرة تامة ، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون طغياناً واستبداداً . وقد خضعت الأم وأذعنت منذ زمن طويل ، وانما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها « لا يحبها كثيراً » ، وكانت لا تطيق هذه الفكرة ولا تستطيع احتمالها . كان يترأى لها دائماً أن كوليا « فاتر العاطفة » تجاهها ، وكان يتفق لها أن تبكى بكاء هسترياً ، آخذةً عليه هذا الفتور ؛ وكان الفتى يكره هذه « المشاهد » ، فكلما طالبتة أمه بمزيد من العاطفة ، ثبت هو مزيداً من الثبات على جمود احساسه وبرود عاطفته . والواقع أنه لم يكن يفعل ذلك واعياً ، وانما كان يفعله على غير ارادة منه ، فتلک كانت طبيعته : كان يجب أمه كثيراً ، ولكنه كان يكره هذا الافراط السخيف في اظهار المشاعر ، كان يكره تلك « العواطف التي تشبه عواطف العجول » ، كما كان يقول بلغته ، لغة التلميذ .

وكان أبوه قد خلف مكتبه خاصة . وكان كوليا يحب القراءة ، فقرأ عدداً من الكتب المودعة في الخزانة ذات الزجاج . لم يُقلق هذا أمه ، غير أنها كانت تستغرب أن يعكف اثنها ساعات طويلة على قراءة كتاب بدلاً من أن ينصرف الى اللعب . هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه في سنه هذه . على أن الفتى الذي كان لا يجب أن يتخطى

بعض الحدود في حيله ومكره ، قد أخذ منذ زمن يثرثر ثرثرات ترعب أمه • لم يكن في سلوكه شيء يجافى الأخلاق ، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات متهورة طائشة • من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها في هذا الصيف نفسه ، أثناء عطلة تموز (يوليو) الى قرية من قريباتها تسكن في مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخاً من مدينتنا ، لقضاء أسبوع عندها • ان زوج هذه المرأة موظف في السكة الحديدية ، فهو يعمل في محطة القطار بالمنطقة (وهي تلك المحطة نفسها التي سافر منها ايفان فيدوروفتش الى موسكو منذ شهر) • قضى كوليا الأيام الأخيرة يدرس تجهيزات السكة الحديدية بكثير من العناية والاهتمام ، لأنه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يبهر رفاقه في المدرسة عند عودته • وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين في المنطقة كان بعضهم يسكن فيما حول المحطة مباشرة وكان بعضهم الآخر يسكن في منازل تبعد قليلاً عن المحطة • هكذا تألفت منهم عصابة" عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، وبينهم اثنان من مدينتنا • وقد نظم هؤلاء الفتيان ألعاباً ، وتخلوا انواعاً من العبث والهزل ، ثم اذا بهذه العصابة المرححة تخترع في اليوم الرابع أو الخامس رهاناً بروبلين على مغامرة عجيبة فظيعة • ان كوليا ، وهو أصغر أفراد العصابة ، وكان الكبار يستخفون به لهذا السبب ، قد اقترح في ذات يوم ، من قبيل حب الظهور أو من قبيل ابراز الجسارة ، أن يرقد في احدى الليالي بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار بسرعة عند الساعة الحادية عشرة • لا شك أن كوليا كان قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً وخلص الى هذه النتيجة ، وهي أن في وسعه أن يضطجع هذا الاضطجاع بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل راقداً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه • ولكن ما أشد ما تحتاج اليه

هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش ! وكان كوليا يزعم أنه قادر على ذلك ، فهزىء منه الفتيان في أول الأمر ، ونبهوه بأنه كذاب وبأنه متبجح ، فما زاده ذلك الا اغتياظاً وعناداً ؛ وكان يحنقه خاصة أن ينظر اليه هؤلاء الفتيان الذين هم في الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية ، وأن يرفضوا أن يعيدوه نداءً لهم ، وأن يصفوه بأنه « صغير » ، وتلك في نظره اهانة لا تطاق ! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل الى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ ، ليقوموا بهذه التجربة هنالك ، حيث يكون القطار بعد تحركه من المدينة قد أخذ يجرى سريعاً . تواعد الفتيان اذن أن يلتقوا في ذلك المكان . كانت الليلة غير مقمرة ، وكان الظلام دامساً . وفي الساعة المتفق عليها رقد كوليا بين خطى السكة الحديدية . واختبأ المتراهنون الخمسة الآخرون بين الأشجار في أسفل المنحدر قرب الطريق ، وهم يشعرون بشيء من الانفعال في أول الأمر ، ثم اجتاحتهم الخشية والندامة بعد ذلك . وسُمت أخيراً مهمة القطار الذي غادر المحطة . وسطع ضوءان أحمران في الليل ، وأقبل القطار العملاق يجرى مسرعاً بضجة كدوى الرعد . صاح الصبيان وقد شلَّتهم الذعر في مخبئهم ، صاحوا يقولون لكوليا : « أركض ، أركض ، أهرب » ، ولكن كان قد فات الأوان . ووصل القطار ومرَّ فوق كوليا . ظل كوليا متمدداً بلا حراك . وهرع اليه الصبيان يحاولون انهاضه . فاذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة ، ثم يمضى يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة . حتى اذا وصل الى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر بالاغماء ليرعبهم . ولكن الحقيقة هي أنه قد أغمى عليه فعلاً ، كما اعترف لأمه بذلك بعد مدة طويلة . ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم « الجسور » . وقد عاد الصبي الى المنزل في تلك الليلة أصفر الوجه ، واتسبته في الندحمى خفيفة . ولكنه كان يشعر بالسعادة ، وكان يضحك ويمزح . ولم يذع

أمر هذا الحادث فوراً ، وانما ذاع بعد عودة كوليا الى مدينتنا ، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً ؛ وتدخلت أم كوليا لدى الادارة ضارعة اليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى ، وظلت تبذل مساعيها ، الى أن تولى المعلم داردانيلوف ، وهو رجل محترم مسموع الكلمة ، أمر الدفاع عن الصبي ، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث . ان داردينالوف هذا ، وهو رجل عازب ما يزال شاباً ، كان قد أخذ بالسيدة كراسوتكيننا منذ زمن طويل ، وعرض عليها الزواج في السنة الماضية بكثير من الاحترام وهو يرتعش خوفاً . ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً ، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها . ومع ذلك ظل داردينالوف يقدر ، على أساس بعض العلائم الخفية ، أن عليه أن لا يفقد الأمل ، وأن الأرملة الشابة الفتاة ، ولكن المبالغة في عفتها ووسواسها ، لا تخلو من الميل اليه والاعجاب به . وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التي قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة ، وقد أفهم داردانيلوف ، حين شكر له توسطه في الأمر ، أنه ليس محظوراً عليه أن يراوده أى أمل . صحيح أن ذلك قد قيل الماعاً بعيداً غامضاً ، ولكن داردانيلوف ، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضاً ، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة . وكان يحب كوليا ، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف اليه ، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية متشددة . ولسنا نتعد عن الانصاف اذا قلنا ان كوليا نفسه كان يجافيه . لقد كان كوليا يحضّر واجباته المدرسية بكثير من العناية ، وكان تانى التلاميذ ترتيباً في صفه ، وكان يجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التي يلقها عليه المعلم . وكان جميع رفاقه ، من جهة أخرى ، مقتنعين بأنه يستطيع فى مادة التاريخ العام أن ينافس أستاذه . وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا استاذه فى ذات يوم : « من بنى مدينة طروادة ؟ » ، فاقصر

داردانيلوف فى الاجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن هجرات الشعوب وعن غموض تاريخ العصور القديمة وعن الأساطير ، ولم يقل شيئاً عن بنى مدينة طروادة ، وعدّ هذا السؤال تافهاً لا داعى اليه • وهكذا ظل التلاميذ مقتنعين بأن داردانيلوف يجهل اسم بانى طروادة • وكان كوليا قد عثر على بعض المعلومات عن تأسيس مدينة طروادة من كتاب سماراجدوف * الذى كان أحد الكتب الموروثة عن أبيه • وأراد التلاميذ أخيراً أن يعرفوا من بنى طروادة ، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سره ، وظل محاطاً فى علمه الذى لا سبيل الى معرفته ، بهالةٍ من المهابة والاحترام •

وقد حدث تغير فى موقف كوليا من أمه بعد حادث السكة الحديدية • ان السيدة آنا فيدوروفنا (وهذا هو اسم السيدة كراسوتكيننا) قد أوشكت أن تُجن من الهلع حين علمت بالمغامرة التى قام بها ابنها ، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيها بعد هدنة قصيرة •

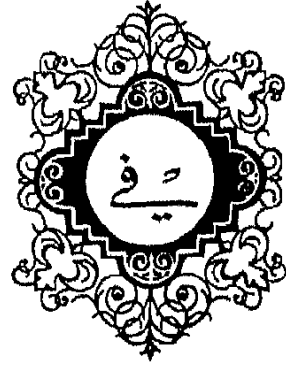
وارتاع كوليا من الحالة التى صارت اليها أمه • فقطع لها على نفسه عهد الشرف ليعزفنّ بعد الآن عن هذه الأعمال ، وليمتنعنّ فى المستقبل عن مغامرات من هذا النوع • حلف على ذلك أمام الأيقونة ، وحلف على ذلك أيضاً بذكرى أبيه ، كما طلبت أمه • وقد انفجر كوليا « الجسور » عندئذ باكياً بكاء طفل فى السادسة من عمره ، واستسلم لنوبة من « العاطفة » ، وظل الابن وأمّه طوال النهار يتعانقان باكيين • ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح « فاتر الشعور » ، « بارد العاطفة » ، ولكنه أصبح منذ ذلك الحين أشد صمتاً ، وأكثر تواضعاً ، وأكبر قوة ، وأطول روية • ولكن ما ان انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليا فى مغامرة جديدة ، فوصل اسمه حتى الى أسمع قاضى الصلح • على أن القضية فى هذه المرة لم تكن أكثر من « شيطنة » مضحكة ليست بذات خطر ، ولم يكن هو نفسه الفاعل

فيها ، وانما جرفه اليها غيره • وسنشير اليها فيما بعد على كل حال • وعاشت أمه مرة أخرى في مخاوف مستمرة ، وأحس داردانيلوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة • يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يحزر الأحلام الخفية التي تراود استاذة ، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه « العواطف الكاذبة السخيفة » ؛ حتى لقد اتفق له في الماضي أن أعرب عن احتقاره هذا بحضور أمه دون أية مداراة ، ملمعاً الى أنه يعرف كل المعرفة الهدف الذي يريد أن ينتهي اليه داردانيلوف • غير أنه بعد حادث السكة الحديدية قد تبدل موقفه في هذه الناحية أيضاً • فأصبح لا يسمح لنفسه بشيء من الغمز ولو كان غمزاً مستسراً ، وأخذ يتكلم عن داردانيلوف أمام أمه بمزيد من الاحترام ؛ واذ أدركت أمه ، باحساس قلبها المرهف ، الأسباب التي تدفعه الى اتخاذ هذا الموقف الجديد ، فقد شعرت بكثير من الشكر والعرفان • ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خذاها كالورد لونها كلما اتفق أن ذكر زائر غريب اسم داردانيلوف بحضور كوليا عرّضاً • وكان كوليا في تلك اللحظات ينظر من النافذة متجههم الوجه ، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر الى حذاءيه فاحصاً حالتها ، أو ينادى كلبه « برزفونه » غاضباً حانقاً ، وهو كلب طويل الشعر ضخيم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء ، وكان كوليا قد تبناه منذ شهر ، لكنه يخفيه في غرفته عن رفاقه لا يدرى أحد لماذا ! كان كوليا يسوم الكلب سوء العذاب من أجل أن يعلمه أنواعاً شتى من الحيل ؛ واستطاع أخيراً أن يجعل الكلب يتعلق به تعلقاً شديداً ويكلفه كلفاً قوياً حتى أصبح الكلب يعول حزناً وكمداً حين يغادر كوليا المنزل ذاهباً الى المدرسة ، ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا الى المنزل ، فمتى رأى « برزفونه » صاحبه أخذ ينط ويتواهب طرباً ، وأخذ يتقرب منه ويتحجب اليه ، وراح يرقد على الأرض متظاهراً بالموت ، أى طفق يجرى الحركات

التي علّمها ، وطفق ينفذها ، ولكنه لا ينفذها في هذه المرة بأمر ،
بل ينفذها من تلقاء نفسه ، في اندفاعه انفعاله وشكرانه •

بالمناسبة : لقد أغفلت أن أقول ان كوليا كراسوتكين هو بعينه ذلك
الفتى الذي طعنه بموسى في وركه الصبى^٢ ايليوشا الذي يعرفه القارىء
(هو ابن الضابط المتقاعد سنيجيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدّ تلاميذ
المدرسة الذين كانوا يتكلمون عنه باحتقار •

٢ الذُّلَّة



ذلك الصباح الذي يملؤه الجليد والضباب من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، كان كوليا كراسوتكين في المنزل • اليوم 'يوم' أحد ، فلا مدرسة • ودقت الساعة الحادية عشرة • ان كوليا يريد أن يخرج من المنزل حتماً «لأمر هام جداً» • ولكن كوليا كان في البيت عندئذ وحيداً ، وقد عهد اليه بحراسة البيت ان صح التعبير ، لأن جميع الكبار قد اضطروا الى الغياب عن المنزل لظروف طارئة لم تكن في الحسبان • ان منزل الأرملة كراسوتكين يضم شقة أخرى من غرفتين ، يفصلها عن الشقة التي تشغلها صاحبة الدار دهلينز • وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طيب ، فهي تعيش فيها مع ابنيها صغيرين جداً • وقد توثقت بين المرأتين ، وهما في سن واحدة ، عرى صداقة قوية • أما الطيب فكان قد سافر الى أورنبورج منذ أكثر من سنة ، ثم سافر من هناك الى طشقند ، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر ، فلولا الصداقة التي قامت بين الزوجة وبين السيدة كراسوتكين التي خفت حزنها ، لقضت هذه الزوجة المهجورة كل وقتها في البكاء • ومن أجل أن تبلغ زوجة الطيب ، كاترين ، غاية سوء الحظ ، ألم يكن من الضروري أن تبلغها

خادمتها الوحيدة ، في لحظة مباغتة لم تكن في الحسبان ، ليلة الأحد ، أنها تتأهب لأن تضع مولوداً ؟ ذلك ما حدث . أما أن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها ، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة . اضطربت زوجة الطبيب للحادث اضطراباً شديداً ، وقررت أن تنقل كاترين ، ما دام في الوقت متسع ، الى قابلة في مدينتنا كانت تستقبل في منزلها سكاناً بيتون ويطعمون . ولما كانت تحرص كثيراً على هذه الخادمة ، فقد أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ ، فمضت بها الى القابلة ومكثت قربها . وفي الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا التي تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات لتأمين شيء من الحماية للخادم التي توشك أن تلد . هكذا غابت السيدتان عن المنزل . ومن جهة أخرى ، كانت آجاتي ، خادمة السيدة كراسوتكينا ، قد ذهبت الى السوق . فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً ، الى حين ، بحراسة الدار ومراقبة طفلي زوجة الطبيب ، الصبي والبنت ، اللذين بقيا وحدهما معه في المنزل . لم يكن دور الحارس يرعب كوليا ، لا سيما وأن الكلب « برزفونه » الى جانبه . ولقد أمر الكلب بأن يبقى راقداً تحت دكة في الدهليز ، وأن يظل « ساكناً » لا يتحرك . وكان كوليا يذهب ويحجى بين الغرف ، فكلما خرج الى الدهليز ، انتفض الحيوان الشهم ، وأدار وجهه الى جهة سيده ، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحيتين ضارعتين ؛ ولكن كوليا لا يصفر له منادياً وأسفاه ، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية ، فيسرع الكلب الى التجمد على سكونه المطلوب . والواقع أن كوليا لم يكن مهتماً الا بالطفلين . صحيح أن حادث كاترين قد أيقظ في نفسه احتقاراً عميقاً ، ولكنه كان يحب الصغيرين المسكينين المحرومين من أبيهما حباً كثيراً ، وكان قد جاءهما بكتاب مسلي . ان ناستيا * ، وهي الكبرى ، نبلغ من عمرها ثمانى سنين ، وتعرف القراءة . وان أخاها ، وهو أصغر منها

يسنة ، يجد لذة عظيمة فى الاستماع الى القصص التى تقرؤها له • واضح أن فى وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى الى الضحك ، كأن يضعهما فى صف ويلعب معهما لعبة الجنود ، أو لعبة الاختباء ، وذلك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منه بغضاضة ، حتى لقد شاع فى المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان ، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطأ رأسه ، ولكن كوليا قد فتد هذه التهم ، وقال ان لعبة الحصان تخلل بالكرامة حقاً « فى هذا العصر » اذا هو لعبها مع رفاق مثله فى الثالثة عشرة من أعمارهم ، ولكنه انما يلعبها من أجل الطفلين لأنه يحبهما كثيراً ، وليس من حق أحد أن يسأله حساباً عن عواطفه • لذلك كان هذان الطفلان يعبدانه عبادة • على أن كوليا لم يكن فى هذه المرة منشرح النفس للعب • لقد كان عليه أن يعنى يومئذ بقضية شخصية هامة جداً ، بل وسرية بعض الشيء • والزمن يمضى • وآجاتى التى كان يمكن أن يكل اليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد • لقد قطع كوليا الدهليز عدة مرات ، ففتح باب شقة زوجة الطيب ، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين فى القراءة تنفيذاً لأمره • فكان الطفلان يتسلمان ابتساماً عريضة صامتة كلما ظهر لهما ، متوقعين أن يفاجئهما بشيء عجيب مضحك • ولكن هموم كوليا فى ذلك النهار كانت أخطر وأكثر من أن يفكر فى تسليتهما واضحاكهما • فلما دقت الساعة الحادية عشرة أخيراً عزم عزمًا حازمًا جازمًا على أن يخرج دون أن ينتظر آجاتى المنحوسة ، اذا هى لم تعد خلال عشر دقائق ، وذلك طبعاً بعد أن يستقطع الطفلين عهداً بأن يظلا أثناء غيابهما عاقلين هادئين ، وأن لا يخافا ولا يبكيان • وعلى هذا ، ارتدى معطفه الشتوى الصغير البطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب ، ووضع كيسه المدرسى على كتفه • ورغم التوصيات الملحة التى تسديها اليه أمه بأن لا يخرج فى « مثل هذا البرد » دون أن يتعل

خفسي المطاط ، فانه حين اجتاز الدهليز لم يزد على أن رمى الحفنين بنظرة ازدراء واحتقار • فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج ، ضرب الأرض بذيله ضربتين ، واضطرب وتحرك ، وتقلقل وتدحرج ، حتى لقد أصدر أنيباً شاكياً • ولكن كوليا رأى أن هذا الإفراط في الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط ، لذلك تركه ينتظر تحت الدكة دقيقة أخرى طويلة ، ولم يصفر له منادياً الا حين فتح الباب ، فوثب الحيوان الشهم وقد جنَّ فرحاً ، وأخذ يقفز وينط أمام كوليا • اجتاز القتي الدهليز ، ودخل غرفة الطفلين • انهما ما يزالان جالسين أمام مائدة صغيرة كما كانا من قبل ، ولكنهما كفاً عن القراءة ، وكأنهما منهما كان في مناقشة حامية جداً • كثيراً ما كان يتفق لهما أن تختلف آراؤهما في تقدير أحداث الحياة اليومية ، وكانت ناستيا هي التي تنتصر في هذه الخصومات دائماً ، من حيث أنها الكبرى • فاذا لم يشأ كوستيا * أن يعترف بالهزيمة ، احتكم الى كوليا كراسوتكين ، فسرعان ما يكون الرأي الذي يراه كوليا هو الحكم الأخير والقول الفصل في نظر المتخاصمين كليهما • وبدا على كوليا في هذه المرة أن الموضوع الذي يدور عليه النقاش بين « الصغيرين » يشد انتباهه ويثير اهتمامه ، فقد وقف في عتبة الباب يصغى اليهما • فلما لاحظا أنه يهتم بما يقولان تضاعفت حماستهما وحرارتهما في المناقشة •

قالت ناستيا مزقزقة :

— مستحيل ، مستحيل أن أصدق أن القابلات يجدن الصغار في حقول الخضار تحت الكرنب ؛ الآن شتاء ، فلا تنبت خضار ، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنتاً الى كاترين ؟

دمدم كوليا يقول لنفسه :

– عجيب !

– وعلى كل حال ، اذا كانت القابلات تأخذ هؤلاء الأطفال من مكانٍ ما ، فانهن لا يأتين بهن الا الى النساء المتزوجات .

كان كوستيا يحدق الى أخته ، ويصغى بانتباه ، ويبدو عليه التأمل والتفكير • وقال أخيراً بصوت جازم على هدوء :

– ما أنت الا غيبة يا ناستيا ! كيف يمكن أن يكون لكاترين طفل وهى غير متزوجة ؟

فقالت ناستيا متململة نافذة الصبر :

– أنت لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً ! لعل لها زوجاً ولكنه فى السجن .
ولذلك كان لها طفل •

سألها كوستيا بهدوء ووقار :

– أأنت واثقة من أن زوجها فى السجن ؟

فقاطعتة ناستيا فجأة وقد نسيت افتراضها الأول :

– أنا أعرف كيف حدث هذا • ليس لها زوج • أنت على حق •
ولكنها كانت ترغب فى أن تتزوج ، فأخذت تفكر فى زواجها المقبل ،
ففكرت ثم فكرت ، ومن كثرة ما فكرت حصلت على زوج بل على طفل !

قال كوستيا وقد اقتنع كل الاقتناع :

– اذا كان الأمر كذلك ، فهذا مختلف كل الاختلاف • ولكن كان
ينبغى أن تذكره لى من قبل ، فاننى ما كنت لأستطيع أن أحزره •

تدخل كوليا قائلاً :

– هيه يا أولاد ! انكم أخطر مما كنت أتصور !

صاح كوستيا يقول :

— هه ! هذا « برزفونه » أيضاً !

ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه •

بدأ كوليا يقول وقد بدا في وجهه الاهتمام الشديد :

— اسمعوا يا أولاد ! يجب أن تساعدوني • لا بد أن آجاتي
قد كُسرت ساقها ، لأنها لم تعد حتى الآن • ذلك هو التعليل الوحيد
لتأخرها • ويجب علىَّ حتماً أن أخرج • فهل تأذنون لي أن أنصرف ؟

تبادل الصغيران نظرة قلقة ، وأظلم وجهاهما بعد أن كانا حتى ذلك
الحين باشين باسمين • وبدا عليهما من جهة أخرى أنهما لم يفهما
ما يُنتظر منهما •

— ألن تتركبوا حماقات أثناء غيابي ؟ ألن تتسلقوا الخزانة فتكسروا
أرجلكم ؟ ألن تبكوا ذعراً من الوحدة ؟ •
ارتسم على قسمات الطفلين كدر عميق •

— اذا وعدتموني بأن تبقوا عقلاء ، فسوف أريكم شيئاً ، سوف
أريكم مدفعاً صغيراً من البرونز 'يحشى' ببارود حقيقى •

فسرعان ما اطمأن وجهها الطفلين • وصاح كوستيا مشرق الحيا :

— أرنى هذا المدفع !

دسَّ كراسوتكين يده في كيس المدرسة وسلَّ منه مدفعاً صغيراً من
البرونز فوضعه على المائدة •

— ها •• ها •• هذا يهكم ! أنظروا : انه محمول على عجلات !

قال ذلك وهو يدحرج المدفع على المائدة • وأضاف :

- ويمكن اطلاق النار منه • 'يحشى خردقاً ، فتخرج الطلقة •
- هل يمكن القتل به أيضاً؟
- طبعاً ! بهذا المدفع يمكن قتل أى نسان ، على شرط أن تحسن التصويب طبعاً •
- أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود ، وكيف يمكن ادخال الخردق • أراهما فتحة صغيرة فى البرونز تسمى الضوء ، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يندفع الى وراء عند الاطلاق • أصغى اليه الصغيران بفضول شديد ، وأثار خيالهما خاصةً ذلك الاندفاع الى وراء •
- سألته ناستيا :
- هل عندك بارود أيضاً؟
- عندى •
- قالت وهى تبسم ابتسامة ضارعة وتجر كلماتها جرأً :
- أرنا البارود أيضاً •
- فدسّ كراسوتكين يده فى كيسه مرةً أخرى ، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقى ، وورقة لُفّ بها بعض الخردق • حتى لقد مضى فى الملاطفة الى حد فتح القارورة وسكب شئ من البارود فى راحة يده •
- انظروا ! ولكن يجب أن لا يكون هنا نار ، والا حدث انفجار يدمرنا جميعاً •
- كذلك قال كراسوتكين ليثير خيال الصغيرين مزيداً من الاثارة •
- وأخذ الطفلان يتفحصان البارود فى خشية واحترام يزيدان لذتهما • ولكن اهتمام كوستيا كان منصرفاً الى الخردق خاصةً • قال يسأل :

– ألا يحترق الخردق ؟

– لا ، لا يمكن أن يشتعل الخردق ♦

قال كوستيا متوسلاً :

– اعطني بضع حبات من الخردق ♦

– سأعطيك ♦ هاك هذه الحبات ♦ خذها ♦ ولكن لا ترها لـ «ماما»

ما لم أعد أنا ؟ والا ظنتها باروداً ، فماتت هلعاً ، وجلدتكما كليكما ♦

أسرعت ناستيا تقول مصححة :

– ماما لا تجلدنا قط ♦

– أعرف ♦ ولكنني قلت هذا لجمال الصورة ♦ يجب أن لا تكذبوا

أبدأ على أمكم ، الا هذه المرة ، بانتظار عودتي ♦ والآن ، يا أولاد ، هل
أستطيع أن أنصرف ؟ ألن تبكوا جزعاً أثناء غيابي ؟

قال كوستيا بصوت رخو ، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن :

– سـ ♦♦♦ نـ ♦♦♦ بكى ! ♦♦♦

وزادت ناستيا تقول بسرعة خائفة :

– طبعاً سنبكي ♦

– ما أخطركم في هذه السن يا أولاد ! يا عصافيري الصغيرة !

سيكون عليّ أن أبقى معكم لا أدري الى متى ؟ والوقت يمر ملحاً الحاحاً
رهيباً واأسفاه !

قال كوستيا :

– أصدر أمرك الى « برزفونه » بالتظاهر بالموت ♦

– لا مناص • لا بد من التهرب الى « برزفونه » ! برزفونه :
تعال هنا •

أصدر كوليا أوامره الى الكلب ، فأخذ الكلب ينفذ الحركات
التي تعلمها • ان برزفونه كلب كثيف الشعر ضخيم القامة لا تستطيع أن
تحدد لونه ، فهو أشهب أغبر معاً ، وهو أعور العين ، مصلوم الأذن
اليسرى ، لا يدري أحد لماذا أخذ الكلب يصيت ويشب فرحاً ، ويتبختر ،
ويمشى على قائميه الخلفيتين ، ويستلقى على ظهره ويتظاهر بالموت • وانه
ليقوم بهذه اللعبة الأخيرة اذا بالباب يُفتح واذا بأجائى ، الخادمة السمينة
الضخمة التي تعمل عند السيدة كراسوتكيئا ، وهى امرأة مجدورة
الوجه ، فى نحو الأربعين من عمرها ، اذا بها تظهر فى العتبة حاملةً
بيدها شبكة المون التي اشترتها من السوق • وقفت آجائى ونظرت الى الكلب
معجبة بينما الشبكة تتدلى من طرف ذراعها اليسرى • ورغم أن كوليا
كان ينتظر وصولها نافذ الصبر ، فانه لم يقطع ما كان بسيله من تمثيل
حين رآها ، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر
له ، فما ان سمع الكلب الصغير حتى وثب واقفاً على قوائمه ، وراح يقفز
كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه •

قالت آجائى منتشية :

– هذا كلب حقاً !

فسألها كوليا بقسوة :

– لماذا تأخرت يا مخلوقة نسوية ؟

– أنا مخلوقة نسوية ؟ انظروا الى هذا الولد الخايب ؟

– خايب ؟

– طبعاً خايب ! ليس شأنك أنت أن أتأخر أنا أو أن لا أتأخر •
ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان لازماً •••

كذلك قالت آجاتى متذمرة وهى تنهمك قرب الموقد • على أنها لم
تتكلم بصوت حائق أو مغتاض • بالعكس : كان يبدو أنها تجد لذة
فى مشاجرة سيدها الفتى المرح •

قال كوليا وهو ينهض عن الأريكة :

– اسمعى يا من عقلك كعقل العصافير • هل تحلفين لى بأقدس
ما تقدسين فى هذا العالم ، وبشئ آخر أيضاً ، على أنك ستعتنين بالأولاد
أثناء غيابى ، وبأنك ستراقبينهم بلا غفلة عنهم ؟ ان على ان أخرج •

فقال آجاتى مدهوشة ضاحكة :

– وعلام أحلف ؟ لسوف أهتم بهم دون يمين أحلفها •
– بل يجب أن تحلفى على ذلك بخلاص روحك ! والا لم أخرج •
– اذن لا تخرج • هل يضيرنى أن لا تخرج ؟ ثم ان الأفضل أن
تمكث فى الدار ، فالبرد فى الخارج شديد يجمد المياه •

قال كوليا يخاطب الطفلين :

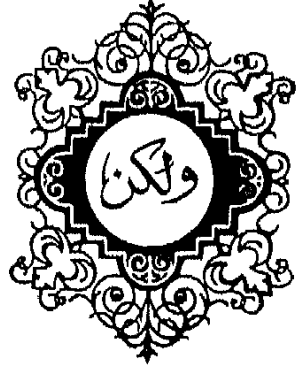
– اسمعوا يا أولاد ! ستبقى هذه المرأة معكم الى أن أعود ، أو الى أن
تعود أمكم التى كان يجب أن تعود منذ زمن طويل هى أيضاً • وسوف
تهبىء لكم فطوركم • ستطعمينهم ، أليس كذلك يا آجاتى ؟

– جائز •

– الى اللقاء يا طيورى الصغيرة • اننى أنصرف الآن مرتاح البال
مطمئن الضمير •

ثم أضاف يقول لأجائى بصوت خافت وهيئة رزينة وهو يمر أمامها :
 - أما أنت أيتها المرأة الطيبة فأرجو أن لا تقصى عليهم ، بصدد
 كاترين ، تلك القصص السخيفة التى تعودتن أن تخترعنها فى مثل هذه
 الأحوال • فما ينبغى افساد نفوسهم • تعال هنا يا برزفونه !
 قالت أجائى متدمرة وقد فقدت فى هذه المرة صبرها :
 - اذهب الى الشيطان ! انك تضحكنى بهذه الأوضاع التى تصطنعها !
 يحسن أن تجلد حتى تتعلم كيف تتكلم !

٣ الساميد



كوليا كان قد كف عن الاصغاء . ها هو ذا
يستطيع الخروج أخيراً . وبعد أن اجتاز الباب
الكبير ، التفت الى وراء ، وشد كتفيه ، ودمدم
يقول : « اف . . . ما أشد هذا البرد ! » ،

وسار في أول الأمر قُدماً على طول الشارع ؛ ثم مال بعد قليل الى زقاق
عرضائي يؤدي الى ميدان «السوق» ، ووقف أخيراً أمام الدار التي تقع
قبل آخر دار ، فأخرج من جيبه صفاةً ، فصفر بها صفيراً قوياً ، كإشارة
متفق عليها . ولم يضطر أن ينتظر أكثر من دقيقة واحدة ، فها هو ذا صبي
أحمر اللون في الحادية عشرة من عمره ، يهرع نحوه . ان هذا الصبي يرتدي
هو أيضاً معطفاً دافئاً ، نظيفاً جداً ، بل وأنيقاً . انه الفتى سموروف ، تلميذ
الصف التحضيري (ان كوليا يسبقه صفين) ، وهو ابن موظف ذي يسار
كان أهله قد حظروا عليه أن يعاشر كراسوتكين الذي اشتهر بأنه صبي
متهور عنيد مستعد للقيام بأجراً المغامرات الخطرة . واضح أن سموروف
قد تسلل الى الشارع على غير علمٍ من أهله . ان سموروف هذا - ولعل
القارىء يتذكر ذلك - كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا ايليوشا
بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين . وهو الذي كلم الكسى كارامازوف
عن ايليوشا في تلك المناسبة .

قال سموروف وقد لاح في وجهه العزم :

– اننى أنتظرك منذ ساعة يا كراسكوتين *

واتجه الفتيان نحو ميدان السوق *

قال كوليا :

– تأخرت حقاً * والذنب فى تأخرى ذنب بعض الظروف * قل لى :

ألن تُجلد لأنك جئت معى ؟

– دعك من هذا الكلام ! أتظن أننى 'أجلد فى البيت ؟ هل

« برزفونه » معك ؟

– كما ترى *

– هل تنوى اصطحابه أيضاً ؟

– طبعاً *

– آه ... ليته « يوتشكا » !

– هذا مستحيل * « يوتشكا » لم يبق له وجود * لقد اختفى دون

أن يخلف أثراً *

قال سموروف فجأة وهو يتوقف :

– خطرت لى فكرة * ما دام ايليوشا يزعم أن « يوتشكا » كان

كلباً طويل الشعر ، مثل « برزفونه » هذا ، وكان أشهب اللون أيضاً ،

أفلا نستطيع أن نقول له ان هذا « يوتشكا » ؟ لعله يصدق *

– اعلم أيها التلميذ أنه ما ينبغى للمرء أن يكذب ، ولو فى سبيل

الخير * هذه واحدة * أما الثانية فهى أننى أرجو خاصة أن لا تكون قد

تكلمت هناك عن زيارتى *

قال سموروف :

- أبدأ • ما هذا الكلام ؟ أنا غبى الى هذه الدرجة من الغباء ؟

ثم أضاف يقول متتهداً :

- ولكن « برزفونه » لن يعزّييه • ان أباه ، الكابتن ، هذه الحرفة الرثة البالية ، قد قال لنا انه سيجيئه اليوم بكلب أسود البوز من أرقى كلاب الحراسة جنساً ، وهو يعتقد أن ايليوشا سيتعزى بهذا الكلب • ولكننى أشك فى ذلك •

- وكيف حال ايليوشا ؟

- حاله سيئة جداً • أظن أنه مصاب بالسسل • انه لم يفقد وعيه ، ولكن تنفسه صعب ••• أوه ! ما أشد ما يلقى من عناء فى التنفس ! طلب منذ مدة أن يخرج فى نزهة ، فألبسوه ثيابه وخذائيه ، فما سار بضع خطوات حتى تهالك • فهتف يقول لأبيه : « قلت لك مراراً يا بابا ان هذين الخذائين غير صالحين • لقد كنت أجد مشقة فى المشى بهما حتى فى الماضى » • ظن أنه سقط بسبب الخذائين ، مع أنه سقط بسبب ضعفه • لن يعيش أكثر من أسبوع • ان الدكتور هرتسنشتوبه يراه من حين الى حين • لقد أصبحوا أغنياء من جديد • ان معهم مالاً كثيراً •

- أوغاد !

- من هم الأوغاد ؟

- الأطباء أوغاد ، هم وعلمهم كله • اننى أتكلم على وجه العموم ، ولكننى أخصص أيضاً • أنا لا أومن بالطب • الطب لا حاجة اليه • على اننى أريد أن أدرس هذه المشكلة دراسةً أدق • قل لى بانتظار

ذلك : لماذا أنتم حاذقون جميعاً في العواطف المزعومة المسرفة ؟ يظهر أن تلاميذ الصف جميعاً يذهبون إليه ، أليس كذلك ؟

- لا ، لا جميع تلاميذ الصف • نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم • ليس لهذا كبير شأن •

ان ألكسى كارامازوف هو الذى يدهشنى أمره خاصة فى هذه القصة • سيُحكّم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبية ، ثم هو يجد من وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ فى اصطناع العواطف !

- ليس هذا عواطف مزعومة • أنت نفسك تذهب الآن الى ايليوشا ، تذهب اليه لتصلحه ؟

- لأصلحه ؟ تضحكنى هذه الكلمة ! ثم انى لا أسمح لأحد بأن يحتلّ أفعالى •

هتف سموروف يقول بحرارة :

- ما أعظم سعادة ايليوشا حين سيراك ! انه لا يتوقع زيارتك البتة • لماذا رفضت أن تجيء اليه طوال هذه المدة ؟

- يا عزيزى الفتى الطيب ، هذا شأنى أنا لا شأنك أنت • أنا أذهب اليه بارادتى ، لأن ذلك يحلّو لى • أما أنتم فتذهبون اليه مدفوعين دفعاً من الكسى كارامازوف • ذلك هو الفرق • ثم من قال لك ان فى نيتى أن أصلحه ؟ أنا لا أحب هذه الكلمة •

- كلا • نحن لا نذهب اليه بسبب كارامازوف ! لقد ذهب التلاميذ اليه من تلقاء أنفسهم ؛ ولئن تم ذلك بصحبة كارامازوف فى أول الأمر فذلك أمر طبيعى • ليس فى سلوكنا هذا شىء من حماقة أو من عاطفية مصطنعة ! ذهب اليه واحد منا فى البداية ، ثم فعل ذلك واحد آخر ، وهكذا دواليك • وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا ! لسوف يُجنُّ

أبو ايليوشا اذا مات ايليوشا • هو يدرك أن ابنه لن يعيش • وقد سعد
سعادة كبيرة بتصالحنا معه • سألنا ايليوشا عن أحوالك ، ولكنه لم يضيف
الى ذلك شيئاً • سألنا عنك ثم صمت • أما أبوه فسوف يفقد عقله أو سوف
يشنق نفسه • ثم ان سلوكه كان دائماً سلوك انسان مختل العقل • ولكنه
رجل نبيل جداً ، ولقد أخطأنا في الحكم عليه • ان الذنب في ذلك هو
ذنب الرجل الذي ضربه في ذات يوم ، أقصد ذلك الرجل الذي قتل بعد
ذلك أباه •

— مهما يكن من أمر فان كارامازوف هذا يظل لغزاً في نظري •
كان في وسعي أن أتعرف عليه منذ زمن طويل ، غير أنني أحب في بعض
الحالات أن أظهر كبريائي • على كل حال ، لقد كنت لنفسى رأياً فيه ،
وما زلت في حاجة الى التثبت من هذا الرأي والى اكماله •

قال كوليا هذا وصمت وقوراً رصيناً • ولزم سموروف الصمت
أيضاً • واضح أنه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين باعجاب شديد ،
وما كان له قط أن يعامله معاملة الند للند • وهو الآن يحس بفضول قوى ،
لأن كوليا قد ذكر أنه يقوم بهذه الزيارة « بارادته » ، فلا بد أن يكون
في الأمر اذن سر • لماذا اتخذ كوليا هذا القرار فجأة ؟ ولماذا يذهب
الى ايليوشا في هذا اليوم على وجه التحديد ؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ
ميدان السوق حيث تزدحم في هذه الساعة عربات البائعين والدواجن
المعرضة للبيع • هؤلاء نساء يقفن تحت أفاريز حوانيتهن عارضات خبزاً
صغيراً وبسكويتاً وخيطاناً • ان الناس في مدينتنا يطلقون ، بسداجة ، اسم
« المعارض » على أسواق الأحد هذه التي تقام بضع مرات في السنة • وكان
« كاربون » يجري في جميع الجهات ، ويسرح ويمرح ، راکضاً الى
اليسار تارة ، والى اليمين تارة أخرى ، متجهاً الى كل موضع فيه شيء
يشمه • فاذا لقي كلاباً أخرى بادلها ، بسرور واضح ، حركات التودد

المألوفة ، بوزاً الى بوز ، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب ***
قال كوليا فجأة :

– أحب أن أرصد مشاهد الحياة الواقعية ياسموروف • هل لاحظت
كيف تتعارف الكلاب بشم بعضها بعضاً؟ لا شك في أنها اذ تفعل ذلك انما
تخضع لقانون من قوانين الطبيعة •

– نعم ، لقانون مضحك جداً في رأيي •

– كلا ، ما هو بمضحك ، أنت نخطيء ، ليس في الطبيعة ما يضحك ،
رغم كل ما قد يظنه الانسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء ! لو كان في وسع
الكلاب أن تفكر وأن تعبّر لوجدت حتماً في السلوك الاجتماعي لدى
البشر ، سادتهم ، لوجدت في هذا السلوك من الأمور المضحكة في نظرها
مثل ما نجد نحن في سلوكها ، وربما وجدت أكثر من ذلك أيضاً ! أكرر :
لسوف تجد لدينا من المضحكات أكثر مما نجد لديها ، لأنني مقتنع بأننا
نرتكب من الحماقات أكثر مما ترتكب الحيوانات • تلك فكرة من راكيتين ،
وهي فكرة ممتازة • أنا اشتراكي يا سموروف •

سأله سموروف :

– ما الاشتراكي ؟

– الاشتراكي من يؤمن بأن يصبح جميع البشر متساوين ، وأن
تصبح آراؤهم واحدة في كل شيء ، وأن يلغى الزواج ، وأن يتغير الدين
وتتغير القوانين على ما يحب كل فرد ، وهلمّ جرا ••• انك لم تبلغ من
النضج في سنك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور • ما أشد البرد مع
ذلك !

– صحيح • تبلغ البرودة اثنتي عشرة درجة اليوم • لقد نظر أبي
في الترمومتر منذ قليل •

– هل لاحظت يا سموروف أن المرء ، حين تهبط الحرارة في وسط الشتاء الى خمس عشرة درجة تحت الصفر أو حتى الى ثمانى عشرة درجة ، لا يتألم من البرد مثلما يتألم منه في نهاية الخريف حين تتجمد المياه عرضاً ولا تهبط الحرارة الى أكثر من اثنتى عشرة درجة تحت الصفر ، ولا يكون هنالك الا ثلج قليل ، كما هى الحال اليوم ؟ ذلك أن الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد • كل شىء فى الانسانى عادة ، والأمر كذلك فى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية • ان العادة هى المحرك الكبير للحياة الانسانىة • انظر الى هذا الفلاح كم هو مضحك ؟

قال كوليا ذلك وهو يومئذ الى فلاح طويل القامة يرتدى معطفاً من فراء الخروف وتبدو عليه البساطة والسذاجة • كان الفلاح مدثر اليدين بقفازين قصيرين ، وهو يضرب يديه احدهما بالأخرى نشداناً للدفء ، وقد غشت حبيبات الجليد لحيته الطويلة الحمراء •

قال كوليا بصوت متحدٍ مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح :

– تجلدت لحيته •

فأجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة :

– لست الوحيد الذى تجلدت لحيته •

قال سموروف قلقاً :

– لا تسع الى مشاكسته ومشاجرته •

– ليس فى هذا بأس • لن يزعل • هو رجل طيب شهم • الى اللقاء

يا متا !

– الى اللقاء !

– هل اسمك اذن متا فعلاً ؟

– طبعاً • أكنت تجهل ذلك ؟

– لم أكن أعرف ذلك • وانما سميتك بهذا الاسم مصادفة •

– غريب • أنت تلميذ في المدرسة ؟

– نعم •

– ها ••• وهل يجلدونك في المدرسة ؟

– أحياناً •

– هل الجلد مؤلم ؟

– تقريباً •

– كذلك هي الحياة •

بهذا ختم الفلاح الحوار متنهداً •

– استودعك الله يا متا !

– استودعك الله • أنت غلام طيب !

وتابع الفتان طريقهما • قال كوليا :

– هذا الفلاح لطيف محبب • اننى أحب الحديث مع أفراد الشعب ،

ويحلون لي أن أنصفهم •

– لماذا كذبت عليه فزعمت له أننا نُجلد في المدرسة ؟

– كان لا بد من مواساته قليلاً •

– مواساته ؟ لم أفهم •

– اسمع يا سموروف • أنا لا أحب كثيراً أن 'أسأل حين لا يفهم

عنى فوراً • هناك أمور يصعب شرحها • ان هذا الفلاح يتصور أن

التلاميذ يُجلدون في المدرسة ، وأن الأمور يجب أن تكون كذلك •

ما تلميذ لا يُجلد ؟ فلو قلت له بفظاظة اننا لا نُجلد في المدرسة لما فهم

شيئاً ولأحزنه ذلك • على أنك لا تفهم هؤلاء الناس • يجب أن تتعلم
مخاطبة الشعب •

– ولكننى أتوسل اليك أن لا تناكدهم ، والا فقد تقع لنا قصة كالتى
وقعت لنا فى ذلك اليوم ، مع ذلك النبى !

– هل يخيفك هذا ؟

– لا تمزح يا كوليا • هناك أسباب تدفعنى الى الخوف • لسوف
ينغضب أبى غضباً رهيباً • لقد حظروا على حظراً قاسياً أن أخرج معك •

– اطمئن • لن يقع شئ هذه المرة • صباح الخير يا ناتاشا !

كذلك صاح كوليا يحيى بائعة كانت تقف تحت إفريز حانوتها •
فأجابت المرأة التى تبدو شابة ، أجابت تقول بصوت حاد :

– ناتاشا ؟ أتريد أن تضحك ؟ أنا اسمى مارييا •

– مارييا ؟ هذا أحسن • استودعك الله •

– شوفوا الولد الوقح ! طوله طول البطاطسة ، ثم هو يتعاضم !
قال كوليا وهو يحرك يده بإشارة عريضة كأن المرأة هى التى
تزعجه :

– طيب طيب ••• ستقصين علىّ هذا فى يوم الأحد القادم • أنا الآن
مشغول !

– ليس عندى ما أقصه عليك يا متبجح ! شوفوا هذا الولد ! أنت
الذى ناديتنى متحرشاً بى ، بينما لم أكن أهتم بك يا وقح ! ان السوط
هو ما تستحقه أيها الولد البطل ! نحن نعرفك •••

كذلك صرخت مارييا تقول غاضبة • فانفجرت البائعات اللواتى

كانت بسطانهن قريبة من بسطتها ، انفجرت تضحك • وفجأة ، انبجس من رواق المخازن في الميدان رجل غاضب حائق • ان هيئته تدل على أنه مستخدم في محل تجارى ، حتى انه ليس من مدينتنا ، وانما هو مار" بها عرضاً • هو شاب يرتدى قفطاناً ازرق طويلاً ، وعلى رأسه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستناوى ، ووجهه شاحب مجدور • انه يبدو مضطرباً اضطراباً أهوج غيباً ، وها هو ذا يتجه رأساً نحو كوليا وهو يهدده بقبضة يده • قال له صارخاً :

— أنا أعرفك ، أنا أعرفك من زمن •••

نظر اليه كوليا متفرساً فيه ، فلم يفلح في أن يتذكر متى وأين احتك بهذا الرجل • ان مصادماته في الشارع مع الناس أكثر من أن يستطيع تذكرها جميعاً •

سأله كوليا بلهجة ساخرة :

— ها ••• تعرفنى ؟

— نعم نعم ، أعرفك أعرفك •••

كذلك ردد الرجل في غباء •

— في هذا خير لك • أنا مستعجل الآن • استودعك الله •

فصاح المستخدم يقول :

— تعود الى وقاحاتك ؟ تعود ؟ أنا أعرفك يا وقح ! أتعود

الى وقاحاتك ؟ •

قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرس في الرجل :

— ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحاً أو أن لا أكون • ليس هذا

من شأنك !

- كيف ؟ ليس من شأنى ؟
- ليس من شأنك أنت على كل حال !
- من شأن مَنْ اذن ؟ ألا قلت لى !
- هو الآن من شأن تريفون نيكيثس *
- اى تريفون نيكيثس تعنى ؟
- كذلك سأل الرجل البسيط وقد بدت فى وجهه علامات دهشة
بلهاء ، ولكن صوته ما يزال غاضباً * نظر اليه كوليا بوقار ، ثم سأله على
حين فجأة بقسوة :
- هل ذهبت الى « كنيسة الصعود » ؟
- أية كنيسة ؟ ولماذا يجب علىّ أن أذهب اليها ؟
- هكذا سأل المستخدم متحيراً مرتبكاً * فاستأنف كوليا استجوابه
بلهجة أشد قسوة أيضاً :
- هل تعرف سابانايف ؟
- أى سابانايف ؟ كلا * * * لا أعرفه *
- قال كوليا يحسم الحوار :
- فليأخذك الشيطان اذن !
- ثم مال فجأة الى يمين ، وانصرف بخطى سريعة ، كأنه يرفض أن
ينزل الى حيث يكلم رجلاً غيباً لا يعرف حتى سابانايف *
- صاح المستخدم يسأله وقد ثاب الى نفسه واضطرب من جديد :
- انتظر ، اسمع ، اى سابانايف تعنى ؟
- ثم التفت فجأة الى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغياء :

– لماذا كلمنى عن سابانايف ؟

• فانفجرت النساء تضحك •

قالت احدهن :

– هذا الولد ماكر •

فكرر المستخدم يسأل ملحاً وهو يحرك يده اليمنى باشارات

عريضة :

– أى سابانايف ؟ من هذا ؟

قالت احدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة :

– أغلب الظن أنه سابانايف الذى كان مستخدماً عند آل كوزماتشيف

••• لا يمكن الا أن يكون هو •••

حَدَّق اليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة •

وعادت امرأة ثانية تقول :

– عند آل كوزماتشيف ••• ز ••• متشيف ؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه

تريفون !

كان اسمه كوزما وليس تريفون • والتلميذ انما ذكر اسم تريفون

نيكيتش • فليس المقصود اذن سابانايف ذاك نفسه •

فانبرت امرأة ثالثة تتدخل فى المناقشة فتقول بعد أن ظلت طول

الوقت صامتة تصغى بانتباه شديد :

– بل أنت مخطئة • لم يكن اسمه تريفون ولا سابانايف ، بل كان

اسمه تشييفوف ، ألكسى ايفانوفتش ، أتذكر ذلك جيداً : ألكسى

أيفانوفتش تشييفوف •

قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة :

- هذا صحيح + المقصود هو تشييفوف فعلاً .

كان المستخدم ينقل بصره بينهن واحدةً واحدةً ، وقد بدت في وجهه أمائر الحيرة والذهول + قال الشاب مهموماً :

- ولكن لماذا ، لماذا ألقى عليّ هذا السؤال : « هل تعرف ساباناييف ؟ » ؛ هلاًّ قلتن لي لماذا ألقى عليّ هذا السؤال أيتها النساء الطيبات ! لا يعلم الا الشيطان ما الذي كان يدور في رأسه حين كلمني عن ساباناييف

فأجابته احدهن بصوت صارم :

- ما أنت الا أحمق ! ألم نقل لك ان المقصود ليس ساباناييف بل تشييفوف ، ألكسى ايفانوفتش تشييفوف ؟

- تشييفوف ؟ أى تشييفوف ؟ قولى لي ما دمت تعلمين !

- هو رجل طويل القامة طويل الشعر ، كانت له دكته في السوق هذا الصيف .

- ما شأنى أنا بصاحبك تشييفوف هذا ؟ هه ؟ قولوا لي أيتها النساء الطيبات !

- هل عليّ أنا أن أعرف ما شأنك به ؟

وقالت امرأة أخرى :

- هل نعرف نحن ؟ يجب أن تعرف أنت ما الذى يريد منك ، ما دمت تصرخ هذا الصراخ ! لقد كلمك أنت ولم يكلمنا نحن ، يا أهدل ! أم تراك لا تعرف الرجل ؟

- أى رجل ؟

- تشييفوف طبعاً !

– شيطان يأخذ تشييوف ، ويأخذك أنت أيضاً معه ! سوف أضربه ،
ذلك كل ما أقوله لكن ، لأنه سخر مني .

– أنت تضرب تشييوف ؟

– لا ، لا ، ليس تشييوف من سأضربه ، يا امرأة شريرة تزرع
الشقاق ، وانما سأضرب الصبي . أتئينني به الى هنا ، أتئينني به حالاً ،
حالاً

ضجت النساء تضحك ضحكاً صاخباً . أما كوليا فكان قد ابتعد ،
وهو يسير الآن مختلاً اختيال المتصرين ؛ وأما سموروف الذي يسير
الى جانبه فانه يلتفت من حين الى حين نحو عصبة البائعات اللواتي كن
يلوحن بأيديهن صائحات . ان سموروف مبتهج هو أيضاً ابتهاجاً كبيراً ،
ولكنه يخشى أن يجره كوليا الى قصة لا تحمد عقباها .

سأله سموروف وهو يتنبأ بالجواب :

– عن أي ساباناييف كلمته ؟

– أنا أدري ؟ سوف يظنون يتشاجرون في هذا الأمر حتى المساء .
لشد ما أحب أن أحير وأن أربك الأغبياء من جميع طبقات المجتمع .
أنظر ! هذا بليد آخر هناك ، ذلك الفلاح ، هل تراه ؟ كثيراً ما يقال :
« أغبي الاغبياء غبي فرنسي » . أما أنا فأرى أن وجوه الروس تكشف
أحياناً عن غباوة يحسدون عليها . أليس مكتوباً على جبين هذا الرجل
مثلاً أنه بليد ؟ اننى أقصد ذلك الفلاح نفسه . ما رأيك ؟

– دعه وشأنه يا كوليا . امض بنا !

– لن أدعه وشأنه بحال من الأحوال ! اننى اشعر باندفاع لا سييل
الى مقاومته . هيه ! أنت . . . هناك ! صباح الخير أيها الفلاح الطيب !

ها هو ذا الرجل المسادى ، وهو فلاح قوى البنية يزدان وجهه
المدوّر الخالى من المكر بلحية متناثرة ، ها هو ذا يرفع رأسه ببطء وينظر
الى الفتى *

– طيب ، ليكن ، صباح الخير ، اذا كنت لا تعبث !

– واذا كنت أعبث ؟

– لك ما تشاء عندئذ ، اعبث قليلاً أيها الفتى * مباح للمسرء أن
يتسلى فى هذا العالم * ليس يسىء ذلك الى أحد *

– معذرة أيها الطيب ، لقد أردت أن أمزح *

– سيغفر الله لك *

– وهل تغفر لى أنت ؟

– من كل قلبى * امض فى سبيلك !

– يبدو لى أنك فلاح ذكى *

– أذكى منك على كل حال *

كذلك قال الرجل على غير توقع ، ولكن دون أن يتخلى عن هدوئه

ورصاته *

فأجابه مرتبكاً :

– أشك فى ذلك *

– بلى بلى ! أنا أذكى منك *

– قد يكون هذا حقاً *

– أرايت ؟

– استودعك الله أيها الفلاح *

– استودعك الله •

قال كوليا مخاطباً سموروف بعد بضع لحظات من صمت :

– الفلاحون أنواع • لم أكن أتوقع في هذه المرة أن أقع على فلاح ذكى • انى أشعر بالسعادة كلما صادفت ذكاه لدى أبناء الشعب •

وفى بعيد ، دقت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف • فغذت الفتيان الخطى ، وقطعا بسرعة ، دون كلام تقريباً ، المسافة الكبيرة التي كانت ما تزال تفصلهما عن منزل الكابتين سنيجيرييف • حتى اذا صارا على بعد عشرين خطوة منه ، توقف كوليا وأمر سموروف أن يدخل قبله ليرجو كارامازوف أن يخرج الى الشارع • وقال لسموروف شارحاً :

– أريد أولاً أن أتعرف به وأن أشمم جو المكان •

فاعترض سموروف قائلاً :

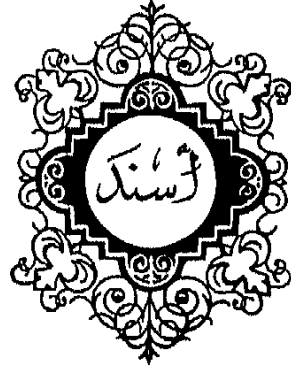
– علام نأتى به الى هنا ؟ الأفضل أن تدخل رأساً ، وسوف يسعدهم كثيراً أن يروك • ما أغرب هذه الفكرة ، أن تتعرف بالرجل على قارعة الطريق فى هذا البرد الشديد !

قال كوليا يحسم المناقشة بلهجة مستبدة (كان كوليا يحب كثيراً أن يصطنع أوضاع السيطرة والتسلط فى معاملة « الصغار ») :

– هناك أسباب تدفعنى الى استدعائه الى هنا ، وأنا أعرف ماذا أفعل •

فأسرع سموروف يطيع الأمر راکضاً الى المنزل •

٤ « يوتسأكا »



كوليا ظهره الى السياج ، مصطنعاً هيئة الوقار ،
منتظراً وصول أليوشا + انه يتمنى منذ زمن
طويل أن يتعرف الى أليوشا + لطالما سَمِعَ
التلاميذ يتكلمون عنه ، ولكنه كان حتى الآن ،
حين يسمع ما يُحكى عن أليوشا ، يتظاهر بقلة الاكتراث وبشيء من
الازدراء ، حتى أنه لم يفتته ، في بعض المناسبات ، أن « ينتقد » سلوك
أليوشا + الواقع أنه كان في قرارة نفسه يرغب برغبة قوية في أن يلقاه :
ان شيئاً ما ، في التفاصيل التي تُنقل اليه دائماً عن أليوشا ، كان يحببه به
ويجذبه اليه + لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة : ان عليه قبل كل شيء
أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله + فهو يقول لنفسه : « والا فقد
يعدني صيباً في الثالثة عشرة ، فيكلمني كما يكلم سائر هؤلاء الصبية
الصغار + لماذا يعاشرهم معاشرة أصدقاء ؟ سوف ألقى عليه هذا السؤال
في أول فرصة + ان ما يضايقني خاصةً هو أنني قصير القامة الى هذا
الحد من القصر + ان توزيكوف أصغر مني سنّاً وأطول مني قامّةً + ولكن
محيّاي ينم عن ذكاء + أنا دميم ، أعرف ذلك ؛ ان وجهي ليس وسيماً ،
ولكنه يعبّر عن ذكاء + ينبغي لي ، من جهة أخرى ، أن أحرص على أن

لا أسرف في الإفصاح عن نفسي والاعراب عن مشاعري • لو وثبت الى عنقه ، فمن عسى يظنني ؟ أوه ! يا للخزي ؟ اننى لا أجرؤ أن أفكر في هذا ! ••• » •

كذلك كان يتأمل كوليا ، وهو فريسة اضطراب شديد ، رغم كل ما كان يبذله من جهود في سبيل أن يصطنع هيئة الهدوء وقلة المبالاة • وكان قصر قامته خاصةً هو الذى يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه « المحروم من الوسامة » • نعم ، قصر قامته • لقد رسم منذ العام الماضى ، على الجدار ، فى بيته ، خطأ بقلم الرصاص ، يشير الى طول قامته ؛ وهو منذ ذلك الحين حتى الآن ، يقف تحت هذا الخط كل شهرين ، مهموم القلب ، قلق البال ، ليعرف هل زاد طوله أم هو لم يزد • ومن المؤسف أن طوله كان لا يزداد الا ببطء • فكان ذلك يملأ نفسه فى بعض اللحظات كمدأ ويأساً • والحق أن قسمات وجهه لم تكن « محرومة من الوسامة » ، بل لقد كانت لطيفة محببة • ان وجهه أبيض شاحب ، فيه بقع احمرار • وان عينيه الشهابوين صغيرتان ولكنهما تفيضان حياة ونشاطاً ، وتنظران نظرات جريئة ، ويلتصع فيهما لهيب من العاطفة فى بعض الأحيان • وان وجنتيه عريضتان ، وشفتيه صغيرتان دقيقتان ، ولكنهما فى مقابل ذلك حمراوان جداً • أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك ، وكان أفنى • فكان كوليا اذا نظرن الى وجهه فى المرآة ، أشاح عن صورته مشمئزاً وهو يدمدم : « أنف أفطس ، أفطس تماماً » • وكان يتساءل فى بعض الأحيان ، وقد راوده الشك حتى فى هذا : « هل لى حقاً وجه ذكى ؟ » • يجب أن لا نظن مع ذلك أن همّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره • فان الأمر لم يكن كذلك قط • فمهما تكن اللحظات التى كان يقضيها منفرداً بالمرآة قاسية ، فقد كان ينساها بسرعة ، ثم لا تخطر بباله فترات طويلة « وانما تشغله

عنها الأفكار والحياة الواقعية شغلاً كاملاً» ، على حد التعبير الذي كان يحلو له أن يعرف به نشاطه وعمله .

لم يلبث أليوشا أن ظهر ، فاتجه كوليا بخطى سريعة . فلاحظ كوليا ، من بعد ، أنه مشرق الوجه منبسطة الأسارير . تساءل مغتبطاً : « هل يبهجه الى هذه الدرجة أن يرانى ؟ » . يجب أن نقول هنا أن أليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه فى اللحظة التى تركناه فيها . هو لا يرتدى الآن مسوح الدير ، بل يرتدى بدلة أنيقة ، ويضع على رأسه لبادة رمادية ، وقد قصَّ شعره قصيراً ، وكان هذا الزى يناسبه كثيراً ، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً . وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً ، غير أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً . وكأنه متجمع على نفسه . وقد دهش كوليا حين رأى أليوشا يخرج الى الشارع بلا معطف ، ولا شك أن أليوشا قد نسى من تعجله أن يرتدى معطفه .

مدَّ اليوشا يده الى كوليا بغير تكلف قائلاً له :

— هانت ذا أخيراً ! لقد انتظرنا أن نراك ، بصبر نافذ .

— أعلم أنني قد تأخرت ، وسأشرح لك أسباب ذلك . على كل حال ، يسعدنى أن أتعرف اليك . لطالما تمنيت أن تتاح لى هذه الفرصة ، لأننى سمعت عنك كثيراً .

كذلك دمدم يقول كوليا بصوت مضطرب ، لأن الانفعال قد قطع أنفاسه .

— كنا سنتعارف على كل حال . أنا أيضاً سمعت عنك كثيراً . ولكنك أسرفت فى التأخر عن المجيء الى هنا ، أسرفت اسرافاً شديداً .

— قل لى : كيف هو الآن ؟

— حالة ايليوشا سيئة جداً . سيموت لا محالة .

هتف كوليا يقول بحرارة :

- كيف هذا ؟ هلاًّ اعترفت أن الطب كريبه مقيت يا كارامازوف !
 - هل تعلم أن ايليوشا قد نطق باسمك مراراً ؛ حتى لقد كان
 فى بعض الأحيان يتكلم عنك فى أحلامه ، وفى لحظات هذيانه أيضاً *
 واضح جداً أنه كان متعلقاً بك أشد التعلق فى السابق *** قبل ذلك
 الحادث *** حادث الموسيقى * يبدو أن لهذا سبباً آخر *** قل لى :
 أهذا كلبك ؟

- نعم ، هو « برزفونه » *

- آ *** أليس هو « يوتشكا » اذن ؟ فهل فقد « يوتشكا »
 الى الأبد ؟

كذلك قال أليوشا وهو ينظر الى عيني أليوشا حزيناً *
 فقال أليوشا وهو يتسهم ابتسامة ملغزة :

- أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون فى « يوتشكا » وتحلمون به *
 انى مطلع على هذا الأمر * اسمع يا كارامازوف ، سأشرح لك هذه
 القصة . اذا كنت قد جئت الى هنا ، واستدعيتك ، فانما فعلت ذلك لأبسط
 لك الموقف مقدماً قبل أن ندخل البيت *
 وتابع كوليا كلامه قائلاً بحماسة متزايدة :

- فى هذا الربيع انما دخل ايليوشا الصف التحضيرى * وأنت تعلم
 ما هو الصف التحضيرى : صبية ، أولاد صغار * فسرعان ما أخذوا
 يعاكسون ايليوشا * وأنا أتقدمه بصفين ، فكنت أرقب تلك المشاهد ،
 من بُعد طبعاً * رأيت أن الطفل صغير ، هزيل ، ولكنه لا يخضع

ولا يستكين ، حتى لقد يمضى الى حد مقاتلتهم ضرباً بالأيدى • لقد كان ذا انفه وكبرياء ، وكانت عيناه تقدحان شرراً • اننى احب الصبيان الذى هم على هذه الشاكلة • وكان الاخرون يشاكسونه مزيداً من المشاكسة بسبب هذه الكبرياء ! وكانت ثيابه خاصه هى التى تحتل الاستهزاء به حينذاك : سروال مشمور ، حذاءان متتايبان ••• كان الصبية يندفعون الى التهكم عليه فرحين ، وكانوا يحاولون اذلاله • أخذ ذلك يسوءنى ، فسرعان ما تدخلت فأدبتهم • اننى أضربهم متى وجب أن أضربهم ، وهم مع ذلك يعبدوننى عبادة ، هل تعرف ذلك يا كارامازوف ؟ (كذلك أضاف كوليا متفاخرآ) • وأنا أعبد الأطفال على كل حال • وأعلم أن عندى فى البيت ، فى هذه اللحظة نفسها ، طفلين أعنى بهما ، وهما اللذان أخرانى • هكذا كفّ الصبيان عن اضطهاد ايليوشنا ، وأصبحت أحميه • ولقد كان الولد شديد الكبرياء ، صدقنى ، شديد الكبرياء جداً ، ولكنه أذعن لى أخيراً اذعان عبد ، فهو ينفذ أوامرى ، ويصغى الى اصغاه الى اله ، ويحاول أن يقلدنى فى كل شىء • كان فى أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يهرع الى فوراً ، فمضى تتروض معاً • وكذلك فى أيام الآحاد • والتلاميذ فى مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط هذا الارتباط بصغير ، ولكن تلك آراء سخيفة • لقد كانت معاشرته تسرنى ، أفليس هذا سبباً كافياً ؟ وحاولت أن أعلمه ، أن أنمى ثقافته ، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً الى نفسى ! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت بجميع هؤلاء الصبية الصغار • فأنت تريد اذن أن تحدث أثراً فى الجيل الجديد ، أن تغيره ، أن تكون نافعاً له • اننى اعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التى عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هى التى شأقتنى فىك أكثر من أى شىء آخر • ولكن فلنعد الى الوقائع : لقد أدركت أن الصبى أخذ يصير الى الافراط فى الحساسية ، فى العاطفية • وأنا أكره

أشد الكره هذه « العواطف التي تشبه عواطف العجول » ، أكرهها وأمقتها منذ ولدت ، فاعلم هذا ! وقد لاحظت عدا ذلك شيئاً من التناقض في وضعه : فهو من جهة أولى شديد الأنفة والكبرياء ، وهو من جهة ثانية مخلص لى اخلاص عبد • كان يطينى فى كل أمر خاضعاً ، ثم اذا بعينه تقدحان على حين فجأة شرراً ، فلا يريد أن يوافقنى ، بل هو يناقش ويماحك ويغضب • كان يتفق لى أن أعرض له بعض الآراء • لن أقول انه كان يعارض عندئذ هذه الآراء ، فلقد كنت أرى رؤية واضحة أن معارضته كانت تستهدفنى أنا شخصياً ، وأنه كان يتمرد ويعصى لأننى كنت أرد على اندفاعات عاطفته ببرود • عندئذ قررت ، حتى أريه ، أن أظهر له مزيداً من البرود وأن أقوى تحفظى تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بى • كان ذلك من جانبى موقفاً مقصوداً محسوباً ، يتفق ومبادئى • لقد أردت أن أنشىء طبعه ، أن أقوى عزيمته ، أن أصلب ارادته ، أن أخلق منه رجلاً ••• الخلاصة ••• لا شك أنك تفهمنى بنصف كلمة • وفى ذات يوم ، لاحظت فيه اضطراباً غريباً • كان يبدو منهجاً مصعوقاً • وظل على هذه الحال أياماً • أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردّه الى قلة عاطفتى وحدها ، وأن له أسباباً أخرى أقوى وأرفع • تساءلت ما عسى تكون الدراما التى تجرى فى نفسه • ولاحقته بالأسئلة ، فإذا أنا أعرف الحقيقة : لقد تعرّف ، لا أدرى كيف ، الى سمردياكوف خادم المرحوم أبىك (الذى كان ما يزال حياً فى تلك الآونة) • فعمد سمردياكوف الى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية ، بل قل مزحةً وحشية حقيرة هى أن يأخذ لب الخبز فيدس فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً الى كلب تائه ، الى واحد من تلك الحيوانات الساعبة التى تبلع ، دون مضغ ، كل ما يقع تحت أسنانها ••• وذلك ليرى ما عسى يحدث بعد ذلك • هكذا أعداً لقمة من خبز ، وألقياها الى « يوتشكا » ذلك

الكلب الضخم الطويل الشعر الذي كثيراً ما جرى الحديث عليه منذ ذلك الحين . هو كلب من تلك الكلاب التي ينسى الناس أن يطعموها ، والتي تقضى النهار كله نابحةً على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبي يا كارامازوف ؟ أما أنا فلا أستطيع احتمالها) . انقض الكلب المسكين على لقمة الخبز ، فبلعها ، فسرعان ما أخذ يعول متلويماً من الألم ، ثم انصرف على الفور راکضاً لا يلوى على شيء ، آناً متوجعاً . هكذا اختفى ذلك الكلب ، على حسب الرواية التي رواها لي ايليوشا نفسه . لقد اعترف لي ايليوشا بفعلته وهو يبكى ، فهو ينتحب انتحاباً قوياً ويعانقني متشنجاً ، وما ينفك يكرر قوله : « كان الكلب يركض ويئن ، يركض ويئن . . . » ، فالى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر ! . . . لاحظت أن عذاب الضمير يرضيه ، وأن الندم يهده هدأً . أخذت الأمر مأخذ الجد . كنت حريصاً خاصةً على أن أعاقبه على سلوكه السابق ، فعمدت الى الحيلة والمكر . . . اعترف لك بذلك . تظاهرت باستياء شديد من فعلته ، استياءً أشد كثيراً من استيائي في الواقع . قلت له : « لقد ارتكبت عملاً حقيراً ، عملاً جباناً . . . أنت نذل . . . لن أنسى بك طبعاً ، ولكنني أنهى الآن علاقات الصداقة بيننا . وسأفكر في الأمر ، ثم أبلغك بواسطة سموروف (هو الصبي الذي سحبنى الى هنا ، وكان مخلصاً لي على الدوام) هل قررت أن أعيد الصلة بيني وبينك ، أم قررت أن أهجرك الى الأبد فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام » . أحدثت هذه الأقوال في نفسه أثراً رهيباً . وسرعان ما أحسست - اعترف لك بذلك - أنني أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو واسراف . ولكن ما العمل ؟ لقد كنت أعمل بوحى من اقتناعاتي . وفي الغد ، أرسلت اليه سموروف لأبلغه أنني « لن أكلمه بعد اليوم قط » . تلك هي الاصطلاحات التي نستعملها في المدرسة للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين . والحقيقة أنني كنت أريد أن أهجره

بضعة أيام فقط ، ثم أمد اليه يدي حين أرى ندامته • تلك كانت نيتي الجازمة على كل حال • ولكن ماذا تظن أنه حدث ؟ اصغى الى الرسالة التي بلغه اياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً : « أبلغ كراسوتكين أنني سألقى بعد الآن لقم خبزٍ فيها دبابيس الى جميع الكلاب ، الى جميع الكلاب ! » • قلت لنفسي عندئذ : « ها ••• ها ••• » لقد استيقظت فيه روح التمرد ، فيجب أن تُقمع وتُقهَر • وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً تاماً ، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً ابتساماً صغيرة ساخرة • وفي تلك الآونة انما وقعت لأبيه تلك الحادثة ، حكاية الليفة كما تعلم • انك لتقدّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهياً لنوبات عنف • واذ رأى التلاميذ أنني هجرته فقد هاجموا من جديد ، صائحين له من أجل اغاظته واخراجه عن طوره : « الليفة ، الليفة ، الخ » • كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها أسفاً شديداً ، ذلك أنني أعتقد أنه قد كلبت له الضربات في ذات مرة • وفي يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصابة كلها • وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأرقيه • أحلف لك أنني لم أكن قد سخرت منه • بالعكس : لقد أيقظ في نفسي عندئذ شفقةً كبيرة ، شفقة كبيرة جداً • وكنت أوشك أن أهب الى نجدته • ولكن نظرته التقت بنظرتي فجأة • ولست أدري ما الذي ظن أنه يقرؤه في عيني ، ولكنه استل موساه بغتة ، وهجم عليّ ، فأغمد الموسى في وركي ، هنا ، فوق الساق اليمنى قليلاً • لم أتحرك • أعترف لك يا كارامازوف أنني أبرهن في بعض الظروف على شجاعة • لم أزد على نظرت اليه باحتقار ، وكانت نظرتي تقول بوضوح : « أهذا كل شيء ؟ ألا تريد أن تضربني أيضاً ، عرفانا منك بالصدقة التي حملتها لك ؟ هياً ، افعل بي ما تشاء ! » • ولكنه أخفى موساه ، وفقد شجاعته فجأة ، وخاف ، ثم لم

يملك زمام نفسه ، فاذا هو ينفجر باكياً ناشجاً • ثم ولى هارباً • لم أش به طبعاً • حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بان يكتموا ما وقع بغية ان لا يصل الامر الى مسمع الادارة • ولم أفل لامي شيئاً كذلك ، ولم أقصص عليها الواقعة الا بعد أن التأم الجرح التاماً تماماً • وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال • وقد علمت بعدئذ أنه في ذلك اليوم نفسه اقتتل مع رفاقه ، ورماهم بالحجارة ، وعض احدى أصابعك • لا شك أنك تدرك الآن الحالة النفسية التي كان عليها حينذاك • ما العمل ؟ انه ليؤسفنى أننى تصرفت تصرفاً أحمق • فحين مرض لم أزره لأغفر له... أقصد ••• لأتصالح معه ••• وأنا الآن نادم على ذلك • ولكن ينبغي لى أن أقول مع ذلك أن هناك ، في هذه القضية ، أسباباً دفعتنى الى أن أتصرف كما تصرفت • الخلاصة ••• هذه هى القصة كلها ••• ولكن واضح " أننى تصرفت تصرفاً أحمق •••

صاح أليوشا يقول بانفعال شديد :

- أوه ! خسارة أننى لم أعرف قصة علاقاتك بايليوشا ••• والا بلجئت منذ زمن طويل راجياً أن تصحبنى اليه • تصور أنه كان يتكلم عنك أثناء مرضه وهذيانه • كنت أجهل أنك عزيز على نفسه الى ذلك الحد • هل يمكن فعلاً أن لا تكون قد عثرت على « يوتشكا » ؟ ألم تجده حقاً ؟ ان أبا ايليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب فى المدينة كلها • هل تتصور أن ايليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضورى ، قال له مريضاً باكياً : « لئن كنت أتألم يا بابا ، فلأننى قتلت يوتشكا ••• ان الله يعاقبنى » • لا سبيل الى اخراج هذه الفكرة من رأسه ! لو استطعنا على الأقل أن نهتدى الى يوتشكا وأن نريه اياه حتى يعلم أن الكلب لم يمت ، اذن لبعث حياً من شدة الفرح • ولقد كنا جميعاً نعوّل عليك فى هذا •
سأل كوليا بفضول شديد :

– لماذا قدرتم أننى سأعثر على « يوتشكا » ؟ لماذا كنتم تعولون على
أنا ولا تعولون على أحد غيرى ؟

– شاع أنك تبحث عن الكلب وأنتك ستجىء به الى ايليوشا متى
وجدته • أسمعنا سموروف فى ذات مرة شيئاً من هذا القبيل • ونحن
جميعاً نجهد فى أن نقنع ايليوشا بأن « يوتشكا » حى ، بأنه رُئى
فى مكان ما • وقد جاءه رفاقه بأرنب لا أدرى من أين حملوه ، فنظر
ايليوشا الى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامةً ضعيفةً ، وطلب أن ترد
الى الأرنب حريته • فعلنا ذلك • وفى تلك اللحظة نفسها عاد أبوه
مصطحباً كلباً صغيراً غير مفطوم من كلاب الحراسة • كان الأب يظن أن
هذا سيواسى ابنه • ولكننى أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً
بسبب ذلك •••

– قل لى أيضاً يا كارامازوف : الى أى نوع من الرجال ينتمى
أبوه ؟ اننى لا أعرفه الا بالنظر • فما هو فى رأيك ؟ أهو مهرج ؟

– لا !••• ان هناك أناساً أوتوا حساسية عميقة ، ولكن القدر قد
صعقهم وسحقهم • وما تهريجهم عندئذ الا نوع من الانتقام المرّ الساخر
ازاء أولئك الذين لا يجروون أن يواجهوهم ولا يجسرون ، من فرط
ما اعتادوا الخضوع الذليل ، أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه • ثق
يا كوليا أن هذا التهريج يمكن أن يكون له ، فى بعض الحالات ، أساس
تراجيدى جداً • ان أفكاره كلها وحياتها كلها قد تركزت الآن على
ايليوشا • يكفى أن يموت ايليوشا حتى يُجنّ حزناً أو ينتحر • اننى
لا أنظر اليه مرة الا وأصبح على مثل اليقين من ذلك •

قال كوليا بلهجة قاطعة :

– أفهمك يا كارامازوف • ألاحظ الآن أنك خير فى معرفة النفس

الانسانية •

– لقد ظننت حين رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تيجيء بيوتشكا .

– صبراً يا كارامازوف • قد نعثر على ذلك الكلب • أما هذا فهو «برزفونه» • سأتركه في غرفة ايليوشا ، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذي أتاه به أبوه • اسمع يا كارامازوف • سأذكر لك بعض الأمور • آه ••• رباه ! ماذا أفعل ؟ (هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً) ••• أوْخرك في هذا البرد الشديد وأنت بغير معطف ! هانت ذا ترى مدى أنايتي ••• نحن جميعاً أنايون ، وا أسفاه !

– لا تقلق • صحيح أن الجو بارد • ولكنني لا أصاب بالزكام بسهولة • على أننا نحسن صنفاً اذا نحن دخلنا البيت • بالمناسبة : ما اسمك؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا ، ولكن كوليا ماذا ؟

– اسمي نيقولا ، نيقولا ايفانوف كراسوتكين ، أو نيقولا ايفانوف بن كراسوتكين ، اذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين •

كذلك قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة • ثم أسرع يضيف :

– لعلك تقدّر اننى أكره اسم نيقولا هذا الذى أحمله ؟

– لماذا ؟

– لأنه مبتذل ، تافه •••

– أنت في السنة الثالثة عشرة من عمرك ؟

– بل في الرابعة عشرة • سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين • وأحب

أن أعترف لك رأساً بوجه من وجوه ضعفى يا كارامازوف حتى تعرف

طبعى معرفة جيدة منذ البداية : اننى أكره أن 'أسأل عن عمري ، بل أمقت ذلك أشد المقت ... ثم ... يجب أن أقول لك ... هناك نيمية فى حقى تجرى الآن وتشيع ... انهم يدعون أننى لعبت فى الأسبوع الماضى مع تلاميذ الصف التحضيرى لعبة اللصوص ... صحيح أننى لعبت هذه اللعبة ... لست أنكر ذلك ... أما أن يُقال اننى لعبتها لنفسى ، لمسرتى أنا ، فذلك تشنيع كريبه . هناك أسباب تدفعنى الى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمك . فاعلم اذن أننى لم ألب هذه اللعبة بدافع ميل شخصى ، وانما لعبتها لأسرّ الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدونى . ان الناس فى هذه المدينة يحبون الأقاويل . ان هذه المدينة لا تعيش الا على الثرات ، أوكد لك ذلك .

– هبك لعبت لمسرتك الخاصة ، فأى ضمير فى هذا ؟

– لمسرتى الخاصة ؟ ما هذا الكلام ؟ أترضى أنت أن تلعب لعبة

الحصان مثلاً ؟

قال أليوشا مبتسماً :

– فكرّ قليلاً : فى المسرح 'تمثل التمثيليات للكبار ، ومع ذلك نرى

فيها مغامرات أبطال ، ومعارك حروب ، بل ونرى فيها لصوصاً من قطاع

الطرق فى بعض الأحيان . أليس هذا هو ذلك اللعب نفسه فى حقيقة

الأمر ، وانما اكتسى صورة أخرى ؟ اعلم أن الصبيان الصغار ، حين

يلعبون لعبة الحرب أو لعبة اللصوص من قطاع الطرق ، اثناء فترات

الاستراحة بين الدروس ، انما يقومون بعمل فنى أيضاً على طريقتهم

الخاصة . هذا فن ناشئ ، هذه تطلعات فنية تتجلى فى نفوس الصغار .

وان هذه الألعاب لتكون فى بعض الأحيان أجمل من تمثيليات المسرح .

الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون الى المسرح ليروا الممثلين ، على حين

أن الأطفال في ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون في آن واحد • هذه سلوى مشروعة تماماً •

سأل كوليا وهو ينظر الى أليوشا بانتباه شديد :

– أعتقد بذلك حقاً ؟ أهذه قناعتك ؟ انك تعبر عن فكرة شائقة جداً ، هل تعلم ذلك ؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترها اجتراراً حين أعود الى منزلى بعد قليل . لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة ، أتعرف لك بذلك • أننى أحب أن أتعلم منك يا كارامازوف •

بهذا ختم كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حارة • فأجابه أليوشا وهو يتسّم له ويصافحه :

– وأنا أيضاً أريد أن أتعلم منك •

كان كوليا مفتوناً بأليوشا • ولقد أرضاه خاصة أن يعامله أليوشا معاملة الند للند ، كما يعامل « شخص كبير » •

قال كوليا وهو يضحك ضحكة عصية صغيرة :

– سأريك حيلة يا كارامازوف ، هى نوع من التمثيل المسرحى •

لهذه الغاية انما جئت الى هنا •

– لندخل أولاً الى عند أصحاب الدار ، فى اليمين • لقد خلع

جميع رفاقك معاطفهم ، لأن جو الغرفة خائق ، والمكان ضيق •

– لن أمكث مدة طويلة ، فلا حاجة الى خلع معطى • وسيبقى

« برزفونه » فى الدهليز ، ويتظاهر بالموت • تعال يا « برزفونه » • أرقد

ومت • ها هو ذا قد مات • سأدخل أولاً ، فأرى ما يجرى ، ثم أصفر

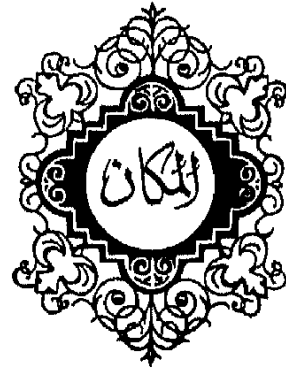
فى اللحظة المناسبة منادياً : تعال يا « برزفونه » • فيسرع الكلب وقد جنّ

فرحاً • ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب فى اللحظة

المناسبة • سألقى اليه التعليمات اللازمة ، فترى هذا الفصل •

٥

على درابليوشا



ضيق والجو حار في الغرفة التي تسكنها أسرة الكابتن المتقاعد سنيجر يف ، والتي كان يتكسب فيها في تلك الساعة زوار كثيرون جداً • ان عدداً كبيراً من الصبيان يقفون قرب سرير ايليوشا • ورغم أنهم مستعدون جميعاً ، مثل سموروف نفسه ، أن ينكروا أن يكون تصالحهم مع ايليوشا هو من صنع أليوشا ، فلقد كان الأمر كذلك في الواقع • ولقد كانت كل براعة أليوشا هو أنه قادهم الى غرفة أليوشا واحداً بعد واحد ، متحاشياً الاندفاعات العاطفية ، متحاشياً ما كانوا يسمونه « عواطف العجول » ، حريصاً على أن يرضى على هذه الزيارات مظهر بادرة عفوية طارئة • وقد أحسنت هذه الزيارات الى ايليوشا ، وواسته كثيراً • ان هذه الصداقة القوية وهذا الاهتمام الكبير اللذين يظهرهما له هؤلاء الصبية ، اعداؤه القدامى ، قد أثرت في نفسه تأثيراً عميقاً • ليس ينقصه الآن الا كراسوتكين • ان غياب كراسوتكين يثقل على صدره كثيراً • ان سوء التفاهم الذي نشب بينه وبين كراسوتكين ، صديقه الوحيد وحاميه ، هو بين ذكرياته المرة آلمها جميعاً •

وذلك ما أدركه سموروف حق الإدراك (وهو فتى ذكى جداً كان أول من جاء يصلح ايليوشا) • ولكنه حين أبلغ كراسوتكين ، بكلمات مغطاة ، أن أليوشا يحب أن يراه « لأمر من الأمور » ، فان كوليا قد أسرع يقطع حديثه معه ، وكلفه بخشونة وجفاء أن يقول لكارامازوف انه يعرف بنفسه ما الذى يجب عليه أن يعمله وانه ليس فى حاجة الى نصائح أحد • وأضاف الى ذلك أنه اذا قرر أن يعود المريض فسيفعل ذلك فى الوقت الذى يراه مناسباً ، لأن له «آراءه الخاصة» بهذا الصدد • حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً • وذلك هو السبب فى أن أليوشا لم يزره كما كان ينوى أن يفعل • وباتتظار فرصة مواتية أرسل سموروف الى كراسوتكين مرتين ، ولكن كوليا أجاب فى المرتين كليهما بخشونة وتذمر ، وأبلغ أليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة ايليوشا الى الأبد اذا ارتأى أليوشا أن يجىء اليه ؛ وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن • وكان سموروف نفسه يجهل الى آخر يوم أن كوليا قد قرر أن يجىء الى ايليوشا فى هذا الصباح • وفى عشية ذلك الأحد ، حين ودّع كوليا صاحبه سموروف ، انما أمره بأن ينتظره فى صباح الغد ليذهبا معاً الى أسرة سنيجيريف • وقد أوصاه ملحاً بأن لا ينبىء أحداً بأمر هذه الزيارة ، لأنه يريد أن يحضر على غير توقع أو انتظار • وأطاعه سموروف • كان سموروف يرجو فى سرّهِ أن يجىء كوليا بالكلب « يوتشكا » ، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه فى ذات مرة ، بحضور سموروف ، كلمات مفادها « أنهم جميعاً حمير ، لأنهم لمّا يستطيعوا بعد أن يعثروا على الكلب ، اذا كان الكلب ما يزال حياً » • ومع ذلك ، حين سمح سموروف لنفسه فى ذات يوم ، لاعتقاده بأن الفرصة مواتية ، بأن يشير اشارة غامضة الى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين ، فان كراسوتكين غضب وصرخ يقول : « أنا حمار حتى أضيّع وقتى

فى البحث فى أرجاء المدينة كلها عن كلاب الآخرين ، بينما أنا أملك كلبى «برزفونه» ؟ وهل أبلغ من الغباء من جهة أخرى حدّ الاعتقاد بأن كلباً من الكلاب يمكن أن يبقى حياً بعد أن بلع دبوساً ؟ ألا دعونا من عاطفيات العجول هذه ! » •

لقد أصبح ايليوشا منذ خمسة عشر يوماً لا يبارح سريره الموضوع فى زاوية الغرفة تحت الأيقونات • وهو لم يرجع الى المدرسة منذ اليوم الذى التقى فيه بأليوشا وعضّ له اصبعه • لقد رقد فى سريره فى ذلك المساء نفسه ، ولكن كان يتفق له أثناء الشهر الأول من مرضه أن ينهض فى بعض الأحيان ليسير بضع خطوات فى الغرفة أو الدهليز • غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك بدون مساعدة أبيه • وكان الأب يرتعد خوفاً على حياة ابنه ، حتى لقد كف عن الشراب ، وكانت خشيته من أن يشهد موت ابنه تجعله شبه مجنون • وكثيراً ما كان يتفق له ، بعد أن يروّض صغيره فى الغرفة ممسكاً به من ذراعه ، وبعد أن يساعده على الرقاد ثانية فى سريره ، أن يهرب الى ركن مظلم من الدهليز ، فيضع جبينه على الجدار ويأخذ يبكى بكاءً متشنجاً ، وهو يخنق أصوات نسيجه حتى لا يسمعها ايليوشا • فاذا عاد الى الغرفة حاول أن يستلّ عزيزه الصغير وأن يفرحه وأن يبهجه ، قاصاً عليه حكايات هزلية أو راوياً له نكتاً مضحكة أو مقلداً أمامه أوضاعاً مضحكة لأشخاص لقيهم ، أو محاكياً له أصوات حيوانات مختلفة • وكان ايليوشا مع ذلك لا يحب لأبيه أن يمثل هذا التمثيل وأن يقوم بدور المهرّج أمامه • كان يحاول أن يخفى الضيق الذى يحسه ، ولكنه كان يدرك حق الإدراك فى قرارة قلبه المحطم المسحوق ، أن أباه قد أذلّه المجتمع ، وأن ذكرى ذلك اليوم الرهيب فى الكاباريه تحاصره ولا تبارحه لحظة • وكانت نينا الكسيحة ، أخت ايليوشا ، المهيضة الوديمة ، تكره هى أيضاً أن ترى مايقوم به أبوها

من حركات مضحكة (أما فر فارا نيقولايفنا فقد سافرت الى سان بطرسبرج منذ زمن طويل لتتابع دراستها) • ولا كذلك الأم البلهاء ، فقد كانت تجدد في ذلك لذة كبيرة ، وكانت تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقوم بحركاته الهزلية • كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسرها وأن يسرّي عنها • وهى فى كل ما عدا ذلك من وقت ، لا تكف عن الشكوى والبكاء ، قائلةً ان الجميع قد نسوها ، وان أحداً لا يحترمها ، وان الاساءات والاهانات تنصب عليها ، الخ • غير أن تبديلاً لم يكن فى الحسبان قد حدث لها منذ بضعة أيام • أصبح يتفق فى كثير من الأحيان أن تنظر صامتةً الى ايليوشا فى ركنه ، فاذا هى تطرق وتغرق فى التفكير • لقد أصبحت أقرب الى الصمت ، وبدا عليها شيء من هدوء ، فاذا بكت حاولت أن لا يُسمع بكائها • وقد لاحظ الكابتن هذا التبدل فشعر بدهشة أليمة • ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضايق الأم الخرفة فى أول الأمر ، ولا تزيد على أن تثير غضبها وحقنها • ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخذت بعدئذ تسرّي عنها ، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد ، وبلغت من ذلك أخيراً أن وجودهم غدا ضرورة لا غنى لها عنها ، فاذا غابوا هوت الى حزن مرهق • كانت اذا قصّ التلاميذ حكايات أو أخذوا يلعبون ، تضحك أو تصفق بيديها ، وتناديهم اليها فى بعض الأحيان فتقبلهم • وكان الفتى سموروف يحظى بإيثارها اياه على غيره • أما الكابتن فكان مجيء التلاميذ يملؤه فرحاً طافحاً فى كل مرة ، وكان يأمل فى تلك اللحظات أن يسرّي وجودهم عن ايليوشا ، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن • كان لا يشك لحظة ، رغم جميع المخاوف التى توقظها فى نفسه حالة ابنه ، فى أن ابنه سيسترد عافيته ، وكان هذا الاقتناع هو الذى شد أزره حتى هذه الأيام الأخيرة • انه يستقبل هؤلاء الزوّار الصغار باحترام وتأثر ، وينهمك حولهم ، ويضع

نفسه في خدمتهم ، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره ، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن ايليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أيه هذا . لذلك كفوا أخيراً عن هذه الألعاب + غير أن الأب قد عوض الأولاد عن هذا ، فأصبح يشتري لهم سكاكر وفتائر وجوزاً ، ويعد لهم شايًا وحلوى بالفاكهة . يحسن أن نذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه في هذه الفترة . فقد قبل أن يأخذ المائتي روبل التي أرسلتها اليه كاترين ايفانوفنا بعد رفضه الأول ، قبلها في هذه المرة بغير عناء ، كما أن ما تنبأ به أليوشا في هذا الصدد قد ثبت صدقه ، فقد جاءت اليهم كاترين ايفانوفنا بنفسها لتتعرف اليهم ، واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء ، واستمرت منذ ذلك الحين على مساعدتهم ، ونسى الكابتن كبرياءه القديمة وارتضى أن يتلقى هذه المعونات من شدة خوفه أن يفقد ابنه . وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يعود المريض كل يومين بطلب من كاترين ايفانوفنا ، ولكن تدخله لم يسفر عن نتائج طبية كثيرة رغم الأدوية الكثيرة التي حشا بها المريض . غير أنهم ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو ، حيث ينعم بشهرة واسعة وصيت ذائع . لقد طلبته كاترين ايفانوفنا خصيصاً ، لقاء أجور باهظة . صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج ايليوشا ، وإنما هي استدعته لغرض آخر سنتحدث عنه فيما بعد ، ولكنها انتهزت فرصة وجوده في مدينتنا ، فرجته أن يعود المريض الصغير أيضاً ، وأبلغت الكابتن ذلك في الوقت المناسب . ولكن الكابتن ، في مقابل ذلك ، لم يكن يتوقع زيارة كوليا كراسوتكين ، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجيء هذا الفتى الذي تكلم عنه ايليوشا بكثير من الحنين ، وكان أمره يعذبه عذاباً شديداً .

حين فتح كراسوتكين باب الغرفة ، كان الكابتن والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير ، ويتأملون كلب الحراسة الرضيع الذي وُلد

البارحة • كان أبو ايليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع ،
 آملاً أن يسرى به عن ابنه الذي لم يستطع أن ينسى اختفاء «سكارابه» •
 وكان ايليوشا الذي يعلم منذ ثلاثة أيام أنه سيؤتى بـكلب صغير ، كلب
 أصيل ، كلب من أرقى أنواع كلاب الحراسة (وذلك أمر هام) كان
 يتظاهر ، لباقةً ، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية • ومع ذلك كان
 جميع الحضور ، الأب والأولاد على السواء ، قد أدركوا حق الإدراك أن
 هذا الكلب الجديد لم يزد على أن أذكى في قلب المريض تلك الذكرى
 الأليمة ، ذكرى الآلام التي سببها للكلب المسكين « يوتشكا » • كان
 الكلب الصغير مضطجعاً قرب ايليوشا يتحرك • وكان ايليوشا يتشم
 ابتسامه ضعيفة واهنة ، وهو يلعبه بيده الشاحبة الشفيفة الناحلة • كان
 واضحاً أن ايليوشا معجب بالحيوان الصغير ••• ولكن هذا الحيوان
 الصغير ليس « يوتشكا » ؛ ان « يوتشكا » ما يزال غائباً ! آه ••• يا ليت
 أن الجمع بين « يوتشكا » وهذا الكلب الصغير ممكن ، اذن لكان ذلك
 سعادة كبرى !•••

صاح أحد الفتية يقول وقد لمح كوليا :

- كراسوتكين !

حدث اضطراب خلال لحظة ، وتساعد الأولاد فاصطفوا على جانبي
 السرير كاشفين بذلك عن ايليوشا ، وهرع الكابتن يستقبل كوليا ،
 متمتما :

- أدخل ، تفضل ••• أيها الضيف العزيز ! يا صغيرى ايليوشا ،
 هذا السيد كراسوتكين قد جاء يعودك •

أسرع كوليا يمد يده إليه ، مبرهنأ بذلك على معرفته التامة بالآداب
 الاجتماعية • والتفت أولاً نحو زوجة الكابتن ، الجالسة على مقعد

(وكانت فى تلك اللحظة مستاءة جداً ، فهى تعبر عن غضبها من أن الأولاد قد حجّبوا عنها سرير ايليوشا فحاولوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الصغير) ، فأنحى يحييها بكثير من الاحترام ، ثم التفت نحو نينا فحيّتها كما تُحيّياً سيّدة تحيةً فيها كثير من الاحتفال أيضاً ؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر حسن جداً فى نفس البلهاء + فأنبرت تقول بصوت عال وهى تباعد ذراعها :

– يدرك المرء فوراً أنه رجل مهذب + شتان بينه وبين زوارنا الآخرين هؤلاء الذين يركب بعضهم فوق بعض !

تمتم الكابتن يقول بحنان يخالطه قلق على حالة امرأته :

– كيف هذا يا عزيزتى ؟ يركب بعضهم فوق بعض ؟ ماذا تقصدين ؟

– طبعاً ... هكذا يصلون جميعاً + فى الدهليز يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر ، ويتواقحون فيدخلون راكبين الى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا ... هؤلاء زوار محترمون ؟

– ولكن من دخل على النحو يا عزيزتى ، من ؟

– هذا واحد ركب على ذلك ، اليوم + وهذا ركب على الآخر أيضاً ...

كان كوليا أثناء ذلك قد اقترب من سرير ايليوشا + وقد شحب لون ايليوشا شحوباً شديداً ، ونهض على مرقده وحدّق الى كراسوتكين + ان كراسوتكين لم يره منذ شهرين فما هو ذا يتوقف على حين فجأة مبهوتاً من منظر رفيقة القديم الصغير : كان لا يتوقع أن يراه بوجه نحل هذا النحول كله واصفر هذا الاصفرار كله وسطعت فيه عينان محمومتان

قد اتسعتا هذا الاتساع • وخطف بصره هزال يديه أيضاً • انه يتأمله
الآن في دهشة أليمة ، بينما ايليوشا ، المتببس الشفتين ، يتنفس تنفساً
شاقاً سريعاً • تقدم كوليا خطوة نحوه ، وقال له بصوت متدلجلج وهو يمد
اليه يده :

– هيه يا عزيزى ••• كيف حالك ؟

واختنق صوته ، واضطرب اضطراباً تاماً • تقبضت قسماات وجهه ،
واختلجت أطراف شفثيه • وكان ايليوشا ، الذى ما يزال عاجزاً عن أن
ينطق بكلمة ، يبتسم له ابتسامة ضعيفة • رفع كوليا يده فجأة ، وأجراها
فى شعر ايليوشا لا يدرى لماذا ، وقال له متمماً :

– الأمر بسيط ، اطمئن •••

قال له ذلك ليشجعه ، ولكنه كان يتكلم كآلة • صمتا كلاهما لحظة •
ثم سأل كوليا بصوت كابٍ :

– أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر ؟

فأجاب ايليوشا بهمهمة طويلة لاهثة يقول :

– ن ••• ع ••• م •

قال كوليا برصانة ، كأن للملاحظة التى يقولها خطورة خاصة :

– ان بوزه أسود ، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً •

والحق أن كوليا كان عاجزاً عن السيطرة على انفعاله ، رغم جميع
الجهود التى يبذلها ، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل « طفل » •

– سيكون من الواجب ربطه بسلسلة حين يكبر • أنا أعرف هذا •

هتف أحد الفتيان يقول :

– سيكون ضخماً •

فقلت أصوات أخرى :

– حتماً ••• ما دام من أحسن أنواع كلاب الحراسة • سيكون
حجمه كحجم عجل •

وأسرع الكابتن يقول مؤيداً :

– سيكون ضخماً ضخامة عجل ، ضخامة عجل حقاً • لقد اخترت
هذا الكلب خصيصاً ••• انه من نوع سرس جداً ••• أبواه أيضاً
ضخمان سrsان ••• يصل طولهما الى هنا ••• اجلس ، تفضل اجلس
••• اجلس على سرير ايليوشا ، أو اجلس هنا على هذه الدكة •
أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذى انتظرناه زمناً طويلاً ••• هل جئت
في صحبة ألكسى فيدوروفتش ؟

جلس كوليا على السرير قرب ايليوشا • لا شك أنه قد أعدّ أثناء
الطريق كل ما كان ينوى أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية
الحديث ، ولكنه قد فقد تسلسل الكلام ••• فها هو ذا يجيب عن سؤال
الكابتن قائلاً :

– بل جئت ••• جئت ••• مع « برزفونه » ••• عندى الآن كلب
يسمى هكذا ••• هو اسم روسى تماماً • انه ينتظر هناك ••• فمتى
صفرت له أسرع يجيء •

والتفت نحو ايليوشا فجأة وقال له :

– أنا أيضاً عندى كلب •

ثم اذا هو يسأل ايليوشا بغتة :

– هل تتذكر « يوتشكا » يا عزيزي ؟

فما أن سمع ايليوشا حتى السؤال حتى تقبض وجهه تقبضاً أليماً ،
وألقى على كوليا نظرة مثقلة بالمرارة • وكان أليوشا واقفاً قرب الباب ،
فقطب حاجبيه وأوماً من بعيد ليهيب بكوليا أن لا يجيء على ذكر
« يوتشكا » ، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً •

سأل ايليوشا بصوت محطّم :

– أين هو « يوتشكا » ؟

– دعك من « يوتشكا » يا عزيزي ••• « يوتشكا » لا يساوى

شيئاً ••• يوتشكا ضاع •••

صمت ايليوشا وحدّق الى كوليا من جديد • واستطاع أليوشا أن
يجذب انتباه كراسوتكين فأوماً له بالحاج ، مهيباً به أن لا يستمر ، ولكن
كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً •

– « يوتشكا » اختفى ولم يترك أثراً • وهل كان يمكنه أن يعيش

بعد أن بلع فطيرة بالفاكهة كتلك الفطيرة ؟

كذلك تابع كوليا كلامه دون رحمة ، بصوت أصبح لا هتاً لا يدري

أحد لماذا • ثم أردف يقول :

– ولكنني اصطحبت « برزفونه » ••• هذا اسم جميل ••• لقد

جئت بهذا الكلب •

فقال ايليوشا فجأة :

– لا أريده !

– بلى بلى • أحب أن تراه ، يجب أن تراه • سوف يسليك • لقد

جئت به خصيصاً ••• ان له شعراً طويلاً كالآخر ••• هل تأذنين لي

يا سيدتي بادخال كلبى ؟

كذلك أضاف وهو يلتفت فجأة نحو السيدة سينجيريفا ، متكلماً
بانفعال لا سبيل الى فهمه •

فصاح ايليوشا يقول بصوت محطم من الألم :

- لا ، لا أريد •

وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب •

عندئذ تدخل الكابتن الذى كان جالساً على سحارة قرب الجدار ،

تدخل يقول :

- ربما كان الأفضل ••• ربما كان الأفضل أن نختار وقتاً آخر •••

ولكن كوليا أصرّ ، والتفت الى سموروف وقال يأمره :

- افتح الباب !

فما أن نفذ سموروف الأمر حتى صفر كوليا ، فاذا « برزفونه »

يهرع فيصير فى الغرفة •

صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه :

- اقفز يا « برزفونه » ، تبختر ! •••

فاذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمته الخلفيتين ، قرب سرير

ايليوشا • فحدث عندئذ شيء لم يكن فى الحسبان قط : ارتعش المريض

الصفير ، ونهض بكثير من الجهد والعناء ، ومال على « برزفونه » يتفحصه

وقد اصفر من شدة الانفعال ، ثم هتف يقول بصوت مرتعش من الألم

والفرح معاً :

- ولكن هذا « يوتشكا » !

فصرخ كراسوتكين هو أيضاً يقول بصوتٍ مجلجل سعيد :

- لماذا كنت تظن اذن ؟

وانحنى على الكلب ، فأحاطه بذراعيه ، وقرَّبَه من وجه ايليوشا ،
وهو يقول له :

- أنظر يا عزيزى ، انظر ... هانت ذا ترى : انه أعور ومصلوم
الاذن • تلك هى بعينها العلامات التى ذكرتها حين وصفت لى «يوتشكا» •
وبفضل هذه العلامات انما استطعت أن أجده • ولم أحتج من أجل ذلك
الى زمن طويل • كان كلباً لا صاحب له ، لا صاحب له ! (هكذا أضاف
يقول شارحاً وهو ينقل بصره بسرعة من ايليوشا الى الكابتن فالى زوجته
الكابتن ، فالى أليوشا ، ثم يعود الى ايليوشا) • كان هذا الكلب يعيش
فى الحوش الخلفى من منزل آل فيدوتوف ، ويظن أنه قد وجد لنفسه
هنالك مأوى يأوى اليه ، ولكنهم كانوا لا يطعمونه ، فكان يضرب
فى البرية على غير هدى ... ووجدته آخر الأمر ... أرأيت يا صاحبي؟
ان هذا الكلب لم يبلع لقمتك والامات من ذلك حتماً • لقد لفظها دون
أن يبلعها ، لذلك ما يزال حياً • أنت لم تلاحظ أنه لم يبلع الدبوس •
لقد لفظه • ولكن الدبوس قد وخز له لسانه • ولهذا السبب أخذ يعوى ،
فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة • ولا بد أنه لبث يعوى زمناً طويلاً ، لأن
للكلاب فى فمها أغشية حساسة جداً ... أشدَّ حساسية من أغشية أفواه
البشر ... أشد كثيراً ...

كذلك صاح يقول كوليا وقد احمر وجهه وأشرق حماسه •

أما ايليوشا فكان لا يستطيع أن يتكلم ، وهو يكتفى بأن ينظر الى
كوليا محملى العينين فاغر الفم أصفر اللون • لو أن كراسوتكين الذى
لم يدبر فى خلدته شيء ، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التى يمكن
أن يعانها ايليوشا فى هذه الدقيقة ، ومدى الضرر الذى يمكن أن تلحقه
هذه المفاجأة بصحة المريض ، اذن لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحى •

ولعل أليوشا كان بين جميع الحضور الشخص الوحيد الذى ربما خطر
بباله ما قد ينتج عن هذا من أثر + أما الكابتن فقد كان يتصرف تصرف
طفل صغير + فهو يهتف بصوت فرح سعيد :

- هذا « يوتشكا » ! هذا « يوتشكا » اذن ! ايليوشا ، عزيزى
ايليوشا ، انه هنا ، اليك هو ، صاحبك « يوتشكا » ! ماما ! ماما ! هذا
« يوتشكا » !

وكان الكابتن كمن يبكى +

قال سموروف بمرارة :

- ما أغبانى حين لم يخطر ببالى شيء ! ألم أقل لكم ان كراسوتكين
سيجد « يوتشكا » ؟ فما هو ذا قد وجده +

وقال صوت آخر فرح :

- وجده !

ودوى صوت طفل ثالث يقول :

- مرحى كراسوتكين !

وترجعت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم :

- مرحى ! مرحى !

قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة :

- لحظة + اصغوا الى + سأروى لكم كيف تم ذلك + الأمر كله
هنا + لقد عثرت عليه ، فقدته الى بيتى ، وخبأته فى غرفتى ، دون أن
أظهر عليه أحداً حتى هذا اليوم + سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن
عندى كلباً ، ولكننى أوهمته أن الكلب هو « برزفونه » فصَدَّق ما قلته له +
وفى أثناء هذا الوقت علمت « يوتشكا » أنواعاً من الحيل + سوف ترون

كيف أصبح « يوتشكا » عالماً • لقد روّضته من أجل أن آتيتك به مهذباً
كل التهذيب مربى كل التربية يا عزيزى ! سوف ترى كيف أصبح
صاحبك « يوتشكا » • هل عندكم قطعة لحم ؟ سوف يريكم شيئاً يميت
من فرط الضحك • قليلاً من اللحم ، أليس عندكم قليل من اللحم ؟

أسرع الكابتن الى الدهليز ، وذهب الى شقة أصحاب المنزل حيث
كان يُهيا للأسرة عشاؤها • ومن أجل أن لا يضيع وقت ثمين ، أسرع كوليا
يأمر « برزفونه » قائلاً له : « مت » • فاذا بالكلب يأخذ يدور ، ثم يستلقى
على ظهره ، ويسكن سكوناً تاماً ، رافعاً قوائمه الأربعة فى الهواء • طفق
الأولاد يضحكون • واستمر ايليوشا ينظر الى الكلب بابتسامة اليمة •
ولكن الأم خاصةً هى التى كان يبدو أنها تجرد مسرة كبيرة فى رؤية
« برزفونه » منظاهراً بالموت ، فهى تضحك ضحكاً صاحبياً ، وتنادى الكلب
صافقةً بأصابعها : « برزفونه ، برزفونه ! » •

قال كوليا باعتزاز مشروع :

– لن ينهضه شئ فى الدنيا كلها ! مهما تنادوه جميعاً ، فلن يتحرك •
ولكن يكفى أن أمره أنا حتى ينهض فوراً • تعال يا « برزفونه » !
فما ان سمع الكلب نداء كوليا حتى وثب وأخذ ينط فرحاً • وهرع
الكابتن فى تلك اللحظة حاملاً قطعة من لحم مسلوق •

أسر كوليا يسأله بوقار :

– أليس اللحم ساخناً جداً ؟

تم تناول قطعة اللحم بأصابعه ، وأضاف يقول :

– لا ، ليس ساخناً جداً ، والا أضرّت السخونة بالكلب • انظروا !

الآن جميعاً ! أنظر يا ايلوشا • هلاً نظرت ! لماذا لا تنتظر ؟ أأجيتك به ،
ثم ترفض حتى أن تهتم ؟

ان المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم في طرف بوزه المدود ،
على أن يظل الكلب ساكناً لا يتحرك • ان على الحيوان المسكين أن يظل
على هذا الوضع ، واللحم في متناول فمه ، ما ظل سيده يطلب منه ذلك ،
فليس يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة • غير أن
الكلب لم يُحمل على الانتظار الا دقيقة قصيرة • صاح كوليا يقول :
- هياً !

فاذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم « برزفونه » بسرعة البرق •
وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً •

هتف أليوشا يقول متعجباً بلهجة فيها عتب على غير ارادة منه :

- هل يُعقل أن تكون قد تأخرت عن المجيء هذا التأخر كله
لا لهدف غير ترويض الكلب ؟

- طبعاً ••• هذا هو الهدف الوحيد • أردت أن أعرضه بكل
روعته •

هكذا أجاب كوليا بسذاجة •

وقال ايلوشا ينادى الكلب وهو يصفق باصابعه النحيلة ليلفت
انتباهه اليه :

- « برزفونه ، برزفونه ! » •

قال كوليا :

- لا حاجة بك الى أن تناديه • سوف يقفز الى سريرك من تلقاء
نفسه •

ثم أمر الكلب قائلًا له ، وهو يضرب السرير بيده :

— هنا يا برزفونه !

فاذا بالكلب يشب الى قرب ايليوشا •

أحاط ايليوشا رأس الحيوان بيديه ، فلمق الحيوان وجه ايليوشا عرفانًا بالجميل • وشد ايليوشا نفسه الى الكلب ، وتمدد على سريره ، وأخفى وجهه في جزائر شعره الكثيفة •

عاد كوليا يجلس على سرير ايليوشا ، وقال له :

— ايليوشا ! أستطيع أن أريك شيئًا آخر أيضًا ••• لقد جئتك بمدفع صغير • سبق أن حدثتك عنه ، هل تتذكر ؟ لقد قلت لي عندئذ :
« لشد ما أحب أن أراه ! » • فهأنذا جئتك به اليوم •

قال ايليوشا ذلك ، وسلَّ المدفع البرونزي الصغير من كيسه بسرعة • كان كوليا يُسرع ، لأنه كان يحس هو نفسه بالسعادة • ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى ، الذي أحدثه ظهور «برزفونه» . ولكنه كان في هذه المرة يتعجل اظهارهم على اللعبة غير عابئ ، بأى رزانة ، ولسان حاله يقول : « هاتم أولاء سعداء ، فلاهين لكم مزيداً من السعادة ! » • كان كوليا يشعر بافتتان قوى •

— لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل • فتمنيت الحصول عليها ، ولكن من أجلك أنت يا عزيزي ، من أجلك أنت • كان موروزوف قد أخذها من أخيه ، وكان لا يستعملها • ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه « قريب محمد أو الجنون النافع » ، * • انه كتاب فاسق ظهر في موسكو منذ مائة عام ، أيام لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد • وموروزوف من عشاق هذه الأمور ، حتى لقد شكر لي هذه المقايضة •••

كان كوليا يمسك المدفع الصغير بيده امساکاً يتيح للجميع أن يروه وأن يعجبوا به • ونهض ايليوشا على سريره ، وأخذ يتأمل اللعبة متشياً مع استمراره على معانقة « كاريون » بيده اليمنى • وبلغ التأثير ذروته حين أعلن كوليا أن معه كذلك باروداً ، وأن في وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع ، « هذا اذا كانت السيدات لا ترى في ذلك بأساً » • فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر في اللعبة من قرب ، فلبى طلبها فوراً • أعجبتها المدفع البرونزي الصغير المركب على عجلات اعجاباً شديداً ، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها • ولم تردد في أن تأذن باطلاق النار من المدفع ، دون أن تفهم الموضوع جيداً في الواقع • وأخرج كوليا البارود والخردق فأظهر عليهما الحضور • وتولى الكابتن ، بصفته عسكرياً قديماً ، تولى حشو المدفع ، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح • أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة • وضع المدفع على أرض الغرفة ، ووُجّهت فوهته نحو فضاء خالٍ ، وأشعل البارود يعود ثقاب • فانطلقت النار كأحسن ما يكون الانطلاق • ارتعشت « ماما » في اللحظة الأولى ، ثم أخذت تضحك مسرورة مبتهجة • وكان الصبيان ينظرون الى اللعبة باعجاب صامت • غير أن الكابتن كان أسعدهم طراً ، وكان لا يحول بصره عن ايليوشا • وتناول كوليا المدفع ، فأهداه فوراً الى المريض الصغير ، كما أهدى اليه البارود والخردق ، قائلاً له وهو في قمة الغبطة والسعادة :

– هذا لك ، هذا لك ، أعدته منذ مدة طويلة لأهديه اليك •

فانبرت البلهاء تقول ضارعة بصوت كصوت طفل :

– بل أعطنيه أنا •

كان وجهها يعبر عن المرارة ، وعن الخوف من أن يُرفض طلبها • فاضطرب كوليا ؛ واهتز الكابتن ، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها :

– عزيزتى ، عزيزتى ، هذا المدفع لك ، لك أنت • فليحتفظ به
ايليوشا الى حين ، ما دام قد أهدى اليه ، ولكنه لك أنت طبعاً • سيسمح
لك ايليوشا بأن تلعبى به كلما أردت ذلك • هو لكما كليكما ، لكما
كليكما ***

فقلت الأم وهى توشك أن تبكى :

– لا ، لا أريد أن يكون لنا كلينا • أريد أن يكون لى وحدى ،
ولا أريد أن يكون منه شىء لايليوشا •

صاح ايليوشا يقول فجأة :

– ماما ، خذيه ، اننى أهديه اليك •

وكأنما خشى أن يسيء الى كوليا اذا هو تنازل عن هديته لشخص
آخر ، فسأله ضارعاً :

– هل أستطيع أن أهديه الى ماما ياكراسوتكين ؟

فأسرع كوليا يقول موافقاً :

– لم لا ؟

وتناول المدفع من بين يدى ايليوشا ، فمدّه بنفسه الى الأم وهو
يحييها أرق تحية • (لقد بكت الأم من شدة التأثر) •

صاحت الأم تقول بانفعال :

– ايليوشا ، بنى الصغير ، أنت تحبىنى حقاً ، أنت على الأقل •

ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها •

قال زوجها وقد أدرك رغبته فوراً :

– عزيزتى ، هلاّ أذنت لى أن أقبل يدك ؟

- استأنفت الأم كلامها شاكرة وهي تومئ الى كراسوتكين •
- هذا ألطف جميع هؤلاء الصبيان •
- وقال كوليا :

- أما البارود يا ايلوشا ، فسأجيئك منه بالقدر التي تشاء • اننا نصنعه بأنفسنا • لقد تعلم بوروفيكوف الطريقة : أربعة وعشرون جزءاً من النطرون ، وعشرة أجزاء من الكبريت ، وستة من فحم الحطب • يطحن هذا كله معاً ، ثم يصب عليه ماء ليُجعل عجينةً تُمرَّب بعد ذلك من خلال جلد حمار • هكذا يتم الحصول على البارود •

قال ايلوشا :

- حدثني سموروف عن بارودك ، ولكن بابا يقول ان هذا ليس هو البارود الحقيقي •

فقال كوليا محتجاً وقد احمر وجهه :

- ليس هو البارود الحقيقي ؟ كيف ذلك؟ على كل حال ، لا أدري ••
- أسرع الكابتن يصحح مُخرجاً :

- لا •• أنا لم أفل شيئاً • ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقي يُصنع بطريقة أخرى ، ولكن ليس لهذا أية قيمة ••• ان من الممكن أن يُحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً •

- أنت أعلم منا على كل حال • لقد أشعلنا بارودنا في وعاء مرهم ، فاحترق احتراقاً كاملاً ولم يخلّف الا قليلاً من السناج • وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها الا امرارها من خلال جلد •• ومهما يكن من أمر ، فأنت أدري بهذه الأمور مني ••• بالمناسبة : لقد جُلد بولكين بسبب بارودنا ، جلده أبوه ، هل بلغك هذا ؟

هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو ايليوشا على حين فجأة • فأجابه ايليوشا •

– بلغنى •

وكان ايليوشا يصغى الى كوليا باهتمام شديد ولذة قوية •

– كنا قد حضرنا زجاجة من بارود ، فخبأها بولكين تحت سريره • واكتشفها أبوه فقال : « قد تحدث انفجاراً » وجلد ابنه على الفور • حتى لقد كان فى نيته أن يشكونى الى ادارة المدرسة • وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يرانى • أصبحوا لا يسمحون لأحد بمعاشرتى • حتى سموروف مُنع من ذلك • لقد ترسخت سمعتى ، فهم يقولون اننى «متهور» (قال كوليا ذلك وهو يتسم ابتسامة ازدراء) • يرجع هذا الى زمان قصة السكة الحديدية تلك •••

صاح الكابتن يقول :

– لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديدية هذه • كيف استطعت أن تصمد هذا الصمود بين القضيين ؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد خفت حين مر القطار من فوقك ؟ لا شك أن ذلك كان رهيباً !•

كان الكابتن يتفنن فى تملق كوليا •

أجاب كوليا بلهجة فيها اهمال :

– خفت ؟ لا ••• لم أخف كثيراً ••• ولكن تلك الأوزة اللعينة هى التى جاءتنى بسمعة التهور هذه •

أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو ايليوشا من جديد •

كان كوليا يحاول أن يصطنع فى كلامه هيئة عدم المبالاة ، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود فى هذا السبيل ، لم يتمكن من العودة الى السيطرة على نفسه ، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة •

قال ايلوشا مشرق الأسارير :

– سمعت أيضاً بقصة الأوزة هذه ! حكوها لي • ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً • هل صحيح أنهم قادوك الى القاضى ؟

قال كوليا يشرح منطلقاً :

– تلك مهزلة سخيفة تافهة أثرت حولها ضجة كبيرة فى هذه المدينة على عادة الناس هنا • كنت اجتاز ميدان « السوق » حين كان يوثى اليه بأوز • فوقفت أنظر الى الأوز • فاذا بفتى من هنا • فتى اسمه فشيناكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً فى متجر آل بلوتنيكوف • اذا هو يأخذ يتفرس فىّ ويسألنى : « مالك تنظر الى الأوز هكذا ؟ » • رفعت بصرى نحوه • انه شاب فى نحو العشرين من عمره • له وجه مدور غبى • اننى لا أحقر الشعب أبداً • اعلموا هذا • اننى أحب البسطاء من الناس ••• نحن متخلفون كثيراً عن الشعب • تلك بديهية أو من بها ••• يُخيّل الى أنك تضحك يا كارامازوف • أليس كذلك ؟

– بتاتاً ! بالعكس : أنا أصغى اليك بكثير من الانتباه •

هكذا أجابه أليوشا بلهجة طيبة ساذجة • فسرعان ما استرد كوليا الأذى شجاعته • وراح يكمل كلامه بفرح فقال :

– نظريتى الخاصة بسيطة واضحة ياكارامازوف • اننى أو من بالشعب • واننى لأشعر بسعادة كلما استطعت أن أنصفه • ولكن بدون أن أتملقه طبعاً • هذا شرط لا بد منه • ما ••• نعم ••• كنت أتكلم عن تلك الأوزة • التفت نحو ذلك الأبله فأجبتة : « اننى أتساءل عما لعل الأوزة تفكر فيه الآن » فحملق بغباء • ثم استأنف يسألنى : « وما الذى تفكر فيه هذه الأوزة • فى رأيك ؟ » قلت : « هل ترى تلك العربة المحملة شوفاناً ؟ ان الشوفان يتساقط من الكيس • وقد مدت الأوزة رقبتها لتتقر

الشوفان ، واقفةً تحت العجلة تماماً ، هل لاحظت ذلك ؟ » ، قال : « طبعاً لاحظته ! » قلت : « فاذا دفعنا العربية الآن قليلاً ، قطعت العجلة رقبة الأوزة ، أصبح أم لا ؟ » • قال : « طبعاً ستقطع العجلة رقبة الأوزة ! » قال ذلك فاتحاً فاه من السرور ، فالى هذا الحد أفرحته تلك الفكرة • قلت : « فهياً بنا اذن أيها الشجاع ! » فردّد يقول : « هياً بنا ! » . ولم يطل الأمر • وقف هو قرب اللجام دون أن يراه أحد ، ورابطت أنا الى جانب لأوجه الأوزة • أما صاحب العربية فلم ينتبه الينا ، لانه كان يتحدث مع أحد الناس • ولم أحتج الى التدخل من أجل أن أوجه الاوزة ، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان ، وأومات الى الفتى ، فشد اللجام ، فما هى الا لحظة حتى كانت رقبة الأوزة قد قطعت • وشاءت المصادفة أن يرانا فى تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين فى الميدان ، فأخذوا يعولون بصوت واحد قائلين له : « فعلت هذا عمداً » فقال لهم : « لا ، لم أفعله عمداً » فقالوا : « بل فعلته عمداً » ؛ وازداد صراخهم ، وقالوا : « قودوه الى قاضى الصلح ! » • واقتادونى أنا أيضاً قائلين : « كنت أنت حاضراً ، فأنت الذى حرضته ، ان جميع الناس يعرفونك فى السوق » • والواقع أننى معروف جداً فى السوق ، لا أدرى لماذا (كذلك أضاف كوليا قائلاً باعتزاز) • وذهبنا الى قاضى الصلح • وجىء بالأوزة أيضاً • خاف صاحبى الفتى وأخذ ينتحب • حقاً ، كان يبكى كامرأة • أما صاحب العربية فكان يصرخ قائلاً : « على هذا يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من أوز • » • وكان ثمة شهود كثيرون • وفصل قاضى الصلح فى القضية بسرعة : حكم بتعويض قدره روبل لصاحب الأوزة ، وقضى بأن يحتفظ الشاب بالأوزة ، وختم قاضى الصلح كلامه قائلاً : فلا مزاح من هذا النوع فى المستقبل ! • ولكن الشاب كان لا يزيد على أن يبكى ويتشكى قائلاً وهو يشير الى :

« لست أنا ... هو الذى علّمني » ، فأجبت ، دون أن أفقد هدوء أعصابى ، بأنى لم أعلمه شيئاً البتة ، وانما عبّرت عن فكرة هذه المزاحة فى صورة عامة ، كمشروع لا أكثر . فابتسم قاضى الصلح نيفيدوف ، ثم أسرع يندم على أنه تبسم ، وقال لى : « سأرسل تقريراً عنك الى ادارة المدرسة فى الحال ، حتى لا تندفع بعد الآن فى مشاريع من هذا النوع بدلاً من الاكباب على التحصيل واعداد دروسك » . والواقع أنه لم يش بى الى ادارة المدرسة ، وانما كان ذلك منه تهديداً . غير أن القضية ذاعت فى المدينة حتى وصلت الى آذان السلطات المدرسية . انكم تعلمون أن للمسئولين فى المدرسة آذاناً طويلة ! استاء الاستاذ كولباسنيكوف استياءً شديداً ، ولكن داردانيلوف دافع عنى من جديد . وما يزال كولباسنيكوف غاضباً أشد الغضب حانقاً علينا جميعاً حتى كلب مسعور . ولا شك أنك تعلم يا ايليوشا أنه قد تزوج منذ مدة قصيرة . أخذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً ، عدا خطيبته التى هى آية من آيات الدمامة . وقد نظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة فى هذه المناسبة ، قالوا :

بلوعة وأسف شديد

علم تلاميذ الصف الثالث

أن الاستاذ كولباسنيكوف

أخطاه التوفيق فتزوج

وهلم جرا ... هى قصيدة فكهة ، سأتيك بها فى مرة أخرى .
أما داردانيلوف فلن أقول فيه سوءاً : انه رجل واسع المعرفة ، واسع المعرفة حقاً . اننى أحترم أمثاله من الناس ، ولكن ليس لأنه دافع عنى .
هنا انبرى سموروف الذى كان يشعر عندئذ باعتزاز بكراسوتكين ،
فقال :

— ومع ذلك غلبته أنت فى السؤال عن انشاء مدينة طروادة .

كانت حكاية الأوزة قد فتنت سموروف *

وعاد الكابتن يقول بلهجة المديح والتملق :

ـ غلبته حقاً ؟ كان ذلك فى موضوع انشاء مدينة طروادة ، أليس كذلك ؟ لقد قيل لنا فعلاً انك كنت أقوى منه فى هذه النقطة * حدثنى ايليوشا عن هذا فى ذلك اليوم نفسه **

قال ايليوشا :

ـ انه يعرف كل شى يا بابا ، انه يعرف أكثر منا جميعاً ! هو يتواضع ، ولكنه أول التلاميذ فى جميع العلوم ***

كان ايليوشا ينظر الى كوليا بسعادة لا نهاية لها *
أجاب كوليا باعتزاز متواضع :

ـ أما حكاية طروادة هذه فهى فى الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها *

لقد توصل كوليا أخيراً الى ايجاد اللهجة المناسبة ، ومع ذلك كان ما يزال قلقاً جداً : كان يحس انه مهتاج قليلاً ، وأنه قد روى حادث الاوزة بحرارة مفرطة * لقد كان أليوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة ، لم يخرج عن رزائته لحظة واحدة * فيها هو ذا كوليا الحساس الأذى يتعذب الآن اذ يتساءل : « أترأه قد صمت احتقاراً لى ، لاعتقاده بأننى استجدى المديح والثناء ؟ ان كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك ، فسوف أعرف كيف *** » * وها هو ذا يقول جازماً بمزيد من الثقة أيضاً :

ـ فى رأى أن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية *

ـ أنا أعرف من أنشأ طروادة ، أنا أعرف من بنى طروادة !

كذلك قال فجأة ، على غير توقع ، فتى لم يكن قد فتح فاه بكلمة حتى ذلك الحين * انه تلميذ صموت خجول ، جميل الوجه جداً ، فى نحو

الحادية عشرة من عمره • ان اسمه كارتاشوف ، وكان جالساً قرب الباب •
 'دهش كوليا دهشة شديدة ، وتفرس في الطفل مصطنعاً هيئة الوقار •
 الواقع أن ذلك السؤال ، وهو : « من أنشأ مدينة طروادة ؟ » ، كان قد
 أصبح سراً يُناقش في جميع صفوف المدرسة ، وكان لا بد لمعرفة ذلك
 السر من الرجوع الى كتاب سماراجدوف • وكان كوليا هو التلميذ
 الوحيد الذي يملك ذلك الكتاب • ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز
 في ذات يوم لحظة غفلة من كوليا ، فأسرع يفتح كتاب سماراجدوف الذي
 كان ملقى بين كتب كوليا المدرسية ، فوقع عرضاً على الصفحة التي يتكلم
 فيها الكتاب عن انشاء مدينة طروادة • وحدث ذلك منذ مدة طويلة ،
 ولكن الفتى كان شديد الخجل ، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على
 مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناء طروادة • كان يخشى أن
 يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج ، وأن يربكه كوليا بتفوقه عليه
 في العلم • غير أنه لم يستطع في هذه المرة أن يكبح جماح نفسه ، فانطلق
 يتكلم ، مرضياً بذلك حاجة في نفسه ما فتئت تعذبه منذ أسابيع •

قال كوليا متعاليًا وهو يلتفت نحو الفتى الوقح :

— قل لنا اذن من أنشأ مدينة طروادة !

لقد أدرك كوليا ، من تعبير وجه الفتى ، أن الفتى يعرف السر ،
 فسرعان ما تهيأ لمواجهة جميع النتائج • وحدث شيء من الكدر في مزاج
 الحضور •

قال الفتى بسرعة :

— بنى مدينة طروادة : توسر ، وداردانوس ، وايلوس ، وتروس •

واحمر وجهه فوراً ؛ وبلغ من الاحمرار أن منظره أصبح يثير الألم
 في النفس • حدّق الى الفتيان الآخرون ، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة ،

ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليا بحركة واحدة • ظل كوليا يرمق المنافس الجريء باحتقار دون أن يفقد هدوءه ، ثم تنازل فقال له :

– قل لنا اذن كيف بنوها ؟ قل لنا ماذا يعنى على وجه العموم بناء مدينة أو دولة ؟ هل وضع كل منهم آجرةً مثلاً ؟

ضح الجميع يضحكون • واصطبغ لون الصبى المذنب بلون كلون القرمز فى هذه المرة • وصمت ، وأوشك أن يبكى • وتركه كوليا جالساً على كرسي الاتهام دقيقة أخرى • ثم أنشأ يقول له بقسوة ، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درساً :

– ما ينبغى للمرء أن يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية من هذا النوع ، الا اذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال • على أننى من جهتى لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه •

وأضاف يقول باهمال ، مخاطباً جميع الحضور :

– ثم اننى لا أقدر التاريخ العام كثيراً •

سأله الكابتن بنوع من الذعر :

– لا تقدر التاريخ العام ؟

– نعم ، لا أقدر التاريخ العام • انه دراسة الحماقات البشرية ،

لا أكثر •

وأضاف يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلصةً الى أليوشا ، لأن أليوشا هو بين سائر الحضور الشخص الوحيد الذى يتهيب كوليا رأيه :

– أنا لا احترم الا الرياضيات والعلوم الطبيعية •

ولكن اليوشا ظل صامتاً محافظاً على جده ووزائته • فلو أبدى رأياً فى تلك اللحظة اذن لاختتمت المناقشة • غير أنه لم يفتح فمه ، ومن الجائز

« أن يكون صمته احتقاراً » ، لذلك اغتاظ كوليا اغتياظاً شديداً ،
وأردف يقول :

– وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة * جنون محض ... الألاحظ
يا كارامازوف أنك تخالفنى فى الرأى من جديد ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا بهدوء وهو يبتسم ابتسامة متحفظة :

– حقاً ، لست أوافقك على رأيك •

قال كوليا وقد عاد يلهث شيئاً فشيئاً :

– اذا شئت أن تعرف رأيى ، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو
فى نظرى اجراء بوليسى للقمع والاضطهاد • تلك هى الغاية الوحيدة التى
استهدفت من تعليم اللغات القديمة • انهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة
مضجرة تخبّل العقل • كانت الحياة حزينة غبية ، فأرادوا لها مزيداً من
الجهامة والبلادة والغباء • كان السخف يحكم العالم ، فأروا أن يفاقموا
ذلك اذا أمكن • هذا هو السبب فى أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على
المنهج المدرسية • ذلك رأيى أنا على كل حال ، وانى لأمل أن لا أغيره
وأن لا أحميد عنه فى يوم من الأيام •

بهذا ختم كوليا كلامه جازماً قاطعاً •

قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤيد ، وكان قد أصغى الى

كلام رفيقه بانتباه :

– هذه هى الحقيقة •

فصاح أحد الصبيان يقول على حين فجأة :

– هو مع ذلك أول التلاميذ في اللغة اللاتينية !

فقال ايلوشا مؤيداً :

– نعم يا بابا ، انه يقول هذا الكلام مع أنه أحسن تلاميذ الصف
في اللغة اللاتينية •

اعتقد كوليا أن عليه أن يسوّغ ذلك ، رغم أنه 'سرّ' كثيراً بهذا
المدح ، فقال :

– لا يبرهن هذا على شيء ! اننى أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك ،
ولأننى وعدت أمى بأن أتم دراستى • وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل
ما يشرع فيه • ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أحتقر ، فى قرارة نفسى ،
كل الكلاسيكيين ، وكل هذه الدناءة ••••• أغير موافق أيضاً ياكارامازوف ؟

قال أليوشا وهو يتنسم من جديد :

– ولكن أين الدناءة التى تتحدث عنها ؟

– أين ؟ ألا تفهم ؟ لقد ترجمت مؤلفات الكلاسيكيين الى جميع
اللغات • فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية اذن هو أن نستطيع قراءة
تلك المؤلفات ، وانما هنالك أسباب بوليسية ، والهدف هو تخيل عقولنا •
أفليس هذا دناءة ؟

فصاح أليوشا يسأله مدهوشاً :

– ولكن من ذا الذى دسّ هذه الأفكار فى رأسك ؟

– أولاً ، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسى دون أن يدسها
أحد فى رأسى ؟ ثانياً ، اعلم أن الأستاذ كولباسنيكوف هو الذى شرح
بصوت عالٍ أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن •

- وصل الطيب !

كذلك صاحت تقول نينا على حين فجأة ، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة •

ان مركبة خاصة تملكها السيدة هوخلا كوفاف قد وقفت فعلاً أمام المنزل • هبّ الكابتن الى لقاء الطيب طائش اللب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح • وأصلحت ماما زيتتها واصطنعت وضع الوقار • واقترب أليوشا من سرير ايليوشا وأخذ يرتب وسادة المريض ، فكانت نينا تنظر اليه من قرارة مقعدها قلقة • أما الفتيان فقد أسرعوا يودعون ، ووعد بعضهم بأن يرجع في المساء • ونادى كوليا « برزفونه » ، فسرعان ما وثب الكلب فصار في أسفل السرير • وقال كوليا لايليوشا مسرعاً :

- على أننى لن أنصرف • سأنتظر في الدهليز ثم أعود متى ذهب الطيب • سأعود مع « برزفونه » •

وكان الدكتور قد دخل الغرفة • انه شخص مهيب المظهر ، يرتدى معطفاً من فراء ، وعلى عارضيه لحيتان قائمتان ، وذقنه مخلوقة بكثير من العناية • فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف على حين فجأة متردداً : لقد أحسّ أنه أخطأ المنزل •

- ما هذا ؟ أين أنا ؟

كذلك دمدم يقول دون يخلع معطفه ، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء ، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً • ان هؤلاء الناس ، وهذا المسكن الفقير ، وهذا الغسيل المنشور على حبل في ركن الغرفة ، ان ذلك كله قد حير •

انحنى الكابتن أمامه انحناء كبيرة ، وتمتم يقول مفرطاً في الترحيب والمراعاة والاكرام :

– أنت هنا يا سيدي ، هنا ، عندي ، أنت آتٍ إلىّ ***

قال الطيب بصوت عالٍ أجش :
 :

– هل أنت سنيو *** يجير *** يف ؟ اذن أنت السيد سنيجيرييف ؟

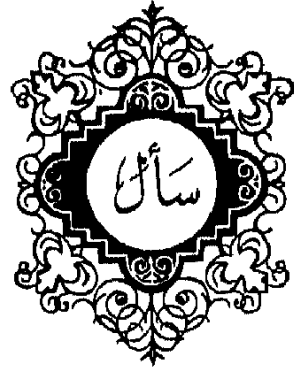
– نعم ، أنا ***

– آ ! ***

– ألقى الطيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى ، وخلع معطفه •
 فظهر في عنقه وسام عظيم ساطع سرعان ما خطف جميع الأبصار • تناول
 الكابتن المعطف طيراناً ، وتنازل الطيب فخلع قبعته • وقال يسأل بصوت
 مجلجل فيه شيء من تدمر :

– أين هو المريض ؟

٦ نضج بكرة



كوليا متعجلاً :

- ما الذى سيقوله الطيب فى رأيك ؟ يا له من
وجه كريه ! ألا ترى ذلك ؟ اننى أكره الطب .
فأجابه أليوشا بحزن :

- ايلوشا هالك . أظن أن لا شك فى هذا ، وأن نهايته قريبة .

- يا للسفلة ! الطب سفالة ! على أننى سعيد بأن قد أتيتحت لى فرصة

معرفتك يا كارامازوف . لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل . ولكن يؤسفنى
أن لقاءنا قد تم فى ظروف أليمة كهذه .

ودّ كوليا لو يقول شيئاً فيه مزيد من الحرارة والعاطفة والانفعال ،
ولكنه شعر بشيء من الحرج . وقد لاحظ أليوشا ذلك فشد على يده
مبتسماً .

نتم ايلوشا من جديد يقول مضطرباً مرتبكاً :

- لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك انساناً ذا مزايا أخلاقية
نادرة . قيل لى انك صوفى وانك عشت فى الدير . واننى لأسلم بأن تكون
صوفياً ، ولكن ... هذا لا يصدمنى ولم يمنعنى من أن أشعر نحوك

بعاطفة ومودة • ان الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك ••• ذلك ما يحدث دائماً فى الطبائع التى تشبه طبيعتك •

سأله أليوشا بشيء من الدهشة :

– ماذا تعنى بقولك « صوفى » ؟ ومن أى شيء تريد لى أن أشفى ؟

– من أفكارك عن الله ، وهلم جرا •••

– كيف ؟ أنت لا تؤمن بالله أنت ؟

– الحق أنى لا اعتراض لى على الله • اطمئن • صحيح أن فكرة

الله ليست الا افتراضاً ••• ولكننى أعترف بأن الله ضرورى ، بل ولا غنى

عنه للمحافظة على النظام ••• والحياة الاجتماعية ، وهلم جرا •••

ثم أضاف كوليا يقول وقد احمر وجهه فجأة :

– اذا كان الله غير موجود ، فيجب أن نختصره •

ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن أليوشا ربما ظن أنه يجب أن يظهره

على معلوماته ، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش « كشخص

كبير » • فقال كوليا لنفسه متضايقاً : « أنا لا أحب أبداً أن أعرض

معلوماتى أمامه » • وشعر فجأة بحسرة شديدة • وقال يحسم الأمر :

– أعترف لك بأننى أكره المناقشات فى هذا الموضوع • ألا يمكن أن

يجب المرء الانسانية دون أن يؤمن بالله ؟ ما رأيك ؟ لقد كان فولتير مثلاً ،

لا يؤمن بالله ، ومع ذلك كان يحب الانسانية •

وقال لنفسه باستياء : « أيضاً ، أيضاً ! » •

قال اليوشا فى رفق ، بصوت هادىء طبيعى ، كما لو كان يحدث

رفيقاً من سنه ، أو شخصاً أكبر منه سناً :

- لقد كان فولتير يؤمن بالله ، ولكن يبدو أن ايمانه كان ضعيفاً ،
وكان كذلك لا يحب الانسانية كثيراً •

دُهِش كوليا كثيراً من تردد أليوشا هذا النوع من التردد في
الافصاح عن رأيه في فولتير ، ومن هذه الطريقة في مخاطبته متكللاً على
رأيه هو الصغير كوليا •

سأله أليوشا •

- بالمناسبة ، هل قرأت فولتير ؟

- لا ، لم أقرأه بالذات ••• بلى ••• بلى ••• قرأت « كانديد »
في ترجمة روسية ، ترجمة قديمة ، كريهة ، فظيعة (« أيضاً !
أيضاً ! ») •

- وهل فهمته ؟

- طبعاً ••• فهمت كل شيء ••• أقصد ••• لماذا تقدر أنني قد
لا أكون فهمته ؟ هناك فقرات صعبة طبعاً ••• أنا قادر على أن أفهم أن
هذه رواية فلسفية ترمى الى البرهان على فكرة •

كذلك أسرع يضيف كوليا مرتبكاً ارتباكاً تاماً • ثم قال فجأة ،
لا يدري المرء لماذا :

- أنا اشتراكي يا كارامازوف ، أنا اشتراكي عنيد •

ضحك أليوشا وسأله مدهوشاً :

- اشتراكي ؟ متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً ؟ أظن أنك لم
تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك ، أليس كذلك ؟

شعر كوليا بامتعاض شديد ، وقال يحتاج بقوة :

– أولاً : ليس عمري ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة * ثانياً :
لست أفهم ما شأن عمري هنا * الأمر الآن أمر آرائي لا عدد سنني
عمري ، أليس كذلك ؟

– حين تتقدم في السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر في
آرائنا * ثم انني أحس أنك تردد آراء سمعتها ****

هكذا قال أليوشا بلهجة معتدلة متواضعة ، ولكن كوليا لم يدع له
أن يتم كلامه ، لأنه صاح يقول متحمساً :

– من فضلك ! انك من انصار الخضوع والصوفية ! * ألا فاعترف
أن الديانة المسيحية لم تنفع الا الأغنياء والأقوياء ، اذ سمحت لهم بابقاء
الطبقات الاجتماعية على حالة العبودية * هل تستطيع أن تنكر هذا ؟

هتف أليوشا يقول :

– لحظة ! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة * لا شك أنهم قد
أدخلوك في هذه العقيدة *

– دعك من هذا الكلام ! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا
الكلام في موضع ما ؟ ثم ان أحداً لم يدخلني في عقيدة من العقائد * أنا
قادر على أن أفكر بنفسى *** واعلم من جهة أخرى أنني لا آخذ على
المسيح شيئاً * ان المسيح انسان له آراء واسعة كريمة ، ولو عاش في
عصرنا لانضم الى الحركة الثورية ، ولربما قام فيها بدور مرموق ***
بل هذا مؤكد *

صاح أليوشا يسأله :

– من أين جئت بهذه الفكرة ناشدتك الله ؟ من هو ذلك الغبي
الذي ارتبطت به ؟

– الحقيقة لا تخفى • أعترف لك بأننى كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين فى قضية من القضايا ، ولكن يقال أن بيلنسكى العجوز كان يؤمن بهذه الأفكار نفسها •

– بيلنسكى ؟ لا أتذكر ذلك • وهو على كل حال لم ينشرها •
– اذا لم يكن قد نشرها ، فقد عبّر عنها فى أحاديثه ، على ما يقال • سمعت ذلك من ... ولكن ما قيمة أن أذكر اسم الشخص الذى سمعت منه هذا الكلام !

– هل قرأت بيلنسكى ؟
– الحق ... لا ... لم أقرأه كله ... ولكنى قرأت كلامه عن تاتيانا * وكيف رفضت أن تسافر مع أونيجين •
– لماذا رفضت أن تسافر ؟ أنت تفهم منذ الآن هذه الأشياء ؟

قال كوليا محتجاً وهو يتسهم ابتسامة غاضبة :
– أرجوك ... كأنك تظن أننى صبي صغير من نوع سموروف • لا يذهبن بك الفلن ، على كل حال ، الى اننى تورى متطرف • اننى كثيراً ما أختلف فى رأى مع راكيتين • واذا ذكرت 'تاتيانا' فلا تحسب أننى من أنصار تحرر المرأة • اننى أعترف بأن المرأة مرعوسة وأن وظيفتها الخضوع •

وأضاف كوليا يقول مبتسماً بلا سبب ظاهر :

– « النساء تحيك » ، كما قال نابوليون • ففى هذه النقطة على الأقل ، أشاطر ذلك الرجل الزائف العظمة رأيه كاملاً • واننى لأرى كذلك ، من جهتى ، أن الهجرة الى أمريكا هروباً من الوطن خسة ودناءة وصغار ، بل هى أكثر من ذلك أيضاً : هى حماقة وغباوة وبلاهة ! علام

نذهب الى أمريكا في حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها في بلادنا
لنخدم الإنسانية في عصرنا هذا خاصة ؟ ليس يعوزنا العمل • هنالك عمل
خصب يجب القيام به • ذلك ما أجبت به •

– ذلك ما أجبت به ؟ أجبت به مَنْ ؟ هل عرض عليك أحد أن
تسافر الى أمريكا ؟

– أعترف بأنهم حاولوا جرى الى ذلك ، ولكنني رفضت • يجب
أن يبقى هذا سرّاً بيننا بطبيعة الحال • لا تقل عنه كلمة لأحد • مفهوم
يا كارامازوف ؟ انى لا أفضى بهذا السر الى أحد غيرك • لست أريد أن
أقع بين أقدام أفراد « الشعبة الثالثة » * ، وأن أتلقى دروساً في « جسر
الجنائزير » :

ستذكر المبنى الكبير

بقرب جسر الجنائزير

هل تتذكر هذا البيت من الشعر ؟ انه رائع • لماذا تضحك ؟ أتراك
تظن أنني كذبت عليك تباهاً وافتخاراً ؟ (قال كوليّا ذلك ، وهو يسائل
نفسه بسرعة ولكن بقلق : « ماذا لو علم أنني لم أقرأ الا هذا العدد من
مجلة « الناغوس » ، الذى وجدته فى مكتبة أبى ، وأنى لا أعرف شيئاً
آخر غيره فى ميدان الأدب الثورى ؟ ») •

قال أليوشا :

– لا ، لا ، لست أضحك ، ولم يخطر ببالي قط أنك كذبت علىّ •
المصيبة هى أنك لا تكذب • قل لى الآن : هل قرأت بوشكين ؟ هل قرأت
قصة « أوجين أونيجين » ، أنت الذى تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة ؟

– لا ، لم أقرأه بعد ، ولكننى أنوى أن أفعل • واعلم يا كارامازوف

أنتى لا أحمل أفكاراً سابقة وآراء ميّنة ، وأنتى أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً • لماذا ذلك السؤال ؟

– لا لشيء !

هتف كوليا يقول فجأة بصوت قاطع :

– قل لى يا كارامازوف : لا بد أنك تحتقرنى احتقاراً رهيباً !

واتنصب واقفاً أمام أليوشا كأنه يتخذ الوضع العسكرى وتابع كلامه يقول :

– هيا اعترف بذلك دون لف ولا دوران !

سأله أليوشا وهو ينظر اليه بدهشة :

– أحتقرك ؟ لماذا عساي احتقرك ؟ كل ما هنالك أنه يحزننى أن تفسد بمثل هذه السخافات طبيعةً جميلة كطبيعتك فى فجر حياتها • قاطعه كوليا يقول وهو يشعر مع ذلك بشيء من الارتياح لهذا التناء على طبيعته :

– دعك من طبيعتى الآن • الواقع أنتى سريع التأذى ، أنا أعرف هذا • أنتى سريع التأذى بغباوة ، ببلاهة • لقد ابتسمت أنت منذ لحظة ، فتخيلت أنا أن •••

– ابتسمت لأسباب أخرى • سأشرح لك الأمر • لقد قرأت فى الآونة الأخيرة انطباعات رجل أجنبى ، ألمانى ، عاش فى روسيا وعبر عن رأيه فى شبيبة مدارسنا على النحو التالى : « لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم ، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل ، لأعاديها اليك منذ الغد مصححةً » : نقص كبير فى المعرفة وغرور شديد لا حدّ له ، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا فى رأى هذا الألمانى •

هتف كوليا يقول وهو يضحك مقهقهاً :

– ولكن هذا صحيح كل الصحة ! هاهاها ! هذه هي الحقيقة صافية
لقد أدرك عين الصواب • مرحى للألماني ! ولكن هذا الرأس المربع لم
يستطع مع ذلك أن يرى مزاياها • اننى أسلمت بأن فينا غروراً ؟ ولكن
هذه آفة من آفات سنّ الشباب يصلحها الزمن بمقدار ما يجب أن
يصلحها • ونحن نملك فى مقابل ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريباً،
هى ميزة استقلال الفكر • نحن نملك جرأة التصور والاقتناع ، على حين
أنهم ، هم ، لا يعرفون تجاه أى سلطة الا عبودية كعبودية البقالين •••
ورغم كل شيء ، فان ذلك الألماني قد رأى صواباً • مرحى للألماني ! على
أننى أظن أن من الواجب أن يُردّ الألمان الى الرشد • انهم فى حاجة الى
أن يلقنوا درساً ، مهما يكونوا أقوياء فى العلوم •

سأل أليوشا مبتسماً :

– لماذا تريد لهم أن يُردّوا الى الرشد ؟

– لعلى قلت هراءً ، اعترف لك بذلك • انه ليتفق لى فى بعض
الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فطيع ، وحين ابتهج أفقد سيطرتى على
نفسى ، فأقول أنواعاً من السخافات • ولكننى ألاحظ أننا نثرثر هنا فى
فى سفاسف بينما يبدو أن الطيب تأخر هناك • على أنه ربما انتهز
الفرصة ليفحص الأم فى الوقت نفسه ، وكذلك نينا الكسيحة • لقد
أعجبتنى نينا هذه كثيراً ، هل تعلم ؟ حين خرجت دمدمتُ تقول لى بصوت
خافت جداً : « لماذا لم تجيء قبل الآن ؟ » • قالت ذلك بلهجة تزخر
عتباً • يخيل الى أنها طيبة جداً ، وأنها كذلك شقية جداً •

قال أليوشا بكثير من الحرارة :

– نعم نعم ، سوف ترى حين تعود اليهم أنها انسانية رائعة • انه

ليفيدك كثيراً أن تتردد الى أناس مثلهما ، فتتعلم أشياء كثيرة ما زلت تجهلها في هذه الحياة ، أشياء ستظهر لك وتنجلي لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس .
تلك أحسن وسيلة من أجل أن تتبدل •

هتف كوليا يقول بحرارة :

– لشدما يؤسفننى أننى لم أجيء قبل هذا الوقت ! اننى ألوم نفسى على ذلك •

– شىء مؤسف حقاً • لا بد أنك لاحظت كم سعد هذا الصغير المسكين بزيارتك • لشدما عذبه انتظارك سدى !

– لا تذكرنى بهذا • ذلك يعذب نفسى تعذيباً شديداً • هذه خطيئتى على كل حال • لقد تأخرت عن المجيء بدافع حب الذات ، بدافع الأنانية ، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التى لا أفلح فى التخلص منها ، رغم الجهود التى بذلتها طوال حياتى • اننى أدرك الآن ياكارامازوف أننى تافه فى أمور كثيرة •

قال أليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً :

– بالعكس : ان لك طبيعة رائعة ، وان تكن قد أصابها شىء من الزيف • اننى أفهم الآن كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير فى ذلك الصغير المسكين الذى يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية •

هتف كوليا يقول :

– أأنت تقول هذا الكلام ؟ تصور أننى ظننت غير مرة ، منذ جئت الى هنا ، أنك تحتقرنى ! آه ••• ليتك تعلم مدى اهتمامى برأيتك وحرصى عليه !

– أيمكن حقاً أن تكون مفرط الحساسية سريع التأذى الى هذه

الدرجة ؟ أفي مثل سنك ؟ آ . . . لقد تصورت فيك هذا • منذ قليل ،
 في الغرفة ، حين كنت أصغى الى الحكايات التي قصصتها ، قلت لنفسي :
 لابد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية سريع التأذى •

– أحزرت اذن ؟ يا لنفاذ بصيرتك ! يا لقوة حدسك ! اننى معجب
 بك • أعتقد أنك حزرت ذلك حين قصصت أما حكاية الأوزة • لقد
 أحسست في تلك اللحظة أنك احتقرتني لتفاخرى بالمكر • وقد أخذت
 أكرهك عندئذ ، وأخذت أطنب في الحديث عامداً • وبعد ذلك – ونحن
 في هذا المكان – أحسست بعد أن قلت عبارتي : « اذا لم يكن الله موجوداً
 فيجب أن نخترعه » ، أحسست أنني تسرعت كثيراً في عرض معرفتي
 واطهار علمي ، لاسيما وأنى كنت قد قرأت هذه العبارة في كتاب •
 ولكننى أحلف لك على أننى ان سارعت الى اظهار معرفتي فما كان ذلك
 منى حباً بالظهور ، وانما صدر هكذا عفواً الخاطر ، لا أدري لماذا ، ولعله
 صدر عن فرح ، بل انه قد صدر عن فرح حتماً . . . على أننى أعلم حق
 العلم أن من الغباء جداً ومن العار جداً أن يرتعى المرء على عنق الآخرين
 هكذا عن فرح • ولكننى مقتنع الآن بأنك لا تحتقرنى ، وأن الأمر كله
 كان من تصور خيالى وحده • آه . . . لو علمت مدى شقائى ياكارامازوف!
 اننى أتخيل أحياناً ، لا يدري الا الله لماذا ، أن جميع الناس يسخرون
 منى ، وانى لأشعر فى مثل تلك اللحظات بأننى مستعد لتعطيم كل ما هو
 موجود •

قال أليوشا مبتسماً :

– وأنت تعذب أهلك طبعاً •

– نعم ، ولا سيما أُمى • قل يا كارامازوف : هل تجدنى مضحكاً

جداً ؟

هتف أليوشا يقول :

- ما أغربها فكرة ! دعك من هذه التصورات ! وما هو المضحك على كل حال ؟ جميع الناس يكونون أو يبدوون مضحكين في بعض المناسبات • على أى شيء يدل هذا ؟ ان الأفراد الذين يملكون مواهب عالية ، في هذا العصر ، يخشون أكثر ما يخشون أن يعدمهم الناس مضحكين ، وهم أشقياء لهذا السبب ولكن الشيء الذى يدهسنى هو أنك عانيت هذا الشعور فى هذه السن المبكرة ، وان كنت قد أتيت لى أن ألاحظ هذه الأشياء نفسها لدى أشخاص آخرين • فالأطفال أنفسهم قد أخذوا فى أيامنا هذه يقاسون من هذا الخوف الغبى • يوشك ذلك أن يكون جنوناً • ان فى هذا افراطاً فى حب الذات ، ولا شك أن الشيطان قد استقر فيه ••• نعم ••• الشيطان •••

كذلك ردّد أليوشا غير مازح البتة كما توهم كوليا الذى كان ينظر اليه محققاً •

وتابع يقول :

- استقر الشيطان فيه ••• لقد استولى الشيطان على الجيل الحاضر كله •

وختم أليوشا كلامه قائلاً :

- أنت تشبه الآخرين فى هذه النقطة • أريد أن أقول انك تشبه عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين الذين أصابهم هذا التشوه نفسه • صدقنى مع ذلك : ما ينبغى أن يشبه الانسان جمهرة الناس •

- هل ينبغى للانسان اذن أن يختلف عن سائر الناس ؟

- نعم • يجب أن لا أكون على هذه الشاكلة ، ولو أصبح جميع الناس كذلك • كن مختلفاً ولو صرت وحيداً • الواقع أنك لا تشبه

الآخرين : فانك لم تخجل منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيوبك المضحكة . فأى الناس يملك هذه الجرأة اليوم ؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة الى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً . فلا تتردد اذن فى أن تتميز عن جمهرة الناس . لا تكن كسائر أولئك الملاء ، ولو أمسيت وحيداً فى نوعك .

- ما أروع هذا الكلام الذى تقوله لى ! اننى لأدرك الآن أن ظنى فيك لم يخطئ . انك قادر على أن تعزى وتواسى . آه يا كارامازوف ، لطالما انتظرت التعرف اليك . لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً . هل صحيح أنك أردت أن تتعرف الىّ أيضاً ؟ لقد قلت منذ قليل انك فكّرت فىّ .

- نعم ، سمعت عنك وفكّرت فيك هب حبّ الذات هو الذى أوحى اليك بذلك السؤال ، فأى ضمير فى هذا ؟

قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال اضعافاً غريباً وكأن فيه حياء :

- هل تعلم يا كارامازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام . أليس هذا مضحكاً ، مضحكاً جداً ؟

أجاب أليوشا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة :

- البتة ! وهبه مضحكاً ، فأى بأس فى ذلك ، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً هذه المتعة ، عذباً هذه العذوبة ؟

- اعترف يا كارامازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الحجل من وجودك معى اننى أقرأ هذا فى عينيك .

كذلك قال كوليا وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تشبه أن تكون سعيدة .

- ممّ عسانى أخجل ؟

- اذن لماذا احمر وجهك ؟

صاح أليوشا يقول ضاحكاً :

- أنت تجعل وجهي يحمر *

واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة * ثم تمتم يقول شبيه

مضطرب :

- طيب *** أشعر ببعض الحجل ، لا يدرى الا الله لماذا * أنا نفسى

لا أعرف السبب *

هتف كوليا يقول فى سورة من حماسة ، وقد اشتعل خداه وسطعت

عيناه :

- ما أعظم ما أحبك وأحترمك فى هذه اللحظة ، لأنك تشعر بخجل

معى ! ذلك أنك تشبهنى ***

قال أليوشا فجأة دون أن يدرى لماذا :

- اصغ الىّ يا كوليا : لا شك أنك ستشقى كثيراً فى هذه الحياة *

فقال كوليا يؤيد كلامه :

- أعرف ذلك * ما أصدق تنبؤك بالمستقبل !

- مع ذلك سوف تحب الحياة *

- صحيح ، صحيح ! مرحى ! انك نبى ! نحن متفاهمان

يا كارامازوف * وما يعجبني خاصةً فيك هو أنك تخاطبني مخاطبة

الند للند ، مع أننا لسنا ندين متكافئين ، لا ، لا ، فأنت أعلى منى ! ولكننا

سنفاهم * طوال الشهر الماضى ، ظللت أقول لنفسى : « اما أننا سنصبح

صديقين منذ اللحظة الأولى والى الأبد ، واما أننا سنصبح عدوين منذ

الكلمات الأولى وحتى المات ! »

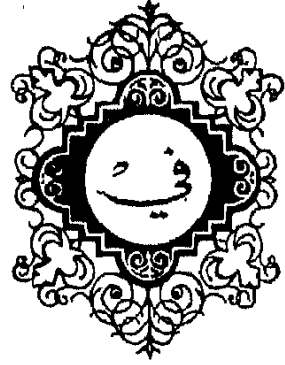
قال أليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة :

– منذ قلت لنفسك هذا الكلام ، كنت تحبني ، هذا أكيد *

– كنت أحبك ، كنت أحبك حباً رهيباً ، آه ... نعم ... وكنت
أحلم بك ! ماذا تفعل حتى تعلم الغيب هذا العلم ؟ هه ... هذا هو
الطبيب ... ترى ما الذي سيقوله لنا ؟ هل ترى الى تعبير وجهه ؟

٧

الأيوشا



تلك اللحظة خرج الطيب من الغرفة مرتدياً فراءه واضعاً قبعته على رأسه • كان وجهه يعبر عن الامتناع والاحتقار ، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة ذلك المسكين الحقيير • ألقى على الدهليز نظرة خاطفة ، ثم حدّق الى أيوشا وكوليا بقسوة • أشار أيوشا للحوذي من الباب ، فاقتربت العربة التي أقلت الطيب ، اقتربت من مدخل البيت • ولكن في تلك اللحظة هرع الكابتن ليدرك الطيب ، فأنحى له انحناءة كبيرة ، ثم رجاه متذلاًّ معذراً ، أن يسمح له بحديث أخير معه •

بدأ فقال :

— يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة ••• أهذا ممكن ؟

ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه ، واكتفى بأن عقف يديه يأساً ، وهو يلقي على الطيب نظرة ضراعة قصوى ، كأن الأقوال التي سيتفوه بها الطيب يمكن أن تبدل الموت المحكوم به على ابنه المسكين •

أجاب الطيب يقول في اهمال ، بصوتٍ تتخالطه مع ذلك لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه :

- لا حيلة لي في الأمر • أنا لست الهأ •••
 - دكتور ••• صاحب السعادة ••• هل هذا وشيك ، هل هو
 وشيك ؟

أجاب الطيب وهو ينطق بأحرف كلامه نطقاً واضحاً :

- كونوا مستعدين لكل شيء •
 ثم خفض عينيه وسار خطوة في اتجاه العربة •
 قال الكابتن مروّعاً :

- صاحب السعادة ، ناشدتك يسوع المسيح ••• هل يمكن حقاً
 أن لا يكون هناك أى شيء ، أن لا يكون هناك أى شيء يستطيع انقاذه
 بعد الآن ؟

أجاب الطيب يقول نافذ الصبر :

- هذا لا يتوقف على الآن •

ثم استدرك يقول وهو يتوقف لحظة :

- هم ••• ومع ذلك ••• اذا كنتم تملكون مثلاً أن ترسلوا
 مريضكم ، فوراً ، دون ابطاء (وقد نطق الطيب قوله « فوراً ، دون
 ابطاء » لا بقسوة فحسب ، بل بما يشبه الغضب أيضاً ، حتى ان الكابتن
 ارتعش) ، الى سيراكوز ••• فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية
 الملائمة أن تحدث بعض التغيير ، ولكن •••

هتف الكابتن يقول وقد بدا عليه أنه لم يفهم •

- الى سيراكوز ؟

فتدخل كوليا يقول بصوت رنان يشرح الأمر :

- سيراكوز هي فى جزيرة صقلية *

فصاح الكابتن يقول وقد اضطرب اضطراباً تاماً :

- فى جزيرة صقلية ؟

ثم أضاف يقول وهو يحرك يديه بحركة دائرية عريضة ليشير الى
فقر مسكنه :

- أما رأيت اذن ؟ وامراتى ، وأسرتى ؟ ما الذى يصيرون اليه ؟

- لا ، لا ، لن يكون على الأسرة أن تذهب الى صقلية * أرسل
أسرتك الى القفقاس فى بداية الربيع *** يجب أن تقيم ابنتك زمناً
فى منطقة القفقاس *** أما زوجتك فلن تعالج هنالك الا مدة قصيرة
فى مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من أوجاع الروماتزم ***
ثم يكون عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً الى باريس ، عيادة الدكتور
لابولوتيه للأمراض العقلية * وفى امكانى أن أزودك بكلمة اليه ***
ان من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن فى هذه الحالة *

عاد الكابتن يقول وهو يلوح بذراعيه يائساً ، ويشير الى ألواح
الحشب التى تتألف منها جدران مسكنه :

- دكتور ، دكتور ، رأيت بعينيك !

فقال الطيب وهو يضحك ضحكة صغيرة :

- هه *** ليس هذا شأنى أنا * أنا لم أزد على أن ذكرت لك ،
فى الاجابة عن سؤالك ، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولة
أخيرة بعد اليأس *** أما فيما عدا ذلك *** فأنا آسف ***
ولكن ***

- لا تخف أيها « المداوى » لن يعضك كلبى *

كذلك قال كوليا فى صخب وقد لاحظ النظره القلقه التى ألقاها
الطبيب على « برزفونه » المرابط فى العتبة •

كان صوت كوليا يرتعش غضباً ، وقد تعدد أن يسميه باسم
« المداوى » بدلاً من اسم « الطبيب » ، اهانةً له ، كما شرح ذلك
فيما بعد •

قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدق الى أليوشا مدهوشاً :
- كيف ؟

ثم أضاف يسأل أليوشا فجأة ، كأنه يطلب منه تفسيراً لقله الأدب
هذه :

- من ؟ ماذا ؟ عمن يتكلم !

فقال كوليا من جديد ، مشدداً على كلماته :

- أنا صاحب « برزفونه » • لا تهتم بشخصى أيها المداوى •

قال الطبيب ولم يفهم من ذا الذى يسمى بهذا الاسم :

- « برزفونه » ؟ أى « برزفونه » ؟

- « برزفونه » ، « برزفونه » ، أى غرابه فى هذا ؟ الى اللقاء

أيها المداوى ، سوف نلتقى مرة أخرى فى سيراكوز •

استشاط الطبيب غيظاً ، فأنفجر يقول على حين فجأة :

- من هذا ال ••• من هذا ••• الوقع ؟

فقال أليوشا بسرعة وهو يقطب حاجبيه :

- هو تلميذ من هنا يا دكتور • انه هازل ، فلا تلق اليه بالآ •

وصاح أليوشا يخاطب كوليا قائلاً له :

- اسكت يا كوليا .

ثم عاد يخاطب الطبيب بشيء من نفاذ الصبر فى هذه المرة :

- لا تلق اليه بالآ يا دكتور +

فأعول الطبيب يقول وهو يضرب الأرض بقدميه حانقاً مسعوراً :

- انه يستحق السوط ، ال + + + + ووط ! يجب تأديبه !

اصفر وجه كوليا ، وقدحت عيناه شرراً ، وقال للطبيب بصوت

مرتعش :

- هل تعلم أيها المداوى أن كلبى « برزفونه » يستطيع أن يعض ؟

تعال يا « برزفونه » !

فصرخ أليوشا يقول له بلهجة صارمة :

- اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فهذا فراق بينى وبينك !

- اعلم أيها المداوى أن هناك شخصاً واحداً فى هذا العالم يستطيع

أن يأمر نيقولا كراسوتكين + هو هذا الرجل +

قال كوليا ذلك وهو يومىء الى أليوشا + ثم اتجه فجأة نحو الباب

ودخل الغرفة + واندفع « برزفونه » وراءه +

لبث الدكتور جامداً زهاء خمس ثوانٍ ، كأنما قد استبد به ذهول ،

وهو ما يزال شاخصاً ببصره الى أليوشا + ثم بصق على الأرض ، وتقدم

الى جهة العربة بخطى سريعة وهو يردد بصوت عال :

- عجيب ، عجيب ، عجيب ، عجيب !

أسرع الكابتن يساعده فى ركوب العربة + أما أليوشا فقد تبع

كوليا ودخل الغرفة + كان كوليا قد وصل الى سرير ايليوشا ووقف

عنده ، فتناول ايليوشا يده ، ونادى أباه ، فما هي الا دقيقة حتى عاد
الأب *

– بابا ، بابا ، تعال الى هنا *

كذلك تنتم يقول ايليوشا في اضطراب شديد *

ثم لم يقوَ على اتمام كلامه ، فدفع ذراعيه الناحلتين الى أمام ،
وطوق بهما أباه وكوليا معاً في حركة متشنجة ، وضم أحدهما الى الآخر
بعناق واحد ، شاداً جسمه اليهما شداً قوياً * فأخذ الكابتن عندئذ ينسج
نسيجاً صامتاً * أما كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش *

أنّ ايليوشا يقول بلهجة مرة :

– بابا ، بابا ، ما أشد ألمى عليك !

قال الكابتن متمتماً :

– بنىّ ايليوشا *** ملاكى *** قال الطبيب انك *** ستشفى

*** وسنسعد جميعاً ***

صاح ايليوشا قائلاً :

– بابا ، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عنى ! *** فهمته

من النظر اليه !

وشدّ اليه أباه وكوليا من جديد ، بكل قواه ، مسنداً وجهه الى

كتف الكابتن *

– بابا ، بابا ، لا تبك *** حين سأموت ستأخذ صيياً آخر ، صيياً

طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان ، وتسميه باسم

ايليوشا مثلى ، وتحبه كما تحبني ***

صرخ كراسوتكين يقول له بصوت يشبه أن يكون خانقاً :

- لا تقل سخافات يا عزيزى !

وتابع ايلوشا كلامه فقال :

- أما أنا يا بابا ، فلا تنسنى أبداً ، تعال الى قبرى زائراً • اسمع يا بابا : أريد أن تدفنى قرب تلك الصخرة الكبيرة التى كنا نتجه اليها أثناء نزهاتنا • وزرنى هنالك مساءً فى صحبة كراسوتكين ••• ومع « برزفونه » أيضاً ••• سأنتظركم هنالك ••• بابا ، بابا !

اختنق صوت ايلوشا • ظل الثلاثة متعاقبين صامتين • وفى مقعدها ، كانت نينا تبكى بكاء رقيقاً • واذ لاحظت الأم أن الجميع يسكبون الدموع ، انفجرت تبكى هى أيضاً ، وصاحت تنادى :

- صغيرى ايلوشا ، صغيرى ايلوشا !

انسل كراسوتكين من عناق ايلوشا بغتةً ، وقال يشرح بسرعة :

- الى اللقاء يا عزيزى • أمى تنتظرنى على الغداء • من المؤسف أننى لم أنبئها • لسوف تقلق الآن ••• على أننى سأجىء اليك بعد الغداء ، وسأمكث معك طول النهار ، وطول المساء أيضاً • سأقضى عليك حكايات كثيرة • سأرجع مع « برزفونه » • أما الآن فسأصطحبه ، والا أخذ ينبح فأزعجك • الى اللقاء !

وهروا الى الدهليز • كان يبذل جهداً من أجل أن لا يبكى • ولكن دموعه تفجرت فى الدهليز • وعلى هذه الحال انما وجده أليوشا • قال له أليوشا ملحاً :

- كولىا ، عليك أن تفى بعهدك قطعاً ، وأن تعود كما وعدته ، والا حزن حزناً شديداً •

- سأرجع حتماً آه ••• لشد ما يحزنى أننى لم أجيء قبل الآن •

كذلك تتمم يقول كوليا باكياً ، دون أن يشعر بخجل من البكاء
في هذه المرة •

وفي تلك اللحظة خرج الكابتن من الغرفة كالمجنون ، وأغلق
الباب وراءه بسرعة • كان في وجهه تعبير غريب ، وكانت شفقاته
تختلجان • وقف أمام الشابين ، ورفع ذراعيه في الهواء ، ودمدم يقول
زائغ النظرة تائه الهيئة صارفاً بأسنانه :

- لا أريد صيياً صغيراً طيباً ••• لا أريد صيياً آخر ! ألا فليخقل
لساني اذا نسيك يا اورشليم * •••

وتوقف عن الكلام فجأة كأنما قد خنقه الانفعال ، وتهاوى على
الأرض راکعاً ، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكي مطلقاً
أنات مشوشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتى لا يسمعه أحد في الغرفة •
هرع كوليا الى الشارع • وصاح يقول لأيوشما بصوت جاف كالصخر:

- الى اللقاء يا كارامازوف ! هل تأتي أنت أيضاً ؟

- سأجىء هذا المساء حتماً •

- ماذا أراد أن يقول حين تكلم عن اورشليم ؟ ما معنى هذا ؟

- هذه آية من التوراة « اذا نسيك يا اورشليم » ، معنى هذا :
اذا نسيك ما هو عندي أعز شيء وأعلى شيء ، اذا خنت من ذكرياتي
أقدسها ، فلتنزل على عندئذ •••

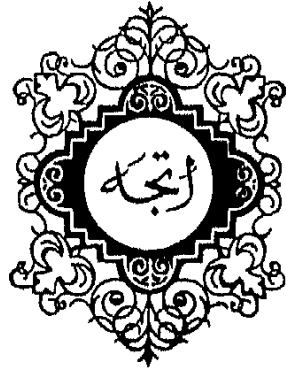
- كفى ! فهمت ! لا تنس أن تجىء أنت أيضاً . تعال يا «برزفونه» !

كذلك صاح كوليا ينادى الكلب بصوت حائق ، واتجه نحو بيته
بخطى واسمة •

الباب الحادي عشر: اللدخ الإفتاح فيروفتش

١

عند دوشكا



أليوشا نحو ميدان الكاندرائية حيث يقع منزل
التاجرة موروزوفا • كان أليوشا ذاهباً الى عند
جروشنيكا • لقد أرسلت اليه جروشنيكا ، في ساعة
مبكرة من الصباح ، خادمتها فينيا ، ترجوه ملحة
أن يجيء اليها • وقد علم من سؤال فينيا أن المرأة الشابة تعاني منذ الليلة
البارحة قلقاً جديداً قوياً • وكان أليوشا ، خلال هذين الشهرين اللذين
أعقبا اعتقال ميتيا ، قد زارها مراراً ، تارةً من تلقاء نفسه ، وتارةً بطلب
من دمترى • وكانت جروشنيكا قد مرضت مرضاً شديداً بعد حبس ميتيا
بثلاثة أيام ، وظلت تعاني من المرض خمسة أسابيع ؛ حتى لقد لبست
في الأسبوع الأول فاقدةً وعيها • وقد تبذلت ملامح وجهها تبديلاً كبيراً
أثناء ذلك الوقت ، فاصفرت ونحلت ، وان تكن قد أصبحت قادرة على
الخروج منذ ما يقرب من خمسة عشر يوماً • على أنها أصبحت في نظر
أليوشا أعظم جمالاً وفتنةً ، وكان أليوشا يحب كثيراً أن يلتقي بنظرتها
حين يجيء اليها • ان شيئاً ما في تعبير عينيها قد أصبح أقوى ثباتاً وأكثر
تروياً وتأملًا • ان المرء يلاحظ فيها نوعاً من تبدل روحى ، ونوعاً من
عزيمة راسخة ، وان تكن هذه العزيمة تشتمل على اذعان وهدوء • ان

غضناً قصيراً عمودياً يرتسم الآن على جبينها بين الحاجبين فيسبغ على وجهها معنى التأمل العميق ، ويضفي عليه تعبيراً يشبه أن يكون قسوةً في الوهلة الأولى . لم يبق هنالك ، في الظاهر ، أثرٌ لما كان يرى فيها من خفة وطيش . ومع ذلك كان يُدهش أليوشا أنها لم تفقد مرحها الفتى رغم النازلة التي أمت بها ، رغم اعتقال الرجل الذي تحبه ، رغم حبس هذا الرجل في اللحظة التي أوشكت أن تصبح فيها خطيئته ، رغم اتهامه بجريمة خطيرة ، وكذلك رغم مرضها الذي أعقب ذلك ، ورغم قرب مثول الرجل أمام المحكمة . وان عينها اللتين كانا فيهما كثير من الكبرياء في الماضي ، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادىء ، وان كان يتفق من حين الى حين أن يسطح في نظرتها لهيب مقلق ، ولا سيما في اللحظات التي يراودها فيها ذلك العذاب القديم الذي لم يهدأ في قلبها أثناء تلك المدة ، بل كان يشتد ويقوى بغير انقطاع . ان موضوع هذا القلق الأليم ما يزال هو نفسه : انه كاترين ايفانوفنا التي كثيراً ما ذكرت جروشسكا اسمها في هذيانها أثناء المرض . كان أليوشا يدرك أن جروشسكا تغار من هذه المرأة على ميثيا غيرة رهيبية ، رغم أن كاترين ايفانوفنا لم تزر ميثيا في السجن مرة واحدة ، كما كان في وسعها أن تفعل ذلك بغير عناء في كل آن . وكان ذلك كله يضع أمام أليوشا مهمة صعبة ، لأن جروشسكا لا تفضى بآلامها وتباريحها الا اليه ، وما تنفك تسأله المشورة والنصح ، وهو في بعض الحالات لا يدرى به يجيبها ، وماذا يقول لها .

لذلك كان أليوشا مهموماً مغموماً حين دخل مسكن المرأة الشابة . كانت جروشسكا في بيتها ، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة . وأدرك أليوشا ، من الحركة السريعة التي قامت بها لتتهض عن مقعدها وتهب الى لقائه ، أنها كانت تنتظره نافذة الصبر . وكان هنالك على المائدة ورق لعبٌ أعدٌ لشخصين . ان أريكة الجلد التي كانت في الجهة الأخرى

من المائدة قد أحييت الآن سريراً ، وها هو ذا العجوز ماكسيموف ،
الضعيف المريض ، ولكن على تبسم متكلف وتلطف متصنع ، يرقد على
هذا السرير نصف رقاد ، مرتدياً ثوب المنزل ، واضعاً على رأسه طاقة •
ان هذا العجوز الذى ليس له مأوى لم يترك جروشنكا منذ عودتها من
موكرويه قبل شهرين ، وهو يعيش فى بيتها منذ ذلك الحين • لقد رجعا
من موكرويه معاً فى المطر والوحل ، فلما وصلا الى مسكنها كان البرد
قد نفذ فى جسمه حتى العظام ، وكان يقاسى هلعاً شديداً ورعباً رهيباً ،
فما ان دخلا المسكن حتى جلس على الديوان وأخذ يتحدث الى المرأة
الشابة صامتاً ، وهو يتبسم ابتسامة ذليلة متوسلة ضارعة • وكانت جروشنكا
عندئذ مصعوقة من المصيبة التى نزلت بها ، وكانت ترتعد من الحمى منذ
تلك اللحظة ، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى ،
مشغولةً باصدار أوامرها الى خدماها • ثم ألقت عليه بصرها مدهوشة ،
فضحك العجوز ضحكة صغيرة تثير الشفقة وتبعث على الرحمة ، ونظر الى
عينها دون أن ينطق بكلمة • فنادت عندئذ فينيا ، وأمرتها أن تقدم للعجوز
طعاماً • وظل العجوز طوال ذلك النهار لا يتحرك من مكانه ، حتى اذا
هبط الليل ، وأغلقت النوافذ ، سألت فينيا مولاتها :

– هل سيبت الليلة هنا يا آنستى ؟

فأجابتها جروشنكا قائلة :

– نعم ، اعدى الأريكة سريراً له •

وحين سألت جروشنكا العجوز بعد ذلك ، علمت أنه أصبح لا يعرف
الآن الى أين يأوى ، لأن « السيد كالجانوف ، المحسن اليه ، قد أعلن
له جازماً أنه لن يستقبله بعد الآن فى بيته ، وأعطاه خمسة روبلات
زاداً » •

فقلت له جروشنكا بحزن وهي تبسم ابتسامة شفقة وعطف :
« اذن فابق هنا والله يبرعك » • فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدة
الانفعال ، واختجلت شفقاته في نسيج مخنوق اعترافاً بالجميل • ولم يتركها
بعد تلك اللحظة حتى أثناء مرضها • لقد وجد الطفيلي التائه مأوى • ولم
تطرده فينيا وجدتها طبخة جروشنكا ، بل ظلنا تطعمانه وترتبان له
سريره على الأريكة • حتى ان جروشنكا ألفت وجوده بعد ذلك واعادته ،
فكانت اذا رجعت من زيارة لمتيا (وقد أخذت تزور متيا منذ بداية نقاهتها
قبل أن تبل من مرضها تماماً) ، جلست الى جانب «ماكسيموشكا» ، وأخذت
تثرثر معه في سفساف وترهات ، حتى تطرد حزنها وحتى لا تفكر في
شقائها • وقد اتفق أن كان العجوز يحسن قصص الحكايات المضحكة في
المناسبات ، فاذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها • وكانت جروشنكا لا تكاد
تستقبل أحداً عدا أليوشا الذي كان مع ذلك لا يزورها كل يوم ، ولا يكت
عندها الا قليلاً • أما صاحبها التاجر العجوز فقد كان في تلك الفترة
مريضاً مرضاً شديداً ، وكان ملازماً فراشه • كان « بسيل أن يرحل » ،
على حد تعبير سكان المدينة ، وقد مات فعلاً بعد محاكمة متيا بثمانية أيام •
واذ أحس بقرب نهايته ، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد اليه
ابناؤه وزوجاتهم وأولادهم وأن لا يتعدوا عن سريره ؛ وفي الوقت نفسه
أصدر أوامره الى خدمه بأن لا يستقبلوا جروشنكا في بيته ، وأن يبلغوها
مايلي اذا هي جاءت : « ان مولانا يأمر بأن تعيشي في السعادة والفرح زمناً
طويلاً ، وأن تنسيه نسياناً تاماً » • ومع ذلك كانت جروشنكا ترسل من
يسأل عن أخباره كل يوم تقريباً •

حين دخل أليوشا على جروشنكا ، رمت ورق اللعب ، ومدت اليه
يدها فرحة وهي تصيح :

– هانت ذا أخيراً ! ان « ماكسيموشكا » هذا المسكين كان يتسلى

بتخويني زاعماً أنك لن تجيء • ليتك تعرف مدى حاجتي اليك ! اجلس الى المائدة • ماذا تريد ؟ قهوة ؟

أجاب أليوشا وهو يجلس قرب المائدة :

– سرور • بدأت اشعر بجوع شديد •

– عظيم ! فينيا ، هاتي قهوة بسرعة ! ان الماء يغلي منذ مدة طويلة • أمرت بإعداده خصيصاً لك • فينيا ، هاتي فطائر باللحم أيضاً ، ولتكن ساخنة جداً • هل تعلم يا أليوشا ان فد وقعت لي اليوم قصة رهينة مع هذه الفطائر ؟ حملتها له الى السجن ، فردتها الى بخشونة ، ورفض أن يمستها ، هل تصدق ؟ حتى لقد رمى احداها على الأرض ثم داسها بقدمه • قلت له : « سأتركها عند الحارس ، فاذا لم تأكلها حتى هذا المساء ، كان معنى ذلك أنك تؤجج في نفسك الشر والغضب » ، قلت له ذلك وانصرفت • فهأت ذا ترى أننا تشاجرنا مرة أخرى • كلما زرتة انتهينا بمشاجرة •

كانت جروشنكا تتكلم متعجلة وهي فريسة انفعال شديد • وسرعان ما فقد ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضباً بصره • سألها أليوشا :

– ولأى سبب تشاجرتما اليوم ؟

– لسبب ما كان لي حقاً أن أتوقعه • تصور أنه أصبح يغار من « القديم » • لقد سألتني : « لماذا تعطينه مالاً ؟ أخذت اذن تعيلينه ؟ » • هي الغيرة ، الغيرة دائماً • انه يغار حين يأكل ، حين ينام • حتى لقد أقام الدنيا وأقعدها في الاسبوع الماضي ، بصدد العجوز كوزما •

– ولكنه كان يعلم بوجود « القديم » !

– طبعاً كان يعلم بوجوده • افهم اذا كنت تستطيع أن تفهم ! كان على علم بهذه العلاقة منذ البداية ، وها هو ذا يأخذ يهينني اليوم فجأة لهذا

السبب • اننى لأستحى أن أردد على مسمعك ما قاله لى صارخاً • يا له من أحمق ! وقد جاء راكيتين يزوره حين انصرفت • من يدري ؟ لعل راكيتين هذا هو الذى يشيره على •

ثم أضافت تقول ذاهلة :

– ما رأيك ؟

– رأيى أنه يجبك ، يجبك كثيراً • ولكن أعصابه نائرة الآن •
– من حقه أن تكون أعصابه نائرة ، ما دام سيُحكَم عليه غداً •
وذلك بعينه هو السبب الذى من أجله أردت أن أزوره اليوم ، لأحدثته عن يوم الغد هذا • تقول لى انه نائر الأعصاب • أفليس من حقى أن أكون نائرة الأعصاب أنا أيضاً ؟ ثم هو يحدثنى عن ذلك البولندى ••• يا له من أحمق ! الحمد لله على أنه لا يفار من ماكسيموشكا أيضاً !

هنا تدخل ماكسيموف قائلاً :

– كانت زوجتى تغار علىّ كثيراً •

فأجابته جروشنكا ضاحكة رغم ارادتها :

– عليك أنت ؟ دعك من هذا الكلام ! ممن يمكن أن تغار عليك ؟

– من الخادومات •

– اسكت ياماكسيموف ، لست اليوم فى مزاج يمكننى من الضحك •
ان غضباً شديداً قد استحوذ على نفسى • أما الفطائر ، فليس يجديك أن تنظر اليها هكذا ••••• لى تصيب منها شيئاً • ان أكلتها آذتك • ولن أعطيك خمراً كذلك • هأنذا مضطرة الى العناية بهذا الرجل أيضاً •
ألا يمكن أن يقال ان بيتى أصبح ملجأ خيراً للبسر والاحسان ؟

كذلك قالت جروشنكا ضاحكة •

فقال ماكسيموف بصوت واهن متباك :
 - أنا لست أهلاً لاحسانك • أنا انسان تافه لا قيمة لى • الأولى أن
 تغدقى مساعدتك على من قد يكونون أحوج اليها منى •

- ما من أحد ليس بنافع فى هذا العالم يا ماكسيموف • هل يعلم
 المرء فى الواقع الى من يحتاج أو لا يحتاج • ان ذلك البولندى يقع الآن
 على عاتقى كذلك يا أليوشا • تصور أنه مرض اليوم هو أيضاً • وقد زرته •
 نعم ، سأرسل اليه الفطائر عامدةً ، عامدةً • لم يكن يخطر ببالى أن
 أفعل • ولكن ميتيا اتهمنى باننى أرسلت اليه فطائر • لذلك سأرسل اليه
 منها اليوم قصداً ، قصداً • هه ! هذه فينيا تجيء برسالة • هى رسالة
 من البولندى • لا شك أنه يطلب مالاً من جديد !

صدق ظن جروشنيكا • ان « السيد » موزيالوفكتش يرسل اليها
 رسالةً تبلغ مبلغاً عظيماً من الطول والتصنع على عادته ، وفيها يرجو ان
 تقرضه ثلاثة روبلات ، ضاماً الى الرسالة سنداً بالمبلغ يتعهد فيه بردّ المال
 فى غضون ثلاثة أشهر ، مذيلاً السند بتوقيعه وتوقيع « السيد » فروبلفسكى
 أيضاً • وكانت جروشنيكا قد تلقت قبل ذلك من صاحبها « القديم » عدداً
 كبيراً من مثل هذه الرسائل مع مثل هذه السندات • بدأ ذلك عند شفائها
 منذ أسبوعين ، ولكن جروشنيكا علمت أن « السيدين » قد جاءا يسألان
 عن صحتها مراراً • كانت الرسالة الأولى التى أرسلها البولندى طويلة ،
 تد كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمل شعار نسب أسرته •
 وكان مضمون الرسالة غامضاً جداً ومتصنعاً جداً ، فلم تستطع جروشنيكا
 أن تقرأ الا نصفها ثم رمتها دون أن تفهم منها شيئاً • ثم انها كانت
 فى تلك الآونة لا تعبأ كثيراً بما قد يكتب اليها ! وفى الغد أتبعك تلك
 الرسالة برسالة أخرى يرجوها فيها « السيد » موزيالوفكتش بأن تسلفه
 ألفى روبل ، متعهداً بالسداد بعد فترة وجيزة • ولم تردّ جروشنيكا لا على

الرسالة الأولى ولا على الرسالة الثانية + ثم تناولت رسائله كل يوم ، يكتبها دائماً بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفال ، ولكن المبلغ الذى يلمتس ان تقرضه اياه ينخفض شيئاً بعد شيء ، فيهبط الى مائة روبل ، ثم يهبط الى خمسة وعشرين روبلاً ، ثم الى عشرة روبلات + واخيراً تلقت جروشنيكا رسالةً جديدةً يرجوها فيها « السيدان » أن تسلفهما روبلاً واحداً ، وقد ضمّاً الى الرسالة سنداً وقعاها كلاهما + عندئذ شعرت جروشنيكا بشيء من الشفقة + ومضت تزور « السيد عند الغسق ، فاذا هى تجد البولنديين فى عوز يشبه أن يكون تاماً ، فلا طعام ، ولا تدفئة ، ولا سجاجير ، وهما فوق ذلك مدينان لصاحبة البيت التى يسكنان عندها . ان المائتى روبل التى ربحاها فى موكرويه من اللعب بالورق مع ميتيا قد ذابت بسرعة + وما كان أشد دهشة جروشنيكا حين رأت « السيدين » يستقبلانها استقبالا فيه كثير من التعظيم والادعاء ، مهتمين أشد الاهتمام بقواعد الكياسة الاجتماعية ، مسترسلين فى كلام متفخم متنفخ + لم تزد جروشنيكا عندئذ على أن ضحكت من تكلفهما ، ثم أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات + وقد قصت هذا المشهد على ميتيا فى ذلك اليوم نفسه ضاحكة ، فلم يخطر ببال ميتيا يومئذ أن يستاء أو أن يمتعض + غير أن « السيدين » قد تشبثا منذ ذلك الحين بجروشنيكا ، وأصبحا يطرانها كل يوم برسائل يضرعون اليها فيها أن تمدهم بمونة مالية + فكانت ترسل اليهما فى كل مرة مساعدات ضئيلة + ولكن ها هو ذا ميتيا يُظهر اليوم غيرة ضارية +

قالت جروشنيكا مضطربة بعض الاضطراب :

— شامت غباوتى أن أزوره اليوم عابرةً ، بضع دقائق ، قبل أن أذهب الى ميتيا ، لأنه مرض هو أيضاً ، وقد قصصت ذلك على ميتيا ضاحكة + قلت له : « تصور أن صاحبى البولندى قد أخذ يفتنى لى أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة ، آملاً أن يؤثر فى نفسى وأن يردنى اليه » .

فاذا بميتيا شب فجأة ، ويأخذ يرشقنى باهانات فظيعة • يمينا لأرسلن
 للبولنديين فطائر ! يا فينيا ، أظن أنهما بعثا بتلك الصيبة من جديد ، أليس
 كذلك ؟ فاعطيها ثلاثة روبلات لهما ، وحمليها كذلك عشر فطائر ملفوفة
 بورق • أما أنت يا أليوشا ، فأريد حتماً أن تروى لميتيا أننى أرسلت اليهما
 فطائر •

قال أليوشا مبتسماً :

– لا ، لن أروى له ذلك بحال من الأحوال •

قالت جروشنكا بمرارة :

– دعك من هذا الكلام ! أتخيل أنه يهتم بأمرى ويتعذب من أجلى ،
 بينما هو يتظاهر بالغيرة تظاهراً لا أكثر ؟

قال أليوشا :

– يتظاهر تظاهراً ؟ ماذا تريدان أن تقولى ؟

– ما أعباك يا صغيرى أليوشا ! ألا انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً
 رغم ذكائك • ان ما يفضبنى ، أنا المسكينه ، ليس هو أنه يغار على •
 بالعكس : ان عدم غيرته هو ما يعذبنى • هكذا أنا • لن آخذ عليه يوماً
 أن يكون غيوراً ، فأنا نفسى مسمومة القلب شديدة الغيرة • ولكننى شقى
 لأنه لا يحببنى البتة ، وانما هو يتظاهر اليوم بالغيرة على • ذلك كل شىء •
 ما أنا بالعمياء • اننى أرى كل شىء رؤية واضحة • لقد أخذ يكلمنى فجأة
 عن الأخرى ، عن كاتيا تلك ، ممتدحاً ما صنعته فى سبيله ، مثيلاً على
 ما قامت به من أجله • قال لى : « لقد استقدمت طبيباً من موسكو ليشارك
 فى المناقشات أمام المحكمة انفاذاً لى • واستقدمت من العاصمة أيضاً محامياً
 هو أشهر المحامين وأبرعهم ، وأعلمهم فى الوقت نفسه » • هو اذن يحبها
 ولا يحببنى ، يحبها هى ، ولا يحببنى أنا ، ما دام قد طفق يتغنى بمدائحها

أمامي ناظراً الىَّ بعينيه الوقحتين ! انه مذنب في حقى ، ثم هو يسعى الى مشاجرتى ليلقى الذنب على عاتقى ، على عاتقى وحدى ، كأنه يريد أن يقول : « لقد كنت على صلةٍ بذلك البولندى قبلى ، فمن حقى اذن أن أهجركَ فى سبيل كاتيا » • انه يريد أن يلقي الذنب كله على وحدى • انه يعتمد أن يشاجرنى ، يعتمد ذلك تعمداً ••• ولكننى سوف •••

لم تكمل جروشنكا كلامها لتشرح ما تنوى أن تفعله • وانما أخفت عينها بمنديل ، وطفقت تبكى فى نشيج يثير الشفقة •

قال أليوشا بصوت جازم :

– انه لا يجب كاترين ايغانوفنا •

فقلت جروشنكا بصوت يشوبه شيء من التهديد وهى تزيج المنديل عن عينها :

– سوف أعرف بنفسى أهو يجبها أم لا •

لقد تقبضت قسماً وجهها من الغضب • ولاحظ أليوشا ، على حزن وحسرة ، أن ما كان يشيع فى وجهها قبل ذلك من رقة هادئة وفرح ساجٍ قد حل محله الآن عنف وشر •

قالت فجأة تحسم الأمر :

– كفى سخافات ! اننى لم استدعك لأكلمك فى هذا ، يا أليوشا ، يا ملاكى ! قل لى : ما الذى سيحدث غداً ، ما الذى سيحدث غداً ؟ ذلك ما يعذبنى • أنا وحدى أفكر فى هذا وأقاسى منه • اننى أنظر الى الآخرين فلا أجد أحداً يقلق أو يكثر • هل فكرت فى الأمر أنت على الأقل ؟ غداً سيحكم عليه مع ذلك ! قل لى كيف ستجرى الأمور أمام الحكمة ! ان الخادم هو الذى قتل ، ان الخادم هو الذى قتل ! يارب ! هل يُعقل

أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم ، دون أن يتدخل أحد لانصافه ؟ انهم لم يعمدوا حتى الى ازعاج هذا الخادم بشيء ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا مطرقاً مفكراً :

- استجوبوه استجواباً محكماً • ولكنهم خلصوا جميعاً الى أنه ليس مجرمًا • وهو الآن مريض جداً • انه منذ وقوع ذلك الحادث يُصاب بنوبات صرع لا تنقطع •

وأضاف أليوشا يقول :

- انه مريض جداً •

- آه ••• يا رب ! ليتك تستطيع أن تقابل ذلك المحامي ، وأن تشرح له القضية بنفسك • يقال انه استقدم من بطرسبرج لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل •

- دبرنا المبلغ نحن الثلاثة : كاترين ايفانوفنا وأخى ايفان ، وأنا • وضع كل منا ألفاً • أما الطيب فان كاترين ايفانوفنا هي التي دفعت ألفى روبل لاستقدامه من موسكو • ان المحامي فيتوكوفتشس يتقاضى فى العادة أكثر من هذا المبلغ ، ولكن القضية قد ذاع صيتها فى روسيا كلها ، وكتبت عنها جميع الصحف ، لذلك عزم أمره على الدفاع عن ميتيا آخر الأمر ، لا طمعاً فى المال ، بل سعياً الى المجد • يستظل هذه القضية شهيرة ، وسيبقى اسمه مقترناً بها • ولقد كلمته أمس •

سأله جروشكا متعجلاً :

- كلمته ؟ فماذا قال لك ؟

- أصغى الى كلامى ، ولكنه امتنع عن ابداء أية ملاحظة • قال انه قد كوّن رأياً شخصياً فى الموضوع ، ووعدنى مع ذلك بأن يحسب حساب ما قدمت له من شروح •

- يحسب حساب ما قدمت له من شروح ؟ ما معنى هذا الكلام ؟
 ألا أنهم جميعاً سواسية ! هؤلاء المحامون جميعاً أوغاد ! لسوف يضيعونه
 أخيراً • والطبيب ، لماذا استقدموا الطبيب ؟

قال أليوشا وهو يتتسم ابتسامة ضعيفة :

- استقدموه خيراً • يريدون أن يقرروا أن أخى مجنون ، وأنه
 قد ارتكب جريمة القتل فى نوبة جنون لا يدري ماذا يفعل • ولكن أخى
 لن يوافق على ذلك أبداً •

هتفت جروشنيكا تقول :

- ولكن هذا حق اذا كان قد قتل • لا شك فى أنه كان فاقداً عقله ،
 فاقداً عقله تماماً ، ولا شك أنى مسؤولة عن ذلك أنا الشقية • ولكنه لم
 يقتل ، لم يقتل ! هم جميعاً يؤكدون أن ميتا هو القاتل • المدينة كلها
 تعتقد بذلك • وفيينا نفسها أدلت بشهادة لا يمكن أن يُستخرج منها
 الا أنه قاتل • وجميع الأشخاص الذين كانوا فى المتجر ، وذلك الموظف
 أيضاً ! وهناك زبائن الكاباريه الذين ينقلون كل كلمة من كلماته ، وكل
 قول من أقواله • انهم جميعاً يشهدون عليه ، ويتبارون فى اغراقه •

قال أليوشا بلهجة فيها يأس :

- نعم ، تكاثرت الشهادات تكاثراً يدعو الى القلق •

- ثم جريجورى ، جريجورى فاسيلتش الذى يصر على أن الباب
 كان مفتوحاً • انه لم يتزحزح عن هذه الشهادة • هو يدعى أنه رأى
 الباب بعينه مفتوحاً • يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذلك • لقد ذهبت
 اليه وتكلمت معه • كاد يشتمنى •

قال أليوشا :

– لشهادته شأن كبير ، وهو أخطر الشهود على أخى •

فالت جروشنيكا بلهجة غريبة وهيئة فلقه :

– أما عن جنون ميتيا ، فيخيّل الىّ أنه لا يملك كل عقله ، وحتى هذه الساعة • هل تعلم أنّى أردت أن أكلمك فى هذا الأمر منذ مدة طويلة يا أليوشا ؟ اننى اذهب اليه كل يوم ، فما ينفك يزداد عجبى من سلوكه • قل لى رأيك : ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التى يحدثنى بها فى غير انقطاع ؟ انه يتكلم ، ويتكلم ، فلا أتوصل الى فهم ما يقوله لى • قدّرت فى البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج الى ذكاء عظيم وعلم واسع ، فلا أستطيع أن أدركها • ولكنه أخذ يحدثنى فجأة عن صبى ، عن ولد صغير لا أعرفه • سألتنى : « لماذا يجب أن يتألم الصبى ؟ اننى أرتضى أن أذهب الى سييريا بسبب هذا الصبى • صحيح أنّى لم أقتل ، ولكن يجب أن أذهب الى سييريا » • أى صبى يعنى ؟ اننى لا أفهم من هذا الكلام شيئاً • ومع ذلك طفقت أبكى وأنا أسمع له ، لأنه أجاد الكلام اجادة رائعة • كان فى عينيه دموع ، فانفجرت أنا متتجة • عندئذ قبلنى على حين فجأة ، ورسم علىّ اشارة الصليب • ما معنى هذا كله يا أليوشا ؟ قل لى • أىّ ولد يعنى ؟

قال أليوشا مبتسماً :

– اننى لأتساءل أليس فى هذا مكيده يدبرها راكيتين • لقد أخذ يتردد اليه فى السجن • ولكن لا ••• لىس هذا من راكيتين • أنا لم أزر ميتيا أمس ، ولكننى سأذهب اليه اليوم •

قالت جروشنيكا وقد اضطربت على حين فجأة :

– لا ، لىس هو راكيتكا ! ان أخاه ايفان فيدوروفتش هو الذى يبلبل له عقله • انه هو الذى يزوره فى السجن •

تفرس فيها أليوشا كالمذهول وقال :

– ايفن ؟ ماذا تقولين ؟ اي فان يزوره ؟ لقد أكد لي ميتيا أن اي فان لم يزره مرة واحدة •

هتفت جروشنكا تقول مضطربة وقد احمر وجهها احمراراً شديداً •

– آ ••• ذلك ••• ما أكثر ثرثرتي ! لقد أسرفت في الكلام ! لحظة ••• اسكت يا أليوشا ! ما دمت قد زلت لسانى ببعض الحقيقة ، فسأقول لك الحقيقة كلها : لقد زاره مرتين • مرة منذ وصل ، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث ، ولم أكن قد مرضت بعد • ومرة منذ أسبوع • وقد طلب من ميتيا أن لا يقول لأحد شيئاً عن هاتين الزيارتين • حظر عليه أن يذيع أمرهما لأى مخلوق • لقد زاره سرآ •

كان أليوشا يفكر تفكيراً عميقاً • ان شيئاً ما يشغل باله الآن • لقد صعقه هذا النبأ •

قال ببطء :

– ان أخى اي فان لا يحدثنى أبداً فى قضية ميتيا • ثم انه لم يكذب يكلمنى أبداً خلال هذين الشهرين • وكان يبدو ممتعضاً من زيارتى كلما زرته • لذلك لم أره منذ ثلاثة أسابيع • هم ••• اذا كان قد زار ميتيا منذ أسبوع ، فذلك غريب حقاً ••• لقد حدث فى ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة •

أسرعت جروشنكا تقول :

– حدث فيه تغير ، حدث فيه تغير ، هذا صحيح • ان بينهما سرآ • قال لي ميتيا نفسه ذلك ، قال ان الأمر سر • وهو سر يعذبه تعذيباً شديداً ، هل تعلم ؟ ان ميتيا ما يزال مرحاً فى بعض اللحظات : ولكن

حين يهز رأسه ، ويأخذ يسير في زنزانتة ، ويحك شعر صدغه بابهامه الأيمن ، أدرك أن هناك شيئاً في قلبه • أنا أعرف هذا • كان قبل ذلك مرحاً جداً • وما يزال مرحاً حتى الآن في الواقع ، ولكن ...

- ولكنك قلت لي انه نائر الأعصاب جداً •

- نعم ، هو مرح وناير الاعصاب في آن واحد • تثور أعصابه فجأة ، ثم يصفو مزاجه بعد دقيقة واحدة ، ثم يحتاج من جديد • انه يدهشني مزيداً من الدهشة يوماً بعد يوم يا أليوشا • ان ما ينتظره رهيب ، ومع ذلك يتفق له أن يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل •

- هل صحيح أنه أراد أن لا تكلميني عن ايفان ؟ هل قال لك : « لا تحدثيه في هذا الأمر » ؟

- ذلك بعينه هو ما قاله لي : « لا تحدثيه في هذا الأمر ! » هو خائف منك أنت خاصة • ذلك أن هناك سرآ • وهو نفسه يعترف بذلك • هناك سر يا أليوشا ، يا عزيزي ، فامض اليه ، وحاول أن تعرف الحقيقة : ما ذلك السر الذي بينهما ؟

وأضافت جروشنكا تقول بصوت أصبح ضارعاً على حين فجأة :

- ثم عد الى وأخبرني • خلصني من قلقي وهمي ، أنا المخلوقة التي تستحق الرثاء ، فعدى أن أعرف مصيري المنحوس ! من أجل هذا انما استدعيتك •

- هل تظنين أن هذا السر يتعلق بك ؟ لو كان كذلك ، لما كلمك فيه البتة •

- هل أدري ؟ لعله أراد أن يحدثني في الأمر ، ولكنه لم يجرؤ ، فاكتمت بالتبني • لقد أسمعني أن هناك سرآ ولكنه لم يوضح •

– ماذا تفترضين ؟

– ماذا افترض ؟ افترض أن الأمر أمر ضياعي أنا + لقد اتفقوا هم الثلاثة على تضييعي ، لأن كاتيا وراء هذه المؤامرة • ان كاتيا هي التي أعدت كل شيء • لقد أطرى مزايا هذه المرأة ، قال : «هي كيت وكيت» • معنى ذلك أنني لست مثلها • انه يمهد ••• انه ينبهي • ذلك أنه قرر أن يتركني • هذا هو السر كله • لقد تأمروا هم الثلاثة : ميتيا وكاتيا وايفان فيدوروفتش • اسمع يا أليوشا : هناك سؤال أريد أن ألقيه عليك منذ مدة طويلة : لقد أعلن لي فجأة في الأسبوع الماضي أن ايفان يحب كاترين ايفانوفنا • فهل هذا صحيح ؟ أجبني بصدق واخلص ، دون أن تحاول مداراتي ومراعاتي •

– لا أحب أن أكذب عليك • ان ايفان لا يحب كاترين ايفانوفنا • ذلك رأيي أنا على الأقل •

– هذا ما قدّرتَه أنا أيضاً • لقد كذب عليّ • ياله من وقح ! واضح أنه كذب عليّ ! وهو يتظاهر الآن بالغيرة ، ليستطيع بعد ذلك أن يلقي الذنب كله عليّ • ألا انه لغبي • انه لا يجيد حتى التمثيل • انه بطبيعته صريح مسرف في الصراحة ••• ولكنني سألقنه درساً ، سألقنه درساً ! لقد صرخ يقول لي : « أنت تؤمنين بانني قاتل » • صرخ يقول هذا الكلام لي أنا • انه يأخذ هذا عليّ أنا • طيب • أما كاتيا تلك ، فويل لها • سأعرف كيف « أدبرها » أمام المحكمة • سوف أروى لهم قصة صغيرة ••• سوف أقول كل ما أعرف !

وأخذت جروشنكا تبكي بكاءً مرأ •

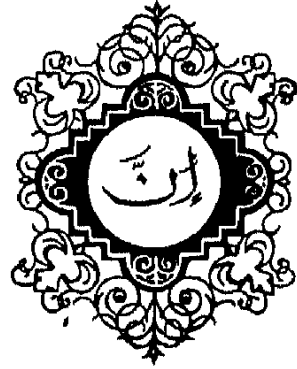
قال أليوشا وهو ينهض :

– اليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين : أولاً : هو يحبك ،

يجبك أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، ولا يجب أحداً غيرك على الاطلاق ،
 تستطيعين أن تصدقيني • أنا أعلم هذا • أنا من هذا على يقين تام • ثانياً :
 أحب أن تعرفى أئنى لن أحاول استخراج منه سره • وإذا أفضى الى به
 اليوم من تلقاء نفسه ، فسوف أنبئه فوراً الى أئنى قد وعدتك بإبلاغك هذا
 السر • وسوف أعود اليك فى هذا اليوم نفسه ، فأقول لك كل ما أكون
 قد علمته • على أئنى ••• يخيل الى ••• أن كاترين ايفانوفنا لا شأن لها
 بهذا الأمر ، وأن السر يتعلق بشىء آخر غير هذا تماماً • بل اننى لوائق
 من ذلك • يستحيل أن يكون الأمر أمر كاترين ايفانوفنا • أنا من ذلك
 على قناعة راسخة • والآن الى اللقاء •

صافحها أليوشا • كانت جروشنكا ما تزال تبكى • أدرك أنها لم
 تصدق ما قدم لها من شروح مواسية • ولكن جروشنكا كانت قد تخففت
 من حزنها بعض التخفف لأنها عبّرت عنه • شعر أليوشا بشفقة عليها ،
 وأسف لاضطراره الى تركها وهى فيما هى فيه من كرب • ولكن كان
 عليه أن يسرع ، لأن هناك أموراً كثيرة عليه أن يقوم بها فى ذلك اليوم •

القدم الصغيرة المريضة



الأمر الأول الذي كان على أليوشا أن يهتم به ،
 يناديه الى منزل السيدة هوخلاكوف ؛ وهو يغذ
 اخطى للوصول الى هذا المنزل ، حتى يفرغ من
 ذلك الأمر بأقصى سرعة ، فما يصل بعد ذلك الى
 ميتيا متأخراً . كانت السيدة هوخلاكوف مريضة منذ ثلاثة أسابيع . لقد
 تورمت احدى قدميها لسبب مجهول ، فهي تقضى أيامها في مقصورتها
 ممتدة على كنبه ، مرتدية غلالةً جذابة لكنها محتشمة ، لأنها لم
 تضطر الى ملازمة فراشها . كان أليوشا قد عبّر بينه وبين نفسه ، في
 يوم من الأيام ، عن هذه الملاحظة المسلية البريئة ، وهي أن السيدة
 هوخلاكوف قد أخذت تتغندر منذ زمن : فهي تتزين بعقد صغيرة وأشرطة
 جميلة ، وهي تتفنن في التجميل . ولقد أدرك أليوشا سبب عنايتها هذه
 بملابسها ، ولكنه كان يطرد هذه الخواطر من ذهنه ، ويعدها عبثاً
 لا طائل تحته . والواقع أن السيدة هوخلاكوف قد أخذت ، منذ شهرين ،
 تستقبل بين من تستقبل من معارف وأصحاب ، أخذت تستقبل الموظف
 الشاب برخوتين في أحيان كثيرة .

حين وصل أليوشا الذي لم يزر السيدة هوخلاكوف منذ أربعة أيام ،

حين وصل الى منزلها الآن ، أسرع يتجه رأساً الى غرفة ليزا . فمع ليزا انما كان عليه أن يبحث الأمر الهام الذي أشرنا اليه ، لأن الفتاة قد أوفدت اليه خادمتها بالأمس ترجوه ملحةً أن يجيء اليها بأقصى سرعه ممكنة ، « لأمر خطير جداً » ، وذلك ما أقلق أليوشا لأسباب عدة . ولكن حين ذهبت الخادمة الى ليزا لتبلغها وصول أليوشا ، علمت السيدة هوخلاكوفا بحضوره مصادفةً ، فأرسلت تطلب اليه فوراً أن يجيء اليها « دقيقة واحدة » . فرأى أليوشا أن من الأفضل أن يلبي رغبة الأم أولاً ، والا فمن الممكن أن ترسل اليه من يستدعيه من عند ليزا كل خمس دقائق ، أثناء انصرافه الى الحديث مع ليزا .

كانت السيدة هوخلاكوفا ممتدة على كنبتها ، مهتمةً بحسن ملبسها اهتماماً خاصاً ، وكان واضحاً أنها مضطربة اضطراباً عصبياً شديداً . فلما دخل عليها أليوشا استقبلته بصيحات حماسية .

— منذ قرون ، منذ قرون ما رأيته ! اسبوع كامل ، كيف يمكن هذا ؟ ولكن لا ! . . . لقد جئت منذ أربعة أيام ، جئت يوم الاربعاء الماضي . أنتت ذاهب الى ليزا ؟ لاشك أنك كنت تريد أن تمضي اليها سائراً على رءوس الأصابع حتى لا أسمعك . يا صديقي العزيز ، يا صديقي العزيز جداً ألكسى فيدوروفتش ، ليتك تعلم مدى القلق الذي تسببه لي حالة ابنتي ! ولكنني سأكلمك عن هذا الأمر فيما بعد . ان تلك المسألة تشغل بالي أكثر من سائر المسائل ، ولكن فيما بعد ، فيما بعد ! عزيزي ألكسى فيدوروفتش ، انني أعهد اليك بابنتي ليزا . انني منذ موت الشيخ زوسيماء رحمه الله (وهنا رسمت السيدة اشارة الصليب) ، أعدك ناسكاً ، رغم أنك ترتدي رداءك الجديد على أجمل زى . أين عثرت على خياط بارع هذه البراعة ؟ ولكن لندع هذا الآن ، ليس هذا أهم شيء ، سنتحدث عن هذا فيما بعد . سامحني اذا ناديتك احياناً باسم أليوشا فقط . أنا امرأة

عجوز ، فكل شيء جائز لى (قالت السيدة هو خلا كوفاً هذا وهى تبتمس فى دلال وغنج) • ولكن لندع هذا الآن • سنتحدث عنه فيما بعد • ان الشيء الأساسى هو أن لا أنسى المسألة الهامة • ذكرنى بذلك عند اللزوم ، فاذا ثررت فابتعدت كثيراً عن الموضوع ، فعليك أن تقاطعنى سائلاً : « والأمر الأساسى ؟ » • ولكن أين لى أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسى ! منذ نقضت ليزا العهد الذى قطعته لك - ولم يكن ذلك الا لغو طفلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أعنى عهداً بأن تتزوجك فى يوم من الأيام - فلا شك أنك أدركت أن ذلك كله لم يكن الا ثمرة خيال مضطرب عند بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها المتحرك • الحمد لله على أنها أصبحت قادرة على أن تمشى الآن ! ان ذلك الطبيب الجديد الذى استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذى سوف يحاكم غداً •••• ولكن فى الكلام على الغد ! اننى متى تصورت هذا الغد أو شك أن أموت جزءاً • ذلك من الفضول خاصة • المهم أن هذا الطبيب قد جاء الينا أمس وفحص ليزا •••• ودفعت له أجراً قدره خمسون روبلاً • ولكن لا ، هأنذا ابتعد عن المسألة مرة أخرى •••• ليس هذا ما كنت أريد أن •••• لقد فقدت تسلسل أفكارى تماماً كما ترى • ذلك أنتى متعجلة • لماذا أتعجل هذا التعجل ؟ لا أدرى • أصبحت لا أعرف شيئاً ولا أفهم شيئاً • لقد اختلط كل شيء فى ذهنى أخيراً ، حتى صار أشبه بغيوم • اننى أخشى أن تفر من لحظة الى أخرى ضجراً وسامةً مما أقول ، مع أننى لم أكد أراك • رباه ! ما لى نسييت ! نحن نثرثر هنا ، بينما •••• ولكن يجب أن نشرب القهوة أولاً • يا جوليا ، يا جرافير ، هاتوا القهوة ، هاتوا القهوة حالاً •

أسرع أليوشا يشكرها قائلاً انه قد شرب قهوة منذ قليل •

- عند من ؟

– عند أجرين الكسندروفنا •

– عند تلك ••• تلك المرأة ؟ ولكنها سبب هلاكهم جميعاً • لست أدري على كل حال • يقال انها أصبحت أشبه بقديسة ، وان جاء هذا متأخراً فى رأيى ••• كان ينبغى ان يخطر ببالها ذلك من قبل ، يوم كان ذلك ضرورياً ومفيداً • أما الآن ، فما فائدة قداستها ؟ اسكت ، اسكت ، يا ألكسى فيدوروفتش ، لأن هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك ، أشياء تبلغ من الكثرة أننى أخشى أن أفقد تسلسل أفكارى • وتلك المحاكمة أيضاً ••• سوف أحضرها مهما كلف الأمر ••• اننى استعد لحضورها ، سوف يأخذوننى الى المحكمة على كرسى • ثم اننى أستطيع جداً أن أبقى جالسة • وسيكون بقربى أناس يسندوننى • لا شك أنك تعلم أننى دُعيت الى الشهادة • ماذا أقول لهم ، ماذا أقول لهم ؟ اننى لا أعرف البتة ما أستطيع أن أقوله لهم • سوف يكون على أن أحلف بميناً ، أليس كذلك ؟ قل لى •••

– نعم ، ولكننى أظن أنك فى حالة لا تمكنك من المشول أمام المحكمة •

– أستطيع أن أبقى قاعدة • أوه ••• ولكنك تفقدنى تسلسل أفكارى • تلك المحاكمة ، تلك الجريمة البشعة ، ثم ذلك الرحيل الى سيريا التى سيذهبون اليها جميعاً • سيتزوج أناس آخرون أثناء ذلك ! ما أسرع ما تمضى الحياة ! كل شيء يجرى ، كل شيء يتغير ، ثم لا يبقى أخيراً شيء ، لا يبقى الا عجائز يتربص بهم الموت • ليكن ، ليكن ••• اننى أشعر باعياء • ان كاتيا هذه – هذه الانسانة الفتانة – قد حطمت جميع آمالى : انها تنوى الآن أن تلحق بأحد أخويك الى سيريا • وسيلحق بها الثانى الى هناك ، فيعيش فى مدينة مجاورة • وبذلك لا يزيدون على أن

يضرب بعضهم بعضاً • ان ذلك يفقدنى صوابى ، أوكد لك ••• ولا سيما بسبب ما نشر فى الصحف عن هذه القضية • ان جرائد سان بطرسبرج وموسكو مليئة بأخبارها منذ أسابيع • آه ••• نعم ••• تخيل أنهم تكلموا فى هذه الصحف عنى أنا أيضاً ، زاعمين أننى كنت « الصديقة العزيزة جداً » لأخيك ! اننى لأشمئز من استعمال الألفاظ النابية • هل تستطيع أن تتخيل أمراً كهذا الأمر ، قل لى ، هل تستطيع أن تتصوره ؟

– مستحيل • أين قرأت هذا الكلام ؟

– سأريك ما نُشر • لقد نشر فى جريدة «الشائعات» * التى تصدر فى سان بطرسبرج ، وقد وصلتني الجريدة أمس ، فأسرعت أقرأها • ان هذه الجريدة قد بدأت صدورها فى هذا السنة وأنا أحب الأقاويل حباً شديداً ، لذلك اشتركت فى الجريدة • هل كان فى وسعنى أن أتنبأ أن الشائعات ستتناولنى أنا ؟ اقرأ ، اقرأ ، الكلام هنا ، فى هذا العمود •

قالت السيدة هوخلاكوفا ذلك ومدت الى أليوشا ورقة جريدة كانت قد أخفتها تحت وسادتها •

كانت السيدة هوخلاكوفا فى حالة انهيار نفسى شديد • ليس الأمر فى هذه المرة أمر نوبة من نوبات اعتكار المزاج ، وانما هو هزة قوية أصابت كيائها كله ، ولعل أفكارها قد بلغت فى هذه الساعة من الاضطراب والبلبله والتشويش أنها أصبحت فى رأسها أشبه بنجوم متكاثفة • ان الشائعة التى نشرت فى الجريدة المذكورة تتضمن غمزاً واضحاً وتعريضاً ساخرآ لا بد أن يحدث فى نفسها أثراً أليماً جداً • ومن حسن حظها ، مع ذلك ، أنها كانت فى تلك اللحظة عاجزة عن تركيز فكرها على موضوع واحد • فبفضل ذلك انما كانت تستطيع أن تنسى المقالة الفاضحة بعد دقيقة ، وأن تنتقل الى موضوعات أخرى يجرى عليها الحديث • ولا شك

أن أليوشا كان لا يجهل أن كلاماً كثيراً قد نُشر في صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء التي تفتق عنها خيال المتخيلين والتي لا تمت الى الواقع بصلة (الى جانب المعلومات الصحيحة) عن أخيه ، وعن آل كارامازوف جملةً ، وعنه هو أيضاً . من ذلك مثلاً ما نشرته إحدى الصحف من أن أليوشا قد بلغ من الذعر في أعقاب الجريمة الرهيبة التي اقترفها أخوه أنه اعتصم بدير من الأديرة ، ليعيش حياة الرهبان . وقد أيدت جريدة أخرى هذا النبأ ، ولكنها أضافت إليه أنه قد سرق صندوق الدير متعاوناً مع شيخه زوسيميا ، ثم لاذ الاثنان بالفرار معاً . أما الشائعة التي نشرت في جريدة « الشائعات » فقد كان عنوانها ما يلي : « مراسلنا في سكوتوبريجو نيفسك يكتب إلينا عن قضية كارامازوف » (ذلك هو فعلاً اسم مدينتنا الصغيرة التي لم أجرؤ أن أسميها حتى الآن) . ان المقالة قصيرة ، ولم تُذكر فيها السيدة هوخلاكوفا اسماً . ولقد 'أغفل على وجه العموم ذكر جميع أسماء الأشخاص، واقتصر على الإشارة الى أن المجرم الذي أحدثت جريمته ضجة كبرى ، والذي سيحاكم قريباً ، هو ضابط محال على التقاعد برتبة كابتن ، متطرس كسول عنيف رجعي التفكير ، هذا الى أنه زير نساء مستهتر ، كان له بعض التأثير في « نساء عديدات أضجرتهن الوحدة » ، فمن هذه السيدات « أرملة عاطلة » كانت تتصايب وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها بنتاً بالغة راشدة ، وقد بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنيء أنها عرضت عليه قبل وقوع الجريمة بساعتين في أكثر تقدير ، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل ، ليوافق على اختطافها والسفر معها الى مناجم الذهب فوراً . ولكن الشقي آثر أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل ، أملاً أن لا تكشف جريمته ، أو مؤثراً في كل حال أن يتعرض لهذا الخطر على أن يرحل الى سيبيريا في صحبة السيدة العاطلة التي تنعم بمفاتيح

سن الاربعين * واختمت المقالة التي ارادت أن تكون فكهة ، اختتمت على نحو مايجب أن تختتم فعبرت عن أشد الاستنكار لهذه الجريمة الفظيعة التي ارتكبتها قاتل أبيه بنذالة ما بعدها نذالة ، ولم تنس في الوقت نفسه أن تدين نظام الرق القديم *

قرأ أليوشا المقالة باهتمام واستطلاع ، ثم طوى ورقة الجريمة وردّها الى السيدة هوخلاكوفا *

تمتت تقول من جديد :

– هذا عنى أنا ، عنى أنا ، أليس كذلك ؟ لا شك أبداً في أنه عنى أنا * لقد نصحته فعلاً ، قبل وقوع الجريمة بساعة ، أن يذهب الى مناجم الذهب * فانظر ماذا خرج من ذلك فجأة : « مفاتن سن الأربعين » ! هل كان ذلك غرضي ؟ هل خطر ببالي هذا ؟ أسأل الله أن يغفر له هذه التخريصات مثلما أغفرها له أنا * ذلك أن كاتب هذه المقالة هو ... لا بد أنك تعرف من هو ... انه صديقك راكيتين *

قال أليوشا :

– هذا جائز جداً * ولكنني كنت أجهل ذلك *

– انه هو ، انه هو ، ليس هذا جائزاً بل هو أكيد والسبب انني طردته من منزلي * أظن أنك علمت بهذا الحادث *

– أعرف أنك طلبت منه أن لا يتردد الى بيتك * أما السبب الذي دفعك الى هذا القرار ، فأعترف ... أنني لم أعلم به ... لم أعلم به منك على الأقل *

– اذن علمت به منه هو * أهو حاقد على كثيرآ ، أهو غاضب مني

جدآ ؟

– نعم ، هو غاضب ، ولكنه غاضب من جميع الناس • أما السبب الذى من أجله أغلقت بابك دونه ، فانه لم يذكره لى • وأنا على وجه العموم لا أراه الا نادراً • ليس هو صديقى •

– طيب • سأقول لك الحقيقة كلها • لا ضير • ثم اننى نادمة على شىء من الأشياء فى هذه المسألة ، ان هناك عنصراً صغيراً أنا مسؤولة عنه • هو أمر بسيط ، بسيط جداً ، أمر تافه لا قيمة له ، حتى لقد لا يكون له وجود الا فى خيالى . اسمع يابنى العزيز (هنا بشىء وجه السيدة هو خلا كوفى وارتسمت على شفيتها ابتسامة رائعة وان تكن لا تفهم فكأنها لغز) ••• اسمع ••• اننى أشتهه فى أنه ••• سامحنى يا أليوشا ، فانما أنا أخاطبك كما تخاطب أم ابنها ••• أقصد ••• لا ••• ان عكس هذا هو ما أردت أن أقوله ••• اننى أخاطبك كما يخاطب كاهن ••• اذ لا مجال للحديث هنا عن أم ••• لا قيمة لهذا على كل حال ••• المهم اننى أكلمك كما كان يمكن أن أكلم الأب زوسىما معترفة • ذلك هو أحسن تشبيه هنا • ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك ؟ ••• فاسمع اذن : ان هذا الشاب الشقى ، صاحبك راكيتين ••• أوه ••• رباه ! اننى لا أستطيع أن أغضب منه حقاً ! أنا مستاءة كثيراً بل وحانقة جداً ••• ولكن على ضعف ••• الخلاصة : ان هذا الشاب الطائش السطحي قد أولع بى فجأة ••• تصور ! أنا لم ألاحظ ذلك الا فيما بعد • فى البداية ، أى منذ شهر ، أصبح يكثر من زيارتى ، وأصبح يجىء الى كل يوم تقريباً ، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل • لم أشتهه فى شىء • لم يخطر ببالى شىء • ولكن هأنذا ألاحظ قبساً من نور على حين فجأة ، وهأنذا آخذ أنتبه الى بعض الأشياء مدهوشة كل الدهشة • أنت تعلم أننى أصبحت منذ شهرين أستقبل فى كثير من الأحيان ذلك الشاب الطيب الرائع المتواضع الرصين ، بطرس ايلتشس برخوتين ، الموظف فى مدينتنا •

لقد التقيت أنت به عندي مراراً على كل حال • انه شاب جاد كل الجد ،
لاثق كل اللياقة ، ألا ترى ذلك ؟ انه يجيء الى بيتي مرتين أو ثلاث
مرات في الأسبوع ، أقصد أنني لا أراه في جميع الأيام ، ولست أجد
أى ضير في أن يجيء كل يوم على كل حال • هو دائماً حسن الهيئة
جيد الهندام • وأنت لا تجهل يا أيوشا أنني أحب الشباب • اننى أحب
الشباب المتواضعين الذين يملكون مواهب عظيمة ، من أمثالك أنت مثلاً
يا أيوشا • ان لهذا الشاب ذكاء يجعله مساوياً لرجل دولة • وما أجمل
حديثه ! سوف أتوسط له لدى الأوساط العليا ، نعم ، نعم ، سوف
أتوسط له حتماً • سيكون في المستقبل دبلوماسياً من الطراز الأول •
وقد أنقذ حياتي تقريباً في ذلك اليوم الرهيب • أنقذني من موت محقق
حين جاء الى في الليل • أما صديقك راكيتين ، فانه يجيء دائماً بحداءيه
الضخمين يجرهما على السجاد جراً • الخلاصة : أخذ راكيتين يسمعن
تلميحات مستخفية في أول الأمر ، وفي ذات يوم شد على يدي شداً
قوياً حين انصرف • فما ان شد على يدي ذلك الشداً حتى شعرت بألم
في ساقى • وقد التقى عندي ببطرس ايلتس ، ولكنه ما انفك يسفنه
ويعبه ويتقده دون سبب • واقتصرت أنا على أن ألاحظهما كليهما ،
فكان يسلينى أن أرى كيف يعامل كل منهما الآخر وكيف يتصرف كل
منهما ازاء الآخر • وانى لوحدى في ذات مرة (وكنت في تلك الآونة
قد أصبحت مضطرة الى الاضطجاع) اذا بمشيل ايفانوفتش يجيئني حاملاً
الى أشعاراً ••• تصور ! ••• هي قصيدة صغيرة أوحى اليه بها ساقى
المريضة • انتظر • سأشذك الأبيات :

كيف للساق الجميلة

كيف للساق اللذيذة

أن تعاني الما

يا لهمى !

نسيت التتمه • يصعب علىّ دائماً حفظ الشعر • لا بأس على كل حال • لقد خبأت القصيدة في مكان قريب جداً • سوف أطلعك عليها في ذات مرة • ولكنها أشعار رائعة ، حقاً • هي لا تتحدث عن قدمي فحسب ، بل تتحدث عن أكثر من ذلك ، لأنها تتضمن فكرة أخلاقية هامة جداً • يؤسفني أنني لا أتذكر الآن تلك الفكرة • أستطيع أن أجمل رأيي فأقول ان هذه القصيدة تستحق أن تحفظ في اليوم • وقد شكرته طبعاً ، فسُرّ بذلك سروراً عظيماً • وفي تلك اللحظة نفسها دخل بطرس ايلتش ، فسرعان ما توجهم وجه ميشيل ايفانوفتش • أدركت أن وصول بطرس ايلتش قد أفسد عليه مشاريعه • ذلك أنه كان ينوي ، ولا شك ، أن يقول لي شيئاً بعد قراءة القصيدة • لقد أحسست أنا بذلك ، ولكن ها هو ذا بطرس ايلتش يدخل في تلك اللحظة نفسها • أطلعت بطرس ايلتش على القصيدة طبعاً ، ولكن دون أن أقول له من الذي نظمها • على أنني واثقة ، واثقة كل الثقة ، من أنه سرعان ما حزر الحقيقة ، وان كان ينكر ذلك حتى الآن • هو يدعى أنه لم يحزر شيئاً • ولكنه يزعم ذلك عامداً • انفجر بطرس ايلتش ضاحكاً حين قرأ القصيدة ، ثم نقدها نقداً لاذعاً ، فقال : « هي أشعار تافهة ، جديرة بطالب من طلاب اللاهوت في أكثر تقدير » • لقد ثار على رداءة القصيدة الصغيرة • وهذا صاحبك يستبد به حنق شديد على حين فجأة ، بدلاً من أن يضحك • قلت لنفسي : « آه ... يارب ! لسوف يتضاربان ! » • قال راكيتين : « أنا ناظم القصيدة • لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح ، لأنني أرى أنه لا يليق برجل أن يضيع وقته في النظم • ولكن أشعاري جميلة مع ذلك • ان في النية اقامة نصب تذكاري لبوشكين * الذي الذي تغني بجمال أقدام النساء • وان لأشعاري أنا اتجاهاً أخلاقياً • أما أنت (قال ذلك مخاطباً بطرس ايلتش) ، فما أنت الا رجل رجعي

عاجز عاجزاً تاماً عن فهم الصبوات العميقة للانسانية . لقد ظلت غريباً عن المشاعر النبيلة التي تهز قلوب أبناء الجيل الراهن . ان التقدم قد مرّ بقربك دون أن يلامسك ، لأنك لست الا موظفاً مرتشياً ! » أخذت أصرخ أنا أيضاً ، ضارعة اليهما أن يسكتا ويهدءا . وليس بطرس ايلتش هذا بالرجل الهيبّ ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة رفيعة ، فبعد أن أصغى الى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر له قائلاً : « كنت أجهل أنك ناظم هذه الأبيات ، ولو عرفت ذلك لما قلت الكلام الذي قلته ، بل لانبريت أطرى الأبيات . يقال ان الشعراء شديديو الحساسية سريعو التأذى . . . » . الخلاصة أنه استهزأ به وسخر منه ، ولكن بلهجة يدل ظاهرها على غاية اللباقة والكياسة . لقد شرح لي هو نفسه فيما بعد أن ذلك كان تهكماً ، لأننى كنت ظننت فى أول الأمر أنه تكلم جاداً لا هازلاً . ولقد كنت أثناء تلك المناقشة مضطجعة كاضطجعى الآن أمامك ، وكنت أتساءل هل يليق بى أو لا يليق أن أطرد ميشيل ايفانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ فى بيتى وأن يهين ضيفى . فهل تصدق ما سأقوله لك ؟ كنت مضطجعة وقد أغمضت عيني وأخذت أفكر : « أمن اللباقة أن أطرده أم لا ؟ أأصرخ طالبةً اليه أن ينصرف أم لا ؟ » . كان هناك صوت يهيب بى : « اصرخى ! » ، وكان هناك صوت آخر ينصحنى بأن لا أصرخ . فما ان سمعت هذا الصوت الثانى الذى ينصحنى بأن لا أصرخ حتى أخذت أصرخ ، وسقطت مغشياً علىّ فوراً . وقام البيت وقعد كما تقدّر . ونهضت بعد لحظات فقلت لميشيل ايفانوفتش : « يؤسفنى أن أقول لك اننى لا أحب أن أراك بعد اليوم فى منزلى . » . هكذا طرده من بيتى . آه يا ألكسى فيدوروفتش ، انى لأعلم حق العلم أننى أسأت التصرف . ولقد كذبت من جهة أخرى ، لأننى لم أكن غاضبة منه فى الواقع . ولكننى أحسست أن تدخلنى هذا

سيكون فيه كثير من الرفعة والتميز ، فاستسلمت لاغراء ما فى ذلك
 المشهد من جمال • على أن وضعى كان طبيعياً ، فقد طمقت أبكى ،
 وظللت أبكى عدم أيام • ومع ذلك كنت قد نسيت بعد الغداء كل شيء •
 وقد انقطع راكيتين عن زيارتى منذ أسبوعين ، فكنت أتساءل : « هل
 يُعقل حقاً أن لا يأتى بعد الآن قط ؟ » • وظللت ألقى على نفسى هذا
 السؤال حتى أمس ، حين جاءونى عند المساء بجريدة « الشائعات »
 هذه ، فلما قرأت المقالة أوشكت أن انقلب على ظهرى • من ذا الذى
 يمكن أن يكون قد كتب هذه المقالة الا راكيتين نفسه ؟ لقد عاد الى مسكنه
 غاضباً حائقاً ، فلا بد أنه جلس الى مكتبه فوراً ليديج هذه الرسالة
 الصحفية ، ثم أرسلها الى الجريدة التى سارعت تنشرها • حدث هذا منذ
 أسبوعين تماماً • ولكننى ألاحظ يا أليوشا أنتى اتخبط فى الحديث هنا
 وهناك ، ناسيةً الأمر الأساسى الذى كنت أريد أن أكلمك فيه • ماذا
 تريد ؟ ذلك أقوى منى !

حاول أليوشا أن يدسَّ كلمة فقال فى خراقة :

– أنا اليوم مستعجل جداً لأصل الى عند أخى فى الساعة
 المحددة •

– صحيح ، صحيح • لقد ذكرتنى بالأمر • قل لى : ما هو
 المس ؟

سألها أليوشا مدهوشا :

– أى مس ؟

– المس القضائى • المس الذى من أجله يُغفر كل تىء • فمهما
 يقترف المرء من جرم ، يغفر له على الفور •
 – بأية مناسبة تسألين هذا السؤال ؟

– اليك الأمر : ان كاتيا هذه ... آه ... ما أروعها من مخلوقة !
 ما أجملها من انسانية ، ولكنني لم استطع أن أعرف أيهما تحب . لقد
 كانت عندي منذ مدة ، وعبثاً حاولت أن أفهم منها شيئاً . جهد ضائع ،
 وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت مني على حين فجأة وضماً
 سخيفاً جداً . انها لا تتحدث معي الا عن صحتي ، ولا شيء غير ذلك .
 لقد اصطنعت في مخاطبتي لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أنني قلت
 لنفسي : « لا بأس ، لا بأس ، أسأل الله أن يرعاك يا عزيزتي ! ... »
 آ ... نعم ... كنت أسألك عن المس . وذلك بمناسبة وصول
 الطبيب ... هل تعلم أن في مدينتنا الآن طبيباً جديداً ؟ ولكن لا بد أنك
 تعلم ذلك ، فهو طبيب من أطباء الأمراض العقلية ، وأنت الذي
 استقدمته ... أقصد ... لا أنت ، بل كاتيا ... كاتيا أيضاً ! اليك
 المسألة اذن : هذا رجل ليس بمجنون ، ولكنه يُصاب فجأة بمس .
 لقد احتفظ بوعيه ، وهو يعلم ماذا يفعل ، ولكنه مع ذلك ممسوس .
 لعل هذا ما جرى في حالة دمتری فيدوروفتش ... لا بد أن مساً قد ألم
 به . هذه نظرية حديثة اكتُشفت منذ اعادة تنظيم محاكمنا . ان اعادة
 تنظيم القضاء هذه قد أحسنت الينا جميعاً ، ولولاها لم نعرف المس . لقد
 زارني الطبيب الجديد ، وسألني عما حدث في تلك الأمسية ، أقصد
 مسألة مناجم الذهب تلك : كان يريد أن أصف له الحالة التي كان عليها
 أخوك . حقاً لقد كان أخوك في حالة مس واضحة . جاء اليّ صارخاً :
 « أريد مالاً ، أريد مالاً ، أنا في حاجة الى ثلاثة آلاف روبل ، فأعطني
 ثلاثة آلاف روبل » ، ثم مضى ، وأصبح قاتلاً على حين فجأة . كان
 يقول : « لا أريد أن أقتل ، لا أريد أن أقتل » . ولكنه قتل . فلهذا
 السبب انما سيغفرون له ، لأنه قاوم المس ، ثم قتل بعد ذلك .

قاطعها أليوشا يقول بلهجة فيها شيء من الضيق :

– ولكنه لم يقتل •

وأحس بتبرم وقلق يستوليان عليه شيئاً بعد شيء •

قالت السيدة هو خلا كوفاً :

– أعرف أنه لم يقتل • ان العجوز جريجورى هو الذى •••

صاح أليوشا :

– جريجورى ؟ كيف ؟

– نعم ، نعم ، هو جريجورى • فبعد أن صرعه دمترى فيدوروفتشس ،

لبث مغمى عليه مدةً من الوقت ، ثم نهض فرأى الباب مفتوحاً ، فهرع

ليقتل فيدور بافلوفتشس •

– ولكن لماذا ، لماذا ، لأى هدف ؟

– اتابه مس • لقد ضربه دمترى فيدوروفتشس على رأسه ، فلما

أفاق من غيبوبته ، كان المس قد استحوذ على عقله ، فمضى يقتل • ولئن

كان ينكر أنه القاتل ، فان ذلك لا يبرهن على شيء ، لأن من الجائز جداً

أنه أصبح لا يتذكر • ولكن صدقنى اذا قلت لك ان من الأفضل ، من

الأفضل كثيراً أن يكون دمترى فيدوروفتشس هو الذى ارتكب الجريمة •

ثم انه هو الذى قتل • ان القاتل هو دمترى فيدوروفتشس فى الواقع ،

رغم اننى أؤكد أنه جريجورى ، وذلك أفضل ، أفضل كثيراً • لا تسمى

فهمى • أنا لا أدعى أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه • لست

أمنى على قتل الابن أباه • هيهات أن أفعل ذلك • بالعكس : أنا أو من

بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم • ولكن من الأفضل مع ذلك أن يكون

هو القاتل • ولن تكون فى حاجة الى أن تشكو وتندب وتستنكر ، ما دام

قد قتل بغير وعى • أقصد أنه كان واعياً ، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل •

لا ، لا ، يجب أن يغفروا له • أنا أؤيد تبرئته • لسوف تكون تبرئته مثلاً

انسانياً جميلاً ، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات إعادة تنظيم القضاء .
 كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذى يقال انه وجد منذ زمن .
 فما ان علمت بهذا الأمر أمس حتى أحسست بشعور بلغ من القوة أننى
 أردت استدعاءك فوراً . وفى المستقبل ، متى برّىء أخوك ، سيجب
 عليه حتماً أن يجرى الى الغداء عندى منذ خروجه من المحكمة . سأدعو
 جميع معارفى وأصحابى ، وسنشرب نخب إعادة تنظيم القضاء . لا أظن
 أن أخاك خطر جداً . ثم اننى سأدبر الأمر بحيث يكون عدد المدعويين
 كبيراً ، فاذا حدث شئ كان فى الامكان اخراجه من البيت . وبعد ذلك
 يستطيع أن يستقر فى مدينة أخرى قاضياً صلحاً ، أو أن يُعيّن
 لوظائف من هذا القبيل ، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون خير
 القضاة . وأى انسان يستطيع من جهة أخرى أن يزعم أنه مبرأ من
 المس . اننا جميعاً مصابون بالمس ، أنت وأنا وسائر الناس . ليست تعوزنا
 الأمثلة على ذلك : هذا رجل يبدو فى الظاهر هادئاً ويعنى أغنية
 عاطفية . وفيما هو كذلك اذا بشئ من الأشياء لا يرضيه ، فيخرج
 مسدساً ويقتل أول قادم ثم يشفى . لقد قرأت فى الآونة الأخيرة قصة
 من هذا النوع ، وقد أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة . ان الأطباء فى
 أيامنا هذه يؤكدون دائماً ، يؤكدون كل شئ . تصور أن ابنتى ليزا
 مصابة بمس . أمس اضطررتنى الى البكاء ، وأمس الأول أيضاً . واليوم
 انما اكتشفت الحقيقة ، وهى أنها قد اعترأها مس . آه . . . ليتك تعلم
 كم تسبب لى ليزا من عناء ! انى لأتساءل أحياناً : ألم تفقد عقلها ؟ ترى
 ماذا استدعتك ؟ أهى استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك ؟

قال أليوشا وهو ينهض بحزم :

— بل هى استدعتنى ، وأنا ذاهب اليها .

فصاحت السيدة هوخلاكوفنا تقول وهى تبكى :

- ولكن يا صديقي العزيز ، يا صديقي العزيز جداً ألكسى فيدوروفتش ، الآن انما وصلنا الى الأمر الأساسى • شهد الله أننى أكل اليك لبزا صادقةً فى ذلك كل الصدق • لأن تستدعيك ليزا على غير علم أمها ، فليس هذا بالأمر الخطير جداً • وما كان لى أكل ابنتى بمثل هذه الطمأنينة الى أخيك ايفان فيدوروفتش ، ساحنى اذا قلت هذا ، رغم أننى أعدته ، حتى اليوم ، شاباً تفيض نفسه فروسية • هل تتصور مع ذلك أنه زار ليزا ، من غير أن أعلم أنا شيئاً ؟

قال أليوشا مدهوشاً كل الدهشة :

- ماذا ؟ كيف ؟ متى زارها ؟

ومع ذلك لم يعد الى الجلوس ، بل استمع الى شروح السيدة هوخلاكوفا واقفاً •

- سأقص عليك كل شىء • ومن أجل هذا انما استدعيتك فيما أظن • على أننى أصبحت لا أعرف أنا نفسى لماذا استدعيتك • اليك الأمر : لقد زارنى ايفان فيدوروفتش مرتين منذ عودته من موسكو • فأما فى المرة الأولى فقد جاء من قبيل اللباقة بصفته صديقاً لا أكثر • وأما فى المرة الثانية ، وهى حديثة جداً ، فقد كانت كاتيا عندى ، فعلم بذلك ، فجاء هو أيضاً • لست أطمع طبعاً فى أن يشرفنى بالمجىء الى منزلى كثيراً ، لأننى أعرف مدى انشغاله فى هذه الآونة ••• بسبب مية أبيك تلك الفظيعة ••• ولكن هأنذا أعلم على حين فجأة أنه عاد الى منزلى لا ليزورنى أنا ، بل ليزور ليزا • حدث ذلك منذ ستة أيام • حضر اليها ، ومكث خمس دقائق ، ثم ما لبث أن انصرف • لم أعلم بهذا الا بعد ثلاثة أيام • علمت من جرافير ، فدهشت دهشةً شديدة • أسرعتُ أنادى ليزا ، ولكنها لم تزد على أن ضحكت • وقالت تشرح لى : « كان يظن

يا ماما أنك نائمة ، فجاء الى يسأل عن صحتك « * أغلب الظن أن هذا صحيح * ومع ذلك ليتك تعلم مدى ما تسببه لي ليزا من قلق ! آه ... *
يا رب ! ... * تصور أنها في ذات ليلة - حدث هذا منذ أربعة أيام ، عقب زيارتك الأخيرة فوراً - قد اتابتها نوبة عصبية على حين فجأة : فكانت تصرخ وتئن كأنها مصابة بهستيريا * لماذا لا أصاب أنا بنوبات عصبية ؟ ان في وسعي أنا أيضاً أن أنعم بهذا الترف * وتكرر ذلك في الغد ، وتكرر أيضاً في اليوم الذي تلاه ؛ وأمس حدث فصل جديد ، وفي نحو المساء بدأت تظهر عليها أعراض المس * صرخت تقول لي بغتة : « أنا أمقت ايفان فيدوروفتشس . يجب أن لا تستقبله ياماما ، يجب أن تمنعه من دخول بيتنا ! » * ذهلت ، وأجبتها بأن من المستحيل علينا أن نعامل على هذا النحو شاباً مثله كريم النفس رفيع الثقافة ، شقياً هذا الشقاء كله فوق ذلك * ذلك أن هذه القصص كلها إنما هي شقاء لا سعادة ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فلم يكن من بنتي الا أن أجابت على كلامي بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها اهانة جارحة لي * ومع ذلك قلت لنفسي : « لا بأس ، ما دمت قد استطعت أن أفرحها ، فلعل نوباتها العصبية ستزول الآن » * وكنت أنوى أنا نفسي ، من جهة أخرى ، أن أطرده ايفان فيدوروفتشس بسبب زيارته الغريبة هذه لابنتي بدون اذني * حتى لقد كنت أريد أن أطلب منه شرحاً لذلك * ولكن ها هي ذى ليزا تشور على جوليا ثورة عنيفة في هذا الصباح منذ استيقظت ، حتى لقد بلغت من ذلك أنها صفعتها ، هل تتصور هذا ؟ أليس هذا شذوذاً غريباً ؟ لاحظ أنني أنا لا أخاطب خدمي أبداً بصيغة المفرد * وما انقضت على ذلك ساعة حتى كانت ليزا تعانق جوليا وتقبل قدميها * وفي مقابل ذلك بعثت ببلغني أنها ان تجيء الى ، لن تجيء الى قط ، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا ؟ فلما جررت نفسي الى غرفتها يائسة ، ارتمت على وغمرتنى بقبلاتها وهي تبكي ؛ وفيما هي

تقبلى دفعتنى الى خارج الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلم أعرف
 آخر الأمر شيئاً . اننى أضع الآن جميع آمالى فىك ، يا عزيزى ألكسى
 فيدوروفتش ، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيدىك مصيرى وحياتى .
 أضرع اليك أن تذهب الى ليزا ، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن
 يكلمها . ثم عدّ الى لتشرح لى ما يحدث فى نفسها ، ولتقص على
 كل شىء ، أنا أمها . ذلك أننى سأموت ، نعم سأموت اذا استمرت تجرى
 الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً ، والا فسأهرب من هذا البيت
 تاركة كل شىء . لقد نفذت قدرتى على الاحتمال ، وخارت قوتى .
 صحيح أن صبرى واسع ، ولكن لهذا الصبر حدوداً ، فاذا بلغت هذه
 الحدود أمكن أن تقع أمور فظيعة . . . آه . . . يا رب ! . . .

وفيما كانت السيدة هوخلاكوفا تقول هذا الكلام ، اذا هى تلمح
 الموظف برخوتين داخلاً الى الغرفة ، فصاحت تقول وقد أشرقت
 أساريرها على حين فجأة :

– هذا بطرس ايلتش يصل أخيراً ! لقد تأخرت عن المجيء .
 انتظرتك طويلاً . هيه ! اجلس ، تكلم ، قرر مصيرى . ماذا قال
 المحامى ؟ الى أين تذهب يا ألكسى فيدوروفتش ؟

– أنا ؟ الى ليزا . . .

– ها . . . نعم . . . صحيح . . . لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك ،
 أليس كذلك ؟ على هذا يتوقف مصيرى ، نعم مصيرى . . .
 دمدم أليوشا يقول وهو يستعجل الخروج :

– لن أنسى ، هذا اذا وفقت الى أن ***

– لا ، لا *** ان عليك أن تعود الى حتماً * لا أريد كلمة « قد »

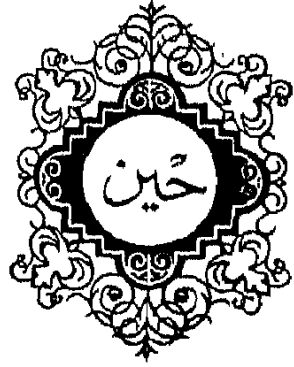
*** والامت !***

كذلك صاحت تقول السيدة هو خلا كوفنا ، ولكن أليوشا كان قد

• خرج •

٣

شيطان صغير



دخل أليوشا غرفة ليزا وجد الفتاة مضطجعة نصف اضطجاع على الكرسي المتحرك التي كانوا ينقلونها عليه في السابق حين لم تكن تستطيع أن تمشي بعد • لم تقم ليزا بحركة من أجل أن تهب الى لقاءه ، وانما حدثت اليه بنظرة ناقبة نافذة • كانت عيناها مشتعلتين قليلاً ، وكان وجهه الشاحب يبدو مصفراً بعض الاصفرار • دهش أليوشا من التغير الذي طرأ على مظهرها في غضون ثلاثة أيام • حتى لقد لاحظ أنها نحلت بعض التحول • لم يمدد اليها يده ، بل اقتصر على ملامسة أصابعها الطويلة التي كانت جامدة على ثوبها • ثم جلس قدامها دون أن يقول كلمة •

قالت ليزا بصوت جاف :

– أعلم أنك تستعجل الذهاب الى أخيك في السجن • لقد احتجزتك ماما ساعتين ، ولم تزد على أن كلمتك عنى وعن جوليا أثناء تلك المدة كلها •

سألها أليوشا :

– كيف عرفت هذا ؟

فأجابته :

- تنصت على البسبب . . . لماذا تنظر الى هكذا ؟ انه ليحلو لي أن أتجسس على أحاديث أمي ، وسأظل أفعل ذلك كلما شاء لي هواي أن أفعله . لست أرى في هذا أي بأس ، ولا يخطر ببالي أبداً أن أعتذر عنه .
- ما الذي جعل مزاجك معتكراً هذا الاعتكار ؟

- أنا ؟ بالعكس : انني مسرورة جداً . لقد قلت لنفسي في هذه اللحظة نفسها ، للمرة الثلاثين ، انني قد ألهمت حقاً حين نكلت عن وعدى ورفضت أن أصبح زوجتك . أنت زوج لا يطاق . هبني تزوجتك ، ثم كلفتك بأن تحمل رسالة الى عشيقى : لسوف تقوم بهذه المهمة ، ولن تقتصر على حمل الرسالة اليه بل ستجيشني بالرد أيضاً . وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك بذلك .
وأخذت ليزا تضحك . فقال أليوشا مبتسماً :

- ان فيك مزيجاً من طفل طيب وطفل خبيث في آن واحد .
- هل تجدني ساذجة ؟ انني ساذجة ، وبفضل هذا لا أخجل منك .
أنا لا أتخرج أمامك ، انني أرفض أن أخجل منك ، نعم منك أنت بالذات . قل لي يا أليوشا : لماذا أنا لا أحترمك ؟ انني أحبك كثيراً ، ولكنني لا أحترمك . والا لما استطعت أن أقول لك هذا في وجهك دون أن احمر ، أليس كذلك ؟

- هو كذلك .

- هل تعتقد أنني لا أحترمك ؟

- لا ، لا أعتقد بذلك .

ضحكت ليزا ضحكة عصبية مرة أخرى . كانت تتكلم بسرعة ، في نوع من تعجل قلق مهموم .

- أرسلت سكاكر الى أخيك دمترى فيدوروفتشس في سجنه •
أليوشا ، ليتك تعلم كم أنت لطيف ! سوف أحبك كثيراً لأننى أبحث
لنفسى أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة •

- لماذا استدعيتنى اليوم يا ليزا ؟

- أردت أن أنقل اليك رغبة • اننى أتمنى أن أعذب • اتمنى أن
يتزوجنى أحد ، وأن يعذب روحى بعد ذلك : يخوننى ويهجرنى
ويسافر • لا أريد أن أكون سعيدة •

- أتحمين الفوضى اذن ؟

- نعم ، أحب أن أعيش فى الفوضى • أحلم دائماً باحراق
المنزل • أتخيل كيف سأقترب من العمارة ، وأشعل فيها النار دون أن
يرانى أحد • يجب أن يتم هذا بالسر حتماً • ويهب الآخرون يسعون
هنا وهناك محاولين اطفاء اللهب ، ولكن اللهب ما ينفك يشتد • وأكون
هناك ، أرى كل شىء ، ولا أنطق بكلمة • هوه ! تلك سخافات ! اننى
ضجيرة ، ضجيرة ضجراً رهيباً •

قلت ليزا ذلك وحركت يدها الصغيرة بإشارة اشمئزاز •

قال أليوشا فى رفق ولين :

- انك تعيشين فى الثراء •

- أأكون من الأفضل أن أعيش فى الفقر ؟

- نعم ، ذلك أفضل •

- ان صاحبك الراهب الراحل هو الذى دسّ فى رأسك هذه
الأفكار • ذلك خطأ • فليبق الآخرون فقراء ؛ أما أنا فأريد أن أكون

غنية • آكل سكاكر ، واشرب قشدة ، ولا أعطى من ذلك شيئاً لأحد •
 لا ، لا ، لا تقل لى شيئاً (قالت ليزا ذلك وهى تحرك يدها بايماءة تصد
 اليوشا عن الكلام ، مع أن أليوشا لم يفتح فمه) • لقد سبق أن قصصت
 على تلك الحكايات • انها مضجرة • لو كنت فقيرة لقتلت أحداً • ولو كنت
 غنية لقتلت أيضاً • لماذا أبقي دون أن أعمل شيئاً ؟ أريد أن أحصد ، هل
 تعلم ! أريد أن أجنى محصول القمح • سوف أتزوجك ، وسوف تصبح
 أنت فلاحاً ، لا فلاحاً حقيقياً ، وسيكون عندنا مهر ، مهر صغير جميل ،
 هل تريد هذا ؟ بالمناسبة : هل تعرف كالجانوف ؟

- أعرفه •

- انه يسير حالمًا طول الوقت • يقول : « لماذا أحيأ ؟ الأوّل أن
 أحلم » • ان الانسان يستطيع أن يحلم بأشياء مسلية ، أما الحياة فهى
 مضجرة دائماً • على أنه سيتزوج قريباً • لقد صارحنى بحبه ، هل
 تتصور ؟ صارحنى أنا أيضاً • هل تعرف كيف تدوّم خذروفًا ؟

- نعم •

- هو أشبه بخذروف : يكفى أن ترميه ثم تجعله يدور ويدور
 بضربات سوط • الخذروف يُضرب بسوط صغير ، فإذا هو يدور ، ثم
 يدور • ذلك ما سأفعله • سأتزوجك ثم أظل أدومّه طوال حياته
 كخذروف • ألا تشعر بخجل من الثرثرة معى !

- لا •

- لا بد أنك حانق من سماع ما افوله من ترهات سخيفة الى هذا
 الحد • أنا لا أحب أن أكون فديسة ، هل تعلم ؟ ما هو العقاب الذى
 سأعاقب به فى الحياة الآخرة على الخطيئة الكبرى ؟ لا بد أن تكون عالماً
 بهذه الأمور •

قال أليوشا وهو يتفرس في وجه الفتاة بانتباه :

- سوف يحكم الله عليك •

- سوف يُحكم عليّ • ذلك بعينه ما أتمناه • أمثل أمام الحكمة ،
فيحكم عليّ ، فأنفجر ضاحكاً وأنا أحرق إلى أعين الجميع • آه •••
ما أعظم تسوقى إلى احراق المنزل ، إلى احراق منزلنا يا اليوشا ! أنت
لا تصدق ، أليس كذلك ؟

- لم لا ؟ انه ليتفق حتى لأطفال في الثانية عشرة من أعمارهم أن
يتمنوا احراق شيء ما ، ثم اذا هم يفعلون ذلك • هذا نوع من المرض •
- خطأ ، خطأ ! أعلم أن هناك أطفالاً ••• ولكننى أتكلم عن
شيء آخر •

- أنت تعدين الشر خيراً • هذه نوبة طارئة لن تدوم ، ولا شك
أنها من بقايا مرضك القديم •

- لا بد أنك تحتقرنى كثيراً حتى تقول هذا الكلام • الحقيقة أبسط
من ذلك • أنا لا أحب عمل الخير ، وأوثر عليه الشر • ذلك كل ما فى
الأمر ، وليس فى هذا أى مرض •
- لماذا تحيين عمل الشر ؟

- لأدمر كل شيء ، فلا يبقى شيء • آه ••• ما أجمل أن أفتح
عيني ، فأرى أن كل شيء قد زال ! اعلم يا أليوشا أننى أحلم دائماً بأن
اقترف سيئات كثيرة رهيبية • أظل أعمل زمناً طويلاً فى الظلام والسر ،
ثم يكتشفون الحقيقة على حين فجأة • سيهبون عندئذ جميعاً ضدى ،
وسيشيرون إلىّ بالأصابع • فلا أزيد أنا على أن أتفرس فيهم هادئة كل

الهدوء • ما أمتع هذا ! لماذا يكون هذا ممتعاً يا أليوشا ؟ هل تستطيع أن تقول لى لماذا ؟

- لا أدري ، ولكننى أعرف أن الأمر كذلك • هذه هى الحاجة الى تحطيم شىء ما ، أو الى اشعال النار فى المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة • هذه العواطف توجد فى نفوسنا أحياناً •

- أنا لم أقل كلاماً عابثاً ، لسوف أفعل ما قلت •
- أصدِّق •

- آه ••• ما أعظم ما أحبك لأنك قلت انك تصدقنى • أنت لا تكذب البتة ، البتة ، أليس كذلك ؟ أم لعلك ظننت مع هذا اننى قلت ما قلت عامدةً لأعيقك ؟

- لا ، لا أظن ذلك ••• وان كان من الممكن أن يكون فيك الى جانب هذا شىء من حب الاغاظه •

- صحيح • هنالك قليل من الاغاظه فى هذا • أعترف لك بذلك •
ثم هتفت تقول فجأة وقد قدحت فى نظرتها شرارة :
- لن أكذب أمامك أبداً •

'دهش أليوشا خاصةً مما كان فى الفتاة من جد • لم يكن فى وجهها أثر لسخرية أو « شيطنة » ، على حين أن المرح والابتسام العنيد كانا لا يفارقانها قبل ذلك أبداً حتى فى « أخطر » اللحظات •

قال أليوشا مفكراً :

- ثمة ساعات يجب فيها البشر الجريمة •

- صحيح + هذا هو تماماً + لقد عبرت عن تفكيري نفسه + البشر يحبون الجريمة + جميع البشر يحبون الجريمة + يحبونها دائماً ، لا في بعض « الساعات » فحسب + وكأن هناك اتفاقاً عاماً بين الناس على الكذب في هذا الأمر + ما من أحد يحب أن يكون صادقاً مخلصاً في هذه النقطة + هم جميعاً يؤكدون أنهم يكرهون الشر ، مع أنهم يحبونه في سريرة أنفسهم +
- أما تزالين تقرئين كتباً سيئة ؟

- نعم ، ومما تحب هذه الكتب حب العبادة ، وتخفيها تحت وساتها + ومن هناك أسرقها +

- ألا تستحين أن تدمري روحك هذا التدمير ؟

- أحب أن أدمر نفسي + في هذه المدينة فتى تمدد تحت خطتي السكة الحديدية ومرّ القطار فوقه + اننى أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته + أنظر مثلاً : سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه ، والناس جميعاً يستحسنون أنه قتله +

- الناس جميعاً يستحسنون أنه قتل أباه ؟

- هم مفتونون بذلك ، مفتونون ! صحيح أنهم يصيحون قائلين ان ذلك فظيع ، ولكنهم في قرارة أنفسهم مفتونون + وأنا نفسى مفتونة ، أنا أول المفتونين +

قال أليوشا في رفق :

- هناك جانب من حق فيما ذكرته عن مشاعر الناس وعواطفهم +

فصاحت ليزا تقول بصوت فيه كثير من الحماسة :

- يا سلام ! ما هذه الفكرة ؟ من ذا الذى يصدق أن راهباً هو الذى يقول هذا الكلام ؟ لا تستطيع أن تتصور يا أليوشا مدى ما أكنه لك من

احترام لانك لا تكذب أبدا • اسمع : يجب أن أقص عليك حلمًا مضحكًا
أراه في بعض الأحيان • يتفق لى ان أرى في الحلم شياطين • أكون في
الليل وحدى مع شمعة في الغرفة ، وفجأة تنبجس الشياطين من جميع
الأركان • انهم في كل مكان ، حتى تحت المائدة • ها هم اولاء يفتحون
الباب ، وهأنا ذا أرى أن فى الخارج منهم جمهرة كبيرة أيضاً • انهم
يريدون أن يدخلوا ليقبضوا على • لقد اقتربوا ومدوا نحالبهم • وأرسم
اشارة الصليب فاذا هم يتراجعون جميعاً وقد اسنولى عليهم الخوف •
ولكنهم لا ينصرفون تماماً ، بل يتلبثون قرب الأبواب وفى أركان الغرفة ،
كأنهم ينتظرون • وأشعر عندئذ برغبة قوية فى أن أسب الله بصوت
عال • وآخذ أشتتم الرب ، فاذا بالشياطين يتجهون نحوى جمهرة من
جديد ، فرحين كل الفرح ، جذلين كل الجذل ، يهيمون أن يقبضوا على
••• ولكن ••• قف ! وأرسم اشارة الصليب مرة أخرى ، فيتراجعون
مدعورين • ذلك أمر أبلغ من الضحك له أن أنفاسى تنقطع فى بعض
الأحيان •

قال أليوشا فجأة :

- أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً •

صاحت ليزا تقول مدهوشة دهشة قوية :

- أهذا ممكن ؟ لا تمزح يا أليوشا ، أرجوك ، لأن ما أقوله جد

لا هزل • هل يمكن أن يرى شخصان اثنان حلماً واحداً بعينه ؟

- يمكن جداً •

عادت ليزا تقول وقد استبدت بها دهشة تبدو شديدة :

- أليوشا ، أكرر قولى : هذا أمر هام جداً • ليس الحلم نفسه هو

الذى يدهشنى هذا الادهاش كله ، وإنما يدهشنى أن ترى أنت فى الحلم

عين ما أرى أنا . أنت لا تكذب علىّ قط ، فقل لي الحقيقة هذه المرة أيضاً :
أصحيح ما أفضيت به اليّ الآن ؟ ألم تكن مازحاً ؟

– هي الحقيقة بعينها •

قالت ليزا فجأة بصوت متوسل :

– أليوشا ، زرني كثيراً ، زرني أكثر مما تزورني الآن •

قال أليوشا بلهجة جازمة :

– سأزورك دائماً ، سأزورك طوال حياتي •

عادت ليزا تقول :

– أنت الانسان الوحيد الذي أفتح له قلبي هكذا • أنا لا أتكلم
بصدق الا معك • أنت الانسان الوحيد الذي أثق به واركن اليه في هذا
العالم • واني لأحب أن أتحدث اليك أكثر مما أحب أن أتحدث الي
نفسى أيضاً • زد على ذلك أنني لا أخجل منك البتة يا أليوشا • لماذا
لا أخجل البتة ؟ هل صحيح يا أليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال
ليذبحوهم في عيد الفصح ؟

– لا أدري •

– عندي كتاب يصف محاكمة يهودى يقال انه قطع أصابع يدي
طفل صغير في الرابعة من عمره ، ثم صلبه على جدار ، صلبه بمسامير •
وقد أكد أمام المحكمة أن الصبى الصغير مات بسرعة ، بعد أربع ساعات
+++ هذا سريع حقاً ! ويقال ان الصبى ظل يئن بغير انقطاع ، وان اليهودى
كان ينظر اليه مستمتعاً بالمشهد • ما أحسن هذا !

– أهذا حسن ؟

– نعم ، حسن • أقول لنفسى في بعض الأحيان اننى أنا التى صلبت
هذا الطفل • أراه معلقاً يئن ، وأرى نفسى جالسةً أمامه آكل مطبوخ

الأناناس بالسكر • اننى أحب مطبوخ الأناناس كثيراً • وأنت ؟
 كان أليوشا ينظر اليها صامتاً • وهذا وجه ليزا الشاحب الأصفر
 ينقبض فجأة ، وهذا لهب يطوف بعينها •

- حين قرأت تلك القصة عن اليهودى ، ظللت أبكى طوال الليل ،
 هل تعلم ؟ كنت أتخيل صرخات الطفل وأناته (ان طفلاً فى الرابعة من
 عمره ليدرك ما يقع له) ، ثم لا أزيد أنا على أن أحلم بمطبوخ الأناناس .
 فلما طلع الصبح بعثت برسالة الى أحدهم طالبةً اليه أن يجيئنى حتماً •
 جاء • قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس • قلت له كل شىء ، كل
 شىء ، وأضفت : « هذا حسن » • فانفجر فى قهقهة كبيرة ، وأعلن أن
 هذا حسن جداً فى الواقع ، ثم نهض وانصرف • لم يمكث عندى الا
 خمس دقائق • احتقرنى ، هه ؟ قل لى يا أليوشا : أهو احتقرنى أم لا ؟
 هكذا هتفت ليزا وهى تنتصب على كرسيها المتحرك ، وقد ومضت
 عيناها بهريق ساطع •

قاطعها أليوشا يسألها وقد اضطرب اضطراباً شديداً :

- قولى : أأنت التى استدعيتيه ؟

- أنا التى استدعيتيه •

- برسالة ؟

- نعم ، برسالة •

- أمن أجل أن تسأليه عن أمر ذلك الطفل ؟

- لا ، لا من أجل هذا ، لا من أجل هذا أبداً • ولكن حين دخل

غرفتى أسرعته ألقى عليه سؤالاً عن موضوع الطفل • فأجابنى ضاحكاً ،

ثم نهض وخرج •

قال أليوشا فى رفق :

- لقد أحسن التصرف معك •

- ولكنه احتقرني ، أليس كذلك ؟ سخر مني ؟
- لا ... لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعاً بمزايا مطبخ الأناناس • انه مريض جداً يا ليزا ، هو أيضاً •
- هتفت ليزا تقول وقد التمتعت عيناها :
- نعم نعم ، هو مقتنع بذلك •
- وتابع أليوشا كلامه فقال :
- انه لا يحتقر أحداً ، ولكنه لا يؤمن بأحد أيضاً • ومتى لم يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر في آخر الأمر حتماً •
- وأن يحتقرني أنا اذن أيضاً ؟ أحتقرني أنا أيضاً ؟
- أنت أيضاً •

قالت ليزا في حنق شديد :

- طيب ، طيب • حين خرج من عندي ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يشعر بأنه محتقر • ان الطفل المقطوع الأصابع شيء رائع؛ وجميل جداً أن يُحتقر المرء ...

وانطلقت ليزا تضحكك ضحكاً مجلجلاً وهي تحديق الى أليوشا في عينيها • وصاحت تقول فجأة وهي تنتصب على كرسيها المتحرك وتطوقه بذراعيها بقوة :

– هل تعلم يا أليوشا ؟ هل تعلم ؟ أود لو ... انقذني يا أليوشا !

ثم كررت تقول بصوت يشبه في هذه المرة أن يكون أنيناً :

– أنقذني يا أليوشا • من ذا الذي كان يمكنني أن أفضي اليه بما قلته لك اليوم ؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة مع ذلك ، كان هو الحقيقة صافية • أوه ! سوف أقتل نفسي ، لأنني أشمئز من كل شيء •

أصبحت لا أريد أن أحيأ ، لأنى سئمت كل شىء • لقد مللت • لقد
ضجرت • كل شىء يثير فى نفسى الكره • أليوشا ، لماذا لا تحبنى البتة ؟
انك لا تحبنى قط •••

بهذا ختمت ليزا كلامها جائشة النفس • فقال أليوشا محتجاً
بحرارة •

- بل أنا أحبك •

- أفسوف تبكى علىّ ؟

- سوف أبكى عليك •

- لا أريد أن تبكى علىّ لأنى رفضت أن أتزوجك ، ولكننى أريد
أن تبكى علىّ لغير سبب ، هكذا ، هل تفهم ؟
- سوف أفعل ، أعدك بذلك •

- شكراً • أنا ظمأى الى أقوالك • أما الآخرون فليحكموا علىّ ،
وليدينونى ، ليسحقونى جميعاً ، جميعاً ، دون استثناء أحد • لأننى
لا أحب أحداً • هل سمعت ؟ لا أحب أحداً ، لا أحب أحداً البتة •
اننى أكرههم كلهم •

ثم أضافت وهى تتركه فجأة :

واذهب الآن يا أليوشا • لقد آن أن تمضى الى أخيك •

سألها أليوشا شبه مذعور :

- كيف أتركك وأنت فى هذه الحالة ؟

- اذهب الى أخيك • سوف يغلقون السجن بعد قليل • أسرع •
اليك قبعتك • قبّل ميتيا • انصرف • انصرف الآن •
قالت ليزا ذلك ودفعته الى خارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون اخراجاً

بالقوة • فكان أليوشا ينظر اليها مدهوشاً دهشة أليمة ، ثم اذا هو يشعر
فجأة بأن ورقة مطوية توضع فى يده اليمنى • انها رسالة مغلقة صغيرة
المساحة • ألقى نظرة على العنوان فقرأ : « الى ايفان فيدوروفتش
كارامازوف » • فشخص ببصره الى ليزا بقوة ، ولكن وجه الفتاة كان
يعبر عندئذ عن معنى يكاد يكون هو التهديد • وأمرته بصوت مندفع ،
وهى ترتعش من رأسها الى قدمها :

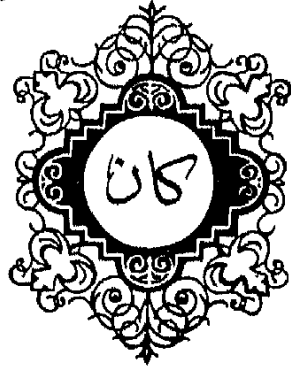
— اعطه هذه الرسالة ، اعطه اياها حتماً ، اعطه اياها اليوم ، فوراً •
والا شربتُ سماً • من أجل هذا انما استدعيتك •

واغلقت الباب وراه فجأة • وسمع صوت المزلاج يُدفع •
وضع أليوشا الرسالة فى جيبه ، وهبط السلم دون أن يمر بالسيدة
هو خلاكوف التي كان قد نسي وجودها • فما ان ابتعد حتى سحبت ليزا
المزلاج من جديد ، وشقت الباب قليلاً ، فأدخلت اصبعها فى الشق ، ثم
عادت تعلق الباب بحركة مفاجئة • انقضت عشر ثوان أخرجت ليزا بعدها
اصبعها واتجهت تجلس على مقعد من المقاعد بخطى بطيئة • جلست على
المقعد منتصبه القامة تماماً ، وأخذت تتفرس فى اصبعها التي اسودت
وفى الدم الذى تفجر تحت ظفرها • كانت شفتاها تختلجان ، ودمدمت
تقول مراراً بسرعة :

— شريرة ، شريرة ، شريرة ، شريرة !

٤

النسيروالسد



الوقت متأخراً حين طرق أليوشا باب السجن (تعلمون أن النهار قصير عندنا في تشرين الثاني، نوفمبر) • لقد هبط الليل • ولكن أليوشا يعلم أنهم لن يضعوا عقبات في سبيل دخوله على ميتيا.

كان كل شيء ، في مدينتنا الصغيرة ، يجرى كما تجرى الأمور في أي مكان آخر • فبعد الآونة الأولى التي أعقبت الاعتقال ، وبعد التحقيق التمهيدي ، كان الوصول الى السجن صعباً ، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون في رؤية السجين أن يقوموا ببعض الاجراءات الرسمية • ولئن لم تهمل هذه الأنظمة بعد ذلك ، فقد استثنى منها عدد من الأشخاص • حتى لقد أصبح يُسمح لميتيا في بعض الأحيان أن يكلم زواره في غرفة المقابلات دون رقيب • على أن عدد هؤلاء المستثنى كان محدوداً • انهم : جروشونكا ، وأليوشا ، وراكيتين • فأما جروشونكا فقد كانت تحظى من رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش بعطف خاص • كان هذا العجوز يريد اصلاح خطئه الذي ارتكبه حين قذفها بما قذفها به من شتائم في موكرويه • انه حين علم حقيقة الأمر فيما بعد ، قد غيّر رأيه في المرة الشابة تغييراً تاماً • ومن غريب الأمور أنه على بقاءه مقتنعاً اقتناعاً جازماً بارتكاب ميتيا الجريمة ، قد رقى لميتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله ، وكان

يقول لنفسه : « انه رجل طيب تفيض نفسه خيراً ، ولكن السكر والاضطراب النفسى قد أورداه موارد الهلاك ! » . ان نوعاً من الشفقة قد حلّ في نفس رئيس الشرطة محل الكره الذى شعر به فى أول الأمر . وأما أليوشا ، الذى يعرفه رئيس الشرطة منذ زمن طويل فقد كان يحبه رئيس الشرطة كثيراً . وأما راكيتين الذى أخذ يزور ميتيا فى سجنه كثيراً منذ زمن ، فقد كان على علاقات طيبة متصلة « بأنسات رئيس الشرطة » ، كما كان يسميهن ، وكان يَرى فى منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً . زد على ذلك أنه كان يعطى دروساً لأولاد مفتش السجن ، وهو عجوز طيب لطيف ، ولكنه متشدد فى القيام بواجبه لا تلين له فى ذلك قناة . وكان أليوشا ، هو أيضاً ، على صلة وثيقة بهذا المفتش ، فهو يعرفه منذ مدة طويلة ، وكان المفتش يحب أن يتحدث معه فى « شئون مقدسة » . أما ايفان فيدوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه ، ويهاب قوة فكره خاصة ، رغم أنه كان يعد نفسه فيلسوفاً ، ويتباهى بأنه « يفكر تفكيراً حراً » . وفى مقابل ذلك ، كان المفتش يشعر نحو أليوشا بمحبة لاسيلى الى مقاومتها . لقد شرع أثناء هذه السنة الأخيرة فى دراسة الأناجيل المزيفة ، فكان ما ينفك يطلع صديقه الشاب على ما يجول فى ذهنه من أفكار . حتى لقد كان فى الماضى يسعى اليه فى الدير ، ويظل يناقش الكهنة من الرهبان ساعات .

جملة القول انه لم يكن على أليوشا حين يصل الى السجن متأخراً الا أن يذهب الى مفتش السجن ، فاذا بكل شىء يجرى هيناً ليناً . أضف الى ذلك أن جميع موظفى السجن حتى أصغر حارس ، كانوا قد ألفوا أليوشا . والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها .

وكان ميتيا يترك زنزانته متى نودى ، وينزل الى القاعة التى تتخذ مكاناً للمقابلة .

فلما دخل أليوشا هذه الغرفة ، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام راكيتين الذى يتهاياً للانصراف . كان راكيتين يتحدث بصوت عالٍ الى ميتيا الذى يشيِّعه ضاحكاً ضحكاً قوياً جداً بينما راكيتين يتذمر . ان راكيتين قد أصبح منذ زمن يمتعض من لقاء أليوشا ، ويتجنب أن يكلمه ، ولا يحييه الا على مضض ، فلما لمح أليوشا فى هذه المرة ، فطب حاجبيه وأشاح عينيه ، وتظاهر بانهماكه فى عقد أزرار معطفه الشتوى ذى الياقة الفرائية ، ثم انهمك بعد ذلك فى البحث عن مظلته ؛ ودمدم يقول من أجل أن يقول شيئاً ما :

– أرجو أن لا أنسى شيئاً مما يخصنى .
فأجابه ميتيا مازحاً :

– واياك أن تنسى خاصةً ما يخص غيرك !
وأسرع يضحك من كلمته هو .

فغضب راكيتين فجأة وصرخ يقول وهو يرتجف غيظاً وحنقاً :
– خير لك أن تسدى هذه النصيحة الى ذويك آل كارامازوف ،
لا الى راكيتين ، أيها المستغلون !
فأجابه ميتيا قائلاً :

– ماذا دهاك ؟ انا انما كنت مازحاً . شيطان يأخذك .

ثم أضاف يخاطب أليوشا ، مشيراً برأسه الى راكيتين الذى كان يتعد مسرعاً :

– هم جميعاً كذلك . لقد كان هنا مرحاً صافى المزاج ، فاذا هو يغضب الآن على حين فجأة . لقد أبى أن يحييك حتى بايماءة . أأنتما

متخاصمان تماماً ؟ لقد تأخرت اليوم ، وأنا أنتظرِكَ نافذَ الصبر منذ الصباح • لا بأس ، سنتدارك ما فات •

سأله أليوشا وهو يشير بعينه الى الجهة التي خرج منها راكيتين :

- لماذا يزورك هذا كثيراً ؟ أتراك قد توثقت الصداقة بينك وبينه ؟
- أنا تتوثق الصداقة بيني وبين ميشيل ؟ لا •••• هذا وغد كبير •
هو يظن اننى •••• سقى مسكين • ثم انه لا يفهم المزاح ، ذلك ما يغيبنى
منه أكثر من أى شىء آخر • انه لا يملك روح الفكاهة • نفسه واحدة
حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتها حين وصلت الى هنا • ولكنه
فى مقابل ذلك رجل ذكى • هيه يا ألكسى ، هأنا ذا قد هلكت الآن !
قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس اليوشا الى جانبه • قال
أليوشا خجلاً :

- نعم ، سيحكم عليك غداً • ولكن ألم يبق لك أى أمل فعلاً
يا أخى ؟

قال ميتيا وهو يلقي على أخيه نظرة غامضة :

- ماذا تقصد ؟ آ •••• فهمت •••• تقصد تلك المحاكمة ! ولكن
هذه القصة لا تعينى • اننا لم نتحدث حتى الآن الا فى سفاسف ، كهذه
المحاكمة التي تبدأ غداً ، وقد سكتُ أمامك عن المسائل الأساسية حتى
الآن • صحيح أننى سيحكم على غداً ، ولكن ليس هذا ما جعلنى أقول
اننى هلكت • ليس رأسى هو الذى يتهدهه الخطر حتى الآن ، بل ما فى
داخل رأسى • لماذا تنظر الى هذه النظرة التي تدل على الاستياء ؟

- اننى لا أفهم ما تقصد يا ميتيا •

- أقصد أفكارى •••• أقصد «الايطيقا» * • ماذا تعنى هذه الكلمة :

« الايطيقا » ؟

سأله أليوشا مدهوشاً :

– نعم • ذلك ضرب من العلم فيما يبدو •
 – نعم ، هناك علم يسمى بهذا الاسم ••• ولكن ••• أعترف لك
 بأننى لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم •
 – أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم • ان راكيتين هذا يعرف
 أشياء كثيرة • شيطان يأخذه • انه لن يصبح راهباً • انه يفكر فى الذهاب
 الى سان بطرسبرج ، ويأمل أن يمارس هنالك عمل النقد ، ولكن فى
 اتجاه أخلاقى رفيع • على كل حال ، قد يكون نافعاً فى هذا المجال ،
 وقد يصبح شخصاً مرموقاً فى الوقت نفسه • انه رجل ماكر يعرف كيف
 يدبر أموره ••• وبثت « الايطيقا » ! هل تعلم أننى هلكت يا ألكسى ،
 يا رجلاً تقياً من رجال الله ! اننى أحبك أكثر مما أحب سائر الناس •
 ان قلبى ليذى حين أفكر فيك • من ذلك العالم الذى يسمى شارل برنار ؟
 سأله أليوشا مدهوشاً من جديد :

– شارل برنار ؟

– لا ، لا شارل ، لقد أخطأت • لحظة • أقصد كلود برنار * • من
 كلود برنار هذا ؟ لعله كيميائى ؟
 قال أليوشا :

– هو عالم من العلماء • ولكن أعترف لك بأننى لا أستطيع أن أقول
 لك أشياء كثيرة عنه • لقد سمعت أنه عالم ، ولكن لا أدرى فى أى ميدان
 من ميادين العلم •
 استأنف ميتيا كلامه قائلاً :

– طيب ••• شيطان يأخذه ••• أنا أيضاً لا أدرى ••• لعله واحد
 من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم فى أيامنا هذه • أما راكيتين فسيعرف

كيف يشق طريقه وينجح • انه يحسن التسلسل الى كل مكان • هو في
نوعه برنار آخر • أوه ! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار في هذا
العالم الآن !

سأله أليوشا ملحاً :

— هلاًّ قلت لي ماذا دهالك ؟

— انه ينوي أن يكتب شيئاً عنى ، عن فضيتى ، ويأمل أن يكون ذلك
بداية نشاطه الأدبى • ولهذا الغرض انما يزورنى • لقد شرح لى هو
نفسه ذلك • انه يرجو أن يكتب مقالةً تتيج له أن يبسط بعض الآراء
الأخلاقية ، كأن يقول ، اذا صدق فهمى : « ما كان يمكنه الا أن يقتل ،
لأن بيئته قد أفسدته » • وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل ، وسيصنع
ذلك كله بلون اشتراكى فيما يقول • شيطان يأخذه • وليقل ما يشاء ،
وليصنع ما يقوله بما يحب أن يصبغه به • فذلك كله لا يعينى فى شىء •
انه لا يحب أخانا ايفان • انه يكرهه • وليست عاطفته نحوك خيراً من
عاطفته نحو ايفان • أما أنا فاننى أحتمل زيارته لأنه رجل ذكى • ولكننى
أعده مع ذلك مغروراً بعض الغرور • قلت له منذ لحظات : « ليس آل
كارامازوف أشقياء ، بل هم فلاسفة ، لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة •
أما أنت فانك لم تصبح فيلسوفاً رغم جميع دراساتك ، لأنك لست
الا فلاحاً » • وقد ضحك ضحكاً خبيثاً حين سمعنى أقول هذا الكلام •
فأضفت عندئذ قولى : « لا جدال فى الآراء » * نكتة حلوة ، هه ؟ أنا
أيضاً أستطيع أن أكون كلاسيكياً اذا أردت •

بذلك ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكاً على حين فجأة • قاطعه

أليوشا سائلاً :

— لماذا تقدّر أنك هالك ؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة ؟

- لماذا أنا هالك؟ همِّمِ... الواقع... اذا أردت أن أقول الحقيقة...
... اننى آسف على الله! هذا هو الأمر... ..

- آسف على الله؟ كيف؟

- تخيل ما يبلى: ان هناك أعصاباً فى موضع من الرأس... أقصد فى الدماغ... شيطان يأخذ الاعصاب... والأعصاب ألياف، فحين تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز... أقصد يكفى أن أنظر الى شيء من الأشياء بعينى حتى تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز حالاً... ومتى اهترت الألياف تكونت صورة، لا على الفور، بل بعد لحظة... تنقضى دقيقة فتحدث لحظة... لا، لا لحظة... شيطان يأخذ اللحظة... أقصد تحدث صورة، أى يحدث شيء أو فعل... شيطان يأخذهما!... فذلك هو السبب فى أننى أدرك ثم أفكر... ليس السبب أن لى نفساً، وأننى خلقت على صورة الله... سخافات هذه الأفكار كلها! لقد شرح لى ميشيل كل شيء أمس، فشعرت بما يشبه الحرق فى قلبى... العلم شيء رائع يا أليوشا! هى انسانية جديدة ستولد... اننى أدرك الآن هذا ادراكاً تاماً... ولكننى مع ذلك آسف على الله...

قال أليوشا:

- أنت آسف على الأقل... هذا وحده شيء ذو بال...

- أن أكون أسفاً على الله؟ هى الكيمياء يا أخى، الكيمياء! لا حيلة لك يا صاحب القداسة، الكيمياء تتقدم، تنحوا، أفسحوا المكان، أفسحوا المكان! أما راكيتين هذا فانه لا يجب الله! هو لا يجب... ذلك ضعفهم جميعاً على كل حال... ولكنهم يكتمونهم... انهم يكذبون... انهم يمثلون... سألته: «هل ستبسط هذه الأفكار فى مقالات نقدية؟»، فأجابنى ضاحكاً: «لن يُسمح لى بذلك، هذا مؤكد»، فسألته بعد ذلك: «ولكن ما الذى

سيصير اليه الانسان في هذا كله ، بغير اله ، وبغير حياة آخرة ؟ هل نستنتج من هذا أن كل شيء سيكون مباحاً بعد الآن ، وأن في وسع الانسان أن يفعل ما يشاء ؟ » ، فأجابني ضاحكاً من جديد : « أكنت لا تعرف هذا اذن ؟ » ثم أضاف قائلاً : « ان الانسان الذكى يمكنه أن يبيع لنفسه كل شيء ، لأنه سيستطيع دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه ، أما أنت فقد قتلت ثم سمحت لهم بأن يقبضوا عليك . ولذلك تتعفن الآن في زنزانة » . ذلك ما قاله لى ، لى أنا . هذا خنزير قدر حقاً ! هؤلاء الأوغاد ، كنت فيما مضى أطردهم . أما الآن ، فأنا أصغى اليه ، أسمع له . ان فى ما يقوله كثيراً من الأشياء المعقولة . وهو عدا هذا يجيد الكتابة جداً . فى الأسبوع الماضى ، قرأ على احدى مقالاته . فسجلت ثلاثة أسطر منها عامداً . لحظة . اليك ما سجلته .

وأسرع ميتيا فاستل من جيب صديرتي ورقة وقرأ :

« من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة ، يجب عليه أولاً أن يضع شخصه فى تعارض مع واقع حياته . » . هل تفهم ما معنى هذا ؟

قال أليوشا الذى كان يلاحظ ميتيا بدهشة واستطلاع :

— لا ، لا أفهم .

— وأنا أيضاً لا أفهم . ان هذه الجملة غامضة ، ولكنها تبدو لى عميقة جداً . وقد أسرّ الى « أن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقة . فالبيئة هى التى تفرضها . . . » . انهم يخافون البيئة . وهو ينظم اشعاراً ، هذا الوغد . لقد تغنى بقدمه هو خلاكوف ، ها ها ها .

قال أليوشا :

– أعرف ذلك •

– ها ••• ذكر لك هذا؟ هل قرئت لك تلك الأبيات؟

– لا •

– هي عندي • سأقرأها لك • هذه حكاية طويلة ، هل تعلم؟
 سأقصها عليك • يا للوغد ! منذ ثلاثة أسابيع قام في رأسه أن يغيظني •
 قال لي : « ما أغباك ! أنت ضيعت نفسك ، وضيعت نفسك في سبيل ثلاثة
 آلاف روبل فقط • أما أنا فسأجني مائة وخمسين ألف روبل ، بتزوج
 أرملة غنية • وبعد ذلك أشتري منزلاً جميلاً في سان بطرسبرج • » •
 وأسراً إلى عندئذ أنه يغازل السيدة هوخلاكوفا ، التي لم تكن ذكية
 حتى في ريعان صباها ، ثم لم يبق لها شيء من فطنة حين بلغت الأربعين
 من عمرها • وأضاف قوله : « وهي فوق ذلك حساسة عاطفية ، ومن هنا
 سأتيها • سوف أتزوجها ، وأخذها إلى سان بطرسبرج ، فاشيء هنالك
 جريدة • » • وكانت تطوف على شفتيه ابتسامة شبة وهو يقول لي هذا
 الكلام ، ولكن لا بسبب هوخلاكوفا طبعاً ، لأن خيال المائة وخمسين ألفاً
 روبل هو الذي كان يُسبب لعبه • ومنذ ذلك الحين أصبح يسرُّ إلى كل
 يوم بأشياء جديدة ، قائلاً : « ان الأمور تجري مجرى حسناً » ، ويشرق
 وجهه فرحاً أثناء ذلك • ولكن ها هو ذا يُطرد فجأةً من منزل السيدة
 هوخلاكوفا • لقد غلبه بطرس ايلتش وانتصر عليه • مرحى ! وددت لو
 أقبل تلك الحمقاء لأنها استطاعت أن تطرده من منزلها • في فترة حماسه
 انما نظم تلك القصيدة • وقد اعترف لي قائلاً : « تلك أول مرة أغض
 فيها من قيمتي فأرضى أن أنظم شعراً • لقد ارتضيت ذلك لأغوى امرأة
 حمقاء غبية في سبيل عمل عظيم أريد أن أحققه • فمتى استوليت على
 أموال هذه البقرة العجوز ، استطعت أن أكون بعد ذلك نافعاً للمجتمع • »

ان هؤلاء الناس يجدون في جميع الأحيان عذراً يسوّغون به حقاراتهم
 ودناءتهم ، هو عذر المنفعة الاجتماعية • وقد قال لى : « ومع ذلك صنعت
 خيراً مما صنع صاحبكم بوشكين ، لاننى استطعت أن أودع حزناً وطنياً
 عظيماً فى بضعة أبيات شعرية صغيرة هى فى ظاهرها سارة مرحة » • على
 أن ما يقوله عن يوشكين يبدو لى معقولاً • فما دام ذلك الشاعر يملك
 موهبة عظيمة حقاً ، فانه ما كان له أن يقتصر على التغنى بأقدام صغيرة
 جميلة ! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التى نظمها ! ان فهم
 غروراً ، هؤلاء الشعراء جميعاً ! ان العنوان الذى تخيله هذا «الفيلسوف
 الوضيعة» لقصيدته هو التالى : « لشفاء قدم المحبوب الصغيرة » •

باللقدم الفتانة

المتورمة الآن

الأطباء حولها منهمكون

ليضملموها بحب وحنان

لست أندب القدم ،

فانى أترك هذا لبوشكين •

لكننى أشكو الرأس

لأنه لا يفكر كما ينبغى ان يفكر •

كانت قد بدأت تفهمنى

حين تمردت القدم !

هلموا فاشفوا القدم الرقيقة

حتى تستطيع الأفكار أن تحلق •

انه وعد ، وعد حقاً ، ولكن أشعاره مرحة • ثم ان فيها « فكرة
 وطنية » ، كما يقول • لقد استشاط غيظاً حين طُرد • كان يصرف
 بأسنانه من شدة الحنق •

قال أليوشا :

- لقد انتقم منذ الآن • نشر مقالة عن السيدة هوخلاكوفا •
 وقص أليوشا على ميتيا بسرعة ، قصة المقالة الواشية المتجنية التي
 ظهرت في جريدة « الشائعات » • فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه :
 - انه هو ، انه هو ••• هو كاتب المقالة • ليس في ذلك شك !
 آه من تلك الأقاويل والنمائم ! أنا على علم ••• ما أكثر ما نشروا من
 تخرصات لئيمة حقيرة حتى الآن ، عن جروشنيكا مثلاً ! وعن الاخرى
 أيضاً ، عن كاتيا ••• هم •••

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يمشى في الغرفة مهموم البال •
 استأنف أليوشا قائلاً بعد صمت :

- لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخى • ان غداً ليوم
 عظيم رهيب بالنسبة اليك : غداً تتم ارادة الله ••• يدهشني مع ذلك أنك
 في عشية ذلك الغد تضيع وقتك في الكلام عن سفساف •••
 قاطعه ميتيا يقول بحرارة :

- لا يدهشنيك هذا • أتراك تؤثر أن أتكلم عن ذلك الشقى العفن
 النتن ، عن القاتل ؟ لقد سبق أن تكلمنا عنه ، وأسرفنا في الكلام • لا أريد
 أن أسمع بعد الآن شيئاً عن سمردياكوف ، النتن ابن التنة ، لسوف
 يعاقبه الله ••• سوف ترى ••• لعاقبته الله لا محالة •••

واقترب من أليوشا وقد استولى عليه اضطراب شديد ، وقبّله
 فجأة • كانت عيناه تسطعان • وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج
 عن طوره :

- لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا ، أما أنت فسوف تفهمه • ومن أجل ذلك انما كنت فى ظمأ شديد الى أن أراك • هل تعلم أننى ، منذ زمن طويل ، أريد أن أكلمك فى أشياء كثيرة ، هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة ، ولكننى لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن ؛ يبدو أنه لم يكن قد آن لى أن أسرّ اليك بما فى نفسى بعد • لقد انتظرت ، انتظرت الى آخر دقيقة ، لأفتح لك قلبى • أخى ، أخى ، اننى فى أثناء هذين الشهرين الأخيرين ، قد أصبحت انساناً آخر • لقد وُلِدَ فى كائن جديد • الحق أنه كان موجوداً فى منذ الأزل ، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة • شىء رهيب ! اننى لا أخشى أن أعمل بيدى فى المناجم عشرين عاماً • ذلك لا يهمنى • هناك شىء آخر هو الذى اخشاه الآن • اننى أخشى أن يزول ، من جديد ، الانسان الذى بُعث حياً فى نفسى . ان المرء يستطيع أن يجد حتى فى سجون الأشغال الشاقة ، حتى فى جحيم غياهب المناجم ، يستطيع أن يجد بقربه سجيناً آخر يخفق فيه قلب انسانى وان يكن رجلاً قاتلاً • يستطيع المرء أن يصادقه ، لأنه مباح للمرء هنالك أيضاً أن يحيا وأن يحب وأن يتألم ! يستطيع المرء أن يندر نفسه لذلك السجين ، ليشعل فى قلبه مرةً أخرى شعلة الحب التى اطفأها الظلم ، يستطيع أن يحيطه بالعناية والرعاية والحب والعطف خلال سنين ، الى أن تنبجس أخيراً من ظلمات وجوده نفسٌ أحيها الألم وطهرها ونقاها وأسبغ عليها حلة النبيل والكرم ، فاذا هى تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء • ان فى وسعنا أن نحيا الملاك فى الشيطان ، وأن نبعث البطل فى الجبان • انهم كثرٌ هنالك ، أولئك الذين سقطوا ؛ انهم مئات ومئات ، ونحن جميعاً مسئولون عن مصيرهم • لماذا رأيت فى حلمى . « الطفل » ، وأنا اجتاز من حياتى مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأساة ؟ « لماذا يجب أن يتألم الطفل » ؟ تلك اشارة من السماء نزلت علىّ فى ساعة المحنة

العظمى + سأمضى الى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الطفل + ان جميع البشر متضامنون فى أخطائهم ، وكل انسان مسئول عن آثام سائر الناس + « الطفل الصغير » يتعذب فى سبيل الآخرين ، لأن فى هذا العالم أطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار + « الطفل الصغير » موجود فى كل مكان + سأمضى فى سبيل الآخرين ، لأنه لا بد أن يكفر أحد عن الآخرين وأن يفقديهم + أنا لم أقتل أبى ، ولكن من واجبى أن أضحى بنفسى + اننى أقبل ما كُتب علىّ ! هنا ، فى هذا السجن ، انما فهمت هذه الأشياء كلها + + + هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة + انهم كثيرون هناك ، تحت الأرض ، يحفرون فى المنجم + صحيح أننا سنكون مكبلين بالأغلال ، وصحيح أن ارادتنا ستكون محطمة + ولكن ، هناك ، فى ذلك الألم الكبير ، سنبعث الى الفرحة ، الى الفرحة الذى لا يمكن بدونه أن يحيى الانسان ، الى الفرحة الذى بدونه لا يوجد الله ، لأن الله هو ينبوع الفرحة ، فتلك هى الخاصة التى ينفرد بها الله + رباه ! ألا فليض الانسان نفسه فى الصلاة والدعاء ! كيف يمكننى أن أعيش تحت الأرض بدون الله ؟ ان راكيتين يكذب ! وحين سيطرد البشر الله من على سطح الأرض ، سنهتدى اليه نحن فى جوف الأرض ، ونرتد اليه + ان السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لا يستطيع أن يحيى بدون الله ، وهو أعجز عن ذلك من الانسان الحر الطليق ! فمن غياهب الليل ، سنغنى نحن الذين نعيش تحت الأرض ، سنغنى نشيداً حزيناً يمجد الخالق ينبوع السعادة والضياء + تبارك الرب ، وتبارك فرحه ! اننى أحب الله !

كان ميتا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات + كان قد اصفر وجهه ، وتقبضت شفثاه تقبضاً عصبياً ، وسالت من عينيه دموع + واستأنف كلامه يقول :

— لا يأخى ، ان الحياة غنية ، فى وسع المرء أن يحيى تحت

الأرض أيضاً • لا تستطيع أن تصدق يا أيوشا الى أى حد أحب الآن أن أحيأ ، ولا تستطيع أن تتصور رغبتى المحمومة القوية فى أن أوجد وأن أعرف ، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التى استولت على وأنا بين هذه الجدران المنقشرة ! ان راكيتين لن يفهم هذا فى يوم من الأيام ، لأنه لا يفكر الا فى تحصيل ثروة ، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره بانتظام • لذلك انتظرتك نافذ الصبر • ليس يهمنى الألم • لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن كبيراً • كنت أخافه فى الماضى ، ولكننى أصبحت لا أخافه • هل تعلم أن من الجائز أن أرفض الاجابة أمام المحكمة ؟ يخيل الىّ فى بعض الأحيان أن بى من القوة ما سوف يمكننى من تذليل جميع المصاعب ، والانتصار على جميع المحن ، لا لشيء الا أن أقول لنفسى فى كل لحظة سعيدا : « أنا كائن ، أنا موجود » • لسوف أردد وانا فى العذاب الذى لا نهاية له : «أنا موجود» • لسوف أهتف حين يشنجنى الألم : « أنا كائن » • لسوف أشعر اذا رُبطت بالعمود وشدت اليه ، بأننى ما زلت أحيأ ، وسوف أرى الشمس • وهبنى لم أرها ، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم وتتألاً • لأن أعرف أن الشمس تتألاً فذلك وحده حياة كاملة • أليوشا ، طفلى الحبيب ، أن أفكارهم الفلسفية تقتلنى قتلاً ، تعساً لهم ! ان أخانا ايفان •••

قاطعته اليوشا سائلاً :

— هيه ••• ما له ، ايفان ؟

ولكن ميتيا لم يسمع •

— كنت فى الماضى أجهل جميع هذه الشكوك ، ولكنها كانت تضطرب فى نفسى على غير علم منى • ولعلنى لم أندفع فى الشراب ، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف الا لأن تلك المعانى كانت تغلى فى داخلى •

فمن أجل أن أخنقها ومن أجل أن أسحقها انما كنت أتخطب ذلك التخطب •
 ان أخانا ايفان ليس مثل راكيتين • انه يخفى في نفسه فكرة يكتمها
 سرّاً • ان أخانا ايفان يشبه أبا الهول • انه يصمت ، يصمت دائماً •
 أما أنا فان فكرة الله تعذبني ، وهى عذابى الوحيد الحق • ما عسى أن
 يحدث اذا لم يوجد الله؟ لنفرض أن راكيتين على حق ، لنفرض أن الدين
 من صنع خيال الانسان • اذا لم يوجد الله كان الانسان هو سيد الأرض،
 ورئيس الكون ! عظيم! ولكن كيف يكون هذا الانسان فاضلاً بدون الله؟
 ذلك هو السؤال ، وأنا لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال • من الذى
 سيحبه الانسان اذا لم يوجد الله ؟ قل لى : الى من سيندفع الانسان
 بشكران روحه ، ولن سنغنى أنشودة فرح ؟ ان راكيتين يسخر من هذا
 كله • هو يرى أن الانسان يستطيع أن يحب الانسانية مستغنياً عن الله •
 لا يستطيع الا سخييف مثله أن يصدق هذا الكلام • أما أنا فلن أفهمه فى
 يوم من الأيام. الحياة تبدو سهلةً لراكيتين • قال لى اليوم : « الأوّل بك
 أن تهتم الآن بزيادة الحرية فى العالم ، موسّعاً حرية المواطن السياسية •
 فاذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد
 الجزائريون أسعار اللحم • فبذلك تخدم الانسانية خدمةً أصدق وأجدى
 مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها • » • أجبت قائلاً : « انك اذا أنكرت
 الله ، تنتهى الى زيادة سعر اللحم أنت نفسك ، فتربح بالكوبك روبلاً • »
 عندئذ غضب راكيتين • ما هى الفضيلة ؟ اشرح لى الفضيلة يا ألكسى • أنا
 فى ذهنى فكرة عن الخير ، ولكن الصينى فى ذهنه فكرة أخرى مختلفة
 عن فكرتى أنا • فالخير فكرة نسبية ، أليس كذلك ؟ أليس الخير فكرة
 نسبية ؟ هذه مشكلة مقلقة • لن تسخر منى ، أنت على الأقل ، اذا قلت
 لك ان هذه المشكلة قد أرقنتى ليلتين ، فلم أستطع النوم • اننى أتساءل
 اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا فى هذه المشكلة •

باطل ! ان ايفان لا يؤمن بالله • انه لا يؤمن الا بالأفكار • ذلك يفوق
مستواي • ولكنه يصمت • أحسب أنه ما سوني" • سألته فلم أظفر منه
بجواب • ملت عليه ميلي على نبع حقيقة لأروى ظمئي ، ولكنه لم يجبني •
مرة واحدة ، افلتت منه كلمة •

سأل أليوشا معجلاً :

— ماذا قال ؟

— سألته : « أكلُ شيء مباح اذن ؟ » ، فقطب حاجبيه وقال : « كان
أبونا فيدور بافلوفتش رجلاً خالغ العذار ، ولكنه كان يفكر تفكيراً
سليماً » • ذلك كل ما قاله لي • لم يقل شيئاً آخر • على الأقل ، هذا
أوضح من ثمرات راكيتين •

قال أليوشا بمرارة :

— حقاً ؟ متى جاء اليك ؟

— سأحدثك عن هذا في مرة أخرى • أما الآن ، فما حان الحين
بعد • أنا لم أكد أكلمك عن ايفان حتى هذه الساعة • أرجأت الحديث
عنه الى النهاية • فمتى ختمت القضية وصدر الحكم ، سأقص عليك
شيئاً • سأقول لك عندئذ كل شيء • هناك حكاية رهيبه • ستكون حكماً
على في هذه المسألة • أما الآن فلا أريد أن نعالج هذا الموضوع • اعرف
كيف تصمت بانتظار ذلك • كنت تكلمني منذ هنيهة عن يوم الغد ، عن
المحاكمة ، فهل تصدق أنني لا أعلم شيئاً ؟

— هل تكلمت مع ذلك المحامي ؟

— المحامي ؟ دعك من هذا ! لقد قصصت عليه كل شيء • انه وغد
لطيف من أوغاد العاصمة ، انه برنار ! هو لا يصدق كلمة واحدة مما

أقوله له • تصور أنه مقتنع باننى أنا القاتل ! أرى ذلك فى نظرتة الىّ •
سألته : « فلماذا توليت اذن مهمة الدفاع عنى ؟ » • اننى أسخر من هؤلاء
الناس جميعاً • وقد استدعوا كذلك طيبياً ، بغية أن يزعموا للمحكمة
أننى مجنون ! ألا اننى لن أطيق ذلك ، ولن أقبله ! ان كاترين ايفانوفنا
هى التى تظن أنها بذلك تقوم « بواجبها » حتى النهاية • على أنها تجبر
نفسها على ذلك اجباراً ، وتحمل نفسها عليه حملاً (قال ميتيا هذا وهو
يبتسم ابتسامة مرة) • انها قطة ، قاسية القلب ! وهى تعرف
ما قلت عنها من كلام فى موكرويه ، وتعرف أننى وصفتها بأنها امرأة
« ذات غضب شديد » • لقد نُقل اليها هذا الكلام • نعم ، لقد تكاثرت
الشهادات علىّ حتى أصبحت لا تُعد ولا تُحصى • ما يزال جريجورى
يتهمنى • هو رجل شريف ، لكنه غبى • ما أكثر الشرفاء عن غباوة !
هذه فكرة عبّر عنها راكيتين • لقد أصبح جريجورى يناصرى العداة •
أصبح عدوئى • وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا
أصدقاءه • أقول هذا وأنا أقصد كاترين ايفانوفنا • أخشى ••• آه •••
أخشى خاصة أن تقصّ على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع
مبلغ الأربعة آلاف وخمسمائة روبل • انها لن تعينى من قصّ هذه
الحكاية ، معتقدة أنها بذلك تبرىء ذمتها تجاهى ! آه ••• لسوف تمضى
الى نهاية الشوط ••• أنا أعرفها • ولكننى لا أريد توضيحيتها هذه ! سوف
أشعر من ذلك بالخزى والعار أمام قضائى • كيف يكون فى امكانى أن
أحتمل هذا ؟ اذهب اليها يا أليوشا لترجوها أن لاتقص هذه الحكاية على
الناس • أتظن أن هذا مستحيل ؟ لا خير اذن • سيات عندي أن تقصّها
وأن لا تقصّها • سأرتضى مدعناً • أما هى فلست أشفق عليها ولا أرثى
لها • هى التى أرادت ذلك • لن تنال الا ما تستحقه • وأما أنا يا ألكسى ،
فسوف ألقى فيهم خطاباً ••• اعلم هذا ••• (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم

ابتسامةً مرةً من جديد) • ولكن ، ولكن ••• هناك جروشا ، جروشا
 ••• آه ••• رباه ! ••• لماذا ينبغي لها أن تلقى عذاباً كهذا العذاب ؟
 (كذلك صاح ميتاً فجأةً وفي صوته دموع) • ان صورة جروشا تقتلني ،
 تقتلني قتلاً ، تقتلني قتلاً ! لقد زارتني جروشا في هذا اليوم •

– حكّت لي كل شيء • لقد أهنتها اهانةً شديدة •

– أعرف هذا • تَبّاً لطبعي ما أردأه ! لقد عذبتنا بالغيرة • وحين
 ودّعناها ندمت وقبلتها ولكنني لم استغفرها •

صاح أليوشا يسأله :

– لماذا لم تستغفرها ؟

– حماك الله يا فتى الصغير من استغفار امرأة تحبها ، على خطيئة
 ارتكبتها فعلاً ••• لا سيما المرأة التي تحبها ، التي تحبها ، مهما تكن
 أخطاءك في حقها ، لأن المرأة مخلوقة لا يعرف الا الشيطان ما في
 نفسها • أنا خير في هذا على الأقل • حاول مرةً أن تعترف لها بأنك
 أذنبت في حقها ، وأن تقول لها : « أنا مذنب ، فاغفري لي ، اغفري لي » •
 لتسمعنّ منها عندئذ سيلاً من ملامات • لن ترضى قط أن تغفر لك
 ببساطة ، بل ستأخذ تذكُّك وتخفضك الى الأرض ، معدّدة جميع
 أخطائك ، حتى تلك التي لم تقترفها • لن تنسى شيئاً ، وستضخم كل
 شيء ، وستخلق أخطاء جديدة عند الحاجة ، وبعد ذلك فقط سترضى أن
 تغفر لك • وخير النساء هنّ اللواتي يغفرن على هذا النحو • ولكنها
 ستفرغ أولاً أعماق دروج أحقادها وتلقيها على رأسك • تلك هي
 قسوتهن الكاسرة المفترسة • هن جميعاً كذلك • اعلم هذا • كذلك
 خلّفن ، من أولاهن الى آخرهن ، هاتهن الملائكة اللواتي لا نستطيع أن
 نحيا بدونهن • سأطعمك بغير تكلف ولا تخرج على حقيقة كبرى

يا صغيرى الطيب : ان كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت
 حذاء امرأة • ذلك هو اقتناعى العميق • بل هو اكثر من اقتناع : هو
 شعور عميق وعاطفة حميمة • ان على الرجل ان يكون كريما ، وهذا
 لن ينغض من قيمته أبدا ، ولو كان قيصر • أما أن يستغفر ، فكلا ثم كلا!
 يجب على الرجل أن لا يستغفر امرأة بحال من الاحوال • تذكر دائما
 هذه القاعدة التى علمك اياها اليوم أخوك ميتيا ، أخوك ميتيا التى أوردته
 النساء موارد الهلاك • لا ، لا ، اننى أوثر أن أصلح اخطائى فى حق
 جروشكا بطريقة أخرى ، دون استغفار • اننى أعظمها وأقدسها حقاً
 يا ألكسى ، اننى أشعر نحوها باعجاب لا حدود له • وهى تدرك ذلك
 وأسفاه ، ثم ترى اننى لا أمحضها حباً كافياً • انها تعذبنى بحبها • لم يكن
 هذا أمراً ذا بال فى الماضى • كنت فى الماضى لا أحبها الا بسبب منحنيات
 وخطوط جسمها الجهنمية • أما الآن فان روحها هى التى نفذت فى نفسى
 فصرنا روحاً واحدة • بها انما أصبحت رجلاً • هل يزوجونا فى
 السجن ؟ ان لم يزوجونا فلأموتنّ غيرةً • اننى لا أزيد كل يوم على
 أن أحلم بأمور رهيبة فظيعة ••• ماذا قالت لك عنى ؟

ردّد له أليوشا أقوال جروشكا • أصغى ميتيا بانتباه شديد ، وألقى
 على أخيه أسئلة كثيرة ، وظل راضياً مغتبطاً ، وهتف يقول :

- هى اذن لا تحقد علىّ لأننى غيور • تلك امرأة حقاً • قالت
 لك : « أنا نفسى قاسية » ، أليس كذلك ؟ آه ••• اننى أحبهن ، هاته
 النساء القاسيات ، رغم أننى لا أطيق أن يعذبنى بالغيرة • اننى لا أحتمل
 هذا • سيكون بيننا شجار كثير ، أنا وهى ، ولكننى سأحبها حباً أبدياً
 لا نهاية له • هل سيزوجونا ؟ هل يزوجون السجناء ؟ تلك هى المسألة
 كلها • لسوف يستحيل علىّ أن أحيا بدونها •••
 سار ميتيا فى الغرفة بضع خطوات مقطباً حاجبيه • وكان الظلام

قد خيمَ أثناء ذلك • وفجأةً ظهر على ميتيا القلق ، كأن فكرة ثقيلة
قد هاجمته وجثمت على صدره •

- آه ! ... • قالت لك ان هناك سرّاً بيننا ، أليس كذلك ؟ قالت
انا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من كاتيا ؟ لا يا عزيزتى
جروشنكا ! ... • لقد أخطأت الظن ... • أخطأت الظن كما لا يجيد أن
يخطئه الا النساء ، هاته الحمقاوات ! لا بأس يا أليوشا ، يا بنى العزيز ،
سأكشف لك عن سرّنا •

نظر ميتيا الى جميع الجهات محاذراً ، ثم اقترب من أليوشا حتى
لامسه وأخذ يهمس فى أذنه وقد بدت فى وجهه معانى السر ، رغم أن
أحدًا لا يستطيع فى الواقع أن يسمعهما : فالعجوز غاف على دكة فى ركن
من القاعة ، والحفراء أبعد من أن يستطيعوا مباغتتهما أثناء الحديث • قال
ميتيا بهمس سريع :

- سأكشف لك عن سرنا • لقد كنت أتوى أن أطلعك على هذا
السر فيما بعد ، ولكن كيف يمكننى أن أتخذ قرارى بدونك ؟ أنت
كل شيء فى نظرى • ومهما أقل ان ايفان يفوقنا ، فأنت فى نظرى ملاك •
ولقرارك وحده قيمة فى الواقع • من يدرى ؟ لعلك أنت المتفوق
لا ايفان • اسمع : ان المسألة مسألة ضمير ، مسألة ضمير أخلاقى • هذا
سر خطير جداً ، يبلغ من الخطورة أننى لا أستطيع أن أحمله وحدى ،
ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه • فأنا أعتمد عليك • على أن اتخذ القرار
لم يحن حينه بعد • وانما يجب انتظار صدور الحكم • فمتى أصدرت
الحكمة حكمها ، كان عليك أن تقطع برأى فى الأمر فنقرر مصيرى •
أما الآن فلا تقل شيئاً • سأشرح لك الموضوع ، فتصغى الى ما سأقوله
لك دون أن تفصح عن رأى • عليك أن تصمت • لن أقول لك كل شيء
اليوم • سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل • عليك خاصةً

أن لا تقول شيئاً ، أن لا تنطق بكلمة : لا سؤال ، ولا حركة ! اتفقنا ؟
ولكننى نسيت : هناك عيناك ، فما عساني صانماً بعينيك اللتين سأقرأ فيهما
جوابك ؟ أه من عينك ! اننى أخشى أن تقولاً لى رأيك ولو سكت .
اسمع يا أليوشا : لقد اقترح على ايفان « أن أهرب » . لن أقصّ عليك
التفاصيل : لقد تصورنا كل شيء ، وسيُدبّر كل شيء . اسكت ،
لا تنطق بكلمة . سأسافر الى أمريكا مع جروشنيكا . هل أستطيع أن
أعيش بدونها ؟ انهم لن يستطيعوا أن يمنعوها من اللحاق بى . هل
يزوجون السجناء ؟ ايفان يؤكد أنهم لا يفعلون . فما عساي أفل بدون
جروشنيكا ، تحت الأرض ، فى المناجم ، مع المطرقة ؟ ولكن من جهة
أخرى هناك الضمير . سأكون قد فررت من الألم . لقد تلقيت اشارة
من السماء ، فاذا هربت كنت أتجاهل هذه الاشارة ، وأعرض عن طريق
التطهر الذى فُتح أمامى . ايفان يؤكد أننى سأستطيع أن أصبح فى
أمريكا بالارادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع منى فى المناجم تحت
الأرض . طيب ! ولكن أين يصبح النشيد الذى سننشده من تحت
الأرض ، اذا أنا سافرت الى أمريكا ؟ أمريكا . . . ان أمريكا هى العودة
الى هذا العالم الباطل . لا بد أن أمريكا مملأى بأنواع الدناءة . أعتقد
أن الأمر هنالك كذلك . هل أفرُّ من التكفير عن ذنوبى ؟ هل أهرب
من طريق الصليب ؟ اننى أفضى اليك بما فى نفسى يا ألكسى ، لأنك
الانسان الوحيد الذى يستطيع أن يفهمنى . أما الآخرون فان ما قلته لك
فى هذه اللحظة ليس فى نظرهم الا حماقة وغباوة وسخفاً . لسوف
يظنون أن لوثة خالطت عقلى فجننت ، أو أننى أبله . لا ، أنا لم أفقد
عقلي ، ولا أنا معتوه . ان ايفان يدرك ، هو على الأقل ، ماذا يعنى ذلك
النشيد ، ولكنه يجيبنى ، بل يلزم الصمت . انه لا يؤمن بالنشيد .
لا تقل شيئاً ! اسكت ! اسكت ! قرأت جوابك فى عينك . لقد انتهت

الى قرار منذ الآن • لا تعلن هذا القرار ، ارحمني ، لأننى لا أستطيع
أن أحيأ بدون جروشنكا • انتظر صدور الحكم !

أنهى ميتيا كلامه منقلب السحنة • كان يمسك أليوشا من كتفه
بقوة ، ويغرس فى عينى أخيه نظرة ملتبهة مثقلة بمساءلة قلقة • وعاد
يردد مرةً ثالثة قوله :

– هل يزوتجون السجناء ؟

أصغى اليه أليوشا بدهشة عميقة ، وأحس باضطراب شديد •
وسأله :

– قل لى : هل يلح ايفان على مشروع الهرب هذا ؟ ومن ذا الذى
فكّر فى هذا المشروع أول من فكّر فيه ؟

– هو الذى فكّر فيه • وانه يلح كثيراً • لم يكن قد زارنى قبل
ذلك • ثم اذا به ييجى الى فجأة منذ أسبوع ، فيأخذ يتحدث فى مشروع
الهرب هذا على الفور • انه يلح الحاحاً رهيباً • هو لا يرجونى رجاء ،
لا يتوسل الى توسلاً ، بل يأمرنى أمراً • انه لا يشك فى أننى سأطيعه ،
رغم أننى فتحت له قلبى كما فتحت لك الآن ، وحدثته عن النشيد •
شرح لى خطته تفصيلاً • لقد حصل على جميع المعلومات الضرورية •
سأبسط لك هذا فيما بعد • انه يلح الحاحاً حانقاً • وهو يعرض على
المال خاصة : عشرة آلاف روبل للهرب ، وعشرين ألفاً للاستقرار
فى أمريكا • يقول اننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب
مطمئنين الى النجاح كل الاطمئنان •

سأله أليوشا :

– وهل طلب منك أن لا تحدثنى فى هذا الأمر ؟

– أمرنى بأن لا أقول كلمة واحدة لأى انسان ، وخاصة لك

أنت ، خاصةً لك أنت ، بأية حال من الأحوال ! أغلب الظن أنه يخشى
أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقي • لا تذكر له أنني
أفضيت اليك بهذا السر • لا تقل له كلمةً واحدةً في هذا الأمر ،
أرجوك ، أضرع اليك !

قال أليوشا :

– أنت على حق • لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور
الحكم • فمتى أصدرت المحكمة حكمها ، عرفتَ أنت نفسك ما الذي
يجب عليك أن تفعله • سيكون قد وُلد فيك انسان جديد ، وهذا الانسان
الجديد هو الذي سيقدر •

– انسان جديد أو برتار^١ يقرر كما يمكن أن يقرر برنار • لعلني
أنا نفسي واحد من أمثال برتار •

بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يتبسم ابتسامة مرة • قال أليوشا يسأل
أخاه :

– أخى ، هل يمكن حقاً أن لا يكون لك أى أمل في تبرة نفسك؟
فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة ، وحرك رأسه ، وقال متعجبلاً :

– أليوشا ، ملاكى ، آن لك أن تنصرف • لقد سمعت الآن صوت
المفتش في الفناء ، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى • تأخرنا كثيراً ،
وهذا يخالف النظام • قبّلنى بسرعة ، وارسم علىّ اشارة الصليب
يا ملاكى • ارسم علىّ اشارة الصليب لنازلة الغد •

تعانق الأخوان وقبل كل منهما الآخر •

قال ميتيا فجأة :

– ان ايفان يقترح علىّ الهرب ، ولكنه مقتنع بأننى القاتل •

وطافت بشفتيه ابتسامه حزينة *

سأله أليوشا :

- هل سألته أهو يعتقد أنك القاتل ؟

- لا ، لم أسأله عن هذا * أردت أن أسأله ، ولكنني لم أجسر *
على أنه لا داعي الى سؤاله ، لأنني أقرأ رأيه في عينيه * والآن
استودعك الله !

تعانق الأخوان وقبّل كل منهما الآخر مرةً ثانية * وأسرع
أليوشا ينصرف * ولكن ميتيا ناداه على حين فجأة ، لحظةً همّ أن يخرج
من الحجرة ، وقال له وهو يمسكه من كنفه :

- أليوشا ، أنعم النظر الى وجهي ، هكذا !***

كان وجهه قد بلغ من الاصفرار أن منظره يبدو مروّعاً في الظلام *
وتقبضت شفثاه ، وغارت نظرتة في عيني أليوشا :

- أليوشا ، قل لي الحقيقة كاملةً كأن الله يسمع كلامك في هذه
اللحظة * أعتقد أنني قتلت ؟ أعتقد أنت ، نعم أنت ، أنني قتلت ؟ أريد
أن أعرف الحقيقة ، لا تكذب ، لا تكذب ***

كذلك صاح ميتيا خارجاً عن طوره *

فتمتم أليوشا يقول زائغ النظرة :

- ما هذا الكلام ؟ ما هذا الكلام ؟ ماذا أصابك ؟***

فعاد ميتيا يقول مردداً :

- قل الحقيقة ، أريد الحقيقة ، لا تكذب *

فهتف أليوشا بقول بصوت متهدج مرتجف :

- أنا لم يخطر على بالي لحظة أنك قاتل •
 كان الانفعال يخنقه ، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يحلف
 يميناً • فأشرق في وجه ميتيا عندئذ تعبير عن سعادة • وقال ببطء كأنه
 يثوب الى نفسه بعد اغماء :

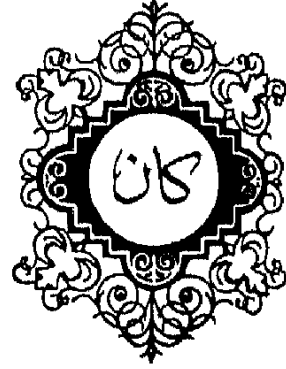
- شكراً ، شكراً • لقد رددت الى الحياة • تصور أنني كنت
 أخشى حتى الآن أن ألقى عليك هذا السؤال • كنت أخاف أن أسألك ،
 أن أسألك أنت ، أنت خاصة ! امض الآن • انك قد امددتني بقوى ليوم
 الغد ، بارك الله فيك ! انصرف الآن • حان أن تنصرف •
 وأضاف يقول بغتة :

- أحبَّ ايغان !

خرج أليوشا والدموع تنهمر من عينيه • ان هذا الشك الذي
 يعذب ميتيا ، ان اساءة الظن هذه التي تساور ميتيا ، حتى فيه هو
 أليوشا ، قد بصّرت أليوشا بهوة اليأس السحيقة التي هوى اليها أخوه
 الشقي ، والتي لم يكن أليوشا يظنها عميقة هذا العمق كله • وشعر
 أليوشا من جديد بذلك الألم الحاد الذي يكاد يكون جسماً ، ذلك الألم
 الذي شعر به قبل لحظات • وعادت الى ذهنه تلك العبارة التي هتف بها
 أخوه ميتيا : « أحبَّ ايغان » • وكان أليوشا ذاهباً الى ايغان على كل
 حال ، فلقد كان يحب أن يراه منذ هذا الصباح • ان التفكير في ايغان
 يعذبه كما يعذبه التفكير في ميتيا • والآن ، بعد اجتماعه هذا بأخيه ميتيا ،
 أصبحت حاجته الى التحدث مع ايغان أقوى منها في أى وقت مضى •

٥

ما أنت ، ما أنت !



على أليوشا ، حتى يذهب الى ايفان ، أن يمر أمام المنزل الذي تسكنه كاترين ايفانوفنا • ان نوافذ شقة السيدة الشابة مضاءة • توقف أليوشا أمام المدخل وقرر أن يصعد • انه لم ير كاترين ايفانوفنا منذ أكثر من أسبوع ، وخطر على باله فجأة أن ايفان يمكن أن يكون عندها الآن ، ولا سيما في عشيّة يوم حاسم كيوم الغد • فينما هو يصعد السلم الذي يضيئه مصباح صيني بنور ضعيف ، إذ هو يلمح رجلاً يهبط السلم ، فما ان وصل هذا الرجل اليه حتى عرف أنه أخوه • اذن لقد كان ايفان عند المرأة الشابة ثم هو تركها في هذه اللحظة •

قال ايفان فيدوروفتشس بلهجة جافة خشنة :

— آ ••• أهذا أنت اذن ؟ طاب يومك ، والى اللقاء • أنت

ذاهب اليها ؟

— نعم •

— لا أنصحك بذلك ، لأنها مضطربة اليوم اضطراباً شديداً ، ولن

نستطيع زيارتك الا أن تفاقم اضطرابها •

صاح صوت يقول من أعلى ، من خلال بابٍ فتّح على حين فجأة :

- بل اصعد ، اصعد + أنت آت من عنده يا ألكسى فيدوروفتش؟

- نعم ، رأيته منذ برهة +

- هل حملت رسالةً الىّ؟ ادخل يا أليوشا + وأنت أيضاً

يا ايفان ، تعال ، آمرك بهذا + + + هل سمعت؟

كان صوت كاترين ايفانوفنا يبلغ في تلك اللحظة من صرامة الأمر
أن ايفان فيدوروفتش قرر بعد بضع لحظات من تردد ، أن يصعد ثانيةً
في صحبة أليوشا +

ودمدم يقول بينه وبين نفسه حانقاً :

- لقد تجسست علينا +

ولكن أليوشا سمع دمدمته +

قال ايفان فيدوروفتش وهو يدخل الصالون :

- اسمح لي أن لا أخلع معطفي + ثم اننى لن أجلس ، لأننى

لا أنوى أن أمكث أكثر من دقيقة واحدة +

قالت كاترين ايفانوفنا :

- اجلس يا ألكسى فيدوروفتش +

وظلت هى نفسها واقفة +

انها لم تتغير كثيراً منذ شهرين ، ولكن وميضاً خفيفاً يسطع الآن
فى عينيها القاتمتين + سوف يتذكر أليوشا فيما بعد أنها بدت له فى تلك
اللحظة جميلة جداً خاصةً +

- ما الذى كلفك بأن تقوله لى ؟

قال أليوشا وهو يحدّق الى عينيها :

- كلّفنى بأن أقول لك شيئاً واحداً • انه يرجوك أن تراعى نفسك ، وأن لا تذكرى أمام المحكمة (وهنا اضطرب قليلاً) ••• أن لا تذكرى أمام المحكمة ••• ما جرى بينكما ••• أثناء أول لقاء ••• فى تلك المدينة الصغيرة ••• مدينة المعسكر •••

قاطعته كاترين ايفانوفنا وهى تضحك ضحكة مرة :

- آ ••• يقصد تلك التحية الساجدة وذلك المال ؟ أهو خائف على نفسه أم علىّ ؟ قل لى ! من ذا أراعى فى هذا الأمر ؟ أأراعى نفسى أم أراعيه هو ؟ تكلم يا الكسى فيدوروفتش !

كان أليوشا يتفرس فيها بانتباه ويحاول أن يحزر ما يدور فى فكرها •

قال بصوت رقيق عذب :

- هو يرجوك أن تراعى نفسك وأن تراعيه أيضاً •
فقلت بلهجة مسعورة وهى تحمر احمراراً شديداً على الفور :
- هكذا •

ثم أضافت تقول بصوت يداخله تهديد غامض :

- انك لا تعرفنى بعد يا ألكسى فيدوروفتش ! وربما كنت لا أعرف نفسى أنا أيضاً • من يدرى ؟ قد تتمنى أن تسحقنى سحقاً فى الغد بعد ادلائى بشهادتى أمام المحكمة •

قال أليوشا :

- قولى ما يمليه عليك الشرف • لا حاجة الى أكثر من ذلك •

فأجابت بقسوة :

– ليست المرأة شريفة دائماً * لقد كنت أتخيل منذ أقل من ساعة أنني سأتقزز من الكلام عن هذا المسخ ، عن هذا الشخص الكريه *** ولكن لا ! انه ما يزال في نظري انساناً *

ثم هتفت تسأل على حين فجأة بصوت تمازجه هستربا وهي تلتفت بغتة نحو ايفان فيدوروفتش :

– ولكن هل مؤكد أنه قتل ؟ أهو هو القاتل ؟

سرعان ما أدرك أليوشا أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على ايفان منذ دقائق قليلة قبل وصوله ، وأن المناقشة التي دارت حول هذه النقطة ، للمرة المائة في أغلب الظن ، قد انتهت بمشاجرة *

وتابعت تقول مخاطبةً ايفان أيضاً بصيغة المفرد :

– لقد ذهبتُ الى سمردياكوف *** أنت أوهمتني أن ميتيا قتل أباه ! بسبيك انما صدقت أنا ذلك *

ضحك ايفان ضحكةً حمل نفسه عليها حملاً * وقد ارتعش أليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد * لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة الى هذا الحد *

قال ايفان بجفاف وخشونة :

– كفى هذا اليوم * أنا ذاهب * سأرجع غداً *

ودار على عقبيه فجأة ، وخرج من البيت * فأسرعت كاترين ايفانوفنا تمسك يدي أليوشا وتقول له بحركة أمرة ودمدمة متعجلة :

– اتبعه ، أدركه ! لا تدعه وحده لحظةً واحدة * انه مجنون *

ألا تدري أنه فقد عقله ؟ لقد أصيب بحمى حارة ، صدقني ! طيبى هو
الذى قال لى ذلك • هيا ، اسرع ! أركض لتدركه •••

وثب أليوشا من مكانه واندفع فى اثر ايفان فيدوروفتش • لم يكن
ايفان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة •

– ماذا تريد منى ؟

كذلك هتف يقول ايفان ملتفتاً فجأة الى وراء منذ لمح أن أخاه
يريد اللحاق به • وتابع كلامه يقول بلهجة حائقة :

– لا شك أنها أمرتك بأن تتبعنى لاننى مجنون ، أليس كذلك ؟
لقد حفظت هذه القصة على ظهر القلب •

– واضح أنها مخطئة فى هذا • ولكنها على حق حين تقول انك
مريض • لقد تفرست فى وجهك منذ قليل ، فلاحظت أنك مريض ،
مريض جداً ، يا ايفان !

كان ايفان يسير دون أن يتوقف ، وكان أليوشا يتبعه •

سأله ايفان بصوت أصبح هادئاً على حين فجأة ، وزايله كل أثر
من آثار الخلق :

– هل تعرف يا ألكسى فيدوروفتش كيف يصبح المرء مجنوناً ؟
وكان يبدو على ايفان أن نوعاً طيباً كريماً من حب الاستطلاع هو
الذى يحرك نفسه الآن •

أجابه أليوشا قائلاً :

– لا ، لا أعرف • ولكن يخيّل الى أن الجنون أشكال شتى •
– هل تعتقد أن فى وسع المرء أن يدرك هو نفسه أنه قد 'جن' ؟

- فأجاب أليوشا مدهوشاً بعض الدهشة :
- أحسب أن المرء لا يقدر في مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه •
- صمت ايفان نصف دقيقة • ثم قال فجأة :
- إذا كنت تحب أن تكلمنى فأرجوك أن تغير موضوع الحديث •
- فقال أليوشا فى خجل :
- صحيح • كدت أنسى • معى رسالة لك •
- وأخرج من جيبه رسالة ليزا ومدّها الى أخيه •••
- كانا فى تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشارع ، فسرعان ما عرف ايفان خط صاحبة الرسالة •
- قال وهو يضحك ضحكة خيشة :
- ها ••• رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة •
- ثم مزق الرسالة قطعاً ورماها فى الهواء دون أن يفيض الظرف ، فتناثرت أجزاؤها • وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره :
- لم تبلغ السادسة عشرة ثم هى تعرض نفسها •
- فهتف أليوشا قائلاً :
- كيف هذا ؟
- كيف ؟ كأية امرأة فاسقة •
- فقال أليوشا يحنج فى ألم :
- ما هذا الذى تقوله يا ايفان ؟ انها طفلة ! أنت تهين طفلة • هى مريضة ، مريضة جداً • لعلها جنّت هى أيضاً ••• ما كان يمكننى أن أرفض حمل رسالتها اليك ••• وكنت أحب أن أعرف جلية الأمر منك أنت ••• حتى يمكن انقاذها •

– لن تعلم منى شيئاً • اذا كانت هي طفلة فلست أنا حاضنتها •
اسكت يا ألكسي • كفى ! اننى لا أفكر فيها ، حتى ولا تخطر على
بالي •

وصمتا كلاهما بضع لحظات • ثم قال ايفان فجأة بصوت حائق
قاطع :

– سوف تقضى الليل كله مصلياً مبتهلاً الى السيدة العذراء أن
تلهمها الصواب وأن تدلها على ما يجب أن تقوله غداً فى المحكمة •

– هل تقصد ••• كاترين ايفانوفنا ؟

– نعم ••• انها تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتا أو أن نضيعه •
سوف تصلى من أجل أن تهتدى الى الرأى السديد • انها لا تعرف هي
نفسها حتى الآن ما الذى ستقوله ، لأن وقتها لم يتسع بعد لأن تنهياً
للأمر • هي أيضاً تعدنى حاضنة لها ، وتريد لى أن أهدها !
قال أليوشا بحزن :

– كاترين ايفانوفنا تحبك يا أخى •

– جائز • ولكن هذا لا يعينى •

– انها تتألم • لماذا قلت لها اذن ••• فى بعض المرات ••• كلاماً
يمكن أن يبعث فى نفسها أملاً ؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أنتجت لها أن
تأمل •

كذلك قال أليوشا بصوت فيه شيء من لوم خجل • وأضاف :

– سامحنى اذا قلت لك هذا الكلام !

فقال ايفان متضايقاً منزعجاً :

- لا أستطع أن أتصرف كما ينبغي أن أتصرف ، أى أن أقطع
صلتى بها وأن أقول لها الحقيقة بقسوة • يجب انتظار صدور الحكم على
القاتل أولاً • لو تركتها الآن لضيعت ذلك المسكين مدفوعة بروح
الانتقام • ذلك أنها تكرهه ، وهى تعلم أنها تكرهه • كل شىء هنا كذب •
ليس بها أى صدق ! هى الآن ، والى أن أقطع صلتى بها ، ستظل تأمل ،
وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان ، لعلمها باننى أحاول أن
أخرجه من المأزق • فمتى يصدر ذلك الحكم اللعين ؟

لقد ترجعت كلمتا « القاتل » و « الشيطان » فى قلب أليوشا ترجعاً
أليماً موجعاً •

وسأل أليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ الى معنى أقوال ايفان :
- كيف يكون فى وسعها أن تضيّع أخانا ؟ ما هى الأشياء التى
يمكن أن تقولها فى شهادتها فتنزى بدمترى كارثة ؟

- أنت تجهل هذا حتى الآن • انها تملك ورقة مكتوبة بخط
دمترى نفسه ، ورقة تثبت اثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيدور بافلوفتش •

صاح أليوشا يقول :

- مستحيل !

- لماذا ؟ لقد قرأت الورقة بنفسى •

أجاب أليوشا بقوة :

- لا يمكن أن يكون هناك ورقة من هذا النوع • ذلك مستحيل
استحالة مطلقة ، لأن دمترى لم يقتل • ليس هو قاتل أبينا ، ليس هو
قاتله •••

توقف ايفان فيدوروفتش عن المشى • وسأل أخاه بلهجة فيها شيء من الاستعلاء :

– فمن عسى يكون القاتل في رأيك ؟

قال أليوشا بصوت خافت نافذ :

– من ؟ أنت تعرفه •

– ماذا ؟ أَيْظَلْ يُتَصَوَّرُ ذلك الاتهام الغبي لرجل أبله مصاب بالصرع ؟ أَتُقْصَدُ سمردياكوف ؟

شعر أليوشا برعدة تهز جسمه كله • وقال :

– أنت تعلم حق العلم أنه هو القاتل •

أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير ارادة ، وكان يختنق اختناقاً.

فقال ايفان يصرخ في هذه المرة صراخاً وقد أَلَمَّ به ما يشبه أن يكون غضباً مسعوراً :

– من تعنى ؟ من تعنى ؟ تكلم !

لقد فقد ايفان كل سيطرة له على نفسه •

عاد أليوشا يقول بهمس مختنق :

– أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا ليس أنت • لا •••

ما أنت ، ما أنت !•••

سأله ايفان مذهولاً :

– « ما أنت » ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

فكرر أليوشا قوله :

- ما أنت قاتل أبينا ، ما أنت !
- وخيم الصمت لحظة • ثم قال ايفان وهو يتسم ابتسامة لا يكاد يكون فيها من التبسم الا انفراج الشفتين :
- أعلمُ أن القاتل ليس أنا طبعاً •
- وغرس نظراته في عيني أليوشا • وكان الأخوان قد وصلا الى أحد مصابيح الشارع من جديد •
- اسمع يا ايفان : لقد اتهمت نفسك بنفسك غير مرة ، اتهمت نفسك بأنك أنت القاتل •
- تمتم ايفان يقول زائغ النظرة تائه الهيئة :
- متى قلت أنا هذا ؟ متى ؟ لقد كنت بموسكو في ذلك الأوان •
- متى قلت أنا هذا الكلام ؟
- قلته لنفسك مراراً في الساعات التي خلوت فيها الى ضميرك أثناء الشهرين الرهييين •
- كذلك قال أليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت ، ولكنه كان ينطق كل كلمة من كلماته واضحة • كان يتكلم كمن تدفعه الى الكلام قوة لا تغالب ، قوة غريبة عن ارادته ان صح التعبير :
- اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً ان القاتل الحقيقي هو أنت •
- ولكنك لست القاتل يا ايفان • أنت مخطيء • لست أنت القاتل • هل تسمعني ؟ ما أنت ، ما أنت ! الله قد أرسلني لأقول لك هذا •
- سكت الأخوان • وامتد صمت ثقيل خلال دقيقة كاملة • ان كلاماً منهما يحدّق الى عيني أخيه منكفئء اللون شاحب الوجه • وفجأة أخذت اعضاء ايفان كلها ترتعش ، وأمسك أليوشا من كتفه ، ودمدم يقول كازراً أسنانه :

- جئت الى بيتى اذن فى السر ، فى الخفاء *** جئت ليلاً بينما كان هو عندى ، هو *** هيّا اعترف ! رأيتَه ، رأيتَه ، أليس كذلك ؟
سأله أليوشا مذهولاً :

- من تعنى ؟ أتعنى ميتيا ؟

زأر ايفان يقول خارجاً عن طوره :

- لا ، لا ميتيا • شيطان يأخذ ميتيا • قل : من أين عرفت «أنه»
جاء الىّ ؟ كيف علمت بذلك ؟ تكلم !

قال أليوشا مروّعاً مذعوراً :

- من تقصد ؟ من ذا الذى تعنيه بقولك انه جاء اليك ؟ من هو
هذا ؟ اننى لا أعرف من الذى تشير اليه بهذا الكلام •

- بل تعرف ، تعرف *** ولولا ذلك ما استطعت أن •• يستحيل
أن لا تكون عارفاً بالأمر ***

وسكت ايفان فجأة فى وسط الجملة ، وأمسك عن الكلام • بدا أنه
يفكر فى شيء ما • وارتسمت على شفثيه ابتسامة غريبة •

عاد أليوشا يقول بصوت مختلف :

- أخى ، أنا قلت لك ما قلت لأنك تصدقنى دائماً • قلت لك ماقلت
لتذكر قولى الى الأبد : لست أنت القاتل • تذكر هذا طوال حياتك ،
هل تسمع ؟ لقد أمرنى الله بأن أقول لك هذا الكلام ، ولو جعلك ذلك
تكرهنى بعد اليوم ***

ولكن ايفان فيدوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه
بسلوكه • فبدأ يقول بسخرية باردة :

- اسمع يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا أطيق الأنبياء ولا المرضى

بداء الصرع • أما الذين يرسلهم الرب فأنا أكرههم كرهاً خاصاً وأمقتهم
مقتناً شديداً ••• تعلم ذلك حق العلم • اننى أقطع منذ الآن كل علاقة
لى بك ، أقطع كل علاقة لى بك الى الأبد فيما يخيّل الىّ • أرجوك أن
تتركنى فوراً ، عند هذا المفترق • وليس لك على كل حال الا أن تمضى
فى هذا الشارع الصغير الذى يفضى بك الى مسكنك • وحاذر خاصة
أن تجيء الىّ اليوم • هل سمعت ؟

ودار على عقبيه ، وابتعد بخطى ثابتة دون أن ينظر الى وراء •

صاح أليوشا يقول له :

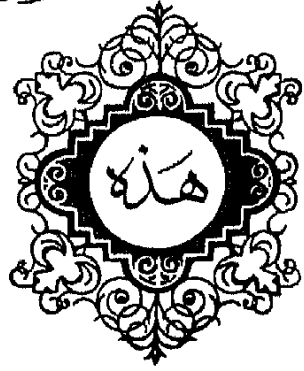
- أخى ، اذا حدث لك شىء فى النهار ، فاذاكرنى أنا قبل كل

شىء ! •••

لم يجب ايفان • وانتظر أليوشا ، عند مفترق الطرق ، قرب
المصباح ، غياب شبح أخيه فى الظلام • وعندئذ ابتعد هو أيضاً يتجه الى
مسكنه بخطى بطيئة • كان الأخوان يسكنان منفصلين فى منزلين مختلفين •
لم يشأ أحد منهما أن يقيم فى المنزل الخالى الذى خلفه فيدور بافلوفتش •
كان أليوشا يسكن فى غرفة مؤثثة عند أسرة من صغار سكان المدينة •
وكان ايفان يقيم فى شقة واسعة بعيدة عن مسكن أخيه استأجرها من دار
امرأة ثرية هى أرملة أحد الموظفين • لم يكن يخدمه هنالك الا عجوز
صغيرة صماء مصابة بالروماتزم ترقد كل يوم فى الساعة السادسة من
المساء ، وتنهض من نومها كل يوم فى الساعة السادسة من الصباح •
ولكن ايفان كان قد أصبح قليل المطالب فى شئون الخدمة أثناء هذين
الشهرين الأخيرين ، وأصبح يميل الى الوحدة والاعتزال فى بيته ،
ويحلو له أن يتولى بنفسه ترتيب الغرفة التى ينام فيها ، ولا يدخل سائر
غرف شقته الا نادراً • فلما وصل الى باب منزله وضع يده على الجرس

ولكنه أمسك عن قرعه فجأة • كان ما يزال يشعر بغضب شديد يُرْعش جسمه كله • فما هي الا لحظة حتى أرخى الجرس وبصق على الأرض اسمئزاً ، واستدار على عقبيه ، ومضى يتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة ، وذهب الى منزل صغير من خشب ، يوسك أن يكون متداعياً ويقع على بعد فرسخين ، وهو منزل تسكنه ماريا كوندرايتينا ، تلك المرأة التي كانت في الماضي جارة فيدور بافلوفتش وكانت تلتبس من مطبخ فيدور بافلوفتش شيئاً من حساء ، وكان سمردياكوف ينسدها أغانيه عازفاً على القيثارة • لقد باعت هذه المرأة دارها الصغير التي كانت تقطنها في الماضي ، وأصبحت تساكن الآن أمها في كوخ حقير ، وقد أقام سمردياكوف عندها منذ موت فيدور بافلوفتش ، مريضاً يشبه أن يكون محتضراً • فالى عند سمردياكوف انما كان يتجه الآن ايفان فيدوروفتش ، تدفعه الى ذلك فكرة مباغته قاهرة •

أول اجتماع بسمردياكوف



ثالث مرة يزور فيها ايفان الخادم سمردياكوف، بعد عودته من موسكو ، ليتحدث معه + كان قد اجتمع به مرةً أولى بعد وقوع الكارثة فوراً ، يوم وصوله من موسكو ، وزاره مرة ثانية بعد

ذلك بأسبوعين ؛ ثم انقطع عنه بعد تلك المقابلة الثانية ، ولم يكذ يسمع عنه شيئاً منذ شهر + ان ايفان فيدوروفتش لم يرجع من موسكو الا بعد موت أبيه بخمسة أيام ، وكان أبوه قد دُفن عشية رجوعه هو من موسكو + ويرجع سبب هذا التأخر الى أن أليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه بموسكو فرجا كاترين ايفانوفنا أن تتولى ابلاغه نبأ الوفاة ببرقية ؛ وكانت المرأة الشابة تجهل هي أيضاً أين كان عنوان ايفان على وجه الدقة ، فأبرقت الى عمتها والى أختها وفي تقديرها ان ايفان فيدوروفتش سيزورها منذ يصل الى موسكو + وقد حدث أن ايفان لم يزورها الا في اليوم الرابع ، فلما قرأ البرقية أسرع يعود الى مدينتنا + وكان أليوشا أول شخص تحدث معه ايفان عن الفاجعة ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن أخاه أليوشا يرفض رفضاً مطلقاً أن يشتبه في دمترى ، وانما يتهم سمردياكوف اتهاماً قاطعاً جازماً بأنه هو القاتل ، على خلاف الرأي الذي أجمع عليه الناس في مدينتنا . فلما تحدث ايفان بعد ذلك مع رئيس

الشرطة ووكيل النيابة واطلع على تفاصيل الاتهام والتحقيق ، ازدادت دهشته من موقف أليوشا ، فنسب هذا الموقف الى عاطفة الأخوة القوية ، والى العطف والشفقة على شقى مسكين ، ذلك أن ايفان كان لا يجهل فى الواقع ان أليوشا يحب دمترى كثيراً . ولنقل فى هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف ايفان نحو أخيه دمترى فيدوروفتش : لقد كان ايفان يكره أخاه دمترى كرهاً حقيقياً ، ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة غامضة الا فى القليل النادر ، وهى شفقة ترتبط باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز . لقد شعر ايفان دائماً بنفور من ميتيا ، وكان ينفر حتى من شكله ، ويسوءه ما تحمله كاترين ايفانوفنا لهذا الشاب من حب . وقد زار ميتيا فى السجن يوم وصوله نفسه ، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل ، بل عززت هذا الاقتناع ورسخته . لقد وجد أخاه فريسة اضطراب كبير وجيشان مرضى . كان ميتيا يتكلم كثيراً ، مع بقائه ذاهلاً حائراً مشوشاً ، وكان يعبر عما بنفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة . كان يتهم سمردياكوف ، وما ينفك يخبط فى كلامه خبط عشواء ، عائداً على حين فجأة الى مسألة الثلاثة آلاف روبل التى « سرقها » منه المتوفى ، قائلاً من حين الى حين : « كان هذا المال مالى أنا ، هبّنى سرقته فلا جناح علىَّ » . أما القرائن التى تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها ، حتى اذا عرض الوقائع التى كان يرى أنها دليل على براءته ، اضطرب كلامه واختلطت الأمور فى حديثه بكثير من الخرافة ، وكأنه كان لا يحب أن يبرىء نفسه فى نظر أخيه أو فى نظر أى انسان آخر ؛ فهو يغضب ويتور ، ويحتقر الاتهامات مستعلياً ، ويرد عليها بمسبات وشتائم ، ويتكلم باحتقار على شهادة جريجورى بشأن الباب المفتوح ، مؤكداً أن « الشيطان هو الذى كان قد فتح الباب » ، دون أن يحاول البحث عن أى تعليل ممكن لهذه الواقعة . حتى لقد وجد السبيل ، أثناء هذا الاجتماع

الأول بأخيه ايفان فيدوروفتش ، الى أن يهينه ويجرح شعوره ، مردداً في جفاء وخسونة أن الذين يدعون « أن كل شيء مباح » ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه . وجملة القول أنه لم يظهر لايفان شيئاً من مودة ، بل خاشنه وأغلظ له القول . وبعد هذا الاجتماع فوراً انما ذهب ايفان فيدوروفتش الى سمردياكوف .

كان ايفان ، حين غادر موسكو ، قد فكر في سمردياكوف طويلاً في القطار ، وفكّر في الحديث الذي جرى بينه وبينه عشية رحيله . ان عدداً من التفاصيل كان يوقظ في نفسه الشبهات ويقلقه اقلاقاً شديداً . ولكن ايفان ، أثناء الشهادة التي أدلى بها أمام قاضي التحقيق ، قد آثر أن يسكت مؤقتاً عن ذلك الحديث الذي كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف . كان ايفان يريد أن يتحدث بنفسه أولاً مع سمردياكوف . وكان سمردياكوف يومئذ في مستشفى المدينة . وقد صرّح الدكتور هرتسنشتوبه لايفان ، وكذلك الطبيب فارفسكى الذي لقيه ايفان في المستشفى ، صرّحاً له جازمين قاطعين أن نوبة الصرع التي أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً ، حتى لقد استغربا هذا السؤال : « ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض تظاهراً يوم وقوع حادثة القتل؟ » . وقد أفهما ايفان أن نوبة الصرع التي ألمت بسمردياكوف في هذه المرة كانت خطيرة خطيرة خاصة شديدة ، لأنها امتدت عدة أيام ، وتكررت مرات كثيرة ، حتى كادت تودي بحياته ؛ وبفضل الاسعافات التي استطاعا أن يقدمها والاجراءات التي عمدا الى اتخاذها انما أصبح من الممكن أن يقال الآن ان المريض لن يموت من هذه النوبة الرهبة التي ألمت به . وأضاف الدكتور هرتسنشتوبه قوله : « على أن قواه العقلية ستظل مضطربة بعض الاضطراب مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل » . واذ كان ايفان يسأل بشيء من نقاد الصبر

« هل يجب أن يعد الخادم مجنوناً » ، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً كل الجنون ، وإنما لوحظت فيه أنواع من الشذوذ • فقرر ايفان أن يتحقق بنفسه من طبيعة هذه الاضطرابات على وجه الدقة • وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل •

كان سمردياكوف راقداً على سريريه في حجرة ذات سريرين • أما السرير الثاني فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء ، وكان قد بلغ درجة قصوى من الضعف ، فلن يعيش أكثر من يوم آخر أو يومين آخرين ، فلا يمكن أن يكون وجوده في الغرفة حائلاً دون الحديث •

ابتسم سمردياكوف ابتسامة حذرة مرتابة حين رأى ايفان فيدوروفتش حتى لقد ظهر عليه في أول الأمر شيء من الوجع ؛ أو هذا ما شعر به ايفان على الأقل • ولكن ذلك الوجع سرعان ما تبدد ، حتى لقد دُهِس ايفان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك • واستطاع ايفان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً • لقد كان سمردياكوف ضعيفاً أشد الضعف ، وكان يتكلم ببطء كأنه يجد عناءً في تحريك لسانه ، وكان قد هزل جسمه هزالاً بالفاً ، واصفر لونه اصفراراً شديداً • ولم ينقطع سمردياكوف خلال الدقائق العشرين التي استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام في رأسه وأوجاع في جميع أعضاء جسمه • وكان وجهه الجاف الذي يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد ضؤل وصغر ، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً متشعثاً ، ولم يبق من ذؤابته الا خصلة متناثرة في قمة الرأس • ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضن قليلاً ، والتي تغمز من حين الى حين لتوحى بمعان مأكرة ، تشهد بأن سمردياكوف ما يزال سمردياكوف • وتذكر ايفان جملمته

التي سبق أن قالها له ذات يوم : « يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع
انسان ذكي » •

جلس ايفان على اسكاملة من جهة قدمي المريض • فانقلب
سمردياكوف على فراشه متألماً ، ولكنه ظل صامتاً لا يتكلم ، كأنه لا يريد
أن يكون البادئ بالكلام • ولم يكن في نظراته شيء يدل على الاستطلاع •
سأله ايفان :

– هل تستطيع أن تتحدث معي ؟ ألا يتعبك ذلك ؟

فتمتم سمردياكوف يقول بصوت واهن :

– طبعاً أستطيع أن أتكلم •

ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك :

– هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

– وصلت اليوم ••••• جئت لأجلو الموقف •

تنهد سمردياكوف • فأسرع ايفان يسأله فجأة :

– لماذا تنهد وقد كنت على علم بالأمر •

صمت سمردياكوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر •

ثم قال :

– كيف كان يمكن أن لا أعلم ؟ لقد كان سهلاً حزر ما سيقع •

ولكنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ كيف سينتهي الأمر •

– تنبأ بماذا ؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران ••• ألم تنبأ

بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل الى القبو ؟ لقد حرصت على أن

تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك الى القبو !

سأله سمردياكوف بهدوء :

– هل ذكرت هذا في الشهادة التي أدليت بها ؟

غضب ايفان فيدوروفتشس وأجابه بقوله :

– لم أذكره بعد ، ولكنني سأذكره حتماً • هناك نقاط كثيرة عليك أن توضحها لي ، واعلم انني لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معي !

– علام أمثل دور الماكر ما دام أملئ كله معقوداً عليك ، وعلى الرب !

كذلك قال سمردياكوف بذلك الهدوء نفسه ، مكتفياً باغمصاص عينيه لحظة •

بدأ ايفان يقول :

– أولاً ، أنا أعلم حق العلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع • لقد سألت عن هذا الأمر ، فعلمت علم اليقين أن ذلك مستحيل ، لذلك أنصحك بأن لا تراوغ • يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التي يُصاب بها بنوبة من هذا النوع • فكيف أمكنك اذن أن تتحدّد لي سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة ، وكيف أمكنك فوق هذا أن تعيّن المكان الذي ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول انه القبو ؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن نوبة الصرع ستلم بك في القبو ، اذا لم تكن قد اصطنعتها اصطناعاً ، وتظاهرت بها تظاهراً ؟

أجاب سمردياكوف يقول دون تعجل ، جاراً كلماته جراً :

– كان عليّ أن أنزل الى القبو في كل حال ، بل كان عليّ أن أنزل اليه عدة مرات في اليوم • وفي ظروف كهذه الظروف انما سقطت من الشونة في العام الماضي • صحيح أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ باليوم

والساعة النى توافبه فيها نوبة صرع ، ولكنه يستطيع أن يحس ذلك وأن
يوجسه •

- نعم ، ولكنك تنبأت باليوم والساعة •

- خير لك ، ياسيدى ، فيما يتعلق بمرضى ، أن تسأل أطباء هذا
المستشفى • سلهم عن نوبة الصرع أكانت مصطنعة أم لا ! أما أنا فلا أرى
أن علىّ أن أزيد على ما قلت شيئاً •

- والقبو ، القبو ؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك فى القبو ؟

- لا يقلقنك أمر القبو ! المسألة بسيطة : حين كنت نازلاً الى
القبو ألمّ بى ذعر وخوف وقلق ، ألمّ بى ذعر خاصة ، لأنك كنت
غائباً فلم يبق لى أحد . يحمينى • نزلت الى ذلك القبو وأنا أقول لى نفسى :
« الآن ستجئنى النوبة ، الآن ! ... هل سأقع ؟ هل سأسقط ؟ » وبسبب
ذلك القلق الذى شعرت به عندئذ انما أحسست فجأة بذلك التشنج
اللعين فى حلقى ، بذلك التشنج الذى لا حيلة لى فى دفعه ... ثم
ترنحت ... وتدحرجت ! ... هذه التفاصيل كلها ، وذلك الحديث
الذى جرى بينى وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل ، حين أطلعتك على
مخاوفى وقلقى بشأن القبو ، ذلك كله قصصته بأمانة على الدكتور
هرتسنشتوبه ، وعلى قاضى التحقيق نيقولا بارفينوفتش ، فسجلاً جميع
تصريحاتى فى المحضر • أما الدكتور فارفسكى فقد ألحّ عندئذ على أن
الأمر لا بد أن تكون قد جرت هذا المجرى ، وعلى أن نوبة الصرع التى
أصابتنى انما كان مردّها حتماً الى خوفى منها ، وتوقعى لها : « أسوف
أسقط أم سوف لا أسقط ؟ » ، فاذا بالنوبة توافينى فى تلك اللحظة بعينها .
ذلك ما دونوه فى المحضر ، وأضافوا اليه أن الأمر لا بد أن تكون قد
جرت على هذا النحو نتيجةً للخوف الذى هجس فى نفسى •

قدم سمردياكوف هذه الايضاحات ثم تنفس تنفساً عميقاً شاقاً ، كأنه يحس بأنه محطم من فرط التعب والعناء .

سأله ايغان فيدوروفتش مبلبلاً بعض البلبلة :

– أأنت ذكرت هذه التفاصيل اذن فى شهادتك ؟

ذلك أن ايغان كان ينوى أن يخيف الخادم بتهديده بإفشاء أمر الحديث الذى جرى بينهما عشية الجريمة ، فاذا هو يعلم الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه الى ذكر جميع التفاصيل .

وقال سمردياكوف بصوت صار ثابتاً على حين فجأة :

– ماذا كنت أخشى ؟ بالعكس : اننى أحرص على أن تُسَجَّل

الحقيقة كلها فى المحضر .

– هل ذكرت الحديث الذى جرى بيننا كلمة كلمة ؟

– لا ، لم أذكره كلمة كلمة .

– هل قلت لهم أيضاً انك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت

بذلك أمامى ؟

– لا ، لم أقل لهم ذلك .

– قل لى الآن لماذا كنت حريصاً ذلك الحرص كله على أن أسافر

الى تشرماشنايا ؟

– كنت اخشى أن تسافر الى موسكو . ان تشرماشنايا أقل بعداً من

موسكو على كل حال .

– كاذب ! كنت تريد أن أبتعد عن هنا . « سافر ، أهرب من

الاثم » . ذلك ما كنت تقوله لى .

– لئن أسديت اليك هذه النصيحة ، فانما فعلت ذلك من باب الصداقة لك ، والاخلاص لشخصك ، لأنني كنت أتوقع النازلة التي كانت ستحل بهذه الدار ، فكنت أشفق عليك وأرثي لك . غير أن اهتمامي بسلامتي غلب عليّ ، فقلت لك « اهرب من الاثم » ، وذلك لأفهمك أن شراً يتربص بالدار ، فأحملك على البقاء هنا لتحمي أباك .

هتف ايفان يقول غاضباً علي حين فجأة :

– كان عليك أن تقول لي ذلك ببساطة دون لف ودوران !

– كيف كان يمكنني أن أكلمك بصراحة ؟ كان الخوف قد شلني شلاً ، وكنت أخشى فوق ذلك أن أغضبك . صحيح أن هناك ما كان يحملني علي أن أخاف أن يرتكب دمري فيدوروفتش حماقة ما ، وأن يستولي علي ذلك المبلغ لأنه كان يعده ملكاً له ، ولكن كيف كان في وسعي أن أتنبأ بأن الأمر سينتهي الي جريمة قتل ؟ كنت أظن أنه سيكتفي بأخذ الثلاثة آلاف روبل التي كان سيدي يخبئها في ظرف تحت الفراش . ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك . أكان في وسعك أنت مثلاً أن تتنبأ بما وقع ؟

قال ايفان فيدوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر :

– اذا كنت تقول أنت نفسك ان التنبؤ بذلك كان مستحيلاً ، فكيف كان يمكنني أن أتنبأ أنا به ، فأبقي هنا ؟ انك تخلط الأمور وتخبط في الكلام .

– كان يمكنك أن تتنبأ بالأمر لأنني كنت ألحُّ عليك أن تسافر الي تشرماشنيا لا الي موسكو .

– كيف كان يمكنني أن أتنبأ ؟ ما هذا الكلام الذي تقوله ؟

بدا على سمردياكوف تعب شديد ، فصمت بضع لحظات من جديد .

ثم قال :

– كان يمكنك أن تتنبأ بذلك ، حين لاحظت أنني كنت أوتر أن أعلم أنك في تشرماشنيا لا في موسكو لأن موسكو بعيدة جداً . فإذا عرف دمترى فيدوروفتش أنك قريب من هنا ، فلعله كان سيتردد ؛ وكان في وسعك اذا كنت في تشرماشنيا أن تسارع فتجيء لتحميني عند الحاجة لأننى قد حدثتكم عن مرض جريجورى فاسيلتس وعن توجسى لنوبة الصرع التى ستوافينى . وقد أطلعتك ، عدا ذلك ، على الاشارات التى يمكن بواسطتها حمل أهلك على فتح الباب . وحين أسررت اليك أن دمترى فيدوروفتش كان على علم بهذه الاشارات لأننى أطلعتة عليها ، كنت أقدر أنك ستدرك ما يتربص بالدار من شر ، وأنت ستعدل حتى عن السفر الى تشرماشنيا ، وأنت ستبقى هنا .

حدث ايفان نفسه قائلاً : « انه يحسن التفكير ، رغم أنه يسىء نطق الكلمات . فأين هى اذن تلك الاضطرابات العقلية التى تكلم عنها الدكتور هرتسنشتوبه ؟ » .

هتف ايفان يقول غاضباً :

– أترك تمكر بى ؟ يا لك من قاطع طريق ! . . .

فأجابه سمردياكوف وقد لاح في وجهه أقصى البراءة :

– أنا ؟ أترف لك بأننى كنت قد أيقنت أنك فهمتى حق الفهم

أثناء ذلك الحديث .

فصاح ايفان يقول غاضباً من جديد :

– لو قد فهمت لبقيت .

– وأنا ظننت أنك فهمت كل شيء ، وحزرت كل شيء ، وأنتك
أسرعت تسافر بغية الابتعاد عن الاثم ، والنأي عما يتهياً هنا من شر ،
بالهرب الى مكان بعيد ، من باب الخوف ان صح التعبير •

– ها ؟ أتراك تتخيل أن جميع الناس جنباء مثلك ؟

– معذرة يا سيدي • كنت أظن أنك مثلي !

عاد ايفان يقول مضطرباً :

– لنسَلِّم أنه كان في امكاني أن أحزر ••• لقد كنت أقدر حقاً
أنتك تهيبى شراً من الشرور •••

ولكن ايفان صاح يقول فجأة وقد تذكر نقطة معينة من الحديث
الذي جرى بينهما قبل رحيله :

– لكنك تكذب ! تكذب ! هل تتذكر أنك اقتربت من عربتي لحظة
رحيلي لتقول لي : « يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي » ؟ •
اذن لقد سرتك أن تراني راحلاً ما دمت قد أخذت تكيل لي المديح !

قال سمردياكوف وهو يبذل جهداً واضحاً من أجل أن يسترد
أنفاسه :

– لئن سرت ، ان سروري لم يكن له من سبب الا انني رأيتك
لا تسافر الى موسكو بل الى تشرماشيا التي هي أقرب من موسكو على
الأقل • أما الأقوال التي تعدها مديحاً ، فانك قد أسأت فهمها • ذلك
أنني قد قصدت بها الى لومك في حقيقة الأمر •

– الى لومي ؟ لومي على ماذا ؟

– على أنك رغم توجسك الشر ، تترك أباك وتعدل عن البقاء هنا

لحمايتنا • ذلك أننى كنت أنا أيضاً معرّضاً لأن أُقحم فى القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التى كان يمكن أن يُظن أننى سرقتها •

قال ايفان غاضباً من جديد :

— شيطان يأخذك ! لحظة ... هل حدثت قاضى التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الاشارات ، عن تلك الضربات على النافذة ؟

— حدثتهما عنها • قلت لهما كل شيء •

دُهِس ايفان فيدوروفتش بينه وبين نفسه من جديد • ثم استأنف كلامه قائلاً :

اذا كنت قد ارتبت فى شيء من الأشياء أثناء ذلك الحديث ، فقد دار ارتيايى على أن من الممكن أن ترتكب أنت حقارةً ما • صحيح أن دمترى كان يمكن أن يقتل ، أما أن يسرق فذلك ما لم أسلّم به حينذاك • ولا كذلك أنت ، فأننى كنت أتوقع منك كل شيء • ألم تسرّ الىّ أنت نفسك أن فى وسعك أن تصطنع نبوة صرع ؟

— قلته عن بساطة • اننى لم أظاهر نبوة صرع فى يوم من الأيام • وانما أردت أن أتباهى أمامك وأتفاخر • كان ذلك غباوة منى • كنت أحبك كثيراً ، وأحدثك بسذاجة تامة وبراعة كاملة •

— ان أخى يتهمك اتهاماً قاطعاً بأنك قتلت وسرقت •

أجابه سمردياكوف يقول بإتسامة مرة :

— ماذا بقى له أن يقول ؟ من ذا الذى سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه جميع تلك الأدلة ؟ الباب الذى رآه جريجورى فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال ... كيف يمكنه أن يتهمنى بعد هذا ؟ سامحه الله ! انه يحاول انقاذ نفسه بأية طريقة ! ...

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم أردف يقول :
 - هو الأمر نفسه ... انه يريد أن يلقي الجرم على عاتقي مدعياً
 أنني أنا الذى قمت بالضربة ... أعرف القصة ... ولكن فكّر قليلاً :
 لقد ذكرت لك مازحاً أنني أحسن التظاهر بنوبة الصرع . أفكان يمكن
 أن أقول لك اننى قادر على ذلك التظاهر لو كنت أنوى قتل أهلك ؟ هل
 يتخيل أحد أن انساناً يبيّت جريمة كهذه الجريمة يمكن أن يبلغ به
 الغباء حدّ فضح نفسه سلفاً ، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة ، بالتحدث
 فى هذا الأمر الى ابن الضحية نفسه ؟ ذلك نىء لا يمكن تصديقه
 اطلاقاً . ما من أحد يسمعا فى هذه اللحظة ، ما من أحد يسمعا الا الله .
 ولكنك ، حتى لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضى التحقيق ،
 لن تزيد على أن تخدمنى : هل يمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة
 كلها ؟ ذلك ما سيقوله جميع الناس .

قال ايفان فيدوروفتش وقد أدهشه ما تشتمل عليه هذه الملاحظة
 الأخيرة من منطق :

- اسمع ، اننى لا أشتهه أبداً فى انك ارتكبت هذه الجريمة ، بل
 اننى لأرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك .

نطق ايفان بهذه الكلمات وهو ينهض . وأردف يقول :

- وانى لأشكر لك أنك طمأنتنى فى هذا الموضوع . اننى أتركك
 الآن ، ولكننى سأزورك مرة أخرى . الى اللقاء . أتمنى لك شفاء سريعاً .
 أنت فى حاجة الى شىء ؟

- شكراً يا سيدى ! شكراً لك على كل شىء . ان مارفا اجناتفنا تهتم
 بأمرى ، وتجعلنى فى غير حاجة الى شىء البتة ، على عاداتها فى الشهامة
 والأريحية . لا شىء يعوزنى . وهناك اناس طيبون يزوروننى كل يوم .

– الى اللقاء • ثم اننى لن أكشف شيئاً مما ذكرته لى عن حذقك
فى اصطناع الصرع والتظاهر به •

ثم أضاف يقول فجأة دون أن يعرف لماذا :

– وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا فى شهادتك أنت أيضاً •

– أنا أفهمك كل الفهم • ما دمتَ لن تتحدث عن هذا الأمر أنت ،
فسأسكت أنا أيضاً عن تفاصيل ذلك الحديث الذى جرى بيننا حينذاك
• أمام المنزل •

خرج ايفان فيدوروفتش من غرفة المريض مسرعاً ، ولم يدرك
فجأة ما قد تشتمل عليه الكلمات الأخيرة التى قالها سمردياكوف من
اهانة له ، الا بعد أن قطع نحو عشر خطوات فى الممر ، فأوشك عندئذ
أن يقفل راجعاً الى المريض ، ولكن هذه النية التى هجست فى نفسه
نصف ثانية ، لم تلبث أن تبددت ، واكتفى ايفان بأن دمدم قائلاً :
« ذلك كله سخافات ! » ، ثم أسرع يغادر المستشفى • كان الأمر الأساسى
فى نظره هو أنه تأكد من أن القاتل هو أخوه ميتيا لا سمردياكوف ،
رغم أنه كان يتوقع عكس ذلك • لماذا انقلبت تنبؤاته هذا الانقلاب ؟ كان
ايفان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته ، حتى لقد كان ينفر بعض
النفور من تحليل نفسه فى هذه النقطة • كان يحاول ، فيما يبدو ، أن
ينسى شيئاً ما • وقد اقتنع أثناء الأيام التالية اقتناعاً كاملاً بأن ميتيا هو
الجانى ، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التى تجمعت على
أخيه • وكان عدد من الشهادات يدينه ادانة خاصة ، رغم صدور هذه
الشهادات عن أشخاص غرباء عن الدراما وضيعى الظروف الاجتماعية ،
من ذلك شهادة فينيا وجدتها • أما تصريحات برخوتين ورواد الكباريه
ومستخدمى متجر بلوتنيكوف وأهل موكرويه ، فقد كانت خطورتها

واضحة وضحاً يخطف البصر • وكانت التفاصيل خاصةً تدعو الى القلق • ان المعلومات التي تتعلق بالاشارات السرية قد اثرت في قاضي التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شهادة جريجورى عن الباب المفتوح ان لم يزد عليها • وقد أجابت امرأة جريجورى ، مارفا اجناتفنا ، أجابت عن سؤال ألقاه عليها ايفان فيدوروفتش فقالت ان سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز راقدا على حصيرة « تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه » ، وانها رغم أنها نامت نوماً عميقاً ، قد استيقظت عدة مرات من سماعها أنات المريض • وأضافت تقول : « انه لم ينقطع عن الأنين ، لم ينقطع عن الأنين » • وأما الدكتور هرتسنشتوبه الذى أطلعه ايفان على انطباعاته عن سمردياكوف ، قائلاً انه لا يصدق قط أن سمردياكوف مجنون ، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة : « هل تعرف ما الذى يشغله الآن ؟ تصور أنه يقضى وقته فى حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب • انه يخفى تحت وسادته دفترًا سجّل له عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية • هى هى ! » • هكذا عدل ايفان أخيراً عن شكوكه ، وأصبح لا يفكر فى أخيه دمترى الا ويشعر باشمزاز • ومع ذلك بقى هنالك شىء يبدو له غريباً : ان أليوشا ما يزال يدعى ، فى اصرار وعناد ، أن الجريمة لم يرتكبها دمترى ، وأن « أغلب الظن » أن سمردياكوف هو الجانى • ولقد كان ايفان يحترم دائماً ، فى قرارة نفسه ، آراء أليوشا ، لذلك كان موقف أليوشا فى هذه القضية يدهشه كثيراً • ومن الغريب أيضاً أن أليوشا لم يسع يوماً الى انتهاز فرصة يتحدث فيها اليه عن ميتيا ، لا ولا كان البادىء فى الكلام عن هذا الموضوع قط ، وانما كان يقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى يلقىها عليه أخوه • ذلك أمر أدهش ايفان كذلك • يحسن أن نلاحظ على كل حال أن ايفان كان فى تلك الفترة غارقاً غرقاً تاماً فى

مشاغل غريبة كل الغرابة عن دعوى أخيه • انه منذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترين ايفانوفنا • ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذى استبد بايفان فيدوروفتش والذى سيؤثر فى مجرى مصيره كله • فذلك يمكن أن يكون موضوع قصة أخرى ، موضوع رواية أخرى لا أدري بعد هل أكتبها فى يوم من الأيام • ولكننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت عن تسجيل هذه الملاحظة الآن : وهى أن ايفان حين رجع من عند كاترين ايفانوفنا ليلاً بصحبة أليوشا ، فصرّح لأخيه بأن هذه المرأة الشابة لا تهمه ولا يعنيه أمرها ، انما كان يكذب كذباً لا حياء فيه • فالحق أنه كان يحبها حباً جنونياً ، رغم أنه صدق حين قال انه يكرهها فى بعض اللحظات كرهاً يبلغ من القوة أنه قادر على أن يريد قتلها • ولهذا أسباب كثيرة : منها أن كاترين ايفانوفنا التى هزتها الدراما وهزها اعتقال ميتيا هزاً عميقاً قد استقبلت ايفان فيدوروفتش حين عودته من موسكو استقبالها لمنقذ ومخلص • لقد كانت تشعر بأن الأحداث التى جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها ، وها هو ذا رجل كانت تحبه منذ زمن طويل - آ ••• نعم ، هى تعرف أنها تحبه منذ زمن طويل - رجل كانت تحترم ذكائه وقلبه على كل حال ، ها هو ذا يعود اليها • ولكن هذه الفتاة المتكبرة لم تستسلم تماماً رغم ما يتصف به هيام صديقها من عنف عارم مضطرب - وهو واحد من آل كارامازوف فى هذه الناحية - ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة • وكانت فى الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها بغير انقطاع ، لأنها خانت ميتيا ، وكانت فى اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع ايفان (وهى مشاجرات كانت تتكرر كثيراً فى ذلك الأوان) ، لا تتردد عن أن تصرخ فى وجهه غاضبةً غضباً شديداً • وبسبب هذا الموقف الذى كانت تقفه انما اتهمها ايفان ، فى حديثه مع

أليوشا ، بأنها تتلذذ بالكذب ويحلوا لها أن تسترسل فيه • والحق أن سلوكها كان يشتمل على كثير من الكذب اللاشعوري ، وذلك ما كان يُحقق ايفان فيدوروفتش خاصةً ••••• ولكننا سنعود الى هذا فيما بعد • وحسبنا أن نقول الآن أن ايفسان كاد ينسى وجود سمردياكوف خلال بعض الوقت • غير أن الخواطر الغريبة التي سبق أن عذبتة لم تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف • فاذا هو يعود يلقي على نفسه تلك الأسئلة نفسها بغير انقطاع : لماذا نزل الى الطابق الأدنى من منزل أبيه صامتاً كسارق في الليلة الأخيرة التي قضاها في المنزل قبل رحيله الى موسكو ؟ لماذا شعر بعد ذلك باشمئزاز من تذكر هذا الأمر ، ولماذا اجتاحت نفسه فجأة عند وصوله الى موسكو كآبة عميقة ، حتى صرخ ذات مرة قائلاً : « أنا شقي ! » ؟ انه ليبدو له الآن أن هذه الخواطر المقلقة تجتاح نفسه اجتياحاً يبلغ من القوة أنه ينسيه حتى كاترين ايفانوفنا • وفيما هو يجيل هذا الخاطر في رأسه ذات يوم ، التقى باليوشا في الشارع ، فاستوقفه ثم اذا هو يسأله على حين فجأة :

- هل تذكر أنني في عصر اليوم الذي اقتحم فيه دمترى منزل أينا بعد الغداء ، وضربه ، قد قلت لك بعد ذلك اننى أحتفظ لنفسى « بحق الرغبة والتمنى » ؟ هل قدّرت في ذلك اليوم أنني كنت أتمنى موت أينا ؟ هه ؟ أجب !

قال أليوشا بصوت خافت :

- نعم قدّرت ذلك •

- كان ذلك هو الحقيقة على كل حال ، ولا حاجة بالمرء الى كبير مكرٍ حتى يحزر هذه الحقيقة • ولكن ألم تشعر في ذلك اليوم أنني كنت

أتمنى فعلاً أن أرى « السراطين يلتهم بعضها بعضاً » ، أى أن يقتل
دمترى أبانا ، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة ... وأننى ما كان يسوءنى
أن أسهم من جهتى فى هذا الحادث ؟ قل ! ...

اصفر لون ألبوشا قليلاً وحدثق الى عيني أخيه صامتاً •

صاح ايفان يقول :

— هلاً تكلمت أخيراً ؟ اننى أريد أن أعرف ، بأى ثمن ، ما فكرت
فيه يومذاك • أريد أن أعرف الحقيقة ، الحقيقة ، هل سمعت ؟
وتنفس ايفان تنفساً شاقاً ، ونظر الى أخيه أليوشا بنوع من غضب
مستبق •

فدمدم أليوشا يقول :

— سامحنى ... لقد قدّرت ذلك أيضاً •

ولكن أليوشا لم يلبث أن صمت دون أن يضيف ذكر أى « ظرف
مخفف » •

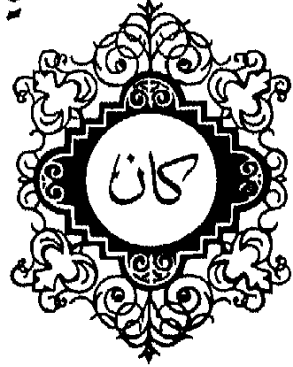
قال له ايفان بجفاف :

— شكراً •

ثم تركه هناك وابتعد بخطى سريعة •

أحسّ أليوشا منذ ذلك اليوم أن أخاه يحاول أن يتحاشاه ، بل
وأنه يشعر نحوه بشيء من الكره ، لذلك كفّ هو نفسه عن زيارته •
وبعد ذلك اللقاء الذى تحدثنا عنه مضى ايفان فيدوروفتش الى عند
سمردياكوف رأساً ، دون أن يعرّج على مسكنه •

ثاني اجتماع سمردياكوف



سمردياكوف قد غادر المستشفى • ان ايفان يعرف عنوانه الجديد ، ويعرف أن الخادم قد أقام في البيت الخشبي الصغير الذي تداعى جزء منه منذ الآن ، والذي يتألف من حجرتين اثنتين لا ثالث لهما ، يفصل بينهما ممر • اما مارييا كوندرايفنا تشغل إحدى الغرفتين مع أمها ، بينما يشغل سمردياكوف الغرفة الثانية • ما من أحد يعرف بأي صفة كان سمردياكوف يعيش عند هاتين السيدتين : أبصفته صديقاً أم بصفته مستأجراً ؟ ولقد دعت أسباب ، فيما بعد ، الى افتراض ان سمردياكوف انما اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندرايفنا ، وأنه كان لا يدفع أجراً • وكانت الأم وابنتها تحترمانه كثيراً وتعدانه رجلاً متفوقاً •

قرع ايفان فيدوروفيتش الباب ، ثم دخل الممر ؛ ودلته مارييا على « الغرفة الجميلة » التي يسكنها سمردياكوف ، فاتجه اليها قدماً لا يلوى على شيء • الغرفة مدققة تدفئة شديدة بموقد من خزف • والجدران مغطاة بورق أزرق متمزق تمزقاً كثيراً في مواضع عدة ، وفي شقوق الورق ترتع حشرات الحركاتها أصوات لا تنقطع • والأثاث بائس : دكان على طول الجدارين ، وكرسيان قرب مائدة من خشب ، بسيطة جداً ، لكنها

مغطاة بغطاء مشجّر وردى اللون • وائسافذتان الصغيرتان تزدان كل منهما بأصص أزهار • وفى أحد الأركان تُرى أيقونات • وعلى المائدة سماور من نحاس ، صغير الحجم ، كثير التقعر ، مع صينية وفنجانين •

كان سمردياكوف قد فرغ من شرب الشاي ، فالسماور قد أطفئ • ان سمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو المائدة ، عاكف على كتابة شيء فى دفتر • هذه محبرة صغيرة موضوعة فى متناول يده ، وهذه شمعة فى شمعدان من البرونز تلقى ضوءاً ضعيفاً على مائدته • أدرك ايفان فيدوروفتش من أول نظرة ألقاها على سمردياكوف أن سمردياكوف قد أبلّ من مرضه ابلالاً تاماً • أصبح لونه أكثر نضارة ، وأصبح خداه أقل خشوفاً ، واسترد ذؤابة رأسه ، وعاد يدهن شعره من جديد • انه يرتدى الآن معطفاً للمنزل زاهى الألوان مبطناً بقطن ، لكنه مهترىء جداً • وعلى عينيه نظارتان لم يسبق لاييفان أن رآهما من قبل ، فكان من شأن ذلك الأمر التافه أن أورى حنق ايفان فجأة • قال ايفان لنفسه : « أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين ؟ » •

رفع سمردياكوف رأسه ببطء ، وشخص بصره الى الزائر من خلال النظارتين محذقاً • ثم خلعهما بغير تعجل ، ونهض متوانياً متكاسلاً ، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام ، كأنه يقتصر على أن يقوم بواجب تمليه اللباقة التى لا يملك أن يستغنى عنها • سرعان ما أدرك ايفان معنى هذا الوضع ، وقد لاحظ خاصةً نظرة سمردياكوف التى كانت تعبّر عن الاستياء وتعبّر عن عداوة وقحة ، فكأنه يقول له : « ما الذى يحملك على ازعاجى هنا وقد سبق أن تكلمنا عن كل شيء ؟ » • كبح ايفان جماح نفسه حتى لا ينفجر غيظاً • وقال له واقفاً وهو يحل أزرار معطفه :

- الحر في غرفتك شديد *

فأجابه سمردياكوف متلطفاً :

- فأخلع اذن معطفك *

خلع ايفان معطفه ورماه على الدكة ، ثم تناول كرسيًا بيد ترتعش غضباً ، فادناه من المائدة بحركة عنيفة وجلس عليه * وكان سمردياكوف قد استطاع أن يسبقه الى الجلوس *

سأله ايفان بلهجة قاسية ملحاح :

- قبل كل شيء : هل نحن هنا وحيدان ؟ ألا يسمعا أحد في الجهة الأخرى ؟

- لا ... انك لترى أن الغرفتين يفصلهما ممر !

- اسمع يا صديقي : ماذا أردت أن تقول غامزاً في المرة الماضية حين تركتك بالمستشفى ؟ لماذا قلت لى انك ستسكت عن تفاصيل الحديث الذى جرى بيننا أمام المنزل اذا أنا لم أتكلم عن حذقك فى اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها ؟ ما هى تلك « التفاصيل » التى أردت أن تشير إليها ؟ الى ماذا أردت أن تلمع ؟ أتراك أردت أن تهددنى ؟ أتراك تريد أن تزعم أننى كنت متواطئاً معك وأننى اليوم خائف ؟

كان ايفان يتكلم بغيظ مكظوم وحنق مكبوح ، وكأنه كان يريد أن يبرهن بالقضاء هذه الأسئلة مباشرةً على أنه يكره المراوغة واللف والدوران ، وأنه يجب أن يلعب بالورق مكشوفاً على المائدة * ومضى التماع " خيىث فى نظرة سمردياكوف ، وأخذت عينه اليسرى تطرف ، وأسرع يجيب قائلاً (على لزومه ما عهد فيه من تحفظ واعتدال وقصد ، وكانت هيئة تشبه أن تقول : « أتريد الحقيقة ؟ اذن سأقولها لك ») :

– ما أردت أن أقوله ؟ ان ما أردت أن أقوله هو التالى تماما : أنك تركت أبالك بغير حماية ، مع علمك سلفاً بمشروع قتله • لقد وعدتك بأن أسكت عن هذه النقطة، وأن لا أقول للسلطات شيئاً ، حتى لا تستخرج منها نتائج سيئة فى موضوع عواطف الكره التى لعلها كانت تـجيش فى نفسك ، وربما فى موضوع أمر آخر أيضاً •

نطق سمردياكوف بهذه الكلمات دون تعجل ، مسيطراً على نفسه كـل السيطرة فيما يبدو ، ولكن لهجته كانت قد تغيرت ، كما أن صوته أصبح فيه شيء من ثبات واصرار ، وشيء من شر وتحدٍ فى الوقت ذاته • وحدّق بوقاحة الى ايفان فيدوروفتش الذى أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه فى الوهلة الأولى • قال ايفان صائحاً :

– ماذا ؟ كيف ؟ أنت تملك كل عقلك ؟

– ثق أنى أملك عقلى كاملاً •

قال ايفان فيدوروفتش وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة:

– ولكن لم يكن فى وسعى أن أتنبأ بجريمة القتل • وماذا تعنى بهذه الكلمات : « وربما فى موضوع أمرٍ آخر أيضاً » ؟ هلاًّ أجبت أيها الوغد ؟

كان سمردياكوف صامتاً ، مصراً على التفرس فى ايفان فيدوروفتش بنظرة وقحة •

زأر ايفان فيدوروفتش يقول له :

– تكلم أيها الوغد العفن ! ما الذى تعنيه بالأمر « الآخر » ؟

– الأمر الآخر الذى أردت الالماع اليه هو أنك كنت أنت نفسك تتمنى موت أهلك حينذاك •

وثب ايفان فيدوروفتش من مكانه ، ولطم الخادم على كتفه لكمة قوية عنيفة ، فترنح هذا حتى اصطدم بالجدار ، وغرق وجهه بالدموع ، ودمدم يقول :

– ألا تستحي يا سيدي أن تضرب انساناً لا يملك دفاعاً عن نفسه .
ثم غطى عينيه بمنديل قدر ذى مربعات زرقاء ، وأخذ يبكي بكاء صامتاً • وانقضت على ذلك دقيقة •

قال له ايفان فيدوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود الى الجلوس :
– كفى ! كفّ عن البكاء الآن • خير لك أن لا تُفقدني صبري !
أزاح سمردياكوف المنديل عن عينيه • ان جميع قسّمات وجهه الرث تعبر الآن عن الاهانة التي 'ألحقت به •
– أتخيلتَ اذن أيها الشقى أنني كنت اتمنى موت أبى ، متفقاً مع دمترى ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة :

– لم يكن في وسعي أن أحزر أفكارك حينذاك • لذلك استوقفتك أمام الدار لأسبرك في هذه النقطة بعينها •

– لتسبرني ؟ ماذا تعني ؟

– أردت أن أعرف أنت تترنح أن يُقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا ؟
كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التي يصر هذا الخادم على أن لا يتخلى عنها تثير حنق ايفان فيدوروفتش اثاراً خاصة •

صاح يقول له فجأة :

– أنت الذي قتلته !

فضحك سمردياكوف ضحكة احتقار صغيرة ، وقال :

- أنت نفسك تعلم تمام العلم أنني لست القاتل • كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من اكنار الكلام في هذا الموضوع •

عاد ايفان يسأله :

- ولكن لماذا ، لماذا قامت في ذهنك شبهة كتلك الشبهة عني ؟
قل لي : لماذا ؟

- أنت تعرف جيداً لماذا • هو الخوف وحده • كنت في ظرف يحملى الخوف فيه على الاشتباه في كل انسان • لذلك قررت أن أسبرك أنت أيضاً ، قائلاً لنفسى : اذا صدق أن ايفان فيدوروفتش يتمنى ما يتمناه أخوه ، فقد سوى الأمر اذن ، وسأهلك أنا في هذه المغامرة كذباية لا تملك عن نفسها دفاعاً •

- اسمع : انك لم تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين •

- أردت أن أفهمك هذا كله أثناء الحديث الذى دار بيننا في المستشفى ، ولكننى افترضت أنك فاهم عني بلا أقوال زائدة ، وأنت وأنت الرجل الذكى لا تحب أن أواجه هذا الموضوع مواجهة مباشرة •

- عجيب • ولكن أجبنى ، أجبنى ، اننى أصرُّ على سماع جوابك : كيف أمكن أن تنبت في نفسك الدنيئة تلك الشبهة الحقيرة ؟ على ماذا أقمت ذلك الاشتباه ؟

- أما أن تقتل أباك بنفسك ، فذلك ما لم تكن تستطيعه ولا تريده •
وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد تعينت ذلك !

هتف ايفان متعجباً :

– ويقول هذا الكلام بهدوء ، بهدوء يا للشقى ! لأى غرض كان يمكننى أن أتمنى ذلك ؟ ما الذى كنت أرجوه من مقتل أبى ؟
أجاب سمردياكوف يقول بلهجة مسمومة انتقامية :

– لأى غرض ؟ ما هذا السؤال ؟ هو الميراث طبعاً كان كل واحد منكم ، أتم الثلاثه ، سيرث عن أبيه عند موته أربعين ألف روبل فى أقل تقدير . ، وربما ورث أكثر من ذلك . ولكن لو تزوج فيدور بافلوفتش تلك المرأة ، أقصد أجرين ألكسندروفنا ، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزفاف ، ولما نلت منها أتم الاخوة الثلاثة حتى ولا ألفى روبل . معنى ذلك أن هذا الزواج لو تمّ لشنقكم من أنوفكم شنقاً . ولقد كان تمام هذا الزواج أمراً سهلاً كل السهولة : كان يكفى أن ترفع تلك المرأة اصبعها الصغيرة حتى يأخذها أبوكم الى الكنيسة صاغراً طائعاً .

استطاع ايفان فيدوروفتش أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه بكثير من المشقة والعناء . وقال له أخيراً :

– طيب . هانت ذا ترى أننى لم أثب من مكانى لأضربك ، وأننى لم أقتلك بسبب أقوالك هذه . أتمم كلامك : أنت تتصور اذن أننى تركت لأخى دمترى مهمة ارتكاب الجريمة ، واننى فى قرارة نفسى قد عوّلت عليه ، أليس كذلك ؟

– وكيف لا تعوّل عليه ؟ المسألة واضحة : حين يقتل أخوك أباه ، فانه يفقد امتيازات النبالة ، ويفقد رتبته و ثروته ويرحّل الى سيبيريا . وبذلك يثول اليك والى أخيك ألكسى فيدوروفتش نصيبه من ميراث أبيه ، ويقسّم بينكما هذا النصيب ، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفاً بل ستين ألفاً . لا شك أبداً فى أنك عوّلت على دمترى فيدوروفتش لتحقيق هذا الهدف والوصول الى هذه النتيجة !

- عجيب أننى احتمل أقوالك ، وأدعك تتابع شروحك ! اعلم أيها الشقى أننى لو عوّلت على أحد لعوّلت عليك أنت لا على دمترى ! ويميناً لقد أحسست فعلاً أثناء ذلك الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما ••• اننى أتذكر ذلك الاحساس الذى هجس فى قلبى تذكراً واضحاً !

أجاب سمردياكوف ساخراً :

- أنا أيضاً أحسست أثناء ذلك الحديث أنك تعوّلت علىّ كذلك ••• خطر هذا على بالى لحظة قصيرة ••• ولكن ما كان لهذا الأمر الا أن يزيدنى اقتناعاً برغبتك فى وقوع الجريمة • فما دمت قد قدّرت أننى أبيتّ جريمة ، فلقد كان سفرك رغم ذلك لا يعنى الا أنك تقول لى :

« اقتل أبى ان شئت ، فلست أعارض فى هذا » •

- يا لك من وغد حقير ! أهكذا أوّلت سلوكى اذن ؟

- السبب هو ذلك السفر الى تشرماشنيا يا سيدى • فكرّ قليلاً :

كنت قد قررت أن تسافر الى موسكو ، ورفضت رغم الحاح أهلك أن تذهب الى تشرماشنيا ؛ ثم اذا بك تقبل فجأة أن تذهب الى تشرماشنيا استجابةً لبضع كلمات سخيفة غبية قلتها أنا ، فلماذا قبلت السفر الى تشرماشنيا لا الى موسكو ؟ ما دمت قد غيرت قرارك بدون سبب ذى بال الا ما أوحيت به أنا اليك ، فليس لهذا من معنى غير أنك كنت تنتظر شيئاً منى أنا •

زأر ايفان يقول كازاً أسنانه :

- لا ، لا ، أحلف لك أن لا •••

- كيف لا ؟ لقد كان من واجبك ، خلافاً لما حدث ، أن تستدعى الشرطة وتأمرها باعتقالى فوراً لأننى قلت تلك الأقوال لك انت ، ابن فيدور بافلوفتش ! كان من واجبك على الأقل أن تقتلنى فى مكانى !

ولكنك بدلاً من ذلك ، ودون أن تغضب البتة ... غيرت قرارك حالاً
 واتبعت النصيحة الغبية التي أسديتها اليك ... اتبعتها بحذافيرها • ثم
 ان ذلك السفر الى تشرماشنيا كان سخيفاً ، فانما كان عليك أن تبقى هنا
 قرب أبيك لتحميه ... فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض
 النتائج ؟

ظل ايفان جالساً ، مكفهر الوجه ، قابضاً كفيه على ركبتيه • وقال
 وهو يتنسم ابتسامة صغيرة مرة :

- خسارة حقاً أنني لم أضربك حينذاك • أما أن تعثلك الشرطة
 فقد كان ذلك مستحيلاً : لم يكن في امكاني أن أتهمك بأى شيء معين ،
 ولو قد اتهمتك لما صدقوني • ولكن كان يجب عليّ أن أضربك ، نعم كان
 يجب عليّ أن أضربك • وكان في وسعي أن أهشم وجهك راضياً
 مسروراً ، رغم أن ذلك محظور •

كان سمردياكوف ينظر الى ايفان وقد لاح في وجهه ما يشبه
 الافتتان •

وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية الراضية عن نفسها التي
 كان يصطنعها في الماضي أثناء مناقشاته عن الايمان مع جريجورى
 فاسيلتش حين كان يحاول أن يناكده وأن يشاكسه في خلافات لاهوتية
 واقفاً قرب مائدة فيدور بافلوفتش ، قال بتلك اللهجة :

- صحيح أن استعمال القوة أمر يحظره القانون ، وأن الناس قد
 عدلوا عن هذا في أيامنا هذه • ذلك في الأحوال العادية • أما في الأحوال
 الاستثنائية فان الناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر ، تماماً كما كانوا
 يفعلون في عهد آدم وحواء • وهذا لا يجرى في بلادنا وحدها ، بل
 يجرى في العالم بأسره ، ويجرى حتى في أجمل الجمهوريات ،

كالجمهورية الفرنسية ، وسيظل الأمر كذلك أبد الأبدين • وأنت لم
تجرؤ أن تضربنى فى تلك الحالة الاستثنائية التى نحن بصددھا •

سأله ايڤان وهو يومئذ الى الدفتر الموضوع الى المائدة :
- ماذا عندك هناك ؟ أتتعلم كلمات فرنسية ؟

- ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية ؟ اننى أريد اتمام تحصيلى ، فربما
قادتنى الظروف الى أن أعيش ذات يوم ، أنا أيضاً ، فى تلك البلاد
السعيدة ، بلاد أوروبا •

صاح ايڤان يقول وقد سطعت عيناه وارتعد جسمه غضباً :

- أسمع أيها الشيطان ! أنا لا أخشى اتهاماتك ، وفى وسعك أن
تشهد علىّ كما تشاء • ولئن لم أضربك حتى الموت فى هذه اللحظة
نفسها ، فإن السبب الوحيد الذى يجعلنى أمسك عن ذلك هو أننى أشتبّه
فى أن تكون أنت الجانى ، ولست أريد أن أنقذك من العدالة • سأعرف
كيف أكشف عنك القناع ، صدقنى !

- فى رأيى أن الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً • ما الذى يمكنك
أن تستند اليه وتعتمد عليه لاتهام برىء ، ومن ذا الذى يمكن أن يحمل
كلامك محمل الجحد ؟ على أننى أنبهك وأحذرك منذ الآن : اذا أنت
تصرفت هذا التصرف ، فلأقولنّ من جهتى كل شيء ، اذ لا بد لى من أن
أدافع عن نفسى •

- أنظن الآن أننى أخاف منك ؟

- هب المحكمة لم تقم أى وزن لأقوالى ولم تهتم أى اهتمام بشيء
مما قلته لك فى هذه اللحظة : ان الناس سيصدقون كلامى ، فيطمن من
هذا شرفك ، وتسوء سمعتك •

سأله ايفان وهو يصرف بأسنانه :

– هو الأمر نفسه دائماً : « يحلوا للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى » • أهذا ما تعنيه بتلك العبارة اذن ؟ هه ؟

– هو بعينه • ستتصرف تصرف رجل ذكى •

نهض ايفان فيدوروفتش وهو يرتعد استياء وغضباً ، وارتدى معطفه ، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الردّ على سمردياكوف ، وحتى دون أن يلقي نظرة الى وراء • وقد أحسن اليه الهواء الطرى انذى يشيع في جو المساء • كان القمر يضيء السماء • وكان ايفان يشعر باختناق من ذلك الازدحام الرهيب للخواطر المبهثرة والاحساسات المضطربة التي تغلي وتجيش في نفسه : « أمضى أشي بسمردياكوف فوراً ؟ ولكن ما الذي أستطيع أن أقوله ضدّه ؟ ليس هو القاتل على كل حال ••• بالعكس : هو الآن يتهمنى أنا ••• حقاً ، لماذا سافرت الى تشرماشنيا ؟ لأى غرض ، لأى هدف ؟ نعم نعم ••• هذا صحيح ، هذا واضح ، لقد كنت أتوقع شيئاً ••• ان ذلك الوغد على حق فيما قال ••• » • بهذا كان ايفان يحدث نفسه • وتذكر ، ربما للمرة المائة ، أنه تجسس على حركات أبيه وسكناته ، متسللاً على السلم أثناء الليلة الأخيرة التي قضاها عنده ، ولكن هذه الذكرى بلغت من ايلامه على حين فجأة أنه جمد في مكانه كأن طعنة نفذت في قلبه ، وقال يخاطب نفسه : « هذا صحيح ، لقد تميت ذلك ••• لقد توقعته ••• هذا حق ! نعم ، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه ، كنت أريد وقوعها ! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة فعلاً ، أكنت أتمناها حقاً أم لا ؟ ••• يجب قتل سمردياكوف ••• اذا لم تسعفنى الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف ، فان الحياة لن تستحق منى أن أحيها ••• » •

لم يرجع ايفان الى مسكنه ، بل اتجه رأساً الى بيت كاترين ايفانوفنا

التي روَّعها ظهوره المباغت : كان زائغ النظرة تائه الهيئة ، فاذا رآه الرائي أحس أنه قد 'جن' . قصَّ على كاترين ايفانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف ، لم يسقط منها كلمة واحدة . ولم يفلح في تهدئة نفسه رغم نصائح المرأة الشابة ، وكان لا ينفك يسير في الغرفة قائلاً كلمات غريبة مضطربة مفككة . ومع ذلك جلس آخر الأمر ، واضعاً كوعيه على المائدة ، جاعلاً رأسه في يديه ، وقال هذه العبارة المذهلة :

— اذا صدق أن القاتل ليس دمترى بل سمردياكوف فأنى أكون عندئذ شريكه في هذه الجريمة حتماً لأننى أنا الذى حرصته على القتل . الواقع اننى لا أعرف أنا نفسى بعدُ هل دفعته الى الجريمة أم لا . ولكن اذا كان هو الذى قتل ، لا دمترى ، فعندئذ أكون أنا القاتل الحقيقى .

حين سمعت كاترين ايفانوفنا هذه الكلمات ، نهضت دون أن تقول شيئاً ، فاقتربت من مكتبها ، ففتحت درجاً صغيراً فأخرجت منه ورقة وضعتها أمام ايفانوفنا . هذه هى بعينها الوثيقة التى سيقول ايفانوفنا فيدوروفتش لأخيه أليوشا فيما بعد انها تثبت بيقين رياضى أن دمترى هو الذى ارتكب جريمة قتل أبيهما . انها رسالة كتبها ميتيا الى كاترين ايفانوفنا وهو فى حالة سكر ، مساءً التقائه بأليوشا فى الحقول حين كان أليوشا عائداً الى الدير بعد المشهد الذى أهانت فيه جروشكا غريمته كاترين ايفانوفنا . فان ميتيا ، بعد أن ترك أليوشا فى ذلك اليوم ، قد أسرع يذهب الى جروشكا . لا ندرى هل وجدها فى بيتها . ولكنه شوهد تلك الليلة فى كاباربه « العاصمة الكبرى » يسرف فى الشراب ، حتى اذا أخذ منه السكر مأخذه ، أمر أن يؤتى بريشة وورقة ، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه . هى رسالة ملتهبة مهذارة ، هى سلسلة من جمل مضطربة تليق بسكران حقاً ، تذكرُ قليلاً بالخطب التى يلقيها السكارى حين يرجعون

الى منازلهم فيقصون على زوجاتهم بحرارة مستعرة وحماسة شديدة أنهم قد أهينوا اهانات خطيرة ، وان الذى أهانهم انسان حقير ، أما هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدبون الوقح الذى اعتدى عليهم • كتب ميتيا هذه الرسالة مطبأ مفيضاً ، وهو فى حالة هياج شديد ، فكان يرصف جملاً لا ترابط بينها ، ويخبط المائدة بقبضة يده من حين الى حين ، ويبل الورقة بدموع من بلغ به التمل أشده • وكانت الورقة التى أعطيتها فى الكاباريه رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات ، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة ، ملأ ميتيا هوامشها ، حتى أن العبارات الأخيرة التى انطلقت تعبر عن عواطفه فى اطناب السكارى قد خُطت عرضاً لا طولاً • واليكم مضمون تلك الرسالة :

« كاتيا ! سوف أجد المال غداً، وسوف أرد اليك الثلاثة آلاف روبل حتى أستطيع أن أتركك ، يا امرأة شديدة الغضب ! لنته من هذا الأمر ! سأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أوفق ، فلك على عهد الشرف أن اذهب الى أبى فاهشم جميعته ، واستولى على المال الذى يخبئه تحت وسادته ••• شريطة أن يكون ايفان غائباً ! اننى أقبل أن يُحكّم على بالسجن مع الأشغال الشاقة ، ولكننى سأرد اليك الثلاثة آلاف روبل • أما أنت ، فوداعاً! ••• اننى أنحنى أمامك حتى الأرض ، لأن الذى يحييك انسان شقى ! سامحيني • بل لا ••• لا تسامحيني ! ذلك أسهل ، علىّ وعليك ! اننى أوثر السجن على حبك ، لاننى أحب امرأة أخرى ، تعرفينها أنت حق المعرفة • لقد استطعت أن تعرفها اليوم ، فكيف يمكنك أن تغفري لى بعد هذا ؟ سأقتل الرجل الذى سرقنى ! سأبتعد عنكم جميعاً ، سأذهب الى المشرق حتى لا أراكم بعدئذ قط ! أصبحت لا أريد أن أراها « هى » أيضاً ••• ما أنت بالانسانة الوحيدة التى عذبتنى • لقد عذبتنى هى كذلك • وداعاً •

« حاشية : اننى ألعنك ، ومع ذلك أعبدك ! أشعر بقلبي يخفق في صدري ! ما يزال هنالك وتر يهتز لك • أوثر أن يتحطم هذا القلب • سأقتل نفسي ، ولكننى سأقتل ذلك الشيطان الرجيم أولاً • سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل ، فأرميها اليك • ان الذى يكتب اليك الآن انسان شقى ، ولكنه ليس سارقاً ! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل • المبلغ مخبأ عند ذلك الشيطان الرجيم تحت الوسادة ، يلفه شريط وردى اللون • أنا لست لصاً ، لأننى سأقتل ذلك الذى نهب أموالى • لا تحتقرينى يا كاتيا : ليس دمترى لصاً بل هو قاتل • قتل أباه وضيع نفسه حتى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة رافع الرأس ، وحتى لا يكون عليه أن يتحمل احتقارك الصلف المتكبر ، وأيضاً حتى يكف عن حبك •

حاشية : أقبل قدميك • وداعاً •

حاشية : كاتيا ! صلتى واضرعى الى الله أن يقرضونى المبلغ ، فما اضطر الى أن أسفح دماً • أما اذا لم يقرضونى فسوف يجرى الدم !

اقتلنى !

خادمك وعدوك

د • كارامازوف

أقنعت قراءة هذه « الوثيقة » ايفان • لقد اتضح له الآن أن القاتل هو أخوه دمترى وليس سمردياكوف • وما دام الخادم بريئاً ، فليس عليه هو ايفان ، أن يتهم نفسه بشيء • ومنذ تلك اللحظة أصبح ايفان يحمّل هذه الرسالة دلالة يقين رياضى ، وأصبح لا يساوره أى شك فى أن ميتيا هو هو القاتل • يحسن أن نذكر هنا أنه لم يعخطر ببال ايفان فى لحظة من اللحظات أن يفترض أن جريمة القتل الذى ارتكبها ميتيا قد تمت بالتواطؤ مع سمردياكوف • ثم ان مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع •

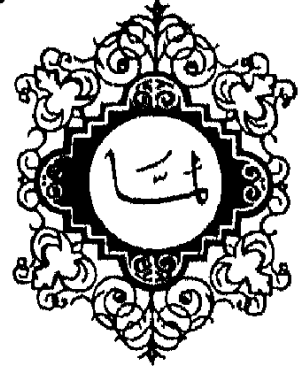
خلاصة القول ان هذه الرسالة قد حملت الى ايفان طمانينة تامة ، فلما أصبح في الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لم يشعر الا باحتقار ، حتى انه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الألم كله من الغمزات المهينة التي وجهها اليه سمردياكوف . وقرر أن يتجاهله في المستقبل وأن ينسأه نسياناً تاماً . ثم لم يسأل عن سمردياكوف أحداً ممن يعرفونه بعد ذلك ، ولكنه سمع مرة أو مرتين أن سمردياكوف مريض جداً وأنه أصبح لا يبدو مالكاً كل عقله ؛ وقال عنه الطبيب الشاب فارنسكى في ذات يوم انه « سيهوى الى الجنون » ، فحفظ ايفان هذه العبارة . وفي أثناء الأسبوع الأخير من هذا الشهر أخذ ايفان يحس هو نفسه بأنه مريض ، فقرر أن يستشير الطبيب الذي استقدمته كاترين ايفانوفنا من موسكو . وفي تلك الفترة بعينها انما كانت علاقته بالمرأة الشابة قد توترت أقصى التوتر ، فهما يتعاملان تعامل عدوين يجب كل منهما الآخر . كانت رجعات كاترين ايفانوفنا الى الهيام الشديد بميتيا ، وهي رجعات طارئة لكنها عنيفة قوية، كانت تُخرج ايفان عن طوره وتحنقه أشد الحنق . شيء غريب : ان ايفان ، الى أن وقع ذلك المشهد الأخير الذي وصفناه والذي جرى في منزل كاترين ايفانوفنا حين زارها أليوشا بعيد زيارته ميتيا ، لم يسمع كاترين ايفانوفنا مرة واحدة طوال الشهر ، تعبّر عن أى شك في أن ميتيا هو القاتل ، رغم « رجعاتها » الى هيامها به من حين الى حين ، وهي رجعات كانت ثقيلة الوطأة على نفس ايفان . ومن الأمور البارزة أن ايفان ، رغم احساسه بتزايد كرهه لميتيا يوماً بعد يوم ، كان يدرك ادراكاً تاماً أن كرهه لأخيه لم يكن سببه « رجعات كاتيا » هذه الى التوله به ، بل كان سببه أن « أخاه قد قتل الأب » . كان ايفان يعنى ذلك وعياً قوياً ، ومع ذلك ذهب يزور ميتيا في السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام ، عارضاً عليه خطة للهرب ، وهي خطة كان واضحاً

أنه أعدها منذ مدة طويلة • وانما قرر ايفان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الحلق الشديد الذى أثاره فى نفسه قول سمردياكوف ، غامزاً ، انه ، هو ايفان ، يجنى نفعاً من اتهام أخيه ديمترى بالقتل ، لأن نصيبه ونصيب أليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذ من أربعين ألفاً الى ستين ألفاً • ان الجرح الصغير الذى أصاب قلبه من هذا الكلام الذى قاله سمردياكوف لم يمكن أن يندمل • لذلك قرر أن يضحى وحده بثلاثين ألف روبل ليدبر هرب ميتيا • وحين عاد ايفان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه ، أحسَّ بحزن رهيب واضطراب فطبع يستوليان عليه : لقد تراءى له فجأة أنه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح له أن يضحى بثلاثين ألف روبل وأن يشفى جرح قلبه ، لا لهذا فحسب ، بل لسبب آخر أيضاً • لقد تساءل : « ترى أأست أتمنى ذلك لأننى فى قرارة نفسى قاتل كأخى سواء بسواء ؟ » • وهذا ألم غامض بعيد ، ولكنه لاذع كاو ، يستيقظ فى قلبه • وكانت كبرياؤه خاصةً هى التى قاست كثيراً خلال هذا الشهر ، غير أننا سنعود الى ذلك فيما بعد •

حين أمسك ايفان جرس بيته بعد أن ترك أليوشا ، قرر فجأة أن يرجع أدراجه ليذهب الى سمردياكوف • انه حين قرر ذلك انما خضع لغضب مفاجئ مردّه الى سبب خاص • ذلك أنه تذكر فى تلك اللحظة أن كاترين ايفانوفنا قد صرخت تقول له أمام أليوشا منذ دقائق انه هو وحده الذى حاول اقناعها بأن ميتيا هو الجانى • فحين تذكر ايفان هذا الكلام أصيب بندهول شديد : انه لم يحاول أن يقنعها فى يوم من الأيام بأن القاتل ميتيا • بالعكس : لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته السابقة لسمردياكوف • وهى ، هى التى وضعت أمام عينيه عندئذ « وثيقة » الاتهام تلك التى أرادت أن تبرهن بها على أن الجانى ميتيا • وها هى ذى تصرح له منذ لحظات أنها ذهبت هى نفسها الى سمردياكوف ! متى رأت

سمردياكوف اذن ؟ ان ايفان لا يعرف عن ذلك شيئاً • هل معنى هذا أنها لم تكن مقتنعة بأن ميتيا هو القاتل ؟ ما الذى يمكن أن يكون سمردياكوف قد ذكره لها ؟ ما الذى قاله لها على وجه الدقة ؟ استولى الحق على ايفان ، واستغرب كيف لم ينتبه الى تلك الكلمات قبل نصف ساعة ، ولماذا لم ينفجر حينذاك ؟ وفيما كان على هذه الحال انما أرخى جرس بيته ، وأسرع يمضى الى سمردياكوف • وقد قال محدثاً نفسه أثناء الطريق : « قد أقتله فى هذه المرة ! » •

٨ الثالث وآخر اجتماع بسمر وياكوف



قطع ايفان نصف الطريق هبَّت ربيع جافة شديدة
 تشبه الريح التي هبت في الصباح • وأخذ يهطل
 ثلج ناعم كثيف يغطي الأرض دون أن يلتصق
 بها • فالريح تحمل الثلج وتدور به في الفضاء ،
 وسرعان ما صار ذلك الى اعصار • ان الحى الذى يقم فيه سمر دياكوف
 من المدينة سيء الاضاءة ، ومصايح الشوارع فيه قليلة نادرة • فكان
 ايفان يمشى فى الظلام غير عابىء بزوبعة الثلج ، متبعاً طريقه على هدى
 غريزته • كان فى رأسه صداد ، وكان صدغاه يدندان ، فكان يشعر
 من ذلك باحساس أليم • وقد بلغت نبضات عروقه من القوة أنه خيّل
 اليه أن قبضتى يديه تتشنجان • وعلى مسافة قصيرة من البيت الحقيقى الذى
 تسكنه ماريا كوندرا تيغنا التقى ايفان فيدوروفتش فجأةً بفلاح صغير
 سكران ، يلبس قفطاناً مرقعاً ، ويسير مترنحاً ، ويدمدم شاتماً ، ويقطع
 سبابه من حين الى حين فيأخذ فى الغناء بصوت أجش من أصوات
 السكرانى :

سافر فاليا الى بيتر *

لكنى لن انتظره

ولكن السكران يتوقف عن الغناء كلما وصل الى البيت الثانى من
 الأغنية ، فيستأنف شتم أحد الناس ، ثم يرتد فجأة الى لازمته الأبدية •

كان ايفان قد سمع أصواته منذ برهة، فشعر نحوه بكره عنيف لاشعوري حتى قبل أن يراه. ولم يلبث أن أدرك سبب خنقه بغتة، فودَّ لو يصرع الرجل بضربة يهوى بها على رأسه. وبينما هو كذلك إذ أصبح الاثنان جنباً الى جنب، وكان الفلاح الصغير يترجح في مشيته ويترنح فصدم ايفان صدمة قوية، فما كان من ايفان الا أن دفعه حانقاً، فهوى السكران على الأرض المتجلدة كتلة واحدة بعد أن أطلق من صدره أنةً أليمة ثم لبث صامتاً. مال ايفان على الرجل، فرآه راقداً على ظهره مغشياً عليه. فقال في نفسه: « سيتجمد من البرد »، ثم تابع طريقه.

وفي ممر البيت الصغير الذي يسكنه سمردياكوف، قالت له ماريا كوندرايتفنا التي أسرعت تستقبل ايفان حاملةً بيدها شمعداناً، قالت له في همس ان بافل فيدوروفتش (أى سمردياكوف) مريض جداً، وانه ان لم يكن عليه أن يلزم فراشه حتماً، فانه لا يبدو مالكاً كل عقله، حتى لقد رفض شرب الشاي الذي قُدِّم اليه وأمر برفعه.

سألها ايفان بلهجة شرسة:

— أهو يحاول جرسةً اذن؟

فقالت ماريا كوندرايتفنا:

— بالعكس: انه هادىء كل الهدوء، ولكنك تحسن صنعاً اذا لم

تُطل حديثك معه حتى لا تتعبه.

فتح ايفان الباب، ودخل غرفة الخادم.

كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة، كما في الزيارة الأولى، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث: أبعدت احدى الدكتين ووضعت في مكانها كنبه عتيقة عريضة من جلد، لها مسند من خشب يحاكي خشب الأكاجو؛ ولقد جعلت هذه الكنبه سريراً عليه وسائل نظيفة.

كان سمردياكوف جالساً على تلك الكنبه مرتدياً معطف المنزل ذاك الذي كان يرتديه أثناء الزيارتين السابقتين • وقد دُفعت المائدة نحو الكنبه ، فأصبح المكان في الغرفة ضيقاً • وكان على المائدة كتاب سميك ذو غلاف أصفر ، غير أن سمردياكوف لم يكن يقرأ ، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأي عمل البتة • استقبل ايغان بنظرة طويلة صامتة ، ولم يظهر عليه أي استغراب لهذه الزيارة • وكانت قسّمات وجهه قد انقلبت انقلاباً شديداً أثناء تلك الفترة • كان وجهه ناحلاً أصفر ، وكانت عيناه غائرتين ، وكانت جفناه السفليين مزرقّتين •

قال ايغان فيدوروفتش للخادم وهو يقف أمامه :

— انك لتبدو مريضاً حقاً ! لن أمكث مدة طويلة ، ولن أخلع معطفي • هل من كرسي لي ؟

ودار حول المائدة ، وتناول كرسيّاً فدفعه نحو الكنبه وجلس • قال ايغان مبتدئاً كلامه :

— لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ لقد جئت لألقى عليك سؤالاً واحداً في هذه المرة • ولكنني أحلف لك أنني لن أنصرف قبل أن تيجيني • هل جاءت اليك كاترين ايغانوفنا ؟

صمت سمردياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يتفرس في ايغان يهدوء • ثم حرك يده بإشارة تلمل على حين فجأة ، وأشاح وجهه •

هتف ايغان يسأله :

— ما بك ؟

— لا شيء !

— كيف لا شيء ؟

– نعم جاءت ! فيم يعنيك هذا ؟ دعنى وشأنى !

– لا ، لن أدعك • متى جاءت ؟ أجب !

قال الخادم وهو يضحك ضحكة احتقار :

– نسيت •

ثم التفت نحو ايفان بحركة مفاجئة ، وألقى عليه نظرة مثقلة بكره هو ذلك الكره الشديد نفسه الذى سبق لايفان أن رآه فى عينيه أثناء اجتماعه السابق به منذ شهر •

قال سمردياكوف :

– يبدو أنك مريض أنت نفسك • عجيب ! ان خديك خاسفتان ،

وان قسماات وجهك منقلبة •

– دعك من صحتى وأجب عن سؤالى •

– ولماذا اصفرت عيناك ؟ لقد اصفر بياض عينيك يا سيدى • لعل

ذلك يرجع الى أنك تتعذب كثيراً •

قال سمردياكوف ذلك وهو يطلق ضحكة احتقار من جديد ، ثم

أخذ يقهقه صراحة •

هتف ايفان يقول وقد بلغ أوج الغضب والحنق :

– أكرر ما قلته : لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبنى •

فقال سمردياكوف بلهجة أليمة :

– لماذا تعذبنى ؟ ماذا تريد منى ؟

– شيطان يأخذك • أنا لست أهتم بك أنت • أجبنى فأتركك حالاً •

قال سمردياكوف وهو يفض طرفه من جديد :

– لن أجيبك !

- سأعرف كيف أجبرك على أن تعينني + صدقني !
 سأله سمردياكوف وهو يحدثُ اليه على حين فجأة ، معبراً في هذه
 المرة لا عن احتقار فحسب، بل عن شعور يشبه الاشمزاز والتقزز أيضاً :
 - لماذا أنت مضطرب هذا الاضطراب ؟ أسبب تلك المحاكمة التي
 تبدأ غداً ؟ ولكن لا خوف عليك أنت ، اطمئن أخيراً • ارجع الى منزلك ،
 وارقد هادئ ، البال ، ونم مرتاحاً لا يساورك أى جزع !
 - لا أفهم ما تريد أن تقول ••• ما الذى يمكن أن اخشاه أنا من
 الغد ؟

كذلك قال ايفان مدهوشاً ، ثم لم يلبث أن شعر فجأة بخوف غريب
 يحتاج نفسه ويبت برداً فى ظهره •
 ألقى عليه سمردياكوف نظرة فاحصة من أخمص قدميه الى قمة
 رأسه ، ثم قال له بلهجة بطيئة مليئة بالعتب :
 - أ •• لا •• تف ••• هم ؟ أية لذة يجعد الرجل الذكى فى تمثيل
 مهزلة كهذه ؟

نظر اليه ايفان صامتاً • ان هذه اللهجة غير المتوقعة ، المليئة بتعال
 غير معهود ، التي كلمه بها خادمه القديم ، كانت وحدها كفيلاً بأن
 تدهشه ، لأن سمردياكوف لم يسمح لنفسه يوماً الى الآن ، حتى أثناء
 اجتماعيهما السابقين ، أن يصطنع هذا الوضع •
 وتابع سمردياكوف كلامه :

- أكرر أنك لا خوف عليك ، فلا تخش شيئاً ؛ لن أشهد ضدك ،
 وليس هناك أى برهان يمكن الاستناد اليه لاتهامك أنت • ما هذا ؟
 ما ليديك ترتجفان ؟ لماذا تختلج أصابعك هذا الاختلاج ؟ ارجع الى
 منزلك • لست أنت القاتل !

- ارتعش ايفان متذكراً كلمات أليوشا • وتمتم يقول :
- أعرف هذا • لست أنا •••
- فكرر سمردياكوف يقول :
- تعرف هذا ؟
- فوثب ايفان وأمسك سمردياكوف من كنفه وقال :
- تكلم ، قل الحقيقة أيها الثعبان ! قل كل ما تعرفه •
- لم يظهر على سمردياكوف أنه خاف أى خوف ، واكتفى بأن ألقى على ايفان نظرة مثقلةً بكره شديد • ثم انطلق قائلاً بصوت صافر مسموم :
- آ ••• أهكذا ؟ اعلم اذن أنك أنت الذى قتلته •
- فتهالك ايفان على كرسيه ، وبدا عليه الفرق فى خواطره وأفكاره •
- ثم ابتسم ابتسامة خبيثة •
- أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها ؟ بصدد تلك الاستنتاجات والاستدلالات الغبية التى حدثتني فيها المرة الماضية ؟
- تماماً • ثم انك قد فهمتني فى المرة الماضية حق الفهم ، وأنت تفهمنى اليوم كل الفهم •
- كل ما أفهمه هو أنك مجنون •
- ألم تكتف بعد ؟ نحن هنا وحيدان ، وليس ثمة شهود • فلماذا هذه المراوغة ، لماذا يخادع أحدنا الآخر ؟ اللهم الا أن تكون ما تزال تنوى أن تلقى التبعة كلها علىّ ، علىّ وحدى ! ألا تشعر بخجل منى ؟
- انك أنت الجانى الرئيسى ، انك أنت القاتل الحقيقى ، أما أنا فلم أكن الا مساعدك ، لم أكن الا خادمك « لتشاردا » * الوفى الأمين • لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك وايحاءاتك •

سأله ايفان وهو يشعر بأنه قد تجمد من شدة الهلع :

— قمت بما قمت به ؟ أأنت الذى قتلته اذن ؟

أحسَّ ايفان بتزلزل نفسى ، وسرت فى جسمه كله رعيدات صغيرة باردة • فنظر اليه سمردياكوف عندئذ مدهوشاً بعض الدهشة •

لكأن صدق الجزع الذى أصاب ايفان قد خطف بصره أخيراً •

دمدم سمردياكوف يسأل ايفان بشيء من الشك وهو ما يزال ينظر اليه نظرة مواربة ويحبس ضحكة ساخرة :

— هل يُعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً ؟

ظل ايفان يتفرس فى الخادم ، وكأنه أصبح أبكم لا يستطيع الكلام • وترجعت فى رأسه هذه اللازمة على حين فجأة :

سافر فانيا الى بيتر
لكننى لن انتظره

ثم قال أخيراً :

— انى لأتساءل أنا فى حلم ؟ ألا يمكن أن تكون شبحاً ظهر لى ؟

— لا شبح هنا • لا أحد الا نحن الاثنين ، وثالثاً أيضاً • وهو الآن هنا ذلك الثالث ، هو حاضر بيننا حتماً فى هذه اللحظة •

— من هو ؟ من ؟ من هنا ؟ عن أى ثالث تتكلم ؟

كذلك سأله ايفان فيدوروفتش مذعوراً ، وهو ينظر حوالياً ، ويبحث بعينه القلقتين عن أحد فى زوايا الغرفة •

قال سمردياكوف :

— الثالث هو الله • ان الله حاضر بيننا الآن • ولكن لا تبحث عنه ، لأنك لن تراه •

انفجر ايفان فجأة وزأر يقول :

- كذبتَ حين زعمت أنك أنت الذى قتلته + أمران لا ثالث لهما :
فاما انك مجنون ، واما أنك تسخر منى كما فعلت فى المرة الماضية !

ظل سمردياكوف هادئاً + ولم يحفل بغضب ايفان ، وانما كان يتفرس فيه بانتباه واستطلاع + انه لم يستطع أن يتغلب على شكه وارتياحه ، لأنه كان يتصور ، حتى فى هذه اللحظة ، ان ايفان « يعرف كل شيء » ، وأنه يتظاهر بالجهل تظاهراً ، « بغية أن يلقى التبعة كلها عليه ، هو سمردياكوف ، وأن يجبره على قبول هذا الوضع » +

وقال أخيراً بصوت ضعيف واهن :

- انتظر قليلاً +

وسحب ساقه اليسرى من تحت المائدة ، وأخذ يشمر سرواله +
ظهرت قدمه فى حذاء المنزل ، ثم ظهر جورب طويل أبيض + وبدون تعجل ، حلَّ حمالة الجورب ، وأغطس يده الى القاع + كان ايفان فيدوروفتش ينظر اليه وهو يفعل ذلك ، فاذا هو يأخذ بالارتعاش فجأة ، واذا بدعر متشنج يستولى عليه + وهتف يقول :

- جنُّ عقله ، جنُّ عقله +

ثم وثب عن مكانه ، وتراجع الى الوراء بحركة بلغت من القوة أنه صدم الجدار بظهره ، ثم لبث لاصقاً بالجدار ، متصلباً كعصا +

كان يتأمل سمردياكوف بهلع لا حدود له + لم يضطرب سمردياكوف من دعر ايفان ، واستمر ينبس قاع جوربه ، محاولاً أن يقبض بأصابعه على شيء مخبأ هناك + وظفر بهذا الشيء أخيراً ، فأخرجه + رأى ايفان أن هذا الشيء هو أوراق أو حزمة من أوراق + ووضع سمردياكوف الحزمة على المائدة + وقال بصوت خافت :

– هو ذا ***

فسأله ايفان الذى كان يرتعش :

– ما هذا ؟

فأجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً :

– أنظر فترى •

دنا ايفان من المائدة ، وتناول الحزمة ، وأخذ يفضها • فاذا هو
يسحب أصابعه فجأة ، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً •

قال سمردياكوف :

– أصابعك ترتجف يا سيدى !

ثم تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجل • فظهرت تحت الورقة التى
تلف الحزمة ، ظهرت ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المائة روبل •
وأضاف سمردياكوف قائلاً وهو يومئ الى المبلغ :

– المال كله هنا • ثلاثة آلاف روبل بالتمام والكمال • لا داعى

الى العد •

تهاوى ايفان على الكرسي ، وقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً • ثم
دمدم يقول بضحكة غريبة :

– روَّعتنى *** بسبب جوربك ***

عاد سمردياكوف يسأله :

– هل يُعقل ، هل يمكن حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً حتى

الآن ؟

– كنت أجهل كل شيء • كنت أظن أن دمترى هو القاتل •

ثم صاح ايفان يقول وهو يمسك رأسه بيديه :

– أخى ! أخى ! آه ... رباه ! ... اسمع : هل قتلته وحدك ؟
هل قتلت بمساعدة أخى أم بدون مساعدته ؟

– لم يكن لى شريك فى الجريمة سواك • أنا انما قتلت بالتواطؤ
معك • أما دمترى فيدوروفتش فهو برىء براءة كاملة •

– طيب ، طيب ، سنتحدث عنى أنا فيما بعد • ما لى ارتجف هكذا ؟
انى لا أتوصل الى أن أحسن الكلام ...
قال سمردياكوف مدهوشاً :

– كنتَ فى الماضى أكثر جرأة وأعظم جسارة حين كنتَ تقول :
« كل شىء مباح » • وهأنت ذا اليوم مذعور أشد الذعر • هل تقبل أن
تشرب كأساً من شراب الليمون ؟ سآمر لك بكأس من شراب الليمون ،
فانه يحسن اليك • ولكن يجب أولاً اخفاء هذا •

قال سمردياكوف ذلك وهو يومئ الى حزمة الأوراق المالية •

واتجه نحو الباب على نية استدعاء ماريا كوندرايتيفا ليأمرها باعداد
شراب الليمون واحضاره • ولكن عدل عن ذلك فجأة ، وحاول أن يبحث
شىء يمكنه أن يخفى به الأوراق المالية حتى لا تراها تلك المرأة ، فأخرج
فى أول الأمر منديله • ولكنه لاحظ أن المنديل وسخ جداً فأعاده الى
جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذى لاحظته ايفان على المائدة حين
دخل ؛ فجعله غطاءً يخفى تحته الحزمة • واستطاع ايفان فيدوروفتش
أثناء ذلك أن يقرأ عنوان الكتاب قراءة آلية : « مواظ أبينا المقدس
اسحق السورى » * •

وقال ايفان بعد ذلك :

– لا أريد شيئاً من شراب الليمون • سنتحدث عنى أنا فيما بعد •
اجلس الآن واقصص علىَّ : ماذا فعلت لتقتله ؟ قل الحقيقة كلها •

– يجب أن تخلع معطفك والا شعرت بحر شديد ونضح منك

• العرق

خلع ايفان معطفه بسرعة ، كأنه لم يخطر بباله ذلك الا في تلك

اللحظة ، ورمى المعطف على الدكة دون أن ينهض من مكانه •

– تكلم الآن ، أرجوك ، تكلم •

كان قد هدأ روعه ، فهو ينتظر واثقاً أن سمردياكوف سيقول له

الحقيقة « كلها » •

بدأ سمردياكوف كلامه وهو يتنهد :

– ماذا فعلت ؟ الأمر بسيط جداً • استوحيت أقوالك أنت ، ف •••

قاطع ايفان قائلاً دون أن يصيح كما كان يصيح من قبل ، ولكنه

ينطق الآن بكلماته واضحة كل الوضوح ، ويبدو أنه استرد سيطرته

على نفسه تماماً :

– سنتحدث عن أقوالى أنا فيما بعد • أما الآن فأشرح لى بالتفصيل

كيف تدبرت الأمر • ابسط الوقائع مرتبةً ولا تسقط أى تفصيل من

التفاصيل • أريد أن تذكر التفاصيل ، التفاصيل خاصة • أنا مصغ اليك •

– بعد سفرك سقطت فى القبو •••

– أسقطت بنوبة صرع صادقة أم سقطت متظاهراً بنوبة صرع ؟

– متظاهراً طبعاً • تظاهرت بنوبة الصرع الى النهاية • هبطت سلّم

القبو بهدوء حتى آخر درجة من درجاته ، ثم استلقيت على الأرض بهدوء

أيضاً • حتى اذا صرت راقداً على الأرض أخذت أعول ، وظلمت أتخبط

حين نقلونى •

– لحظة • اذن كنت تتظاهر طول الوقت ، أليس كذلك ؟ وفى

المستشفى بعدئذ أيضاً ؟

– لا • ففي صباح الغد ، قبل نقلى الى المستشفى 'أصببت بنوبة صرع صادقة ، وكانت نوبة عنيفة جداً لم أعان مثلها منذ سنين • ولبثت يومين كاملين مغشياً عليّ •
– طيب • طيب • أكمل كلامك •

– أرفدونى على مضجع وراء حاجز غرفة جريجورى فاسيلتس • كنت أتوقع ذلك ، لأن مارفا اجنائفنا قد اعتادت أن ترقدنى هناك ، على مقربة منها ، حين أمرض • لقد أحاطتني دائماً بكثير من الحنان منذ ولدت • وفى الليلة التالية كنت أئن ، ولكن أيناً ضعيفاً ، بانتظار دمترى فيدوروفتش •

– كيف ؟ هل كنت تنتظر مجيئه اليك فى غرفتك ؟

– لا ••••• علام يجيىء الى غرفتى ؟ كنت أنتظر وصوله الى الدار • ذلك أننى كنت واثقاً كل الثقة بأنه سيجىء فى تلك الليلة • كان لا بد له ، وقد حُرّم من معوتى وانقطعت عنه الأنباء التى أزوده بها ، كان لا بد له حتماً من أن يتسلل الى الدار متسلقاً السور كما يجيد ذلك ، ليعرف من ذا أتى ، وليتصرف على ضوء ذلك •
– فماذا لو لم يجيىء ؟

– لو لم يجيىء لما وقع شىء • لولا أنه جاء لما عزمت أمرى •
– طيب ، طيب ••••• تكلم بمزيد من الدقة ، ولا تتعجل • وخاصةً لا تسقط أى تفصيل من التفاصيل !

– كنت أتوقع أن يقتل فيدور بافلوفتش • ذلك أمر ما كان يمكن أن لا يحدث • كنت قد أثرته اثاره شديدة فى الأيام الأخيرة ••••• ثم لقد كان يعرف الاشارات السرية ••••• فلم يكن يمكنه ، وهو فيما هو فيه من شك قوى وحق مسعور ، الا أن يستعين بهذه الاشارات ليدخل المنزل • كان هذا مرتباً من قبل • لذلك كنت انتظره موقناً أنه آتٍ لا محالة •

قاطعه ايفان قائلاً :

— لحظة ! لو قتل لاستولى هو على المال • أما كان ينبغي لك أن تفكر على هذا النحو؟ فأية فائدة كان يمكنك أن تجنيها في هذه الحالة؟ لست أفهم •

— دعك من هذا الكلام ! ما كان له أن يعثر على الظرف المودع فيه المال • أنا وحدي الذي أوهمته بأن الظرف مخبأً تحت الفراش • ولكن ذلك كان كذباً مني • كان فيدور بافلوفتش يخفي المبلغ قبل ذلك في صندوق صغير • ولما كنت الانسان الوحيد الذي يثق به ويركن اليه فقد نصحته بأن يدس الظرف خلف الأيقونات في زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث عنها ، ولا سيما اذا كان سارقاً يتعجل الهروب • فهناك ، وراء الأيقونات ، انما كان المال مخبأً لحظة وقوع الجريمة • أما وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش ، فهو فكرة غبية بليدة أفضل منها أن يوضع المبلغ في الصندوق الصغير • لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كان تحت الفراش • ذلك تفكير أبله • نعود الى دمترى : لو قتل دمترى أباه لما عثر على المال ، ولأسرع يهرب متحاشياً أن يحدث ضجة • هكذا يتصرف القتلة دائماً • والا لضبط واعتقل • وكيف دار الأمر ، فأنسى أستطيع في الغد أو حتى أثناء تلك الليلة نفسها أن أمضي آخذ المال من خلف الأيقونات ، فأحمله الى مسكني • وكانت السرقة ستنسب عندئذ الى دمترى فيدوروفتش • يحق لي أن أتوقع ذلك •

— فاذا لم يقتل دمترى أباه ، ولم يزد على أن يصرعه ؟

— اذا لم يقتله ، لا أجرؤ أن آخذ المال طبعاً • هذا بديهي • وتكون خطئي قد اخفقت • على أنني كنت افترض ، فيما اجرته من حسابات ، أن دمترى كان سيلغ من صرعه أباه أن الأب كان سيفقد وعيه ويسقط

مغشياً عليه • وكنت سأنتهز عندئذ هذه الفرصة فأخذ المال ، ثم أوهم فيدور بافلوفتشس بعد ذلك أن السرقة من صنع دمترى ، وأن دمترى قد سطا على المال بعد أن ضربه •

– لحظة أخرى ••• اننى لا أفهم بوضوح ••• هل دمترى هو الذى قتل اذن ، ثم لم تزد أنت على أن سرقت المال ؟

– لا ، ليس هو الذى قتل • لقد كان سهلاً علىّ ، حتى فى هذه اللحظة ، أن أزعّم أنه هو القاتل ••• ولكننى لا أريد أن أكذب عليك ، لأننى ••• لأننى أدرك الآن أنك لم تفهم شيئاً البتة حتى هذه اللحظة ، وأنك لم تكن تمثل تمثيلاً لتلقى التبعة كلها علىّ ، ولتجعلنى أقبل هذا الوضع • ومع ذلك فانك أنت الجانى الأكبر فى هذه القضية ، لأنك كنت على علم بما كان يتهاى ، وقد كلفتنى بأن أقتل أباك • وسافرت بعد ذلك وأنت تعرف ما سيحدث • لهذا أصرّ على أن أوكد لك جازماً ، فى هذا المساء ، أن القاتل الرئيسى هو أنت ، أنت وحدك ! أما أنا فليست الا معاون قاتل ، معاوناً ثانوياً ، رغم أن القتل قد تم بيدي • أنت القاتل شرعاً ، أنت ، أنت !•••

هتف ايفان أخيراً يقول وقد نفذ صبره ، ناسياً أنه منذ لحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه الى ما بعد :

– كيف أكون أنا القاتل ؟ آه ••• يا رب !••• أبسبب سفرى الى تشرماشنيا أيضاً ؟ قل لى اذن : لماذا كنت تحرص ذلك الحرص كله على موافقتى اذا كنت تؤول سفرى وحده على أنه موافقة ؟ هل لك أن تشرح لى هذا التناقض ؟

– حين أثق بأنك موافق ، أعلم أنك لن تحدث فضيحة عند عودتك ، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل ، اذا اشتبهت فى السلطات بدلاً من أن

تعتقل دمترى فيدوروفتش ، أو اذا هي عدتني شريكاً له في الجريمة ، حتى لقد تدافع عنى فى هذه الحالة • ثم انك بعد تنال نصيبك من الميراث قد تكافئنى أثناء حياتك • ألم تنل هذا الميراث بفضيلى أنا ؟ فلو قد تزوج أبوك أجرين ألكسندروفنا ، لما آل اليك كوبك واحد من تلك الثروة كلها !•

دمدم ايفان يقول كازاً أسنانه :

- ها ••• كنت تنوى اذن أن تضطهدنى طوال حياتى ! ولكن ما الذى كان يحدث لو أننى أبلغت عنك حينئذ بدلاً من أن أسافر ؟

- لا تملك دليلاً ضدى • ليس يكفى لاتهامى أن أكون قد حضضتك على السفر الى تشرماشنيا • وهذا كله سخافات على كل حال ! هناك أمران لا ثالث لهما : اما أن تسافر بعد الحديث الذى دار بيننا ، واما أن تبقى هنا • فلو بقيت لما حدث شئ البتة ، لأننى أفهم عندئذ أنك لا تريد وقوع جريمة القتل ، فأمتنع عندئذ عن الشروع فى العمل • أما اذا سافرت فانك تجعلنى أوقن أنك لن تشئ بى الى القضاء وأنتك ستغفر لى سرقة الثلاثة آلاف روبل • ومن جهة أخرى ، فانك لم تكن تستطيع ملاحقتى ، لأن من الممكن أن اكشف أمام المحكمة عن كل شئ ، وأن أذكر لا أننى سرقت وقتلت - فذلك ما لم أكن لأقوله بداهة - وانما أذكر أنك حرضتني على أن أسرق وأن أقتل ، وأننى رفضت ذلك • لقد كنت اذن فى حاجة الى موافقتك بغية أن لا تزعجنى بعد ذلك ، فما هى الأدلة التى تملكها ضدى ؟ ولا كذلك أنا ، فاننى أستطيع أن أزعجك فى كل لحظة ، بالكشف عن رغبتك القوية العارمة فى موت أبيك • ويميناً ان جميع الناس كانوا سيصدقون كلامى ، وان سمعتك كانت ستسوء الى الأبد ، وان شرفك كان سيلطخ مدى الحياة •

سأله ايفان غاضباً غضباً شديداً :

– أنت تزعم اذن أنني أتمنى بحرارة وقوة أن يموت أبى • فهل صحيح أنني تمنيت ذلك ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة وهو يحدق الى ايفان :

– لا شك اطلاقاً في أنك تمنيت ذلك ، ولقد كلفتنى ضمناً بارتكاب هذه الجريمة ، دون أن تطلب منى هذا الطلب بكلام ملفوظ صريح •

كان سمردياكوف ضعيفاً جداً ، وكان يتكلم بصوت أجش متعب، ولكن نوعاً من هوى متأجج سرى كان يجيش في نفسه ويحرك لسانه • كان واضحاً أنه يهدف الى غاية ما • وقد أحسَّ ايفان بذلك •

قال له ايفان آمراً :

– كتمل • اقصص تفاصيل وقائع تلك الليلة •

– ماذا أقصُّ أيضاً ؟ كنت راقداً على مضجعى ، فاذا أنا يتراعى لى اننى أسمع صوتاً يطلقه أبوك • كان جريجورى فاسيلتس قد خرج قبل لحظات ، وسُمع يُعول على حين فجأة ، ثم ارتد كل شيء الى صمت مطبق • كنت انتظر فى الظلمات راقداً ، وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً يكاد ينشق له صدرى • لم أطق صبراً ، فنهضت أخيراً وخرجت • فى اليسار ، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة • سرت بضع خطوات أيضاً لأتجسس على أبى ، ولأعرف أهو ميت أم حى • سمعته يضطرب ويتهدد • قلت لنفسى : « اذن مايزال حياً ! اذن أخفقت الحطة » • اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلاً : « هذا أنا ، لا تخف ! » • فأجابنى : « لقد جئ ، جاء ثم هرب ! » • كان يقصد دمترى فيدوروفتش •

وأضاف يقول : « لقد قتل جريجورى فاسيلتش » • سألته هامساً : « أين وقع هذا ؟ » فأجابنى بهمس أيضاً : « هناك ، فى الركن » • قلت له : « انتظر لحظة » • واتجهت نحو الركن الذى دلى عليه ، فاكتشفت جريجورى فاسيلتش عند أسفل السور راقداً على الأرض ، مضرجاً بالدم ، مغشياً عليه • « صحيح اذن ان دمترى فيدوروفتش قد جاء » • هاجتني هذه الفكرة فوراً ، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسى اكمال المهمة واتمام الأمر ، لأن جريجورى فاسيلتش ، حتى ولو كان مايزال حياً ، لن يستطيع أن يرى شيئاً ولا أن يسمع شيئاً وهو فيما هو فيه من انغماء • والخطر الوحيد هو أن تستيقظ مارفا اجناتفنا فجأة • شعرت شعوراً واضحاً ، فى تلك اللحظة ، بالخطر الذى أتعرض له اذا استيقظت مارفا اجناتفنا ، ولكن الاغراء كان أقوى من أن أتراجع ، وشعرت باندفاع مسعور يقطع أنفاسى • عدت الى النافذة التى كان أبوك واقفاً عندها وقلت له : « جاءت ، جاءت أجرافين الكسندروفنا • هى هنا ، وتطلب أن تدخل » • فارتعش من شدة الانفعال كطفل صغير ، وطفق يسألنى : « أين ؟ أين هى ؟ » • كان لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من فرط الهياج ، ومع ذلك لم يصدق بعد تصديقاً تاماً • قلت أجيبه : « هى هنا • انها تنظر • هلاً فتحت الباب ! » • كان ينظر الى من النافذة حائر النظرة مرتبك الهيئة ، متسائلاً أيجب عليه أن يصدقنى أم لا ، ولكنه تردد فى فتح الباب • قلت فى نفسى : « هو الآن خائف منى أنا » • أمر غريب مضحك : خطر ببالى فى تلك اللحظة فجأة أن أقرع زجاج النافذة بالاشارات المتفق عليها ايذاناً بوصول جروشنيكا • فعلت ذلك ، فاذا به ، هو الذى لم يصدق أقوالى ، اذا به يقتنع فجأة باشاراتى فيسرع يفتح الباب فوراً • فتح الباب ، فاردت أن أدخل ، ولكنه وقف أمامى يمنعنى من العبور ويسألنى مرتعشاً : « أين هى ؟ أين ؟ أين ؟ » •

قلت لنفسي : « اذا كان خائفاً منى هذا الخوف ، فمعنى ذلك أن الأمور
تجربى مجربى سيئاً » • وفى تلك اللحظة • أحسست بساقىّ تخوران
اذ تصورت أنه لن يدع لى أن أدخل غرفته ، أو أنه سيأخذ يصرخ ،
أو أن مارفا اجناتنا ستجىء مسرعة ، أو ما لا أدري أيضاً • لا أتذكر
الآن تذكرآ جيداً ما حدث فى نفسى عندئذ • لا بد أن وجهى كان قد
اصفر اصفراراً شديداً • دمدمت أقول : « هى هناك ، أمام النافذة ،
كيف لا تراها ؟ » • قال : « ائت بها الى هنا ، ائت بها الى هنا » • قلت :
« لقد خافت • روعتھا الصرخة التي أطلقها جزيجورى فاسيلتس ،
فاختبأت وراء الأشجار • هيّا ، نادها أنت من النافذة » • عاد يدخل
البيت ، ومضى الى غرفته ، ودنا من النافذة فوضع على حافتها شمعة
مشتعلة ، وصباح ينادى : « جروشكا ! جروشكا ! أنت هنا ؟ » •
ولكنه لم يشأ أن يميل من على النافذة حتى لا يتعد عنى ، وذلك بسبب
خوفه • كان يخشاني فى تلك اللحظة خشية رهيبية ، لذلك لم يتعد
عنى قيد ائمة • قلت له وأنا اقترب من النافذة وأميل بنفسى الى الخارج :
« ها هى ذى ! وراء تلك الأشجار • هل رأيتها ؟ انها تبسّم لك •
انظر ! » • صدقنى فجأة ، وأخذ يرتعش ، لأنه كان مغرماً بها أشد
الغرام ! عندئذ انما مال من على النافذة تماماً • لم أضيّع ثانية واحدة ،
تناولت ضاغطة الورق المعدنية التي كانت موضوعة على المنضدة ، لا شك
أنك تتذكرها • انها تزن ثلاثة أرطال تقريباً • رفعتها ، وهويت بها على
رأس أيبك بكل ما أوتيت من قوة • فلم تخرج من صدره حتى صرخة
واحدة • كل ما حدث أنه تهاوى • وضربته مرة ثانية ، فمرة ثالثة ؛
وفى المرة الثالثة شعرت أننى حطمت جمجمته • سقط على الأرض منقلباً ،
مضرباً بدمه • نظرت الى نفسى لأرى هل تلطخت ، فلاحظت أن ثيابى
نظيفة لم ينبجس عليها شىء من الدم • مسحت ضاغطة الورق ، وأرجعتها

الى مكانها • ثم اتجهت نحو الايقونات ، فأخرجت المال من الظرف ، ورميت الظرف على الارض ، وحرصت على أن اضع جانبا ، الشريط الوردى الذى كان يلف الظرف • وبعد ذلك نزلت الى الحديقة وأنا ارتعش ارتعاشاً شديداً ، فمضيت رأساً الى الشجرة المجوفة الساق ، تلك التى تعرفها ••• كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأً منذ مدة طويلة ، حتى لقد وضعت فيها ورقاً وخرقة استعداداً لذلك اليوم • لفتت الاوراق المالية بالورقة ، ثم غلفت الورقة بالخرقة ، ودست الرزمة فى بطن الشجرة الجوفاء • بقيت الرزمة هناك أسبوعين • ولم أخرجها الا بعدة مدة ، عقب خروجى من المستشفى • عدت الى بيتى ، فرقدت على مضجعى ، وأخذت أفكر عندئذ مذعوراً : « اذا كان جريجورى ميتاً ، فقد فسد كل شئ ودارت على الدوائر ، أما اذا كان حياً فصحا من اغمائه فسوف يجرى كل شئ على خير وجه ، لأنه سيشهد بأن دمترى قد جاء فعلاً ، وسيستتجون من ذلك أنه هو الذى قتل وسرق المال » • وبينما أنا فى هذا القلق وهذا الاضطراب ، أخذت أن لأوقظ مارقا اجناتنا بأقصى سرعة • فاستيقظ مارقاً أخيراً وهرعت الى • ولاحظت فجأة أن جريجورى فاسيلتس غائب ، فأسرعت الى الحديقة وأخذت تعول • وأنت تعرف التهمة ، وتعرف ما حدث بعد وقوع الجريمة • ومنذ ذلك الحين شعرت باطمئنان كامل •

هنا توقف سمردياكوف عن الكلام • وكان ايفان يصغى اليه صامتاً كصمت ميت ، لا يتحرك ولا يحول عنه بصره لحظة واحدة • وكان سمردياكوف أثناء حديثه لا ينظر اليه الا نادراً ، واذا نظر اليه نظر اليه خلسة • لقد كان واضحاً أن سمردياكوف يؤثر أن يتحاشى نظرة ايفان فيدوروفتش ويحاول اتقاءها • فلما فرغ من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضاً ، وأصبح يتنفس تنفساً ثقيلاً ، وظهرت على جبينه

قطرات عرق • ومع ذلك كان يستحيل على المرء أن يعرف أهو يشعر
بندم أم لا •

وكان ايفان يفكر ، فعاد يقول له :

- لحظة • والباب ؟ اذا كان أبى لم يفتح الباب الا لك وحدك ،
فكيف رآه جريجورى مفتوحاً قبل ذلك ؟ ان جريجورى يؤكد أنه رأى
الباب مفتوحاً •

شئ غريب : ان ايفان يلقي الآن أسئلته بلهجة هادئة كل الهدوء ،
دون أى احتياج أو حنق ، فلو دخل شخص الى الغرفة فى تلك اللحظة ،
وألقى من العتبة نظرة على المتحادثين ، لأحس أنه يشهد حديثاً هادئاً
ودياً صداقياً يدور بين الرجلين على أمور عادية وان تكن هذه الأمور
تعنيها بعض العناية •

أحاب سمردياكوف يقول مبتسماً ابتسامة فيها مكر وسخرية :

- أما حكاية الباب الذى يزعم جريجورى فاسيلتش أنه رآه
مفتوحاً ، فذلك وهم منه لا أكثر • أؤكد لك أن جريجورى ليس
رجلاً ، بل هو خروف عنيد • انه لم ير شيئاً البتة ، ولكنه يتخيل أنه
رأى الباب مفتوحاً ، وما من أحد يستطيع أن يزرزحه عن اعتقاده هذا •
من حظنا كلينا أنه وضع هذه الفكرة فى رأسه ، لأن هذه الواقعة تدين
دمترى فيدوروفتش اداة حاسمة •

قال ايفان وقد بدا عليه أنه فقد تسلسل أفكاره من جديد ، وأنه
بحاول أن يفهم شيئاً ما :

- اسمع أيضاً ••• أردت أن ألقى عليك أسئلة أخرى •••

ولكننى سبت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه ... لقد تاه عقلى تماما ... ها ... نعم ! اشرح لى هذه النقطة على الأقل : لماذا فضضت الظرف ثم تركته على أرض الغرفة ؟ لماذا لم تأخذ الظرف مع المال ؟ ... لقد تراءى لى ، أثناء حديثك ، أنك قد فعلت ذلك عامداً ، وأن ذلك كان أمراً ضرورياً ... ولكننى لا أفهم لماذا كان ذلك ضرورة ...

— فعلت ذلك لسبب معين • لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نيات أبوك ، مثلى أنا ، شخص لعله سبق أن رأى المال ، ولعله شهد صرته أو حتى ساهم فى صرته ، فان ذلك الشخص ما كان ليحتاج الى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة ، لا سيما وهو يستعجل الهروب سريعاً ، ذلك أنه يعرف على وجه اليقين أين يوجد المال • لو كان القاتل واحداً من أهل الدار ، مثلى أنا ، لاكتفى بدسّ الظرف فى جيبه دون أن يفضّه ، ولولىً هارباً بأقصى سرعة • ولا كذلك شأن أخيك دمترى فيدوروفتش : فلقد كان لا يعلم بوجود هذا الظرف الا عن طريق السماع ، ولم يره بعينه فى يوم من الأيام • فاذا فرضنا أنه أخرجته من تحت الفراش ، كان عليه أن يفضّه حتماً ليتأكد من وجود المال فيه ، ثم كان لا بد أن يلقى الظرف على الأرض متعجلاً ، دون أن يتسع وقته للتفكير فى أن هذا الظرف يمكن أن يكون شهادةً عليه • ان هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين ، فهم لا يفكرون فى الأمور ولا يتبصرون بالعواقب • يجب أن لا تنسى ان دمترى فيدوروفتش نبيل المحتد ، وأنه لم يسرق فى يوم من الأيام حتى ذلك الحين • واذا قرر أن يسرق فى هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة البتة ، وانما هو استردادٌ لمالٍ يخصه شرعاً • كان دمترى فيدوروفتش قد أعلن ذلك فى المدينة كلها سلفاً ، حتى لقد تفاخر أمام شهود بأنه سيمضى يسترد حقه من فيدور بافلوفتش • اننى لم أفصح عن

هذا التفكير صراحةً في شهادتي أمام وكيل النيابة ، ولكنني جعلته يدركه بإشارات وتلميحات ، دون أن يبدو عليّ أنني أفهم أنا نفسي ما أقول ، فاعتقد أنه اهتدى بنفسه الى هذه الأفكار التي أوحيتها اليه . ما أزال أذكر أنه بلغ من سروره وافتتانه عندئذ أن لعبه أو شسك أن يسيل قطرات من شفثيه .

هتف ايغان يقول وقد بلغ من الدهشة أوجها :

– هل يمكن فعلاً أن تكون قد بنيت هذا كله في لحظة الجريمة نفسها ؟

ونظر الى سمردياكوف مرتاعاً من جديد .

– طبعاً لا . . . ما كان يمكن أن يخطر هذا كله ببالي في لحظة كذلك اللحظة . وانما رُتب كل شيء من قبل .

صاح ايغان فيدوروفتش يقول متعجباً :

– اذن . . . اذن لقد ساعدك الشيطان نفسه ! لا ، لا ، لست غيبياً . بل انك لأذكى كثيراً مما كنت أظن . . .

ونفض ايغان ينوي أن يمشي بضع خطوات في الغرفة . كان يشعر بانهيار نفسي شديد . ولكن المائدة كانت تسد الطريق ، والمكان الخالي بينها وبين الجدار ضيق لا يسمح للمرء بأن يمشي فيه على ما يحب . لذلك اضطر ايغان أن يقتصر على أن يدور في مكانه ، ثم عاد فجلس . ولعل عدم تمكنه من أن يتحرك كما كان يتمنى قد أثار غيظه ، فاذا هو يعود الى الكلام بلهجة مهتاجة كالتي تكلم بها حين وصوله . قال :

– اسمع أيها الشقي ، أيها الانسان الدنيء الحقيير ! ألم تفهم حتى الآن أنني ان امتنعت عن قتلك منذ بضع دقائق فما ذلك الا لأستطيع أن أسلمك

الى المحكمة غداً؟ ألا فليشهد الله علىّ (قال ذلك وهو يرفع يده كمن يحلف يميناً) *** ربما كنت أنا نفسى جانياً *** لعلى كنت أشعر سراً برغبة فى *** أن يموت أبى *** من يدرى؟ ولكننى أحلف لك أننى لست جانياً بمقدار ما تتصور ، واننى لم أحرضك على ارتكاب هذه الجريمة فيما يخيّل الىّ . لا ، لا ، لا ، لم أحرضك ! على كل حال ، ليس هذا بالأمر الهام ! لسوف أتهم نفسى غداً ، أيةً كانت الشهادة التى قد تدلى بها ضدى ، فاننى أقبلها منذ الآن ، ولا أخشاك . بالعكس : سأؤيد كل ما تقوله . ولكن يجب عليك أن تعترف فى الغد أنت أيضاً . هذا واجب يقع على عاتقك . يجب عليك ان تعترف ، يجب عليك ، سندهب معاً . تقرّر هذا !

قال ايغان هذه الكلمات بلهجة قوية حازمة ، وكان واضحاً فى سطوع عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه .

قال سمردياكوف ، ولكن دون سخرية فى هذه المرة ، وبلهجة توشك أن يكون فيها شيء من عطف :

– أرى أنك مريض ، مريض جداً . ان عينك صفراوان تماماً .
واستأنف ايغان كلامه فقال :

– سندهب معاً . فان رفضت ، فلا ضير *** سأذهب وحدى !

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم قال أخيراً كمن يصدر قراراً مبرماً :

– لن يكون شيء من هذا . لن نذهب الى المحكمة . ولن تذهب أنت .

هتف ايغان يقول بلهجة عتب :

– أنت لا تفهمنى •

– ستستحى من اتهام نفسك هذا الاتهام ، ولن يكون لهذا أى فائدة على كل حال ، لأننى سأصرِّح عندئذ تصریحاً قاطعاً بأننى لم أُجر معك أحاديث من هذا النوع فى يوم من الأيام ، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كله اختراعاً بسبب ما أنت فيه من حالة مرضية (سيصدقون كلامى لما يبدو عليك من مرض) ؛ أو أقول أيضاً أنك قلتَ ما قلتَ اشفاقاً على أخيك ورأفةً به ، مؤثراً اتهام نفسك فى سبيل انقاذه ، وانك ألقيت الذنب علىّ لأنك لم تحسبنى فى يوم من الأيام انساناً كسائر البشر ، وانما عاملتني طوال حياتي كما يعامل مخلوق حقير لا قيمة له • فمن ذا الذى سيصدق كلامك بعد هذا ؟ فكّر قليلاً : أين الأدلة ؟

قال ايفان :

– قل لى : أنت أريتنى هذا المال الذى كنت تخبئه عندك ، لتقنعنى بصدق ما رويته لى ، أليس كذلك ؟

ففتحى سمردياكوف الكتاب السميك الأصفر الذى كان يغطى حزمة الأوراق المالية ، وقال متهدأ :

– خذ المال واحمله معك •

– سأحمله طبعاً ! ولكن لماذا ترده الىّ الآن وأنت انما قتلت لتحصل عليه ؟

كذلك سأله ايفان وهو ينظر اليه بدهشة كبيرة •

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم :

– أصبحت لا أريد هذا المال ! لقد قدّرت خلال مدةٍ ما أن أبدأ

• بهذا المال حياة جديدة في موسكو ، أو قل أيضاً أن أسافر الى الخارج •
 • كان لي هذا الأمل ، ولا سيما أنك كنت تقول « ان كل شيء مباح » •
 • أنت علمتني أن أفكر هذا التفكير ، وأن أقضي في الأمور على هذا النحو •
 • كنت تقول لي دائماً : « اذا لم يوجد الاله الذي لا نهاية له ، فالفضيلة
 اذن باطل لا جدوى منه ولا داعى اليه » • هكذا كنت تفكر أنت ، ولقد
 استندت أنا الى أقوالك واعتمدت عليها •
 سأله ايغان وهو يتسم ابتسامة ساخرة :

- ثم توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك في هذه الجريمة ، أليس
 كذلك ؟

- نعم ، مستوحياً آراءك •

- والآن هل عدت الى الايمان بالله ، ما دمت ترد الى المال ؟

دمدم سمردياكوف يقول :

- لا ، أنا لا أؤمن بالله •

- فلماذا ترد الى المال اذن ؟

قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة مللٍ وسأم من جديد :

- كفى ! فيم يهملك هذا ؟ أما كنت تقول عندئذ ان كل شيء مباح ؟

فما بالك تضطرب الآن هذا الاضطراب كله ، حتى لتسوى أى تشى
 بنفسك ؟ على أنك لن تفعل ذلك ، لا ، لن تشى بنفسك ، لن تشى
 بنفسك •

كذلك ردّد سمردياكوف بصوت جازم ينم عن اقتناع كامل •

فأجابه ايغان بقوله :

- ستري !

- هذا مستبعد استبعاداً مطلقاً • أنت أذكى من أن تفعل ذلك •
 أنت تحب المال ، أعرفُ هذا ؛ وأنت تحرص كثيراً على أن يحترمك
 الناس ، لأنك مزهو متكبر • ثم انك عدا ذلك تتأثر تأثراً شديداً بمفاتيح
 الجنس اللطيف ، وأنت فوق هذا كله تحب أن تعيش على ما يشاء لك
 هواك دون أن تكون رهناً بأحد • أنت تحرص على هذا أكثر مما تحرص
 على أى شىء آخر • ولن تريد أن تفسد حياتك هذا الافساد بتلطيخ
 شرفك الى الأبد أمام المحكمة • أنت تشبه فيدور بافلوفتشى • أنت بين
 سائر ابنائه أكثرهم شبهاً به ، لأنك قد ورثت عنه نفسه •
 قال ايفان وقد ظهر عليه الاعجاب بملاحظات سمردياكوف ،
 وتدفق الدم الى وجهه :

- لستَ بالغبي • كنتُ أظنك فى الماضى أبله •

ثم أضاف يقول وهو يتفرس فى الخادم باستطلاع وفضول :

- أرى أنك تتكلم الآن فى جد •

- بسبب زهوك وكبريائك انما كنتَ تعدنى غيباً • خذ المال •
 هلاً أخذته !

لمَّ ايفان رزم الأوراق المالية الثلاث ، ودسَّها فى جيبه ، حتى
 دون أن يهتم بلفَّها • وقال :

- غداً سأُظهر عليها المحكمة •

- لن يصدقك أحد ، لأنك الآن غنى ، فسيقدرُون أنك اقتطعت

هذا المبلغ من ثروتك أنت •

نهض ايفان وقال :

- لئن لم أقتلك اليوم ، فما ذلك الا لأننى سأحتاج اليك غداً •

تذكر هذا !

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يلقي على ايفان نظرة عجيبة:

- اقتلنى اذا شئت ، اقتلنى فى هذه اللحظة ***

ثم أسرع يضيف وهو يتسهم ابتسامة مرة :

- ولكنك لن تجرؤ • انك لن تجرؤ على شىء بعد اليوم ، يا من

كنت فى الماضى رجلاً جسوراً •

قال ايفان :

- الى اللقاء •

وتقدم خطوة نحو الباب •

- لحظة ! *** أرنه مرة أخرى ، هذا المال ***

أخرج ايفان الأوراق المالية من جيبه ، وأراه اياها • فتأملها

سمردياكوف بضع ثوان ، ثم قال وهو يحرك يده بتلك الحركة التى تنم

عن الملل والسأم :

- طيب • اذهب الآن !

فلما همَّ ايفان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف يقول على حين

فجأة :

- ايفان فيدوروفتشف !

فالتفت ايفان وسأله :

- ماذا تريد ؟

فقال له الخادم :

- وداعاً !

فاجابه ايفان :

- بل الى اللقاء ، الى الغد !

• وخرج من البيت •

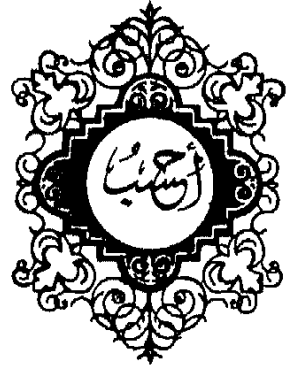
كانت زوبعة الثلج فى الخارج ما تزال تعصف مسعورة • أخذ ايفان يسير بخطى ثابتة ، ولكنه أحس بعد لحظات أنه يترنح • فقال لنفسه وهو يتسهم : « هذه لحظة تعب جسمى » • واستولى عليه نوع من فرح • كان يحس فى نفسه ثباتاً لا يتزعزع : هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التى كانت تعذبه منذ زمن طويل • قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسى كبير : « قررت • ولن يتغير قرارى » • وفى تلك اللحظة صدم شيئاً على الأرض ، فكاد يتعثر ويقع • توقف عن السير ، فاذا هو يرى الفلاح الصغير الذى كان قد صرعه قبل وقت قصير ، راقداً على الأرض ، جامداً على ذلك الوضع نفسه ، مغشىاً عليه • كان الثلج قد دفن وجهه تقريباً • رفعه ايفان وحمله على كتفيه • واذ رأى نافذة مضاءة فى منزل على يمينه ، اقترب من النافذة وقرعها ، فأجابه صاحب البيت ، فعرض عليه ايفان ثلاثة روبلات ليساعده فى نقل الرجل الى أقرب قسم من أقسام الشرطة • قبل صاحب البيت • سأصرف النظر عن التفاصيل ، فلا أذكر الا أن ايفان فيدوروفتش قد استطاع أخيراً ، بتوزيع بقاشيش كبيرة ، أن يضع الفلاح الصغير فى مقر الشرطة ، واتخذ الاجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور • وحسبى أن أشير الى أن هذه القضية قد استغرقت قرابة ساعة من وقت ايفان • ولكن ايفان كان يحس برضى عن نفسه • كان فكره يعمل بعنف ، رغم أن خواطره مشتتة • قال يحدث نفسه مسروراً : « لولا أن كان قرارى فيما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً ، لما أنفقت ساعة كاملة فى الاهتمام بهذا الفلاح السكران ، ولمرت به دون أن أكثر لمصيره ، ودون أن أفعل شيئاً فى سبيل أن لا يتجلد من البرد ••• » ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والسرور والارتياح : « ولكن كيف امكن أن أكون قادراً على

تحليل نفسي هذا التحليل الصادق العميق . . . ألا ما أغيب أولئك الأطباء الذين يدعون انى بسبيل أن آجن ! ، ، حتى اذا وصل الى مسكنه هاجمه شك على حين فجأة . فقال لنفسه : « أليس الافضل ان أذهب الى وكيل النيابة فوراً فأقص عليه كل شيء ؟ » . ولكنه أبعد هذه الفكرة ، واتجه نحو الباب عازماً أمره قائلاً : « غداً ، غداً يتم هذا كله » . شيء غريب : بينما كان ايفان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة ، اذا بالفرح الذى كان يملأ نفسه منذ قليل ، يتبدد فى غمضة عين . وحين اجتاز عتبة غرفته شعر فجأة ببرد فى قلبه ، كأنه تذكر شيئاً مقززاً معذباً موجوداً فى هذه الغرفة بعينها ، فى هذه اللحظة نفسها ، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن . وتراعى على أريكته متعباً مكدوداً . وجاءته الخادمة المعجوز بالسماور . فصنع لنفسه شيئاً من الشاى ، ولكنه لم يشربه ، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده الى الغد . كان يشعر وهو جالس على ديوانه بدوار . كان يشعر بأنه مريض خائر القوى . حاول أن ينام . ولكنه نهض ثانية وهو فى حالة قلق شديد ، وأخذ يمشى فى غرفته بغية أن ينفض عنه خدره النعس . وخيّل اليه فى بعض اللحظات أن فكره أخذ يهذى . على أن المرض ليس هو الذى كان يهيمه ويشغل باله فى تلك الساعة . وعاد يجلس ، ونظر الى جميع الجهات كأنه يراقب المكان . وأجال بصره حوله عدة مرات . وتجمدت عيناه أخيراً على اتجاه معين ، وأخذتا تحدقان الى نقطة بعينها فى أقصى الغرفة . وابتسم ايفان . ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه بعد ذلك فوراً . ولبث جامداً خلال مدة طويلة ، ضاغطاً رأسه بيديه ضغطاً قوياً ، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان الى تلك النقطة نفسها فى جهة الكنبه الموضوعه حذاء الحائط أمامه . واضح أن شيئاً ما كان يحنقه ويقلقه ويعذبه .

٩

الشيطان

كابوس ايفان فيدوروفسكا



أنه قد آن لي ، رغم أنني لست طبيياً ، أن أقدم للقارىء بعض الايضاحات عن طبيعة مرض ايفان فيدوروفتش . ولا أريد أن أستبق تمة القصة ، سأقتصر على أن أقول هنا انه كان في ذلك المساء نفسه على أهبة أن يُصاب غداً بنوبة حمى حارة . لقد تغلب المرض أخيراً على جسمه الخائر الواهن الذي كان مع ذلك ما يزال يقاوم مقاومة عنيفة ، وعلى أنني أجهل الطب ، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع ، بفضل توتر ارادته توتراً شديداً ، أن ينحى ، الى حين ، ذلك المرض الذي كان يدمّره ، آملاً أن يقضى عليه فيما بعد . كان يعرف أنه مريض ، ولكنه يكره أن يكون مريضاً في هذه الآونة التي يجب عليه فيها أن يملك جميع قواه ، ليتكلم بحرية ، ليتكلم بوضوح ، « ليرر نفسه أمام نفسه » . على أنه قد ذهب الى الطبيب الذي وصل من موسكو منذ مدة قصيرة ، والذي استدعته كاترين ايفانوفنا بدافع النزوة وحدها ، كما سبق أن قلت من قبل . فبعد أن أصغى الطبيب الى كلام ايفان ، وبعد أن فحصه ، انتهى الى أنه مصاب باضطراب دماغى ، ولم يستغرب

أىّ استغراب الاعتراف الذى اعترفه له ايفان على مريض . قال الطيب :
 « من الممكن جداً ، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغى ،
 من الممكن جداً أن توافيك هلوسات ، رغم أن الأمر يحتاج الى مزيد من
 التثبت والتحقق . . . وكيف كان الحال ، فيجب عليك أن تشرع فى
 معالجة نفسك بغير ابطاء ، والا كان يُخشى حدوث أسوأ العواقب » .
 ولكن ايفان فيدوروفتش ، حين خرج من عيادة الطيب ، قرر أن
 لا يلقي الى هذه النصيحة بالآ وأن لا يقيم لها وزناً ، ثم أهمل التداوى .
 قال يحدث نفسه : « ما أزال قادراً على أن أمشى ، وما أزال أملك من
 القوة ما يمكننى من أن أسعى مهتماً بشئونى . ويومَ أنهار وأسقط
 فليصنعوا بى ما يشاءون ، وليعاملونى كما يحلو لهم أن يعاملونى » .
 بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده بإشارة الملل والسأم .

جلس ايفان اذن ، وكان يدرك هو نفسه فى تلك اللحظة أنه فى
 حالة هذيان . كان قلت منذ هنيهة يحدق تحديقاً قوياً الى شىء
 موجود قرب الجدار المقابل من الغرفة . ذلك أنه على الكنية المستندة
 الى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لا يدرى الا الله
 كيف ، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين ولج ايفان فيدوروفتش
 غرفته عائداً من عند سمردياكوف . ان هذا الشخص سيد روسى ، أو
 هو يشبه أن يكون كذلك ، متقدم فى السن قليلاً ، يناهز الخمسين من
 العمر ، كما يقول الفرنسيون . شعره قائم طويل كثيف ، أشيب فى بعض
 المواضع ، وكذلك لحيته الصغيرة المدببة . وهو يرتدى صدرية بنيسة
 اللون ، رائحة التفصيل ، ولكنها عتيقة قليلاً ، قد بليت « موضتها » .
 لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين ، وما من أحد بين رجال المجتمع الثرى
 يرتدى مثل هذه الثياب فى هذا الزمان . ان القميص والكرافطة الطويلة
 التى تشبه أن تكون منديلاً ، أنيقان أيضاً كل الأناقة ، فهما مما يلبسه

فى العادة سادة يُعنون بهندامهم أشد العناية ، ولكنك تشك فى نظافتهم
 اذا أنت أنعمت فيهما النظر من قرب • والكرافتة تبدو مهترئة كذلك •
 والرجل يرتدى سروالاً ذا مربعات ، يناسبه كثيراً ، رغم أن لونه فاقع
 جداً ، ورغم أنه مسرف فى الضيق قد اندثرت موضته • ويصدق هذا
 أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من
 فصول السنة • خلاصة القول أن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك
 الا موارد محدودة • فلا شك أنه ينتمى الى فئة ملاكى الأراضى القدماء
 الذين كانت أوضاعهم مزدهرة فى عهد القنانية • وهو يجيد الآداب
 الاجتماعية ، فلا شك أنه خالط المجتمع الراقى ، ولا شك أنه ما يزال
 محافظاً على بعض العلاقات والصلات • غير أن هذا السيد ، وقد صار
 شيئاً بعد شيء الى فقرٍ سببته تذييره فى ابان شبابه ، وفاقمه الغناء نظام
 القنانية فى الآونة الأخيرة ، قد تردى الآن الى حيث أصبح طفيلياً يتنقل
 بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلى به من
 طبع دمث وتربية حسنة ؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله فى
 المآدب على الموائد بصحبة أعلى الناس قدراً وأوسعهم جاهاً ، شريطة أن
 يُعيّن له مكان متواضع بطبيعة الحال • وان الطفيليين الذين هم من هذا
 النوع ، الطفيليين الذين يرجعون الى محتد طيب ويملكون طبعاً حلواً
 ويعرفون كيف يقصون حكايات ويروون نوادر ، ويجيدون المشاركة
 فى لعبةٍ بالورق ، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يُرجون أن
 يقوموا بمثل ذلك ، ان هؤلاء يكونون فى أكثر الأحيان أرامل أو عازبين •
 وقد يكون لهم أولاد ، لكن أولادهم يعيشون دائماً فى بعيد ، تربيتهم عمه أو
 خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها فى المجتمع الراقى كأنه يخجل أن
 تكون له قرابة كهذه القرابة • وبمضى الزمن ينسى هؤلاء السادة أولادهم

تقريباً ، ويتلقون منهم فى أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد ، وقد يردون على هذه التهنئات سرّاً وقد لا يردون •

كان زائر ايفان فيدوروفتش لطيف الهيئة ، ان لم نقل محب الوجه ، يشعر المرء أنه يهتم فى كل لحظة أن يهش ويهش • ولم يكن يحمل ساعة ، ولكنه فى مقابل ذلك يضع على عينه نظارة لها حمالة من صدف ، مربوطة بشريط أسود • وكانت اصبعه الوسطى تزدان بخاتم كبير من ذهب ، له فص من حجر بخس الثمن • تأمل ايفان فيدوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة محاذرة ، ورفض أن يبدأ الحديث • كان يبدو على ضيفه أنه ينتظر ، وكان الضيف يلتزم وضع الاحترام الذى يلتزمه طفلى هبط من الغرفة المخصصة له فى الطابق الأول ليحسو الشاي مع رب الدار وليسليه بصحبته ، حتى اذا رأى رب الدار غارقاً فى تأملاته معتكر المزاج ، أمسك عن الكلام ما لم يبادره بالخطاب رب الدار • ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع فى حديث لطيف كيّس حلو متى أتاحت له الفرصة • وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن هم ، وقال يخاطب ايفان فيدوروفتش :

— اسمع • اعذرني اذا أنا ذكّرتك بهذه النقطة : لقد زرت سمردياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترين ايفانوفنا له ، ولكنك تركته دون أن تطلع على شيء • أغلب الظن أنك نسيت •••

هتف ايفان يقول وقد أظلم وجهه :

— صحيح ، صحيح ، لقد نسيت •••

ثم دمدم يقول وكأنه يتحدث نفسه :

— لا بأس الآن ، سيتم هذا كله غداً •

ثم استأنف يقول فى حنق وهو يلتفت الى زائره :

- أما أنت فاعلم أنني أدركت بنفسى هذا النسيان الذى كانت روحى بسببه قلقة معذبة • ما تدخلك أنت فى الأمر ؟ أتراك تتخيل أنك أنت الذى ذكرتنى مع أنني تذكرت من تلقاء نفسى ؟

قال السيد المهذب وهو يتسم ابسامة عذبة جداً :

- يستوى أن أكون أنا الذى ذكرتك ، وأن لا أكون أنا الذى ذكرتك • لا قيمة لهذا • ولك أن تعتقد بما تشاء • ان الايمان النى يتم بقسر واكراه لا قيمة له • ثم ان البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الايمان ، ولا سيما البراهين المادية • ان القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث ، بل لأنه كان ظامئاً الى الايمان قبل ذلك • انظر مثلاً الى أولئك الذين يدعون الاتصال بالأرواح ••• أنا من جهتى أحبهم كثيراً ••• تخيل أنهم يتصورون أنهم ينفعون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين الى حين • هم يقولون : « ذلك برهان ، مادي فى أقل تقدير ، على وجود العالم الآخر » • فانظر الى هذا التفكير : يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية • ثم ••• هبهم برهنوا على وجود الشيطان ، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً ؟ فى نيتى أن أنتسب الى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشىء فيها حزباً معارضاً • سأقول لهم : « أنا واقعى ، لا مادي » • ها ها !•••

قال ايفان وهو ينهض فجأة بقوة :

- اسمع • يخيل الى أنني الآن أهذى ••• أنا أهذى يقيناً ••• فتكلم واكذب ما شاء لك هواك أن تتكلم وأن تكذب ••• سيات عندى ••• لن تفلح فى اثاره غضبى وغىظى كما فعلت فى المرة الماضية • ولكننى أشعر بخجل وعار ••• لا أدري لماذا ••• أتمنى أن أمشى فى الغرفة ••• هناك لحظات تغيب فيها عنى ، فلا أراك ولا أسمع صوتك ، تماماً كما فى المرة الماضية ، ولكننى أحزر دائماً ما ستقوله لى ، « لأننى

أنا ، أنا وحدي ، الذى أنطق بهذه الأقوال ، لا أنت « ! وانى لأتساءل
من جهة أخرى أأنا نمت فى المرة الماضية فرأيتك فى الحلم ، أم أنت
ظهرت لى فى الواقع أثناء اليقظة ؟ سأعطس هذه الحرقة فى الماء البارد
فأضعها على رأسى • فلعلك تختفى عندئذ •

اتجه ايفان فيدوروفتش نحو زاوية الغرفة ، وتناول فوطة بللها
بالماء ووضعها على جبينه • وأخذ يمشى بعد ذلك فى الغرفة طولاً
وعرضاً •

قال الزائر :

- انه ليسرنى حقاً أن تتخاطب الآن بصيغة المفرد فى غير كلفة
ولا حرج •
فأجابه ايفان ضاحكاً :

- ألا انك لغيبى ! أترك تتخيل أننى سأستعمل الآن ميم الجمع
فى مخاطبتك ؟ أنا فى هذه اللحظة منشرح النفس منطلق المزاج ، غير
أننى أشعر بأوجاع فى صدغى ••• وأشعر بصداع فى رأسى •••
فأرجوك ••• لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت فى ذلك اليوم • اذا لم يكن
فى وسعك أن تغيب ، فتكلم فى أمور فرحة • قصّ علىّ نائم وشائعات •
ذلك يناسبك ويليق بك ما دمت طفيلياً • يا له من كابوس فطيع أن
لا أستطيع التخلص من هذا الشخص ! ولكننى لا أخشاك • سأنتصر
عيلك آخر الأمر • لن أقاد الى مستشفى المجانين •

- أنا طفيلى ؟ أنا ؟ كلام جميل ! حقاً ، ذلك هو دورى فى هذا
العالم • هل أنا فى الواقع الا طفيلى ؟ بالمناسبة : لقد شعرتُ حينُ أصغيت
الى كلامك بشيء من الدهشة والاستغراب • لكأنك أخذت تعذبني شيئاً
واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت فى المرة الماضية بعناد شديد
واصرار قوى •••

هتف ايفان يقول حانقاً :

- ما عددتك شيئاً واقعاً في لحظة من اللحظات • أنت تكذب •
 انك مرضى • ما أنت الا شبح • ولكننى لا أعرف كيف أتحرر منك •
 وألاحظ أن على أن احتمال حضورك زمناً • أنت هلوسة في دماغى
 المتعب المكدود • أنت تجسّد ذاتى ، ولكنك تجسّد جانب واحد من
 جوانب طبيعتى ••• انك تمثل من أفكارى وعواطفى أحطها وأغباها •
 وكان يمكن ، من هذه الناحية ولهذا السبب ، أن يعينى أمرك قليلاً •
 وأن أهتم بك بعض الاهتمام ، لو كان فى وقتى متسع •••

- لحظة ••• سوف أربكك وأفضحك اذا سمحت : منذ قليل •
 قرب مصباح الشارع ، ثرت على أخيك أليوشا صارخاً : « هل علمت
 هذا منه هو ؟ فمن أين علمت أنه يزورنى ؟ » • لقد كنت تقصدنى أنا
 اذن • معنى هذا أنك كنت خلال لحظة قصيرة تؤمن بوجودى ، وتعدنى
 شخصاً موجوداً فى الواقع •

قال السيد ذلك وهو يتسّم ابتسامة لطيفة

- نعم وا أسفاه ! كانت تلك لحظة من ضعف طبيعى جداً •••
 ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وهم • انى لأنساءل
 أنا نمت أم سرت فى الغرفة فى المرة الماضية • فلعلنى لم أرك عندئذ الا
 فى الحلم لا فى الواقع •

- هلاً قلت لى لماذا كنت قاسياً تلك القسوة كلها مع أخيك أليوشا
 منذ قليل ؟ انه فتى لطيف غاية اللطف ! وانى لأشعر بأننى آثم فى حقه
 بسبب حكاية الأب زوسيمما تلك •
 هتف ايفان يقول ضاحكاً :

– أمنك من ذكر اسم أليوشا • كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها
المدنيء !

– تشتمني وتضحك في آن واحد • تلك علامة حسنة • ثم اني
ألاحظ أنك اليوم أرق في معاملتي كثيراً مما كنت في المرة السابقة • انني
افهم سبب هذا : هو ذلك القرار العظيم النييل الذي اتخذته •

زار ايفان يقول وقد عصف به الحق من جديد :

– حذار أن تقول كلمة واحدة عن قراري •

– أفهم ، أفهم كل الفهم • هذا عمل نييل ، هذا عمل رائع • انك
تنوى أن تدافع عن أخيك ، وأن تضحي بنفسك في سبيله ••• هذه
فروسية !•••

– اسكت والا هويت عليك ركلاً بالقدم !

– ركلاً بالقدم ؟ هذا يناسبني من ناحية من النواحي ، وبه يتحقق
هدفي • ذلك أن لجوءك الى استعمال العنف معي سيكون برهاناً على أنك
أصبحت تؤمن بوجودي واقماً لا وهماً • هل يركل أحد شبحاً ؟ ولكن
دعنا من هذه الأمازيح • اشتمني اذا كان يحلو لك ذلك ••• سيان
عندي ••• ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب
والكياسة والتهديب حتى في معاملتي أنا • لقد وصفتني بأنني غبي وبأنني
دنيء ! فما هذه التعابير ! عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ !

عاد يقول ايفان ضاحكاً :

– حين أهينك فانما أهين نفسي • ما أنت الا أنا ••• أنت نفسي ،
أنت روحي ، ولكن في وجه غير وجهي • أنت لا تزيد طول الوقت على
أن تعبر عن أفكارى وتفصح عن خواطرى في نفس اللحظة التي توافيني

فيها هذه الأفكار والحواطر ... أما أن تقول لي شيئاً جديداً لا أتوقعه
فذلك ما أنت عاجز عنه كل العجز !

رداً عليه السيد بوقار يفيض رقة ورهافة :

— اذا كانت الأفكار التي أُعبّر عنها هي أفكارك أنت أيضاً ،
فلا يسعني الا أن أعتز بهذا التوافق بيننا •

— المؤسف أنك لا تختار من أفكارى الا أردأها ، والا أغباها على
وجه الخصوص • أنت غبى ودنى • أنت غبى غباء رهيباً في الواقع •
لا ، لا ، لا أطيع أن أحتمل حضورك ! ما العمل ؟ ما العمل ؟
كذلك هتف ايفان حاتقاً •

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلي ، الى مسكنة واستعدادٍ
لما يجب من تنازلات :

— أما أنا يا صديقي فأحرص على أن أبقى رجلاً مهذباً وأن أعرف
بذلك • صحيح أنني فقير ، ولكن ... دون أن أزعج أنني أشرف من
غيري ... أستطيع أن أقول ان من المسلم به في المجتمع عامة ، كبدية
من البديهيّات ، أنني ملاك سقط • شهد الله أنني لا أستطيع أن اتخيل
كيف أمكن أن أكون في الماضي ملاكاً • وهبني كنت في الماضي ملاكاً ،
فان ذلك يرجع الى عهد يبلغ من البعد أنني 'أعذر اذا أنا نسيته • وكل
ما أحرص عليه الآن هو أن يُعرف عنى أنني رجل لائق محترم ، ثم
أن أعيش كما يمكنني أن أعيش محاولاً أن أسرّ أقراني البشر • آه ...
... انني لأحب الناس حباً صادقاً ، وطالما رُوِّجت في حقى النمام من
هذه الناحية • حين أجد نفسى بينكم وحين أقيم عرَاضاً عند واحدٍ من
أمثالكم ، فان وجودى يتخذ عندئذ صورة محسوسة واقعية ، وذلك
ما يحلو لي أكثر من أى شيء آخر في الأمر كله • ذلك أنني أنا ايضاً

مصائب مثلك بخيال مضطرب مختل ، ولهذا اقدر واقعتكم الأرضية
السليمة حق قدرها • ان كل شيء في نظركم محدد تحديداً دقيقاً ، وان
كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة ، فالهندسة هي الظاهرة
المنتصرة • أما عندنا !...••• أما نحن ••• فاننا نظل نتيه الى الأبد في
معادلات غير محددة • أنا هنا أحلم وأتنزه • ما أكثر ما أحب أن أحلم •
ثم اننى متى وجدت على الأرض أصبحت أوّمن وأصدق الأوهام •
لا تسخر منى ، أرجوك : لشد ما يحلو لى أن أوّمن بالخرافات وأن
أصدق الأوهام • اننى أعود جميع عاداتكم فى هذه الحياة الدنيا • لقد
أصبحت أحب الاختلاف الى الحمامات العامة ، وأصبح يحلو لى أن أجد
نفسى فى حمام البخار بين التجار والقسس • ان أخفى رغبة تجيش
فى نفسى هى أن أتجسد (ولكن تجسداً نهائياً لا عودة عنه) فى تاجرة
سمنية بدينه تزن مائة كيلوغرام ، وأن آخذ أوّمن بكل ما تؤمن به :
وسيكون مثلى الأعلى عندئذ أن أدخل كيسة فأسعل شمعة باندفاعه
صادقة من القلب • سيكون ذلك خاتمة آلامى وتباريحى • وانى لأجد
لذة كبيرة كذلك فى أن أداوى كما تُداوون • فى هذا الربيع انتشر
فى البلاد وباء الجدري ، فذهبت التمس أن ألقح كسائر الناس •
لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة فى ذلك اليوم • حتى
لقد تبرعت فى تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة اخوتنا السلافيين
المضطهدين !...••• ولكنى ألاحظ أنك لا تصغى الى كلامى •

وأضاف السيد المهذب يقول بعد لحظة من صمت :

— انك تبدو لى مريضاً جداً ، هل تعلم ؟ وأنا أعرف أنك ذهبت
الى الطبيب امس ••• فماذا قال لك الطبيب ؟ كيف حال صحتك ؟
فقطع ايفان أسئلته قائلاً :

– أبله !

– أما أنت فذكى جداً • لقد عدتَ الى الفظاظَة : أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف معك والمودة لك ، وانما لأقول أى شىء • لا تجبني ان نشئت • لقد أصبحت أوجاع الروماتزم موضة ***
كرر ايفان يقول :

– أبله !

– أبله اذا شئت • ولكن هذا لا ينفى أننى 'أصبت فى السنة الماضية بأوجاع روماتزم ما زلت أتذكرها حتى هذا اليوم •
– دعك من هذا الكلام ! هل يمكن أن يعانى شيطان آلام روماتزم؟
– لمَ لا يمكن ذلك ، ما دمت أتجسد أحياناً ؟ اننى اقبل جميع نتائج تجسداتى • « أنا شيطان ، ولا شىء مما هو انسانى غريبٌ عنى » * •
– كيف ؟ ما هذا الذى تقول ؟ « انا انسان ولا شىء مما هو انسانى *** » ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله شيطان !
– يسعدنى أن أحظى أخيراً برضاك عنى واكرامك لى •

قال ايفان فجأة وقد توقف عن المشى ، كأنما دهش وذُهل :
– ولكنك لم تستعر هذه العبارة منى أنا ! ان هذه الجملة الذكية لم تخطر ببالى فى يوم من الأيام ! هذا عجيب مع ذلك ***
– كلام فيه جدة وطرافة ، أليس كذلك ؟ على أننى سأكون أميناً شريفاً فى هذه المرة ، فاشرح لك هذا اللغز *** كثيراً ما يحدث فى الأحلام ، ولا سيما فى الكوابيس – كتلك الكوابيس التى تنشأ عن اضطراب فى المعدة مثلاً ، أو عن أى سبب آخر – أن تخطر أمام البصر مشاهد فنية جداً ، أن تخطر أمام البصر قطع " حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً مركباً معقداً ، أحداث وحتى سلسلة " من أحداث تربط

بينها وتشد بعضها الى بعض فكرة موجّهه ، وتملؤها تفاصيل غير متوقعة ، تتراوح بين أعلى تجليات الوجود الانساني كما تقولون ، وبين أحقر السفاسف التافهة ، كزر كمٍ مثلاً . ان القصص التي يعيشها المرء على هذا النحو في الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليون تولستوى نفسه لا يستطيع أن يتخيلها . ومع ذلك فليس الكتاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع ، وانما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادى جداً ، أناس ليسوا أكر من موظفين أو صحفيين أو قسس والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتلقى سؤالاً : لقد صرّح لي وزير في ذات يوم أن أخصب الأفكار انما توافيه عادةً وهو نائم . ذلك بعينه هو ما يحدث لك في هذه الساعة . مهما أكن مجرد هلوسة صادرة عن دماغك ، فهذا لا ينفي أنني أقول أشياء فيها جدة وطرافة وأصالة ، كما يقع ذلك في كابوس . فأنا لا أردد اذن أفكارك . أنت ، ومع ذلك لست الا كابوسك لا أكثر .

— كذبت ! ان هدفك هو أن تقنعني بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكرى . ثم هانت ذا تعلن أنت نفسك أنك لست الا حلماً .

— اعلم يا صديقى أنني قد اصطنعت اليوم اسلوباً جديداً وتبنت طريقة جديدة . سأشرح لك هذا في المستقبل اذا واثت فرصة . لحظة . . . الى أين وصلت من حديثى ؟ ها . . . نعم . . . قلت لك اننى أصبت ببرد . ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض ، وانما حدث هناك أيضاً . . .

— هناك ؟ أين ؟ قل لي : هل تنوى أن تمكث عندي زمناً طويلاً أيضاً ؟ ألا تركتني أخيراً ؟

كذلك هتف يقول ايفان وقد كاد يبلغ ذروة الكرب واليأس .

وكفَّ عن المشي وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على المائدة ،
ضاغطاً رأسه ضغطاً قوياً * ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها
بحركة أسف وحسرة : لم تنفعه هذه الوسيلة فى شيء * .

قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن فيها كثير من المودة :
- أعصابك مهدودة * ثور علىّ لأننى أصبت ببرد ، مع أن هذا قد
حدث لى على نحو طبيعى جداً * كنت قد وصلت الى حفلة استقبال
دبلوماسية أقامتها سيدة عظيمة من سان بطرسبرج تستقبل شخصيات
كثيرة ذات نفوذ ، وتكاد ترى أنها لاتقل خطورة شأن وعلو منزلة ورفعه
جاء عن وزير من الوزراء * كنت مرتدياً اذن ثياباً رسمية مع كرافته
بيضاء وقفازين * ولكننى كنت قد تأخرت ، لأننى اضطررت أن أذهب
قبل ذلك الى مكان ما ، فكان علىّ حتى أصل اليكم على الأرض أن أقطع
فضاوات واسعة بين الكواكب * * * المسألة مسألة ثوان طبعاً * * * ومع
ذلك تعلمون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثمانى دقائق حتى تصل
الى الأرض * كنت اذن - لا تنس هذا - ارتدى ثياباً رسمية مع صديرة
مفتوحة جداً * ان الأرواح لا تتجلد من البرد ، هذا معروف * غير أن
تجسد الروح يعرضها أحياناً لبعض العواقب السيئة * الخلاصة أننى
ارتكبت فى ذلك المساء شيئاً من الطيش والخفة حين مضيت فى طريقى
الى الأرض مرتدياً تلك الثياب * ولينك تعلم ما أشد البرد فى تلك
الفضاوات ، فى الأثير ، هذا السائل * * * انه برد فظيع ، برد لا يكفى
أن نقارنه بالصقيع هنا * الصقيع ؟ هه * * * تصور أن درجة البرودة
كانت مائة وخمسين تحت الصفر ! ان بنات قراكم قد تخيلن مزاحة شائعة
جداً * فحين يشير الترمومتر الى الثلاثين تحت الصفر ، يطلبن من فتى
ساذج غير ذى خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس ، فاذا بلسانه يتجلد
فوراً ، واذا بالفبى يسليخ جلد اسانه لينترعه من الحديد * هذا اذا كانت

درجة البرودة ثلاثين فحسب * أما اذا بلغت مائة وخمسين ، فأحسب أنه
يكفى أن تقترب الاصبغ من الفأس حتى تزول *** شريطة أن يكون
فى الأثير فأس طبعاً ***

سأله ايغان ذاهلاً بلهجة متقرزة :

– هل يمكن أن يكون فى الفضاء فأس ؟

كان ايغان يشد جميع قواه فى سبيل أن لا يصدق أنه يهنى ،
وذلك حتى لا يتردى الى الجنون نهائياً *

سأله الزائر مدهوشاً :

– فأس ؟

فهتف ايغان يقول فجأة بعناد غاضب :

– نعم نعم ، ما عسى يحدث للفأس هناك ؟

– ما عسى يحدث للفأس فى الفضاء ؟ يا لها من فكرة عجيبة *
لو رُميت الفأس الى مسافة بعيدة جداً عن الأرض ، فأظن أنها ستأخذ
تدور حول سيارتكم هذه دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين
المستقر ، كما يحدث لتابع من التوابع ، كما يحدث لقمر من الأقمار ؛
وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً ؛
وسيدوّن جاتسوك ذلك فى التقاويم * ، وهذا كل شيء *

قال ايغان مغناظلاً :

– أنت غبى ، غبى غباءً فظيماً * حاول أن تكذب كذباً ذكياً على
الأقل ، والا كفتت عن الاستماع لك * انك تحاول أن تقنعنى عن طريق
الواقعية فى كلامك ، وأن تجعلنى بذلك أسلم بوجودك * ألا فاعلم أننى
لا أريد أن أسلم بهذا ، اننى أرفض أن أصدقه ! لن أصدقه !

– أنا مع ذلك لا أكذب • ان كل ما أقوله حق • من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة فى يوم من الأيام • أنت مثلاً تتوقع منى ، فيما الأحظ ، أفكاراً خارقة ، وربما رائعة • يؤسفنى هذا كثيراً ، لأننى لا أستطيع أن أعطى الا ما أملك •••

– دعك من التفلسف يا حماراً أبله !

– أفتظن اذن أننى اشتهى أن أتفلسف والجنب الأيمن كله من جسمى يكاد يكون مشلولاً ؟ ألا انى لأتمنى ، بدلاً من ذلك ، أن أئن وأتوجع ! لقد استشرتُ عدداً كبيراً من الأطباء : انهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض ، ويشرحونه بأدق التفاصيل ••• أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه • حتى لقد أتيت لي فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب ، فقال لي فرحاً : « هيك مت من هذا المرض ••• لسوف يتيح لك ذلك فى أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذى أماتك » • وانظر بعد ذلك الى طريقتهم تلك فى ارسالك الى اخصائين حين يقولون لك : « مهمتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض • بقى عليك الآن أن تذهب الى الاخصائى فلان أو فلان ، فهو الذى سيشفيك » • واحسرتاه ! ان الطبيب الجيد القديم الذى عرفناه فى الزمان الماضى وكان يداوى من جميع العلل والأسقام قد اخفى تماماً ، تماماً ، وأكد لك !••• لم يبق اليوم الا الاخصائون ، والصحف ملأى بالاعلانات عنهم • اذا شعرت بآلام فى الأنف ، أرسلوك الى باريس : يظهر ان فى باريس اخصائياً له شهرة فى أوروبا كلها ، يعرف معرفة رائعة كيف يعالج كل ما له علاقة بالأنف • وتذهب الى باريس فيفحص الاخصائى أنفك ، فيقول لك : « أنا لا أستطيع أن أشفى الا منخرك الأيمن ، لأننى لا أهتم أبداً بالمنخر الأيسر ، فهو لا يدخل فى دائرة اختصاصى • فعليك بعد اتباع معالجتى أن تذهب الى فيينا حيث يوجد اخصائى حاذق جداً

سيفعل لك ما يجب فعله لمعالجة منخرك الأيسر » • ما العمل فى هذه الحالة ؟ لجأت عندئذ الى استعمال الأدوية التى تنصح بها النساء العجائز • وصف لى طبيب أن أدلك جسمى بعد الحمام بمزيج من عسل وملح • ذهبت الى الحمامات العامة لا لشيء الا لاستمتع بوجودى مرة فى حجرة البخار ، وهنالك وسّخت جسمى بذلك المزيج اللزج الذى لم يجدنى نفعاً • فلما يئست كتبت الى الكونت ماتشى فى ميلانو : فأرسل الى نشررة وقطرة • غفر الله له ! تخيّل أن مستحلب الشعير الذى ينتجه هوف هو الذى شفانى تقريباً • كنت قد اشتريته عرضاً ، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأبى شفيت ، حتى لقد اشتيت أن أرقص • زالت أوجاعى كلها • فحلفت لأنشرن فى الصحف رسالة شكر أطرى فيها مزايا هذا الانتاج • كان يدفعنى الى ذلك شعور صادق بالامتنان ، ولكن لهذا قصة جميلة جداً ! تخيل أننى لم أجد جريدة واحدة ترضى نشر نثرى ••• قالوا لى : « ان تصرّيحك هذا يتصف بشيء من الرجعية • ثم ان أحداً لن يصدقك • فالشيطان لا وجود له » • ونصحت بأن أنشر شكرى فى رسالة لا تحمل اسم صاحبها • ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه ؟ مازحت موظفى مكاتب تلك الجرائد ، فقلت لهم : « ان الايمان بالله هو الذى يمكن أن يعد شيئاً رجعيّاً فى زماننا هذا • أما أنا الشيطان ، فانه مباح تماماً أن أصدّق » • فأجابونى بقولهم : « اننا نفهمك حق الفهم • فمن ذا الذى لا يؤمن بالشيطان ؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك ، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذى تلتزمه جريدتنا • اللهم الا أن تريد أن تسبغ على رسالتك طابع الهزل ! » • قلت لى : « لا بد أن يخلو الأمر من روح الفكاهة اذا هو جعل هزلاً » • وهكذا لم يكتب لشكرى أن يظهر فى الصحف • هل تصدق ؟ وقد بقيت هذه الحكاية تثقل على قلبى • ان أنبل عواطفى ، كعاطفة الشكران مثلاً ،

قد حُكِمَ عليها أن تظل مكتومةً لا أفصح عنها ، دونما سبب غير وضعي
الاجتماعي •

قاطعها ايغان مغناطياً يقول :

— هانت ذا تسترسل في التفلسف من جديد !

— وقانا الله شر التفلسف • أنا لا أتفلسف البتة ، وانما ينبغي أن
يجوز للمرء أن يشتكى من حين الى حين • أنا كائن تُقال في حقي نمائم
خطيرة • لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي • هذا موقف يقفه شاب •
اعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهم شيء • لقد ولدت طيب السريرة
مرح الطبع • « وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية » * • يبدو أنك تعذني
هلستاكوفاً دبّ فيه الهرم ، مع أن لمصيري شأننا أخطر من ذلك كثيراً •
انني بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه ، لأنه كُتِبَ عليّ قبل خلق هذا
العالم ، أن أظلل « أجدد » بغير انقطاع ، أن أجدد كل شيء ، مع
مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية طيب القلب عاجز عن الانكار المنظم
المذهبي • « لا مفر • يجب عليك أن تنكر وأن تجدد رغم كل شيء •
فبدون انكار لا يكون نقد ، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من
زاوية موقوفة على النقد • ان الكون لن يكون بغير النقد الا تسييحاً متصلاً
مستمراً • ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على تسييح الله فقط ، وعلى
تمجيد خلقه فحسب • لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن
يمر بحفرة الشكوك * ، وهلم جراً ••• » على أنني لا أطمع في أن أقضي
برأى في هذا النظام ، فلست أنا من تخيله ووضعته ، ولست مسئولاً عنه
البتة • كل ما هنالك أنني جعلت كبش فداء ، وأمرت أن أقوم بوظيفة
ناقدٍ أبدي • على هذا النحو انما نشأت الحياة الأرضية • اننا نحن أيضاً
نشعر شعوراً كاملاً بدناة هذه المهزلة التي أريد لنا أن نمثلها • واني
من جهتي أطلب بأن أستطيع الارتداد الى العدم • فأجاب : « بل يجب

عليك أن تحيا ، فبدونك لن يجرى أمر • اذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً ، لما حدث ما فى الأرض شئ البتة • بدونك لن يكون ثمة أحداث ، وهل عن الأحداث غنى ؟ • أنا اذن أقوم بوظيفتى وأحقق مهمتى محطّم القلب مهدود النفس ، من أجل أن يكون ثمة أحداث ، وأشيع الضلال فى هذا العالم بأمرٍ أعلى • والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة مأخذ الجحد ، رغم ما وهب لهم من ذكاء عظيم • وذلك هو ما يجعل مصيرهم فاجعاً ، وحياتهم أليمة • انهم يتعذبون عذاباً لا نهاية له ••• هذا صحيح ••• ولكنهم فى مقابل ذلك يحيون ••• يحيون حياة واقعية ، لا وهمية • لأن العذاب هو الحياة • ما عسى تصير اليه الفرحة بالحياة فى هذا العالم اذا لم يوجد الألم ؟ لن يكون هنالك عندئذ الا نشيد متصل ولطف لا ينتهى • وذلك شئ نبيل جداً ، مقدس جداً ، ولكنه باعث على أشد الملل وأعرق السأم • وأنا ؟ أنا أيضاً أتألم ، ومع ذلك لا أحيأ • أنا حرف «س» فى معادلة غير ذات حدود • أنا شبح ، أنا طيف أضاع فكرة الزمان وانتهى حتى الى نسيان اسمه الحقيقى • أتضحك ؟ لا ••• أنت لا تضحك ••• وانما تغضب من جديد • انك تغضب دائماً • انك لا تريد أن تسمع الا أشياء فيها ذكاء • ولكننى أعود فأقول لك : اننى مستعد لأن أتنازل ، راضياً ، عن حياتى السماوية فى الفضاءات فوق الكواكب ، وعن جميع امتيازاتى العالية وألقابى الرفيعة ، فى سبيل أن أستطيع التجسد فى نفس بائعةٍ تزن مائة كيلو وتقدم شموعاً للرب بسداجة وبراعة •

سأله ايغان وهو يتسّم ابتسامه كره :

- هل معنى هذا أنك أصبحت لا تؤمن بالله أنت أيضاً ؟

- بم أجيبك ؟ اذا كنت تلقى علىّ هذا السؤال جاداً •••

صاح ايغان يسأله بعناد حائق :

– هل الله موجود أم هو غير موجود ؟

– ها ••• أنت جاد" اذن ؛ نسهد الله يا بني العزيز أننى أنا نفسى لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً • وتلك قولة كبيرة أفلتت منى •••

– كيف لا تعرف عن هذا الأمر شيئاً مع أنك ترى الله بعينيك ؛ لا ، لا ، ليس لك وجود واقعى ؛ أنت أنا ••• ما أنت الا أنا ، ما أنت الا أنا ••• أنت دخان لا أكثر ، أنت ثمرة خيالى أنا •••

– بل قل ان فلسفتى هى فلسفتك • ذلك أصوب • « أنا أفكر ، فأنا اذن موجود » * ، تلك هى القضية الوحيدة اليقينية • أما كل ما عدائى ، أما كل ما حولى ، أما جميع تلك العوالم البعيدة ، أما الله ، وحتى الشيطان ، أما كل ذلك فلست أملك برهاناً على وجوده ، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة واليقين أهذه وفائع موجودة بذاتها ، أم هى صادرة عن فكرى تحقّقاً مادياً تدريجياً للأنا ، لهذه الأنا التى لا يكون عندئذ وجود لسواها ، والتى تكون قد وجدت منذ الأبد ••• جملة القول ••• ولكنى أمسك عن الكلام ، أمسك عن الكلام ، لأننى أرى أنك تهتم أن ترتضى علىّ لتشبعنى ضرباً •

قال ايفان بلهجة فيها ألم :

– خير من هذا الكلام كله أن تروى لى نادرة فكهة أو نكتة

• مسلية •

– أعرف نادرة تتصل بموضوع حديثنا • والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الأصلى ، بل هى الى الأسطورة أقرب • انك تأخذ علىّ امتناعى على التصديق ، ويدهشك أن ترانى لا أؤمن بالأسرار التى أبصرها بعينى • فاعلم اذن أن هذه الحالة ليست حالتى وحدى ، وأنا جميعاً ، نحن معشر الذين نعيش فى المناطق السماوية ، تهزنا روح الاضطراب

والقلق ، وذلك بسبب اكتشافاتكم العلمية اللعينة • انكم حين تقتصرون على تحليل العالم بالجواهر الفردة ، والحواس الخمس ، والعناصر الأربعة ، يظل الأمر مقبولاً بعض الشيء • ثم ان الافدمين كانوا يعرفون الجواهر الفردة • ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التي تقول انكم قد اكتشفتم الذرة الكيماوية ، والبروتوبلازما ، وما لا أدري أيضاً ، فان أصحابنا قد شدوا على أذناهم بسيقانهم ، وحدث في صفوفنا اضطراب نفسي شديد ، وأصبحنا في فوضى شاملة وسديم كامل ، وانتشرت في بيئتنا الخرافات والأوهام ، وازدهرت الأقاويل والنمائم • لاحظ أن عندنا نمائم بقدر ما عندكم وأكثر • ومنذ ذلك الحين أخذت الوشايات والسعايات تميث فساداً في أرجائنا السماوية • يجب أن تعلم ، في هذه المناسبة ، أن عندنا نحن أيضاً « شعبة خاصة » ، أن عندنا نحن أيضاً « مخبرات » تجمع بعض « المعلومات » ••• والأسطورة التي سأرويها لك يرجع عهدها الى قروننا الوسطى - أقول قروننا الوسطى نحن ، لا قرونكم الوسطى أنتم - وهي أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن ، باستثناء البائعات السمينات اللواتي يزننّ مائة كيلو ، لا البائعات السمينات اللواتي عندكم أنتم ، بل اللواتي عندنا نحن • ان كل ما يوجد في الأرض يوجد أيضاً في عالمنا • ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة ، رغم أن هذا محظور علينا • والأسطورة التي سأرويها لك تتعلق بالجنة : يُقال انه كان يعيش على أرضيكم في ذات زمان فيلسوف « ينكر كل شيء » ، ينكر القوانين والشعور والايمان * ، ويرفض خاصةً أن يسلم بوجود الحياة الآخرة • وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب في غياب العدم ، فاذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة • كانت دهشته من ذلك عظيمة ، وأعظم منها كان استياؤه • صاح يقول : « لست أريد الحياة الآخرة هذه ، لأنها تخالف عقيدتي » • فحوكم

وحكم عليه بسبب هذه القولة الطائشة معذرةً إذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قصت على وما هذه. الا أسطورة على كل حال ما هذه الا أسطورة على كل حال حكم على الرجل بأن يقطع في الظلمات ، سيراً على الأقدام ، مسافة كادريون كيلومتر (ان كل شيء يعدُّ عندنا الآن بالكيلومترات) ، وبعد ذلك تُفتح له أبواب الجنة ، ويُغفر له كل شيء

قاطعها ايغان سائلاً بانتعاش قوى وحرارة شديدة :

- ما هي أنواع العذاب التي يمكن أن يتحملها الانسان في الحياة الآخرة ، عدا هذا الكادريون من الكيلومترات ؟

- ما هي أنواع العذاب ؟ آه اننى لا أحدث نفسى بهذا ! فى الماضى كان الأمر ما يزال معقولاً ، وكنا نعرف أنواعاً من العذاب . أما الآن فقد اعتقدوا أن عليهم أن يلغوها وأن يستبدلوا بها تباريح روحية ، أن يستبدلوا بها « آلام الضمير » ، وخزعبلات من هذا النوع . لقد استوردنا هذا من عندكم ، وهو ثمرة من ثمرات ما وصلت اليه عاداتكم وأخلاقكم من « لطف ورقة » . فمن ذا الذى جنى من هذا النظام فائدة ، فى رأيك ؟ ان الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه . أننى لهؤلاء أن يعرفوا « آلام الضمير » وليس لهم ضمير ؟ وفى مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التي احتفظت بشيء من الاستقامة والشرف والأمانة أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم ! ذلك ما يحدث حين يراد ادخال اصلاحات فى تربة لم تنهياً لقبولها ، وحين تقلد أنظمة أجنبية تقليداً أعمى . أمر يستحق الرثاء ! ألا ان نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا . ولنعمد الى فيلسوفكم الذى حكم عليه بأن يقطع مسافة كادريون كيلومتر : انه لم يزد على أن رفع كتفيه غير مبالٍ ، ثم رقد على الطريق بالعرض قائلاً : « أرفض أن أمشى ،

حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ ! » • خذ نفس ملحدٍ روسي مثقف ،
وامزجها بنفس النبي يونس الذي لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث
ليال يلعن حظه ، تخرج من ذلك الحالة النفسية لصاحبنا المفكر هذا
الذي رقد على الطريق بالعرض مصراً معانداً •

- على أي شيء رقد ؟

- لا بد أنه كان هنالك شيء رقد عليه • أصبحت لا تضحك الآن؟

هتف ايفان يقول وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة
(وكان يصغى الآن بنهمٍ غير متوقع) :

- مرحي لذلك المفكر ! مرحي ! ألا يزال راقداً على الطريق
بالعرض حتى الآن ؟

- لا • لبث على ذلك الوضع قرابة ألف سنة ، ثم عاد ينهض وأخذ
يمشي •

صاح ايفان بضحكة عصبية :

- يا له من حمار !

ثم بدا على ايفان أنه يفكر تفكيراً عميقاً ، ثم استأنف كلامه فقال :
- ولكن أليس يستوى ، على كل حال ، أن يبقى راقداً الى الأبد
وأن يقطع مسافة كارديون كيلومتر ؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك
الى بليون سنة ، أليس كذلك ؟

- أكثر أكثر ! لو كان معي قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب
بسرعة • على كل حال ، لا قيمة لهذا ، ما دام قد انتهى من قطع هذه
المسافة منذ زمن طويل • وعند ذلك انما تبدأ النادرة أو النكتة •

- انتهى من قطع المسافة ؟ كيف هذا ؟ من أين جاء بليون سنة ؟
 - أنت تدهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم +
 والواقع أن هذه الأرض لعلها قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل
 وجودها الحالي + وهى فى كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت
 فى كل اتجاه ثم تحللت وارتدت الى عناصرها الأولى ، فساد ملكوت
 المياه من جديد ، ثم ظهر مذنب جديد فشمس جديدة ولدت بدورها
 أرضاً + وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له من المرات بهذه المراحل
 نفسها وهذه التفاصيل ذاتها + ذلك ضجر قاتل بغير حياء +++
 - طيب ، فماذا حدث حين انتهى من قطع مسافة الكارديون
 كيلومتر ؟

- لم يحدث أى شىء خارق + 'فتحت له أبواب الجنة فدخلها ، فما ان
 انقضت على دخوله ثانيان - ثانيان عدّهما والساعة فى يده ، نعم
 والساعة فى يده ، 'ألح على هذا (رغم أن ساعته لا بد أن تكون فى رأى
 قد فسدت فى جيبه أثناء رحلته) - أقول ما ان انقضت على ذلك ثانيان
 حتى هتف قائلاً ان هاتين الثانيةين لا تعدل قيمتهما مسافة الكادريون
 كيلومتر فحسب ، بل تعدل قيمتهما كادريون الكادريونيات مرفوعة الى
 أس الكادريون أيضاً + الخلاصة أنه قد أخذ يرتل تسيخته ، وبلغ من
 الغلوّ فى التسيخ والحمد أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً
 وأرفع نبلاً ، قد رفضوا فى الآونة الأولى أن يصفحوه ، لاعتقادهم بأنه
 قد بالغ فى الانحدار الى حضيض النزعة المحافظة + تلك هى طبيعة
 الروس + ولكننى أعود فأكرر لك أن الأمر أمر أسطورة أروبيها لك على
 علائها + تلك هى المفاهيم السائدة عندنا اليوم فى هذه الشئون +
 هتف ايفان يقول بفرح يشبه أن يكون فرح طفل ، كأنه قد تذكر
 فى هذه اللحظة شيئاً ما على حين فجأة :

- ضبطتلك ! ان هذه النكتة التي ترويها عن الكادريون من السنين
 انما اخترعتها أنا نفسي • كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري ،
 وكنت في المدرسة الثانوية ••• تخيلت هذه النكتة وقصصتها في تلك
 الأونة على رفيق من رفاقي اسمه كوروفكين • كان ذلك في موسكو ••
 ان هذه النكتة تبلغ من تميز أفكارى بها أنني ما كان لي أن أستمدتها
 من غير أفكارى هذه ••• ولكنني نسيتها بعد ذلك الزمان ••• وقد
 عاودت ذاكرتي الآن على غير شعور مني • فأنا الذي تذكرتها اذن ، ولم
 تقصصها عليّ أنت ! انه ليحدث هكذا أن تنبجس من النسيان طائفة من
 الأشياء بغتة عند الانسان حين يُقاد الى التعذيب أو حين لا يزيد على أن
 يحلم وهو راقد في سريره • فما أنت اذن الاحلم ، ما أنت الا صورة
 فكري وليس لك وجود واقعي •

قال السيد الراقى وهو يضحك مشرق المزاج :

- اننى ألاحظ من جموحك العاطفى فى انكار وجودى أنك تؤمن
 بى مع ذلك •

- أنا ؟ أو من بك ؟ أبداً ••• أنا لا أو من بك البتة ، أنا لا أو من
 بك حتى ولا جزءاً من مائة جزء من الايمان !

- ولكن ربما آمنت بى جزءاً من ألف جزء ! ان المقادير الصغيرة
 فى الأدوية التى تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هى الأقوى أثراً •
 هلاًّ اعترفت ، هلاًّ اعترفت بأنك تؤمن بى ، ولو جزءاً من عشرة آلاف
 جزء مثلاً !•••

هتف ايفان يقول :

- ولا لحظة من اللحظات !

ثم أضاف بعد ذلك بصوت ترقق ترققاً غريباً :

– لكننى أود لو أوّمن بك •

– عظيم، هذا اعتراف له قيمة كبيرة ! اعلم اننى طيب القلب واننى أريد أن أهبّ الى نجدتك • اسمع : أنا الذى ضبطتك ، لا أنت الذى ضبطتنى • لقد تعمدت أنا أن أروى لك نكتتك التى كنت قد نسيتهما ، وانما فعلت ذلك بغية أن أقودك الى أن تشك فى شكاً نهائياً •

– كاذب ! أنت انما ظهرت لى لتقنعنى بوجودك •

– صحيح • ولكن اعلم أن الشكوك والقلق الذى تحدثه هذه الشكوك ، اعلم أن الصراع بين الايمان وعدم التصديق يمكن أن يورنا الانسان الذى يملك شعوراً مرهفاً مثلك عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شتقاً خير منها • ولما كنت أعلم أنك تؤمن بى قليلاً ، فقد زرعت الشك فى نفسك برواية تلك النادرة لك • فبذلك أقودك من الايمان الى الشك ومن الشك الى الايمان مرة بعد مرة على التناوب • وحين أفعل ذلك فانما أهدف الى غاية • وأنا أطبّق هنا منهجاً جديداً : فمتى نسكت فى وجودى شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لى على اننى است احلماً وعلى أننى غير موجود فى الواقع • ذلك اننى أعرفك • فهذه الوسيلة أكون قد حققت هدفى ، وهو فى الحقيقة هدف نبيل جداً • فأنا انما أرمى فى الواقع الى أن أضع فى نفسك بذرة ايمان متواضعة فاذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة فى المستقبل ، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش فى حماها حياة ناسك وقديس • والحقيقة أن هذه هى رغبتك الخفية المستسرة المكتومة منذ زمن طويل • ولسوف تتحقق هذه الرغبة يوماً ، فتتغذى بالجراد ساعياً الى الخلاص فى الصحراء •

– يا لك من سقى ! أفى سبيل خلاص روحى انما حملت نفسك

اذن هذا العناء كله ؟

- لا بد لي ، أنا أيضاً ، من أن أقوم بعمل خير من حين الى حين •
ولكننى أرى أنك تغضب ، تغضب غضباً يا له من غضب !•••

- مهرج ! هل أغريتهم وأغويتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون
بالجراد ويقضون في الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يصلون وتغطيهم
الطحالب ؟

- ذلك هو عملي الرئيسي يا صديقي العزيز • ما أسهل أن ينسى
أحدنا الكون وعوالمه التي لا تعد ولا تحصى من أجل أن يتعلق بواحد
من أولئك الرجال ، لأنهم في نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً • ان نفساً
واحدة من هذا النوع تعدل في بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه •
لدينا في هذا الشأن جدول أسعار • ان نصراً نحققه على واحد من هؤلاء
الرجال لهو في نظرنا ذو قيمة عظيمة • أؤكد لك أن بينهم أناساً
لا يقلون عنك ثقافة وذكاء ، رغم أنك لا تريد أن تسلّم بهذا ، أنا أعرف
ذلك ••• وهم قادرون على أن يسبروا ، في لحظة واحدة بعينها ، أعماقاً
من الشك والايمان ، حتى ليحسب المرء في مثل تلك الهنيهات أنهم
يوشكون أن يسقطوا « وأرجلهم في الفضاء » على حد التعبير الذي يجبه
جوربونوف * •

- طيب ؟ وفي كل مرة تعود الى نقطة البداية شاعراً بالخزي من أنك
طويل الأنف فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

أجاب الزائر بلهجة الواعظ :

- يا صديقي لأن ينصرف المرء طويل الأنف خير في بعض الأحيان
من أن ينصرف بغير أنف البتة ، كما قال ذلك في الآونة الأخيرة مركز
مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعى (أغلب الظن أن المركز كان قد عهد
بأنفه الى عناية اخصائى) • هتف المركز يقول وهو يلطم صدره : « رُدَّ

الىّ أنفى » ، فقال له الكاهن الطيب هامساً : « يا بنى ، ان أوامر الله لا يُسبَرُ غورها ولا تدرك حكمتها أحياناً • فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وان لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً • لكن شاء حظ قاس أن يحرمك من أنفك ، ان فى ذلك لميزة واحدة على الأقل ، هى أن أحداً لن يجروء بعد الآن أن يجرك من طرف أنفك » ، فاستأنف المريض اليأس كلامه قائلاً : « ذلك عزاء هزيل ! • لسوف يسرنى ويسعدنى ويفرحنى أن أُجرَّ كل يوم من طرف أنفى ، شريطة أن يكون أنفى فى مكانه » ، فأجابه الكاهن متتهماً : « يا بنى ، لا يمكن أن يملك المرء جميع النعم والخيرات فى آن واحد ؛ وان الأمنية التى أفصحت عنها الآن لهى فى حد ذاتها معصية لله الذى ما نسيك فى هذه الحالة ، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجرَّ كل يوم من طرف أنفك ، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة ، فانما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مباشر : انك اذ فقدت أنفك قد احتفظت به مع ذلك ، بالمعنى المجازى ••• » •

صاح ايفان قائلاً :

– ما أغبى هذا الكلام !

– يا صديقى ، انما كانت غايى الوحيدة حين رويت لك هذه النادرة هى أن أسلِّك وأضحكك • ولكنى أحلف لك أن هذا مثال على الجدل اللاهوتى الذى يمارسه اليسوعيون • ان هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً ، كلمة كلمة • وهو حالة وقعت فى الآونة الأخيرة وأحدثت لى متاعب جمّة وأورثتني هموماً كثيرة • ان ذلك الشاب المسكين الذى حدثت عنه قد انتحر فى تلك الليلة نفسها حين عودته الى البيت بعد الاعتراف • وقد لبث بقربه الى آخر لحظة ••• أما كراسى الاعتراف لدى اليسوعيين فاننى اختلف اليها كثيراً ، وتلك فى الواقع

تسليية من تسليياتى المفضلة ، حين يوافقينى ضجر ويلم بى سأم وحزن •
 وسأقص عليك الآن حالةً أخرى يرجع عهدا الى بضعة أيام خلت •
 استقبل كاهن يسوعى عجوز على كرسى الاعتراف فتاة شقراء ،
 نورماندية ، صبية فى العشرين من عمرها ، جميلة يفتن جمالها العقل •••
 أما جسمها فان لعابى ليسيل حين أتصوره • ولها عدا هذا طبيعة من تلك
 الطبايع ••• ما شاء الله ••• جثت على ركبتيها ، ودمدمت تعترف
 بخطيئتها من خلال القضبان • هتف الكاهن الصارم يقول : « هل يمكن
 حقاً ، يا ابنتى ، أن تكونى قد سقطت من جديد ؟ أوه ! يا مريم العذراء !
 ماذا أسمع ؟ مع رجل آخر ؟ الى أين تمضين يا بنيتى ؟ ألا تستحين ؟ » ،
 فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها فى الدموع ندماً وحسرة : « آه
 يا ابتاه ! ان ذلك يحدث له هو لذة عظيمة ، ولا يحدث لى أنا الا ألبأ
 قليلاً ! » • جواب عظيم ، هه ؟ ما رأيك ؟ لقد دهشت أنا نفسى من هذا
 الجواب • كانت تلك صبيحة الطبيعة ••• بدا لى ذلك أظهر من البراءة
 نفسها • غفرت لها خطيئتها فوراً ، وبينما كنت أهم أن أنصرف ، رأيتنى
 اضطر الى أن أعود أدراجى : فقد سمعت الكاهن يتواعد مع الفتاة من
 خلال القضبان على أن يلتقى فى المساء • وكان الكاهن مع ذلك شيخاً
 صارماً شديد العبوس • لقد سقط فى مدى لحظة • لقد ظهر أن الطبيعة
 هى الأقوى • مالك تكشر ؟ أغضبت من جديد ؟ حقاً لقد أصبحت
 لا أدرى ما الذى يجب على أن اخترعه حتى أسرك •••
 صاح ايفان يقول بصوت موجه فيه أنين ، لأنه كان يحس أنه
 عاجز عن التخلص من هلوسته :

— دعنى ! انك تحدث فى دماغى جلبنة كابوس • ان حضورك
 يضجرنى ضمجراً قاتلاً • لقد أصبحت لا أطيق احتمالك • اننى مستعد
 لأن أعطى كثيراً فى سبيل أن أتخلص منك !

- أكرر أن عليك أن تخفف من غلوائك ، وأن تعتدل في مطالبك •
كفّ عن توقع أفكار « رفيعة عظيمة » منى ، فترى كيف أننا سنتفاهم
حينذاك • الواقع أنك حانق علىّ لأننى لم أمثل أمامك في اطار أكثر
مهابة ، تحف بى هالة حمراء ، وتحيطنى بروق ، وتصحبنى رعود •
كنت تود لو ترانى بجناحين كبيرين محمرّين بنار جهنم ، ولا تغفر لى
أننى جئت اليك بتياب متواضعة هذا التواضع • انك تشعر بأنك أوذيت ،
أوذيت فى مشاعرك الجمالية الفنية أولاً ، وفى كبريائك وعزتك ثانياً :
كيف يستقبل رجل عظيم هذه العظمة - أليس كذلك ؟ - كيف يستقبل
مثل هذا الرجل زيارة شيطان مسكين هذه المسكنة التى تستحق الرثاء ؟
صحيح ! أنا لا أنكر ذلك ! ان هذه السمة الرومانسية التى طالما ندد بها
الناقد بيلنسكى هى جزء من طبيعتك • ولكن ما حيلتى أيها الشاب
الطيب ؟ منذ قليل ، حين كنت آتياً اليك ، خطر ببالي أن أرتدى ثياب
مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم فى انقفقاس ، فهو يضع
على رداءه وسام « الأسد » و « الشمس » * • وكانت هذه الفكرة محببةً
الى النفس ، ولكننى لم أجرؤ أن أنفذاها ، فلو قد فعلت لضربتني حتماً
لأننى وضعت على صدرى وسام « الأسد » و « الشمس » بدلاً من أن
أضع « نجمة القطب » و « نجمة الأبرق » • وأنت الى هذا لا تكف عن
تذكيرى بأننى غيبى • شهد الله مع ذلك أننى لم يخطر ببالي أن أنافسك
فى الذكاء • حين جاء مفسثوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم
لا يستطيع أن يفعل الا الخير * • ذلك شأنه هو • أما أنا فعلى نقيض هذا •
ربما كنت فى الكون بأسره الانسان الوحيد الذى يحب الحقيقة مخلصاً
ويصبو الى الخير صادقاً • لقد كنت حاضراً حين صعدت « الكلمة » الى
السماء ، بعد موتها على الصليب ، حاملةً على صدرها روح لص اليمين
المصلوب * • وسمعت صيحات الفرحة التى صدحت بها أصوات الكروبين

مُسَبِّحِينَ بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَسَمِعْتَ الْأَنْشِيدَ الصَّاخِبَةَ يُضَجُّ بِهَا السَّارُوفِيُّونَ
الَّذِينَ هَزُّوا السَّمَاءَ بِأَصْوَاتِهِمُ الْمُرْعَدَةَ وَأَرْعَشُوا بِهَا الْخَلِيقَةَ كُلَّهَا •
فِيمِثًا بِكُلِّ مَا أَقْدَسَ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، لَقَدْ تَمَنَيْتُ عِنْدئذٍ أَنْ أُنْضَمَّ إِلَى جَوْقَةِ
الْمُنْشِدِينَ مُسَبِّحًا بِحَمْدِ اللَّهِ أَنَا أَيْضًا • كَانَ صَدْرِي يَرْتَفِعُ ، وَكَانَتْ
كَلِمَاتُ الْحَمْدِ وَالتَّسَاءُلِ تَنْدَفِعُ إِلَى شَفْتِي ••••• ذَلِكَ أَنِّي - أَعْلَمُ هَذَا -
حَسَّاسٌ جَدًّا ، وَأَنِّي قَدْ أُوتِيتُ عَاطِفَةً فَنِيَّةً مَشْبُوبَةً • وَلَكِنِ الْعَقْلُ - هَذِهِ
الْمَلَكَةُ الْمَعِينَةُ فِي طَبِيعَتِي - قَدْ صَدَّتْنِي فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ أَيْضًا ، وَاضْطَرَّتْنِي
إِلَى الْقَصْدِ وَالْإِعْتِدَالِ ، فَأَفَلْتُ مِنْهُ الْمَحْظَةَ الرَّائِعَةَ ، أَفَلْتُ مِنْهُ الْفُرْصَةَ
الْوَحِيدَةَ • تَسَاءَلْتُ عِنْدئذٍ : « مَا عَسَى يَحْدُثُ بَعْدَ أَنْ أُغْنَى نَشِيدُ تَمْجِيدِ
الرَّبِّ ؟ سَوْفَ يَنْطَفِئُ حِينَئِذٍ كُلُّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، فَلَا تَحْدُثُ بَعْدَ
ذَلِكَ أَحْدَاثٌ » • فَسَبَّبَ وَظَائِفِي وَحَدَّهَا وَمِنْ أَجْلِ وَضْعِي الْاجْتِمَاعِيِّ
وَحَدِّهِ إِنَّمَا خَنَقْتُ أُذُنِي فِي نَفْسِي ذَلِكَ الْإِنْدِفَاعَ الطَّيِّبَ الْخَيْرَ الْكَرِيمَ ،
وَبَقِيتُ وَفِيًّا لِمَا أَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الدَّنَاءَةِ • إِنْ شَخَّصًا آخَرَ قَدْ احْتَكَرَ
لِنَفْسِهِ مَا يَرْتَبِطُ بِالْخَيْرِ مِنْ شَرَفٍ وَمَجْدٍ ، وَلَمْ تُتْرَكْ لِي أَنَا الْإِحْطَاءُ
الشَّرَّ • وَلَكِنِّي لَا أَحْسَدُ أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي السَّهُولَةِ وَالْيَسْرِ ،
فَمَا أَنَا بِالطَّمَاعِ • وَلَكِنِّي أَتَسَاءَلُ مَعَ ذَلِكَ : لِمَاذَا كُتِبَ عَلَيَّ وَحْدِي ، مِنْ
دُونِ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِ الْكَوْنِ ، أَنْ أُتْلَقَ لِعَنَاتِ الْأَخْيَارِ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ وَأَنْ
احْتَمَلَ رِكَالَاتِ أَرْجُلِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، لِأَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُذْعَنَ لِهَذِهِ
الْمَسَاوِيءِ حِينَ أُتَجَسَّدُ • أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ فِي هَذَا سِرًّا ، وَلَكِنَّهُمْ يَأْبُونَ أَنْ
يُظْهِرُونِي عَلَى هَذَا السَّرِّ • رَبِّمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنِّي ، يَوْمَ أَعْرَفَ السَّرَّ ،
سَأَسْبِغُ أَنَا أَيْضًا بِحَمْدِ اللَّهِ ، فَسُرْعَانَ مَا يَتَبَدَّدُ عِنْدئذٍ مَا فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ
عُيُوبٍ ضَرُورِيَّةٍ ، وَسُرْعَانَ مَا يَنْتَصِرُ الرِّشَادُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ نَهَايَةَ كُلِّ
شَيْءٍ ، حَتَّى الْجَرَائِدُ وَالْمَجَلَاتُ ، إِذْ مِنْ ذَا الَّذِي يَخْطُرُ بِإِلَالِهِ عِنْدئذٍ أَنْ
يَشْتَرِكَ فِي الْجَرَائِدِ وَالْمَجَلَاتِ إِذَا هِيَ أَصْبَحَتْ خَاضِعَةً لِسُلْطَانِ الْعَقْلِ

والرشاد • لست أجهل طبعاً أنني سأتصالح آخر الأمر مع الخليفة ،
 وأنتى بعد أن أقطع ما يجب على أن أقطعه من مسافة تبلغ كادريون
 كيلومتر ، سأعرف السرّ الذى يخفونه عنى • ولكن الى أن يتحقق
 ذلك ، سأظل فى صف المعارضة ، فأقوم بعملى على مضض ، وأنهبض
 بأعباء مهمتى متألاً أشد الألم : 'أهلك ألوفاً لأنقذ واحداً • كم من نفس
 وجب اهلاكها وكم من سمعة وجب تلطيخها ، من أجل الوصول الى
 رجل صالح واحد مثل أيوب ، باستخدامى أنا ؟ لا ••• ما ظل السر
 مكتوماً عنى خافياً على ، فسيبقى هنالك حقيقتان فى نظرى : حقيقة السماء
 التى أجهلها الآن جهلاً تاماً ، وحقيقتى أنا • ولا يدري أحد حتى الآن
 أى الحقيقتين أشرف ••• ولكنك نمت فيما أرى ؟

قال ايغان فى أنين وغضب مكظوم :

- وكيف لا أنام ؟ ان أغبى ما فى طبيعتى من أمور ، ان أسخف
 ما كان فى ذهنى من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها نبذ
 القادورات ، تأتي أنت الآن فتقدمها لى كما لو كانت شيئاً جديداً •

- حظى سىء ! كنت آمل أن أفتك بما فى كلامى من جمال أدبى •
 أحسب مع ذلك أنتى أجدت وصف التسييح الذى غنته الأصوات فى
 السماء • ما رأيك فى هذه اللهجة الساخرة التى تقتفى آثار هاينى ؟ يخيّل
 الى أنها تناسبنى ••• ألا ترى ذلك ؟

- لا ، أنا لم أكن فى يوم من الأيام خادماً من هذا الطراز ! كيف
 أمكن أن تلد نفسى خادماً مثلك ؟

- يا صديقى ، أعرف شاباً روسياً من أسرة طيبة ، فتى أحلف لك
 أنه رائع : هو فيلسوف ، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن • وقد ألّف

قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن ، عنوانها : « المفتش الكبير » •
وفيه وحده انما كنت أفكّر •

صاح ايفان يقول وقد احمر وجهه خجلاً :

- أمنعك من الكلام عن « المفتش الكبير » ! •

- و « التحول الجيولوجى » ؟ ألا يزال يتذكره ؟ تلك قصيدة !

- اسكت والا قتلتك !

- تقتلنى أنا ؟ دعنى أكمل أولاً ما كنت أريد أن أقوله لك • فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة انما جئت • اننى أعبد أحلام أصدقائى الشباب الذين يفيضون حرارة وحماسة ونبضاً وحياء • كنت تقول لنفسك فى الربيع الماضى وأنت تستعد للمجىء الى هذه المدينة : « سأجد هنالك أناساً جدداً • انهم ينوون أن يحطموا كل شىء وأن يعودوا فيبدأوا من البداية ، أى من أكل لحوم البشر ! يا لهم من حمقى ! لماذا لم يستشيرونى ؟ لا حاجة الى التحطيم فى رأى ، وانما يكفى أن نطرد من أذهان البشر فكرة الاله • بهذا انما ينبغى لنا أن نبدأ مهمتنا • ذلك هو المنطق الحقيقى الذى يجب أن ننتقل منه فى عملنا ، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً • فمتى نبذت الانسانية الايمان بالله دفعةً واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آت لا ريب فيه ، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التى تعاقبت حتى الآن) ، فان المفاهيم القديمة عن الكون ستختفى من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضرورى أن نرتد الى عهد أكل لحوم البشر • وستزول الأخلاق القديمة خاصةً ، وسيبنى عالم جديد بعد أن يمحو الماضى • سوف يتحد البشر ليردوا الى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة وامتعة ، ولكن فى هذا العالم وحده • وسيشعر الانسان بعزة عظيمة

وكبرياء جبارة تحركه وتحمله ، لأنه يكون قد أصبح « الها - انساناً » .
 ان ما سيحققه الانسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود
 لها ، بفضل ارادته المتحالفة مع العلم ، ستغمر نفسه في كل ساعة بفرح
 يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به في الماضي من ثواب
 سماوى . سيعرف كل انسان أنه فان ، وأنه لا بعث بعد الموت ، ولكن
 جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة وشمم ، كأنهم آلهة .
 سيعدل الانسان يومئذ ، من شدة أنفته وكبريائه ، عن الشكوى من القدر
 وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض . وسوف يحب الانسان
 أخاه الانسان حباً مبرأً من المنفعة ، لا يرجو أن ينال على حبه منوبة
 فيما بعد . صحيح أن الحب لن يتفتح الا لحظات قصاراً ، ولكن قصره
 نفسه سيجعل سناءه وقوته أشد وأعنف ، بينما كان في الماضي يضع
 في صبوات غامضة الى حب أبدى ولو من خلف القبر « +++ وهلم
 جرا . شىء جميل .

كان ايفان قد سدّ أذنيه بيديه ، وأطرق الى الأرض وهو جالس
 على الديوان ، وأخذ جسمه كله يرتجف .

تابع الصوت كلامه يقول :

- « ان المسألة المطروحة الآن - هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب -
 هى : هل سيأتى عصر من هذا النوع أم لا ؟ فاذا كان الجواب على هذا
 السؤال بنعم ، فسوف تحل المشكلة ، وسوف تنتظم الانسانية على أسس
 جديدة . ولكن لما كان من المستحيل ، بسبب حماقة البشر ، بحكم
 حماقتهم ، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى ،
 فانه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد ، وقد وعى الحقيقة منذ الآن ،
 أن يبنى حياته على النحو الذى يناسبه دون أن يعأ بالمفاهيم البالية أو أن
 يكثر لها . وبهذا المعنى انما يمكن أن يقال « ان كل شىء مباح » .

وهب أن ذلك العصر الجديد لن يأتي في يوم من الأيام ، فانه ليظل صحيحاً أنه لا وجود للاله ، ولا خلود للنفس ، فمن المباح اذن للانسان الجديد أن يصبح « الهاً انساناً. » ولو وجب عليه أن يكون الوحيد كذلك في الكون كله . وواضح أنه سيستطيع ، في دوره الجديد ، أن يتحرر فَرِحاً من الضغوط الأخلاقية التي كان يخضع لها « الانسان العبد » في الماضي ، وسيكون عليه أن يتحرر هذا التحرر كلما بدا له ذلك ضرورياً . فلا قوانين تُفرض على اله ، لأن الاله على حق دائماً ؛ فأى شيء يفعل الاله فهو الصواب ، وأى مكان يكون فيه الاله فهو مكانه . ان كل ما سأفعله بعد اليوم فهو خير ، وسأحتل المكان الأول . . . كل شيء مباح ، وكفى ! » - هذا كله جميل جداً ، ولكنني أتساءل لماذا يكون الانسان في حاجة الى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن يعيش وأن يخادع ؟ فيم هذا التأييد للحقيقة ؟ هذا هو انساننا الروسى المعاصر : انه في حاجة الى تأييد الحقيقة ولو ليقرر أن يغش . . . فالى هذا الحد يبلغ حبه الحقيقة . . .

كان الزائر يبدو مسروراً ببلاغته وفصاحته . فهو يرفع صوته أكثر فأكثر ، وينظر الى صاحب البيت فاحصاً في مكر . ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه ، فان ايغان تناول الكأس الموضوعة على المائدة فجأة ، فرمى بها الخطيب البليغ بكل ما أوتى من قوة .

فهتف الخطيب يقول وهو ينهض متعجلاً ويمسح بأصابعه قطرات الشاي التي تناثرت على ثيابه :

- آ . . . ألا ان هذا لغباء أخيراً ! لقد تذكر مجبرة لوثر * . هو يدعى أنني لست الا حلماً ، فيقذف الأقداح الى رأس الخيال الذي ظهر له في هلوسته ! لكأنه امرأة حقاً . . . يا لهذا المنطق ما أغربه ! . . .

لقد كنت أقدرّ فعلاً أنك تتظاهر بسدّ أذنيك تظاهراً بينما كنت في الواقع
تسمعني وتصغى اليّ ***

وفي تلك اللحظة سُمعت طرقات ملحّة على زجاج النافذة ، فنهض
ايفان عن ديوانه وائباً *

هتف الزائر يقول :

– هل سمعت ؟ خير لك أن تفتح ، فهو أخوك أليوشا يطرف
النافذة حاملاً اليك نبأً لست تتوقعه البتة ، نبأً هاماً جداً ، صدقني ***

قال ايفان وهو في حالة حميا شديدة :

– اسكت أيها الدجال ! لقد عرفتُ قبلك أنه أخي أليوشا *
وكنت أحس أنه سيأتي ، ولا بد أن يكون هناك سبب حملة على المجيء *
انه يحمل اليّ « أبناء » ، هذا بديهي *

– فافتح اذن ، افتح له * ان في الخارج زوبعة تلج *** وهو
أخوك *** هل تعرف يا سيدي رداة الجو في الخارج ؟ ان الجو يبلغ
من الرداة أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يدع كلباً هناك ! ***

واستمر الطرق على النافذة * أراد ايفان أن يهرع فيفتح الباب ،
لكنه أحس فجأة كأنه مشلول ، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه *
بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد ، وأن يحطم
هذه الحبال التي تشده ، ولكنه لم يفلح * وأصبحت الطرقات على النافذة
أقوى وأصرم * فشعر ايفان فجأة بأنه يتحرر من عوائقه ، فنهض
متنفضاً ، ونظر حوالبه حائراً زائغ البصر * كانت الشمعتان قد ذابتا أو
أوشكتا ، وكانت الكأس التي رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال في مكانها
على المائدة * وليس هناك أحد على الكنبّة الموضوعة قبالة حذو الجدار *

ورغم أن الطرّق على النافذة ما يزال مستمراً بالحاح ، فإن الطرقات بدت لايفان أضعف مما كان يسمعا أثناء حلمه ، حتى لقد كانت خفيفة مستخفية *

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وهو يندفع نحو النافذة :

— لم يكن ذلك حلماً ! لا *** لم يكن حلماً *** أحلف أنه لم يكن حلماً *** أنا لم أحلم *** ولقد كان ذلك كله منذ لحظة واقعاً *

وفتح فرجة النافذة ، وصرخ يقول لأخيه حانقاً :

— أليوشا ! ألم أحظر عليك أن تجيء الىّ ؟ قل بكلمتين لا ثالث لهما : ماذا تريد مني ؟ أجب *** ولكن أوجز ، هل تسمع ؟

فأجابه أليوشا من فناء الدار قائلاً :

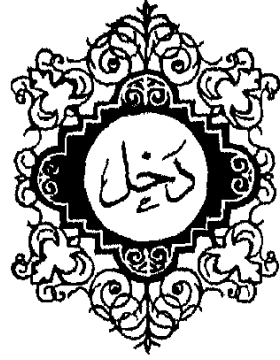
— شفق سمردياكوف نفسه من ساعة *

فقال له ايفان :

— تعال الى المدخل *

ومضى يفتح الباب *

١٠ « هو الذي قال ذلك »



أليوشا ، وذكر لايفان فيدوروفتش فوراً أن ماريا كوندرايتيفنا قد زارته منذ أقل من ساعة ، فأبلغته انتحار سمردياكوف ، قالت له : « دخلت الى غرفته لآخذ السماور ، فإذا أنا أراه مشنوقاً على مسمار أمام الحائط » ، فلما سألها أليوشا هل أبلغت من يجب ابلاغه ، أجابت بأنها لم تتحدث أحداً في هذا الأمر بعد . قالت : « وإنما أسرعت اليك على الفور ، لكي تكون أول من يطلع على الحادث ، وكنت أركض ركضاً طوال الطريق » هذا ما أضافه ماريا كوندرايتيفنا منقلبة السحنة زائغة النظرة ، وكانت كالمجنونة اضطراباً وكانت ترتعش كورقة في مهب الريح . وقد صحبها أليوشا بعد ذلك الى بيتها ، فوجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل على النحو الذي وصفته ؛ ووجد على المائدة ورقة مكتوباً عليها ما يلي : « أنهيت حياتي بارادتي حراً ، فلا تتهموا أحداً » . ترك أليوشا الورقة على المائدة ، ومضى فوراً الى رئيس الشرطة ، فأطلعه على الحادث . وختم أليوشا كلامه لأخيه ايفان قائلاً : « ومن هناك جئت اليك رأساً » ، وكان أثناء ذلك يحدّق بانتباه الى ملامح وجهه التي أدهشه تعبيرها . ثم هتف يقول له فجأة :

– أخى ! لا بد أنك مريض ، مريض جداً ، جداً ! فأنت تنظر الى
دون أن يبدو عليك أنك تفهم ما أقوله لك .

فقال له ايفان واجماً مفكراً ، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه :
– أحسنت صنعاً اذ جئت . على أنى كنت أعلم أنه شفق نفسه .
– ممن علمت ذلك ؟

– لا أدري ممن ، ولكننى كنت أعلم . أكنت أعلم أم لا ؟ بل كنت
أعلم . هو قال لى ذلك ، قاله لى منذ لحظة قصيرة .

كان ايفان واقفاً فى وسط الغرفة ، وكان يتكلم ذاهلاً حالماً ، وهو
يحدثق الى الأرض .

سأله أليوشا وهو ينظر حوالبه على غير ارادة منه :

– من « هو » ؟

– اختفى .

قال ايفان هذه الكلمة وأنهض رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة . ثم
أردف يقول :

– خاف منك ، خاف منك ، نعم خاف منك أنت يا حامتى . أنت

« كروبى طاهر جداً » . دمترى يرى أنك كروبى . كروبى . . . رعود

أغانى الحماسة التى يعنىها الساروفيون . . . ما الساروفى ؟ ألعنه برج

نجوم قد لا يكون هو كله فى آخر الأمر الا ذرة كميائية بسيطة . . .

هناك برج « الأسد » وبرج « الشمس » ، هل تعلم ذلك ؟

قاطعته أليوشا يقول مذعوراً أشد الذعر :

– اجلس يا أخى ، اجلس على الديوان ، أرجوك . . . أنت تهذى .

اضطجع هنا ، ضع رأسك على المخدة ، هكذا . هل تريد أن أضع على

جيينك خرقة مبللة ؟ قد يفيدك هذا .

- ناولنى الفوطة الموجودة على ذلك الكرسي من فضلك • لقد ألقيتها عليه منذ قليل •

- ليس على الكرسي فوطة • لا تهتم • سأعرف أين أجد فوطة •
هذه فوطة •••

كذلك قال أليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة ، حيث أبصر ، قرب الحوض ، فوطة نظيفة لم 'تمس' وما تزال مطوية •
نظر ايفان الى الفوطة وفي وجهه تعبير غريب • كأن الذاكرة أخذت تعود اليه فجأة •

قال وهو. ينهض عن الديوان :

- لحظة • اننى منذ ساعة - أتذكر ذلك - قد تناولت هذه الفوطة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد ، ثم وضعتها على جينى ، ثم رميتها الى هناك بعد مدة • فكيف تكون الآن ناشفة ومطوية ؟ لم يكن فى غرفتى فوطة أخرى •
سأله أليوشا :

- أتقول انك وضعت هذه الفوطة على جينك ؟

- نعم ، ومشيت فى الغرفة منذ ساعة والفوطة على جينى ••• لماذا ذابت الشموع ؟ كم الساعة الآن ؟

- قاربت منتصف الليل •

فصاح ايفان يقول فجأة :

- لا ، لا ، لا ، لم يكن ذلك حلماً ! كان هو هناك ، كان جالساً هناك ، على تلك الكنبة ، أمامى • فلما طرقت أنت زجاج النافذة ، رميت رأسه بكأس ••• هو هذا الكأس نفسه ••• لحظة ! فى المرة الماضية أيضاً ، كنت قد نمت ، ولكن الحلم فى هذه المرة ليس حلماً • الأمر

فى هذه المرة كما فى المرة الماضية • هل تعلم يا أليوشا أننى أرى الآن
أحلاماً؟ ••• ولكنها ليست بالأحلام ••• أنا يقظ ، أنا أمشى وأتكلم
وأرى ••• ومع ذلك فأنا نائم ••• ولكنه كان هناك ، كان هناك ، نعم ،
على تلك الكنبه • انه غبى غباءً فظيماً ، يا أليوشا ، غباءً فظيماً •

كذلك أضاف ايفان وقد أخذ يضحك على حين فجأة ، وطفق
يمشى فى الغرفة •

سأله أليوشا مرة أخرى قلقاً :

— من هو الغبى ؟ عمّن تتكلم ؟

— عن الشيطان • لقد أخذ يختلف الى • جاءنى مرتين ، مرتين ،
ان لم يكن ثلاث مرات • قال لى ليزعجنى ويغظنى اننى أغضب لأنه
شيطان عامى لا ابليس محمرّ الجناحين بنار جهنم ، معتاد أن يظهر محاطاً
ببروق ساطعة ورعود مدوّية • ولكنه ليس ابليس اذن • لقد كذب
على • انه دجال • هو شيطان عادى تماماً ، شيطان حقير ، من طبقة
دنيئة • انه يرتاد الحمامات العامة ! فلو خلعت ثيابه لاكتشف حتماً ذنبه
الذى لا بد أن يكون طويلاً جداً ، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر
••• ذنب أشقر أملس ••• ذنب غير مهيب ، كذنب كلب خسيس •••
أليوشا ، أرى أنك متجلد من شدة البرد ! لقد مشيت فى الثلج مدة
طويلة • هل تريد شيئاً من الشاي ؟ ما رأيك ؟ الجو البارد ، أليس
كذلك ؟ هل تريد أن آمر باعداد شئ من الشاي لك ؟ الجو بارد جداً ،
يبلغ من البرودة أن المرء لا يرضى أن يدع فى الخارج كلباً •••

أسرع أليوشا الى الحوض ، فبلى الفوطة بالماء البارد ، ثم حمل
ايفان على أن يجلس ووضع الفوطة المبتلة على جبينه ، ثم جلس الى
جانبه •

استأنف ايفان الكلام فقال وقد أصبح كثير الهذر :

- ماذا قلت لي أمس عن ليزا؟ انها تعجبني ، ليزا هذه ! أحسب
أنتي قلت لك سوءاً في حقها . لم أكن صادقاً . انها تعجبني . . . أنا
خائف من الغد ، خائف على كاتيا قبل كل شيء ، وفوق كل شيء .
وخائف على المستقبل أيضاً . ستهجرني في الغد هجراً نهائياً ، وتركلني
بقدميها . هي تتخيل أنني أريد هلاك ميتيا بسببها ! نعم ، ذلك ماتتصوره .
ولكن لا ، هذا خطأ . غداً يكون الصليب ، ولكن لن يكون الشنق .
لأنني لن أشنق نفسي . هل تعلم يا أليوشا أنني عاجز عن أن أشنق
نفسى ؟ لعلك تظن أن هذا جبن منى ، أليس كذلك ؟ ولكن لا ، أنا لست
جباناً . فلأننى أحب الحياة حباً قوياً انما أعجز عن الانتحار ! من أين
علمت أن سمردياكوف شنق نفسه ؟ آ . . . نعم . . . « هو » الذى قال
لي ذلك . . .

سأله أليوشا :

- أنت مقتنع اذن ، أنت مقتنع اقتناعاً تاماً بأن أحداً قد زارك .
- طبعاً . كان جالساً هناك ، على تلك الكنبه ، فى زاوية الغرفة .
لا شك فى أنك طردته . أنت الذى حملته على الهرب قطعاً . لقد غاب
فى اللحظة التى وصلت فيها أنت . اننى أحب وجهك يا أليوشا . هل
كنت تعلم أنني أحب وجهك ؟ أما « هو » فانه أنا يا أليوشا ، أنا وحدى .
هو كل ما فى أنا من دناءة وخسة وحقارة ! صحيح أنني «رومانسى» ،
وقد لاحظت هو ذلك . . . ولكن هذه نيممة كاذبة . انه غبى غباءً فظيماً ،
وبهذا انما هو قوى . هو ماكر ، ماكر كحيوان . كان يعرف بماذا
يستطيع أن يثير غضبى وغيظى . زعم ليحنتنى أنني أو من به ، وبهذه
الوسيلة حملنى على أن أسمع له وأصغى اليه . ولكنه ذكر لي أيضاً

حقائق كثيرة عنى ، ذكر أشياء ما كان لى أن أعترف بها فى يوم من الأيام •

ثم أضاف ايفان يقول بلهجة أصبح فيها على حين فجأة كثير من الجد والنجوى :

– هل تعلم يا أليوشا أننى أتمنى كثيراً أن يكون « هو » لا أنا ؟

قال أليوشا وهو ينظر الى أخيه فى سفقة وعطف :

– لقد أتعبك •

– أرهقنى بسخرياته • وما كان أبرعه وأحذفه ! ليتك تعلم كم كان بارعاً حاذقاً : « الضمير ؟ ما هو الضمير ؟ هو ثمرة دماغى • لماذا يشعر الانسان بعذاب الضمير ؟ يشعر بعذاب الضمير من قبيل العادة ، نتيجةً لطريقة فى التفكير تكونت فى الانسانية خلال سبعة آلاف سنة ، فمتى تحررنا من هذه العادة ، أصبحنا آلهة » • هو الذى قال ذلك ، هو الذى قال ذلك !

لم يملك أليوشا أن يمنع نفسه من سؤال أخيه وهو يحدثُّ اليه تحديقاً قوياً :

– هو ؟ ألا يمكن أن تكون أنت الذى قلت ذلك ؟ أنت بالأحرى ؟ دعه الآن ، لا تفكر فيه ، انسه • فليأخذ معه كل ما تستنكره اليوم وتدينه ، ولا يعودنَّ بعد الآن أبداً •

قال ايفان بلهجة المتألم المهان •

– ليكن ذلك • ولكنه خيىث شرير • لقد ازدرانى جهاراً • كان وقحاً ، صدقنى يا أليوشا • ولكنه افترى علىّ ، افترى علىّ فى أمور كثيرة • قال : « أنت تنوى أن تقوم بعمل نبيل فاضل ! ها ! أنت تنوى

أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك ، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك

قاطعهُ أليوشا قائلاً :

— قف يا أخى ! لست أنت انقاتل + هذا خطأ !

— هو الذى قال ذلك ، ولا بد أنه على علم به « أنت تنوى أن تقوم بعمل فاضل ، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة ؛ ذلك ما يهيجك ويعذبك ، ذلك هو سبب تجهمك وشراستك » + هكذا تكلم ، وهو يعرف ما يقول هتف أليوشا يقول بمرارة :

— هذه أقوالك أنت لا أقواله هو + انك مريض ، انك تهذى ، وتعذب نفسك فى هذيانك !

— لا انه يعرف ما يقول + قال لى مؤكداً : « أنت تصدر عن زهو وخيلاء ، تريد أن تمثل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء : « أنا القاتل ، ما لكم تصبطنعون هذه الهيئات المروعة ؟ ألا انكم لكاذبون + اننى اسخر من ذعركم هذا ! » + تلك هى الخواطر التى نسبتها الى ، ثم أضاف يقول : « هل تعرف ماذا تتمنى ؟ أنت تتمنى أن يغمرك بالمديح قائلين : « هو مجرم ، نعم ، هو قاتل ، ولكنه تحركه عواطف سامية كل السمو رفيعة كل الرفعة ! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه ! » + أما هذا يا أليوشا فهو كذب (كذلك هتف ايفان فجأة وقد سطعت عيناه) + أنا لا أتمنى أبداً أن يعجب بى بلهاء ! لقد كذب فى هذا يا أليوشا ، كذب فى هذا ، أحلف لك ! وبسبب ذلك انما قذفته بكأس ، فتحطم الكأس على وجهه القدر !

توسل اليه أليوشا قائلاً :

— هدىء روعك يا أخى ، اكف عن الكلام هكذا !

أردف ايفان يقول دون أن يصغى الى أخيه :

— لا ، انه يجيد التعذيب ، انه قاس شديد العتو • كنت أوجس دائماً الغرض الذى يجيىء من أجله • كان يقول : « ليكن ! ان الزهو هو الذى يحركك ويدفعك • ولكنك تأمل رغم كل شئ أن يفتضح أمر سمردياكوف ، فيرسل الى السجن ، ويُسبَرَأً ميتاً ، ولا يُحكَم عليك أنت الا حكماً « أخلاقياً » (وقد ضحك حين نطق بهذه الكلمة ، هل فهمت ؟) ، بينما يكبر آخرون عظمة نفسك ونبل روحك • ولكن هاهو ذا سمردياكوف قد مات ! لقد شنق نفسه ، فمن ذا الذى سيصدقك أمام المحكمة ، من ذا الذى سيؤمن بأقوالك وتصريحاتك بعد أن أصبحت وحيداً ؟ ومع ذلك ستذهب الى المحكمة ، وتقف أمام القضاة • لقد قررت ذلك ، وستفعل • فلأى هدف تريد أن تذهب الى المحكمة بعد الآن ؟ » • شئ فطيع يا أليوشا ! اننى لا أطيق احتمال هذه الأسئلة • من ذا الذى يحق له أن يستجوبنى بهذه الطريقة ؟

قاطعه أليوشا قائلاً وقد جمد من الذعر ، ولكنه ما يزال يأمل أن يرد ايفان الى الواقع :

— أخى ، كيف يمكن أن يكون قد كلمك عن موت سمردياكوف قبل وصولى ، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث ، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه ؟ •

قال ايفان بصوت قاطع جازم لا يحتمل الشك :

— لقد قال لى ذلك ، بل ظل يكلمنى فى هذا طول الوقت اذا شئت أن تعرف الحقيقة ، ولم يكلمنى الا فى هذا • كان يقول لى : « ويا ليتك تؤمن بالفضيلة ! ••• ان احداً لن يصدقنى ، ولكن ذلك لا يهمنى ، فانما أنا أصدر عن مبدأ • ألا أنك لتسخر من الفضيلة ، لأنك

خنزير ، مثل فيدور بافلوفتشس ! فعلام ذهابك الى المحكمة ، ما دامت
تضحيتك لن تجدى ؟ ... الحقيقة أنك أنت نفسك لا تدري لماذا تريد
أن تذهب الى المحكمة ! آه ... أنك لمستعد أن تهب كثيراً في سبيل أن
تعرف ذلك . أتظن أن هذا ما قررته ؟ ألا انك لم تقدر شيئاً بعد .
ستقضى الليل كله مفكراً متسائلاً أنذهب أم لا تذهب . وانك لتعلم حق
العلم ، مهما يكن قرارك ، أن الحل النهائي أصبح لا يتوقف عليك .
سوف تذهب لأنك لا تجرؤ الا أن تذهب . أما لماذا لا تجرؤ ، فذلك
سؤال أدع لك أنت أن تحزر جوابه . هذا لغز حاول أن تتسلى
بحله ! » . قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف . وصلت أنت ، فغاب
هو . ولقد وصفني بأننى جبان يا أليوشا ! ان ذلك اللغز هو أننى
جبان . لقد أضاف قائلاً : « لست من تلك النسور التى تحلق عالياً
فى السماء » . نعم ، أضاف هذه الجملة . وكان سمردياكوف قد قال
هذا الكلام نفسه . يجب قتله . ان كاتيا تحتقرنى . لاحظت أنا ذلك .
وسوف تحتقرنى ليزا أيضاً . « ستذهب الى المحكمة لتخطى بالاعجاب » .
هذا كذب دنىء . أنت أيضاً تحتقرنى يا أليوشا . سوف أكرهك الآن
من جديد . والمسوخ أيضاً ، اننى أكره المسوخ كذلك . لا أريد أن أنقذ
المسوخ . ألا فليعفن فى السجن ! لقد غنى نشيد فرح . أوه ! سأذهب ،
سأذهب غداً . سأسأل أمامهم ، وسأبصق فى وجوههم جميعاً !

ونهض ايفان فجأة وقد استبدت به حمياً شديدة ، فنزع الفوطة
عن جبينه وطفق يمشى فى الغرفة . تذكر أليوشا أقواله : « أنام وأنا
أحس بأننى يقظان ... أمشى وأتكلم وأرى ، وأنا مع ذلك أحلم » .
ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن . لم يشأ أليوشا أن يترك أخاه .
وخطر بباله أن يمضى ليستقدم طبيياً ، ولكنه عدل عن ذلك من خوفه أن
يترك ايفان وحيداً . كان من جهة أخرى لا يدري الى من يعهد به .

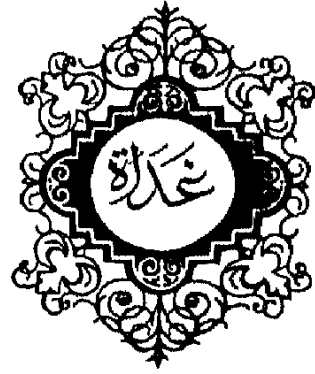
وأخيراً أخذ ايفان يفقد الذاكرة • كان ما يزال يتكلم بغير توقف ، وكانت أقواله مفككة كل التفكك ، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناء في النطق بالكلمات • وترنح على حين فجأة ، ولكن أليوشا استطاع أن يسنده في الوقت المناسب ، ومضى به نحو السرير ، فانتقاد ايفان دون مقاومة ؟ وبعد أن نضا أليوشا عن أخيه ثيابه كيفما اتفق ، أرقده على السرير ، ثم جلس قربه ، ولبت ساهراً عليه ساعتين أخريين • نام المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك ، وكان تنفسه منتظماً • فلما لاحظ أليوشا أن أخاه ينام نوماً مريحاً هادئاً تناول وسادة وركد على الديوان دون أن يخلع ثيابه • وقبل أن ينام ، دعا الله لميتيا وايفان • لقد كان أليوشا يدرك الأسباب العميقة التي نشأ عنها مرض ايفان : « هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء ، هذا قلق صادر عن ضمير قوى ! » • ان الله الذي كان ايفان يرفض أن يؤمن به يفرض نفسه الآن على وجدان ايفان ، وان الحقيقة الالهية تشق طريقها على هون الى قلبه الذي ما يزال عصياً • حدث أليوشا نفسه قائلاً وهو مضطجع على الديوان : « نعم ، لقد مات سمردياكوف ، ولن يصدق أحد الشهادة التي سيدلى بها ايفان • ولكن سيذهب الى المحكمة وسيقول الحقيقة مع ذلك » • وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة حين جال في ذهنه هذا الخاطر ، ودمدم يقول أيضاً : « سينتصر الله ! » • ثم قال لنفسه بعد ذلك بمرارة : « اما أن يُبعث ايفان بعثاً جديداً بنور الحقيقة ، واما ... أن يهوى الى الكره منتقماً من نفسه ومن الآخرين لأنه خدم قضية لم يكن مؤمناً بها • » • وعاد أليوشا يصلى من أجل ايفان •

الياب الثاني عشر: خط أفضائي

١

اليوم الحام

الأحداث التي فرغت من وصفها الآن ، افتتحت
في الساعة العاشرة من الصباح ، جلسة محكمة
مقاطعتنا ، وبدى النظر في قضية دمترى
كارامازوف *



وانى لأحب أن أقول فوراً بالحاح اننى أعد نفسى عاجزاً عن أن
أصف وصفاً دقيقاً كل ما جرى أثناء المحاكمة ، وأن أروى جميع الوقائع
لا من حيث الكمال والتمام فحسب ، بل من حيث التسلسل الزمنى أيضاً .
وأحسب أننى لو كان على أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها
شرحاً مناسباً ، لوجب أن أقف عليها كتاباً بكامله ، كتاباً أكبر حجماً من
هذا الكتاب . لذلك آمل أن يتفضل القارىء فيعذرني اذا أنا اقتصرت على
ذكر الأمور التي أثارت اهتمامى شخصياً فبقيت في ذاكرتى لهذا
السبب . ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية على حساب
الأمور الأساسية ، وربما أكون قد أسقطت كذلك اسقاطاً كاملاً بعض
الوقائع الهامة . . . على أننى أعدل الآن عن تسوينغ نفسى . فلسوف
أبذل قصارى ، وسوف يدرك القارىء أننى أعطيته كل ما استطعت أن
أعطى *

وانى لأحرص أولاً وقبل الدخول الى قاعة المحكمة ، أن أذكر ما أثار دهشتى أكثر من أى شىء آخر فى ذلك النهار • على أن دهشتى هذه قد شاركنى فيها عدد كبير من الأشخاص ، كما علمت ذلك فيما بعده واليكم الأمر : كان من المعلوم طبعاً أن قضية هذه الجريمة قد أثار اهتمام عدد لا حصر له من البشر ، وأنها قد أثار اهتمامهم اثاراً شديدة ؛ وأن جميع الناس كانوا يحترقون شوقاً الى أن يبدأ النظر فى هذه القضية ؛ وأن مجتمع المدينة كان منذ شهرين لا يفعل شيئاً غير التحدث عنها مع تكهات كثيرة وصيحات اندهاش لا آخر لها • وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد اشتهرت فى روسيا كلها • الا أن أحداً لم يكن يتخيل أن الاهتمام الذى أثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هزَّ هزاً عميقاً لا سكان مدينتنا فحسب ، بل سكان مناطق أخرى أيضاً • وقد أدركنا هذه الحقيقة فى ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة • لقد هرع المستطلعون الفضوليون لا من مركز اقليمنا وحده ، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً ، وهرعوا حتى من موسكو ومن سان بطرسبرج • كان بينهم أناس من رجال القانون ، وشخصيات معروفة مشهورة ، ونساء من المجتمع الراقى • وقد اختطفت تذاكر حضور المحاكمة فى طرفة عين • واعتقد القائمون على الأمر ، فى هذه المناسبة ، أن من الواجب ، على خلاف ما جرت به العادة ، حجز أماكن خاصة وراء منصة المحكمة ، يُخصَّصُ بها بعض الزائرين الذكور من أصحاب الرتب العليا • هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة ، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبل قط • وكانت النساء كثيرات كثرة خاصة ، سواء أكنَّ من سيدات مجتمعنا المحلى أم كنَّ من سيدات الطبقة العليا فى مدن أخرى • أما رجال القانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا

أين يضعونهم لأن الأماكن المتوفرة كانت قد وُزعت فأُعطيت أو وُعد بها منذ مدة طويلة . وقد رأيت بعيني قيام العمال على عجل ببناء حاجز مؤقت في آخر القاعة وراء المنصة ، فبذلك حُدّد مكان خصّ به رجال القانون الذين عدوا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة وقوفاً ، لأن الكراسي كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد من الأشخاص أكبر . فهكذا ظل الجمهور الكثيف واقفاً طوال مدة المحاكمة كتفاً الى كتف . وقد جاءت بعض السيدات ، ولا سيما السيدات اللواتي وفدن من خارج مدينتنا ، جاءت الى قاعة المحكمة في أبهى حلة وأجمل زينة ، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن . وكان يُقرأ في وجوههن فضول قوى شره يشبه أن يكون مرضياً . ومن خصائص هذا الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة ، من خصائصه التي تستحق أن تُذكر أن الكثرة الغالبة من النساء (كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد) كنّ متحزبات لبيتيا ، وكنّ يمتنين أن تبرئه المحكمة . وربما كان السبب الأساسي في هذا ما اشتهر به من أنه شاب يفتن المرأة ويخلب لبّها ويغويها ؛ ولقد كان معروفاً عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان عليه وستجابهان في سبيله أثناء المحاكمة . فأما أولاهما وهي كاترين ايفانوفنا ، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس بها . كان الناس يذكرّون أموراً خارقة عن تولها بميتيا تولهاً قوياً لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة . وكانت تُذكر عن هذا الموضوع تفاصيل مذهلة . وكانت كبرياء كاترين ايفانوفنا هي التي تثير اهتمام الناس خاصة (ان كاترين ايفانوفنا لم تكذب تزور أحداً) ، وكان الناس يتحدثون عن صلاتها الارستقراطية ، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة اذنّاً بأن تصحب الجاني الى السجن ، وأن تتزوجه في مكان ما بالمناجم تحت الأرض . وأما المرأة الثانية ، وهي جروشنيكا، منافسة كاترين ايفانوفنا ، فقد

كان الناس يتلهفون الى ظهورها باهتمام لا يقل شدة عن هذا الاهتمام . وكانت المجابهة التي ستم بين المرأتين - الفتاة الارستقراطية المتكبرة و « الهيتاير » - تثير في الجمهور انتظاراً محموماً وفضولاً يوشك أن يكون موجعاً . ثم ان سيدات مدينتنا كنَّ يعرفن جروشنكا أكثر مما يعرفن كاترين ايفانوفنا . لقد رأين مراراً « تلك المخلوقة التي كانت سبب هلاك فيدور بافلوفتش وابنه المسكين » ، وكان يدهشن أشد الدهشة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما هذا الالتهاب كله بحب هذه « البورجوازية الروسية الصغيرة التي هي امرأة عادية جداً ، حتى انها ليست جميلة » . خلاصة القول أن التعليقات كانت قائمة قاعدة . واني لأعرف من مصادر مطلعة موثوقاً بها ان انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت في مدينتنا بسبب ميتيا . ان عدداً كبيراً من سيدات مجتمعنا قد اشتجرن في ذلك الوقت مع أزواجهن اشتجاراً عنيفاً ، لاختلاف رأيهن في هذه القضية المؤلمة عن رأى أزواجهن . فكان أمراً مفهوماً بعد ذلك أن يجيء أزواج هاته السيدات الى المحكمة متحيزين ضدَّ المتهم ، بل ومعادين له صراحةً ؛ حتى يمكننا أن نوكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة ، على نقيض العنصر النسائي في ذلك الجمهور ، كانوا قد تحيزوا ضدَّ المتهم ، فبعضهم عابس الوجه قاسى النظرة مكفهر الأسارير ، وبعضهم الآخر ، وهو الأكثرية الغالبة ، كان يظهر الكره والعداوة بمزيد من الوضوح والصراحة . والحق أن ميتيا ، أثناء اقامته في مدينتنا ، كان قد أهان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال . وكان هنالك ، في مقابل ذلك ، أناس يكاد يبدو عليهم الفرح ، فهم لا يكثرثون بمصير ميتيا ، وانما تهمهم النتيجة التي ستنتهي اليها المحاكمة ، ولا يفكرون الا في الحكم الذي سيصدر ، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجاني تمنياً قوياً صارماً ، باستثناء رجال القانون مع ذلك ، فلقد كان هؤلاء لا يعينهم الجانب الأخلاقي

من القضية ، وانما تعنيهم الجوانب القضائية وحدها دون غيرها . وقد أحدث وصول المحامي الشهير فيتوكوفتش هزةً عنيفةً في النفوس . فقد كانت موهبته الخطابية معروفة مشهورة في كل مكان ، وقد سبق أن ترافع في الاقاليم مراراً في قضايا كان لها دوى عظيم . وكانت الدعاوى التي يترافع فيها تصبح ذائمة الصيت في روسيا كلها ، وكان الناس يحتفظون بذكرى مرافعاته زمناً طويلاً . وكانت تُروى كذلك نوادر شتى عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة . كان يقال مثلاً ان وكيل النيابة في مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويخشاه ، وان بينه وبينه عداوةٌ يرجع تاريخها الى أول عهده بالوظيفة ، الى الفترة التي كان فيها هيبوليت كيريلوفتش المدافع ، وهو بمدينة سان بطرسبرج ، يشعر دائماً بجراح في كبريائه لأن كفاءاته لم تكن تقدر حق قدرها . ولقد ردت اليه قضية كارامازوف أملاً كبيراً ، فيما يقال ، حتى لقد كان يحلم في أن يستعيد في هذه المناسبة شهرته الخطابية التي انطفأ سناؤها وبهت بريقها ، ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث في قلبه همًا وغمًا على أن الحقيقة هي أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصوروا أن وكيل النيابة كان يخشى لقاء المحامي الشهير هذه الخشية كلها . ان وكيل النيابة في مدينتنا لا ينتمى الى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر ، بل لقد كان ، على نقيض ذلك تماماً ، من أولئك الرجال الذين تلتهب كبرياؤهم القتالية مزيداً من الالتهاب وتشتعل مزيداً من الاشتعال على قدر قوة العقبات التي تعترض طريقهم والحواجز التي تقف في وجههم . يحسن أن نضيف الى ذلك أن هيبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة ومزاج جياش ، وأنه كان شديد التأثير الى درجة المرض . كان يضع نفسه كلها في بعض مطالبات النيابة التي يعدها ، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيرة الشخصى وتتوقف ثروته على

النتيجة التي ستنتهي اليها الدعوى • وكان الناس فى الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من خصال طبعه ، التي جلبت له شهرة ان لم تكن واسعة كثيراً فهي أكبر مما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذي كان يحتله فى محكمتنا • وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا • وأحسب أن جميع الناس كانوا مخطئين فى هذه النقطة • فلقد كان وكيل النيابة فى مدينتنا يملك فكراً أقرب الى الجذ كثيراً مما كان يتخيل الناس عندنا عامة • ولكن هذا الرجل الذي يتميز بحساسية مرضية لم يكن قد أفلح فى اصطناع اللهجة المناسبة والوضع اللائق فى أول عهده بالمهنة ، فامتد هذا الخطأ الذي ارتكبه منذ البدء ، امتد على حياته كلها •

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه انه مثقف ، وانسانى ، وانه كان يعرف مهنته ويجيدها ، ويشارك فى آراء العصر المتقدمة المتطورة • انه قوى الشعور بنفسه ، لكنه لا يعبأ كثيراً بوظيفته ، فان أكبر طموح يهزله هو أن يعرف عنه أنه رجل تقدمى • وكانت له صلوات عالية وكان ينعم بثروة ضخمة • وقد اهتم اهتماماً قوياً جداً بدعوى كارامازوف ، كما أدركنا ذلك فيما بعد ، ولكنه لم ينظر الى هذه القضية الا من زاوية عامة تماماً ، فهو يرى فيها ، على وجه الخصوص ، ثمرة من ثمرات ظروفنا الاجتماعية ، ومظهراً مميزاً من مظاهر الطبيعة الروسية ، أى ظاهرة من الظواهر عليه أن يحكم عليها وأن يصنفها تصنيفاً مناسباً • أما الجانب الشخصى من الدراما ، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التي تتألف منها هذه الدراما ، وأما المصير الفردى الذي ينتظر الأشخاص الرئيسيين فى هذه الدراما ، وعلى رأسهم المتهم ، فتلك كلها أمور لا يعبأ بها رئيس المحكمة كثيراً ، ولا ينظر اليها الا من أفق مجرد • وربما كان ذلك مطلوباً ومستحسنأ فى مركزه ووضعه •

غصت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بزمن طويل •
 انها أحسن قاعة فى مدينتنا : فسيحة واسعة عالية يترجع فيها الصوت
 واضحاً رناناً •

على يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة ، قد وضعت
 منضدة ووضع صفان من المقاعد للمحلفين • وعلى اليسار كان مكان
 المتهم ومحاميه • وعلى منضدة أخرى فى وسط القاعة ، غير بعيد عن
 المنصة ، قد جمعت ثبوتيات الاتهام ، فمن بينها التوب الأبيض الذى كان
 يلبسه فيدور بافلوفتش ساعة مقتله فى منزله وكان ملطخاً بالدم ؛ ومدق
 الهاون النحاسى المشؤوم، وهو السلاح الذى يُعتقد أنه استعمل فى ارتكاب
 الجريمة ؛ وقميص ميتيا الذى كان على أحد كميته بقع دماء ؛ وصدورته
 الملطخة بدم كثير من خلف ، فى موضع الجيب الذى دس فيه منديله
 حين كان المنديل ما يزال يقطر دماً ؛ ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيسر
 واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر ؛ ومن بينها أيضاً المسدس الذى كان
 ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار ، وقد جرّده
 منه تريفون بوريستش خلسة فى قرية موكرويه ، والظرف الذى كان
 قد ضمّ الثلاثة آلاف روبل المخصصة لجروشنيكا ، وعليه كتابة بخط
 المجنى عليه ، والشريط الوردى الدقيق الذى ربط به ذلك الظرف ،
 وطائفة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن • وعلى مسافة من هناك ، فى
 قاعة القاعة ، يبدأ المكان المخصص للجمهور • غير أن عدداً من المقاعد
 قد صُفّ أمام المنصة ، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يقوا فى القاعة
 بعد ادلائهم بشهاداتهم •

دخل أعضاء المحكمة فى الساعة العاشرة • انهم رئيس ، وقاضى،
 وقاضى صلح شرفى • وطبيعى أن وكيل النيابة ظهر فى الوقت نفسه
 تقريباً • الرئيس رجل قوى البنية متورد اللون ، قامته أقصر من

متوسط قامة الرجال ، فى نحو الخمسين من عمره ، له وجه محتقن ،
 وشعر قائم قد اشتعل شيئاً فى بعض المواضع وقصّ قصيراً • وهو يتوشح
 بشريط طويل لوسامٍ نسيت اسمه الآن • أما وكيل النيابة فقد بدا لى
 شاحباً فى ذلك اليوم شحوباً خاصاً ، كما بدا كذلك لكثير آخرين •
 كان لون وجهه يبدو ضارباً الى زرقة بل والى خضرة ، وكأنه قد نحل
 فجأةً فى ليلة واحدة ، لأننى كنت قد رأيته أمس الأول معافى تماماً •

بدأ الرئيس العمل بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع
 المحلفين ••• ولكننى ألاحظ أنه يستحيل على أن استمر فى سرد
 الوقائع سرداً مفصلاً هذا التفصيل كله ، لأن هناك أموراً لم أحسن
 سماعها ، وأموراً أخرى لم أنتبه اليها انتباهاً كافياً ، كما أن هناك أموراً
 من خصائص هذه الجلسة قد اختفت من ذاكرتى اختفاءً تاماً منذ ذلك
 الحين • ثم اننى - وتلك هى الصعوبة الكبرى - لا يتوفر لى الزمان
 والمكان الكافيان لأن أقصّ هنا كل ما جرى فى أثناء ذلك اليوم ، وهذا
 ما سبق أن قلته • ولكننى أعلم أن عدد المحلفين الذين رفضهم هذا
 الطرف أو ذلك من الطرفين ، أعنى وكيل النيابة والمحامى ، كان ضئيلاً
 جداً • وقد حفلت من جهة أخرى تشكيل هيئة المحلفين : كانت هيئة
 المحلفين تضم أربعة موظفين من مدينتنا ، وتاجرين ، وستة فلاحين
 وبورجوازيين صغار من البلدة • وانى لأتذكر أن الناس فى مجتمعنا
 الصغير ، ولا سيما السيدات ، قد تساءلوا طويلاً قبل بدء المحاكمة بمدّة
 طويلة ، تساءلوا بكثير من الاندهاش والانفعال : « كيف يمكن أن يُعهد
 بالفصل فى مثل هذه القضية الى بضعة موظفين مغمورين والى قبضة من
 الفلاحين ؟ ما الذى يستطيع أن يفهمه من هذه القضية موظف ، ناهيك عن
 فلاح ؟ » • والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين فى هيئة المحلفين كانوا
 أناساً صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية ، وكانوا جميعاً

متقدمين في السن بيض الشعور ، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سنًا من سائرهم • وكانوا مجهولين في مجتمع مديننا ، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمراتب صغيرة حياة مغمورة ، وأنهم قد كان لهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن في المجتمع • ولا بد أنهم قد كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً في أغلب الظن ، ولا بد أن التسليات الوحيدة التي كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هي أن يلعبوا بالورق قليلاً من حين إلى حين • وطبيعي أن أحداً منهم لم يكن قد قرأ كتاباً في يوم من الأيام • صحيح أن اثنين من المحلفين ، وهما تاجران ، قد كان في هيتهما شيء من مهابة ، ولكنهما ظلا صامتين صمتاً غريباً ، ولبنا جامدين لا يحركان ساكناً • فأما أحدهما فكان حليقاً وكان يرتدى ثياباً على الطراز الأوروبي ؛ وأما الثاني ، وهو ذو لحية شائبة ، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علّق به وسام • وأما الفلاحون والبورجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلفين ، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم • ان البورجوازيين الصغار في مدينتنا لا يختلفون كثيراً عن الفلاحين ، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم • كان اثنان من هؤلاء البورجوازيين الصغار من سكان بلدتنا الطيبة سكوتوبريجونيفسك يلبسون ثياباً على الزى الأوروبي ، وكان هذا يفضى على هيتهم ، فيما يبدو ، مزيداً من الوساحة ويجعل مظهرهم أكثر تنفيراً من زملائهم الأربعة • فمن الطبيعي اذن أن يكون اشخاص كثيرون ، أنا واحد منهم ، قد تساءلوا منذ ألقوا نظرة على أعضاء هيئة المحلفين : « ما عسى يفهم من القضية هؤلاء المساكين ؟ » • ومع ذلك بدا لنا في تعبير وجوههم جميعاً شيء من سلطة ، وشيء يشبه أن يكون تهديداً • لقد كانوا جميعاً قساة متطيين متجهمين •

وأخيراً طلب الرئيس النظر في قضية الموظف المتقاعد فيدور

بافلوفتشس كارامازوف - وقد نسيت الآن التعابير الدقيقة التي استعملها عندئذ . وأمر الحاجب بادخال المتهم فظهر ميتاً في القاعة ، فاذا بصمت شديد يخيم عندئذ على حين فجأة ، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها . لا أدري ما الذى دار فى خواطر الحضور ، ولكننى أستطيع أن أقول ان المتهم قد أحدث فى نفسى شعوراً سيئاً كل سوء . والأمر الذى ساءنى منه خاصة هو افراطه فى السعى الى أناقة هندامه . لقد ظهر أمام المحكمة يومئذٍ ببدلة جديدة مفرطة فى التأنق . وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى بهذه البدلة لذلك اليوم عن قصد وعمد ، أوصى بها خياطه بموسكو الذى كان يحتفظ بمقاسه . وكان المتهم يلبس قفازين جديدين كل الجدة ، مصنوعين من جلد ملّمع ، وقميصاً بالغ الرهافة والبذخ . وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة ، ناظراً الى أمام بجمود غريب ، جلس فى مكانه بكثير من الثقة . وفى الوقت نفسه ، ظهر محاميه ، فيتوكوفتشس الشهير ، فاذا بهمهمة مستخفية تطوف فى أرجاء القاعة من أولها الى آخرها . ان هذا المحامى اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر ، له ساقان طويلتان نحيلتان ، وأصابع ضاوية كابية ، وشعر قصير قد صفّف بغير كبير عناية . وشفته الرقيقتان تلتويان فى بعض اللحظات ، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن مكر أم هما تبسمان . وكان يبدو فى نحو الأربعين من عمره . ولولا عيناها الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير ، ولكنهما متقاربتان احداهما من الأخرى تقارباً شديداً ، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما الا العظمة الحادة من أنفه الدقيق الطويل ، لولا عيناها هاتان لكان يمكن أن يُعدَّ وجهه لطيفاً محبباً . الخلاصة أن سحته كان فيها شيء من سحنة عصفور ، وهى بهذا تلفت الانتباه وتخطف البصر . وكان يرتدى رداء رسمياً مع كرافطة بيضاء .

أننى أتذكر تذكراً واضحاً الأسئلة الأولى التى ألقاها الرئيس على

ميتيا ، وهي تتناول هويته ، ورتبته ، وما الى ذلك . وقد أجاب ميتيا عن هذه الأسئلة بجناف وخشونة ، ولكن بصوت قوى يثير الاستغراب حتى ان الرئيس هز رأسه ونظر اليه في دهشة . وبعد ذلك قرئت قائمة أسماء الأشخاص المستدعين الى الادلاء بأقوالهم شهوداً أو خبراء . وكانت القائمة طويلة جداً . واتضح أن أربعة من الشهود غائبون ، وهم : ميوسوف الذى كان قد سافر الى باريس ، ولكن أقواله قد سجلت أثناء التحقيق التمهيدى؛ والسيدة هوخلاكوف ، والمالك ماكسيموف ، وكلاهما معذور بسبب المرض ؛ وأخيراً سمردياكوف الذى مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وفُررت وفاته بشهادة من الشرطة قُدمت الى المحكمة . وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ودمدمات فى القاعة . ذلك أن عدداً كبيراً من جبهة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعده . ولكن الشيء الذى أدهش الناس خاصة هو أن ميتيا قد انفجر صائحاً على حين فجأة : فانه ما ان علم بالنهاية التى انتهى اليها سمردياكوف حتى صرخ من مكانه يقول بصوتٍ دوتى فى القاعة كلها :

— كان كلباً فبات ميتة كلب .

أذكر أن محاميه قد اندفع نحوه حينئذ ، وأن رئيس المحكمة قد وجه اليه تحذيراً قاسياً ، وهدده باتخاذ اجراءات صارمة فى حقه اذا هو كرر فعلته هذه . وقد كرر ميتيا لمحاميه ، عدة مرات ، بصوت هامس ، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلاماً متقطعاً ، ولكن دون أن يبدو عليه انه آسف لصرخته نادم عليها :

— لن أعيدها ، أعدك بذلك ! لقد افلتت منى ! طيب ...

لن أعيدها !

بديهى أن هذا الحادث الطارىء لم يخدم ميتيا فى ذهن المحلفين وفى ذهن الجمهور . فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف فى هذه الفعلة

عن طبعه • وبذلك أساء هذا الانفجار الى الصورة القائمة في الأذهان عنه • وفي هذا الجو السيء انما تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام ، وهو نص مقتضب رغم اشتماله على وقائع القضية ، يقتصر على عرض الأسباب الداعية الى الاتهام ، الباعثة على الادانة ، الخ • وقد أحدثت قراءة القرار تأثيراً كبيراً في نفسى أيضاً • كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جلي بئين رنان • فانبعثت صورة الدراما في أذهان الحضور مرةً أخرى ببروز يأسر اللب ، كأنما انصبت عليها والتقت عندها أضواء ساطعة صادرة من عدة جهات • واني لأذكر أنه ما ان فرغ كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوى نافذ :

- المتهم ••• هل تعترف بارتكابك هذه الجريمة ؟

فنهض ميتيا عن مكانه فجأة ، وصاح يقول بحرارة لم تكن في الحسبان :

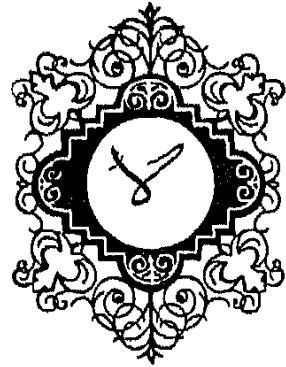
- اعترف بارتكابى جرائم السكر والعريضة والفسق والفجور ، اعترف بأننى امرؤ كسول سيء الخلق والسلوك • ولقد كنت أنوى أن أصلح أمرى وأن أصبح الى الأبد انساناً شريفاً ، فى اللحظة التى حطمنى فيها القدر • ولكننى برىء من مقتل العجوز ، عدوى وأبى • أنا لم أسرقه ، لا ، لا ، لا !••• لم أفعل ذلك ، ولا كان لى أن أفعل ذلك : ان دمترى كارامازوف انسان شقى ولكنه ليس لصاً •

أطلق دمترى هذه الصيحات ثم عاد يجلس وهو يرتعش بكل جسمه • فاتجه اليه الرئيس من جديد يطلب منه بايجاز ولكن بالحاح صارم أن يقتصر على الأسئلة التى تلقى عليه ، دون أن يندفع فى خطب وصيحات لا فائدة منها ولا طائل تحتها • وبعد ذلك أمر الرئيس بسماع

أقوال الشهود • فأدخل الشهود ليحلفوا اليمين ، فرأيتهم عندئذ جميعاً •
على أن أخوى المتهم قد أعفوا من هذا الاجراء وسُـمِحَ لهما أن يدلّيا
بشهادتهما دون قسم • وبعد النصائح والمواعظ التي قالها الرئيس
وقالها كاهن ، 'أخرج الشهود ، وعزل بعضهم عن بعض • ثم نودوا
الى القاعة واحداً بعد واحد •

٢

شهود وخطوة



أدرى هل وزّع الرئيس شهود الاتهام وشهود الدفاع الى فئتين متميزتين ، ولا أدرى ما هو الترتيب الذى اتبعه فى استدعائهم • أغلب الظن أنه اتخذ الاجراءات الضرورية • ولكننى أعرف أن شهود الاتهام هم الذين دعوا الى الادلاء بأقوالهم أول من دُعى • أعود فأكرر أننى لا أنوى أن أصف هذه الاستجابات بالتفصيل كلمة كلمة • ثم ان عرضاً يبلغ ذلك المبلغ من التمام والكمال سيكون زيادة لا داعى اليها ، لأن ما اشتملت عليه شهادات الشهود فى ذلك اليوم من معنى ودلالة قد تولى وكيل النيابة والمحامى تلخيصه وايضاحه فى آن واحد ، وذلك فى مطالعة النيابة ومرافعة الدفاع فى آخر المناقشات • وقد سجلت هذين الخطابين الرائعين ، وأخذت منهما أجزاء برمتها سأعرضها حين يجيىء الأوان • وسأذكر كذلك حادثاً وقع أثناء المحاكمة على غير توقع ، وقع فى البداية وكان له تأثير كبير على النهاية المشئومة • أما الآن فسأقتصر على الاشارة الى وجه خاص من وجوه هذه « القضية » تكشف دفعة واحدة وخطف أبصار الجميع ، وهو قوة الاتهام من جهة وضعف الدفاع من جهة أخرى • لقد بدا منذ الوهلة الأولى أنه ليس هناك تكافؤ بين الاتهام

والدفاع ، وأدرك جميع الحضور حين رأوا عناصر الاتهام تتجمع وتتركز مزيداً من التجمع والتركز شيئاً بعد شيء كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود مزيداً من الاتضاح ، وكلما تجلى هول الجريمة بارزاً مزيداً من البروز . ثم ان جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية مفهومة ، وأنه لا مجال لأي شك ، حتى لكأن المناقشات زائدة لا لزوم لها ولا داعي إليها ، وأنها لن تجرى الا من باب التقييد بالشكل ، اذ كان واضحاً أن المتهم هو الجاني ، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا مشاحة فيه ولا سبيل الى انكاره . وأحسب أن السيدات اللواتي شهدن المحاكمة وكنّ يتمنين بنهم شديد وشراهة قوية تبرئة هذا المتهم الشائق ، أحسب أن هاتهن السيدات كنّ مقتنعات جميعاً ، دون استثناء ، اقتناعاً مطلقاً بأن المتهم هو القاتل . وأكثر من ذلك أنهن كنّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وضع ارتكابه الجريمة موضع الشك ، لأن الخاتمة تكون عندئذ أقل إثارة للمشاعر ، ولأن تبرئة الجاني تكون عندئذ أضعف أثراً وأقل بهاءً . ومن الأمور العجيبة أن هؤلاء السيدات جميعاً قد ظلن حتى آخر لحظة على يقين من أنه سيُبرأ : « صحيح أنه هو الجاني ، ولكنه سيُبرأ باسم الإنسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن » ، النخ ، النخ . وعلى هذا الأمل انما كانت جموعهن الغفيرة قد هرعت الى حضور المحاكمة ، وكنّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاذ صبرهن أثناء المناقشات . أما الرجال فكان يهتمهم ، خاصةً ، الصراعُ بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير . كان الرجال يستغربون ويتساءلون ما الذي سيعمد اليه المحامي ليدافع عن هذه القضية الخاسرة مقدماً ، وما الذي سيتوصل الي الظفر به فيها . لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته وإشاراته وأوضاعه بانتباه شديد . ولكن فيتوكوفتش ظل حتى النهاية موصداً لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته ، الى أن حان حين المرافعة . وكان أهل الخبرة

والتجربة يقدرّون أنه قد هيا نظام دفاعه ، وأنه يسعى الى هدف معيّن ، ولكن يستحيل عليهم أن يعرفوا ماهو ذلك الهدف . وفي أثناء ذلك كانت ثقته وطمأننته واضحتين تخطفان البصر . يضاف الى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التي قضاها في مدينتنا ، وهي لا تكاد تبلغ ثلاثة أيام ، لأن يدرس القضية دراسة عميقة ، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها « . وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف استطاع أن يربك جميع شهود الاتهام في اللحظة المناسبة ، وكيف استطاع خاصة أن يدمّر سمعتهم الأخلاقية بحذق ما بعده حذق ، وأن يحطم بذلك قيمة الشهادات التي أدلوا بها . على أنهم كانوا يرون أنه فعل ذلك كله من قبيل اللعب في الدرجة الأولى ، حباً بالفن ، وشغفاً بالمهنة ، حتى لا يُغفل أية حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية . ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوّل على جنى أية فائدة ذات بال من تلك « الشهيرات » ، وأنه لا بد أن يكون عارفاً بهذا أكثر من أى انسان آخر ، فلعله كان يدّخر فكرة من الأفكار ، لعله كان يخبىء سلاحاً خفياً آخر ، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد ، ولكنه سيخرجها فجأة في اللحظة المناسبة . وبانتظار ذلك كان يبدو شاعراً بقوته ، وكان يجد لذة في التلاعب بالشهود . كان من يراه يحس أنه يتسلى . من ذلك مثلاً أنه حين جاء دور جريجورى فاسيلتس ، خادم فيدور بافلوفتش ، الذى أدلى بشهادة خطيرة في موضوع « الباب المفتوح » المطل على الحديقة ، أمسك المحامى بتلابيه ان صح التعبير ، منذ أتيح له أن يلقي عليه بعض الأسئلة . يحسن أن نذكر هنا أن جريجورى مَثَل أمام المحكمة دون أن يضطرب أى اضطراب ، دون أن يبدو عليه أى تهيّب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذى يصغى اليه . كان هادىء المظهر ، بل كان فيه شيء من مهابة ووقار ، وقد

أدلى بشهادته بثقة مطمئنة كتلك الثقة التي يخاطب بها امرأته مارفا اجناتنا فيما يجرى بينه وبينها من أحاديث ، ولكن باحترام وتوقير • كان يبدو أن ارباكه مستحيل • سأله وكيل النيابة أولاً عن تفاصيل الحياة العائلية التي تحياها أسرة كارامازوف ، فرسم جريجورى لهذه الحياة صورة حية جداً • وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد انسان ساذج أمين غير متحيز • فان ما أظهره من احترام عميق لذكرى مولاه الراحل ، أكد أن المرحوم لم يكن عادلاً نحو ميتيا ، وأنه « لم يحسن تشيئة أولاده » • وحين تحدث عن سنى طفولة ميتيا ذكر أن الطفل « كان سيأكله القمل لولا أن عنى هو به » ، وأضاف الى ذلك أنه « ما كان ينبغي للأب أن يحرم ابنه من حقه فى ميراث أمه » • فلما سأله وكيل النيابة عن الوقائع التي تسمح له بأن يقول ان فيدور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب ، عجز جريجورى عن ذكر وقائع دقيقة (وهذا ما أدهش الجميع) ، ولكنه أصرّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة ، وأن « ميتيا كان من حقه فعلاً أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات » • أحب أن أضيف أن هذا السؤال - أعنى السؤال عن الغبن الذى لحق ميتيا - قد طرحه وكيل النيابة بالحاح خاص على جميع الشهود الذين ملوا أمام هيئة المحكمة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الايضاحات حول هذا الموضوع ، ولم يستثن من هؤلاء الشهود أليوشا وايفان فيدوروفتش ، ومع ذلك لم يستطع أحد من الشهود أن يقدم وقائع مقنعة حاسمة فى هذه النقطة • لقد أطبقت آراؤهم جميعاً على أن الغبن واقع ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يجيء ببرهان قاطع • وحين وصف جريجورى المشهد الذى جرى فى غرفة الطعام لحظة اقتحمها دمترى وضرب أباه مهدداً بأنه سيعود ليقتله فيما بعد ، خرج من سرده لهذه الوقائع شعور بادانة المتهم ، لا سيما وأن الخادم المعجوز كان

يتكلم بهدوء ، لا يسترسل في عبارات لا فائدة منها ، وإنما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده ، المعهودة فيه ، فكان بذلك بليغاً كل البلاغة دون أن يقصد الى البلاغة . أما فيما يتعلق بالاهانة التي ناله بها ميتيا (كان ميتيا قد لطمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة) فقد قال جريجورى انه لا يحمل لميتيا حقداً أو ضغينة وأنه غفر له هذه الاساءة منذ مدة طويلة . ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف ، رسم اشارة الصليب أولاً ، ثم قال ان الفتى لم يكن خالياً من بعض المزايا ، لكنه كان غيباً ، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله ؟ وأخذ عليه خاصة أنه كان ملحداً ، دون أن ينسى ان يقول ان فيدور بافلوفتش وايفان بافلوفتش هما اللذان لقنناه الالحاد . وفي مقابل ذلك ألحّ بشيء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتى أميناً ، وروى كيف أن هذا الخادم ، حين عثر بالأوراق المالية التي أضاعها مولاه في فناء المنزل ، لم يخطر بباله أن يستولى عليها ، وإنما ردها الى فيدور بافلوفتش الذى كافأه على أمانته بدينار ذهبى ، وأصبح يثق بخادمه منذ ذلك الحين ثقة مطلقة . وأكد جريجورى من جهة أخرى ، بعناد لا سبيل الى زحزحته عنه ، أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحاً . هذا وقد طُرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل على أن آتى على ذكرها كلها .

وأخيراً جاء دور المحامى لاستجواب الشاهد ، قبل كل شيء ، عن الظرف الذى « يزعم » أن فيدور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل « لشخص ما » : « هل رأيت هذا الظرف بعينيك ، أنت الذى تعيش فى صميم حياة مولاك خلال تلك السنين الطويلة كلها ، وكنت قريباً منه ذلك القرب كله ؟ » . فأجابه جريجورى بأنه لم يَرَ ذلك الظرف ، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ « الى اللحظة التى أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه » . وقد ألقى فيتوكوفتش هذا السؤال عن

الطرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يحييوا عن هذه النقطة ، وألحَّ في ذلك إلحاحاً كالحاح وكيل النيابة في السؤال عن اقتسام الميراث . فأجاب جميع الشهود ، في هذه المرة أيضاً ، واحداً بعد واحد ، بأنهم لم يروا الطرف ، وان يكن بعضهم قد سمع عنه . وقد لوحظ أن المحامي يولى هذه النقطة اهتماماً كبيراً ويقيم لها وزناً عظيماً ، ويرى أن لها شأنًا خطيراً .

قال فيتوكوفتش فجأةً على نحو غير متوقع :

— أحب الآن أن ألقى عليك سؤالاً إذا سمحت . هل فى وسعك أن تقول لى شيئاً عن تركيب ذلك المرهم ، أو ان شئت عن تركيب ذلك السائل المغلى الذى استعملته ذلك المساء قبل أن تنام ، كما يظهر من التحقيق الأولى ، فى تدليك كليتيك الموجهتين ، آملاً أن تشفى بهذه الوسيلة !

نظر جريجورى الى المحامى نظرةً بلهاء ، وصمت بضغ ثوان ، ثم قال :

- يدخل فى تركيبه نبات القويصة .
- لا شىء الا نبات القويصة ؟ لا شىء الا القويصة بتاناً ؟ تذكر
- ويدخل فيه نبات لسان الحَمَل أيضاً .
- وربما قليل من الفلفل ؟
- وفيه فلفل كذلك .
- عظيم . وهذه النباتات كلها غليت فى خمرة ، أليس كذلك ؟
- نعم ، فى كحول .
- سُمعت فى القاعة عندئذ ضحكات مكتومة .
- عظيم ، عظيم ، فى كحول . وبعد أن دلكت ظهرك شربت مابقى

فى الزجاجة من هذا السائل ، وأنت تتلو صلاة خاشعة لا يعرف أحد
نصّها الا زوجتك ، أليس كذلك ؟

- نعم شربته •

- هل شربت مقداراً كبيراً من هذا السائل ؟ كم شربت ، مثلاً ؟
أقدحاً واحداً أم ربما قدحين ؟

- قدحاً ملآن تقريباً •

- هه ؟ قدحاً كاملاً ؟ أم قدحاً ونصف قدح مثلاً ؟

صمت جريجورى • لكأن ضياءً قد بزغ فى ذهنه •

قال المحامى :

- قدح ونصف قدح من كحول صاف • ليس هذا قليلاً ، هه ؟

ان الانسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحاً
فيحسب ، بل أن يرى كذلك « أبواب الجنة » كلها مفتوحة •

ظل جريجورى صامتاً • وسمعت فى القاعة ضحكات صغيرة

مكظومة من جديد • فاضطرب الرئيس •

عاد فيتوكوفتش يسأل بالحاح وهو يحدّق الى فريسته :

- أما كنت فى حالة وسنٍ حين أبصرت الباب المطل على الحديقة

مفتوحاً •

- كنت واقفاً على قدمي •

- هذا لا ينفى أن تكون فى حالة وسنٍ (ضحكات مكظومة) •

هل كان فى وسمك عندئذ أن تجيب فى تلك اللحظة عن سؤال يلقيه

عليك أحدهم ، كأن يسألك مثلاً فى أى سنة نحن ؟

- لا أدري !

- طيب ... فى أية سنة من العصر المسيحى نحن الآن ؟ هل

تعرف ؟

بدت الحيرة على جريجورى الذى كان لا يحوّل بصره عن جلاده .
 ومن الغريب أنه كان يجهل فعلاً فى أى سنة نحن .
 - هل تستطيع أن تقول لى ما عدد أصابع يديك ؟
 فقال جريجورى فجأة بصوت قوى واضح :

- انا امرؤ احترم السلطة ، وقد تعودت أن أطيع ، فاذا حلا لمن هم
 أعلى منى مقاماً أن يسخروا منى ، فمن واجبي أن أتحمل ذلك .

بدا على فيتوكوفتش شىء من الغيظ ، ولكن الرئيس أسرع يتدخل
 فطلب من المحامى أن يلقى أسئلة تتعلق بالدعوى تعلقاً مباشراً . فلما سمع
 المحامى طلب الرئاسة انحنى بوقار ، وأعلن أنه ليس لديه سؤال آخر
 يلقيه . واضح أن شكاً خفيفاً قد زرع الآن فى أذهان الجمهور وفى أذهان
 المحلفين ، فيما يتعلق بقيمة شهادة يدلى بها رجل يمكن أن « يرى أبواب
 الجنة » بتأثير دواء ، عدا انه يجهل السنة التى نحن فيها من العصر
 المسيحى . فى وسعنا أن نقول اذن ان المحامى قد حقق هدفه على كل
 حال . وقبل أن ينصرف جريجورى وقع حادث آخر . ذلك أن الرئيس
 اتجه الى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة ، فصاح ميتيا
 يقول بصوت قوى :

- باستثناء ما قاله عن الباب ، فان كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها .
 صحيح ما ذكره من أنه أنقذنى من القمل ، وأنا أشكر له ذلك . ولقد
 غفر لى اللطعات ، فأنا أشكر له ذلك أيضاً . ان هذا العجوز كان رجلاً
 شريفاً أميناً صادقاً طوال حياته ، وكان وفياً لأبى وفاء سبعمائة كلب .

قال الرئيس بلهجة قاسية :

- المتهم ! . . . عليك أن تراقب ألفاظك .

وقال جريجورى متدمراً بدوره :

– أنا لست كلباً •

فهتف ميتيا يقول :

– اذن أنا الكلب • اذا كان اهانةً أن يكون المرء كلباً فأنى أصف

نفسى بهذه الصفة ، وأطلب منه الصفع والعمو • لقد كنت قاسياً وعنيفاً

معه • ومع ايزوب أيضاً •

فتدخل الرئيس قائلاً بقسوة :

– أى ايزوب تعنى ؟ عمّن تتكلم ؟

– أتكلم عن بيرو ••• أبى ••• أبى ••• فيدور بافلوفتش •

فأثب الرئيس ميتيا وقرّعه ، وأمره بلهجة صارمة أن يحسن

اختيار ألفاظه بعد الآن ، وقال له :

– انك تسيء الى نفسك بنفسك فى أذهان قضائك •

وبتلك البراعة نفسها عرف المحامى كيف يعبث بالشاهد راكيتين
الذى كان من أهم شهود الاتهام ، والذى كان وكيل النيابة يعوّل عليه
كثيراً • لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شيء ، وأنه
مطلع على الأمور اطلاقاً غريباً ، وأنه اختلف الى جميع الأشخاص ، وأنه
رأى كل شيء ، وتحدث مع كل واحد ، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيدور
بافلوفتش ، كما يعرف تفاصيل سير آل كارامازوف جملةً • صحيح أنه،
فيما يتعلق بالظرف الذى أودعت فيه الثلاثة آلاف روبل ، لم يكن قد
سمع شيئاً عن هذا الأمر ، هو أيضاً ، الا من ميتيا • ولكنه فى مقابل
ذلك قد وصف سلوك ميتيا فى كإباريه « العاصمة الكبرى » وصفاً دقيقاً ،
ونقل أقواله وذكر اشاراته وحركاته ، وروى حادثته مع الكابتن
سنيجيرييف • أما عن أن فيدور بافلوفتش كان لا يزال مديناً لميتيا ببعض

المال تصفيةً لحساب الميراث ، فان راكيتين نفسه لم يستطع أن يذكر شيئاً دقيقاً واضحاً ، واكتفى بأن قال بضع عبارات غامضة فيها ازدراء واحتقار : « من ذا الذى يستطيع أن يقول أيهما كان مذنباً فى حق الآخر ، وأتنبى للمرء أن يعرف شيئاً واضحاً عن حساباتهما فى ظل هذا النظام المنزلى العجيب الذى تعيشه أسرة كارامازوف ، وفى ظل تصرفهم للأمور المالية تصرفاً لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئاً البتة ! » . لقد صور راكيتين الدراما التى أدت الى الجريمة على أنها ثمرة عاداتنا وأخلاقنا المتخلفة ، وثمره نظام القناة ، وثمره الفوضى التى تسيطر على بلادنا روسيا التى تعاني شقاء كبيراً وتفترق الى أنظمة لا غنى لها عنها . خلاصة القول أنه سُمح لراكيتين أن يلقي خطاباً مسهباً ، وبمناسبة هذه الدعوى انما اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة . كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوى أن ينشر مقالاً عن القضية فى جريدة من الجرائد ، حتى لقد أورد فى مطالعته (كما سئرى ذلك فيما بعد) عدداً من الأفكار التى يعبر عنها ذلك المقال ، فكان اذن مطلعاً على مضمون المقال . كانت الصورة التى رسمها راكيتين مظلمة قاسية دكناء يخرج منها شعور يعزز « الاتهام » تعزيزاً قوياً . ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال ان العرض الذى قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأى وحرية التفكير ، وبما أكده من نبيل العواطف وسمو المشاعر . حتى لقد سُمعت فى القاعة تصفيقات انطلقت هنا وهناك من تلقاء نفسها ، وذلك أثناء كلامه عن نظام القناة ، وعن روسيا الشقية التى ترين عليها الفوضى . ولكن راكيتين ، الذى لم يكن الا شاباً على كل حال ، لم يستطع أن يتحنب خراقةً سرعان ما استغلها المحامى استغلالاً يدل على مقدرة فائقة فى انتهاز الفرص المناسبة . لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن جروشكا ، فاذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة

منقاداً لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه ، ومنتشياً بالسمو الأخلاقي الروحي الذي ارتقى اليه ، اذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم عن أجراءفين الكسندروفنا بشيء من الاحتقار ويصفها بأنها « امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف » ، فسرعان ما استولى المحامي على هذه العبارة الشقية التي زلّ بها لسان راكيتين والتي أصبح راكيتين مستعداً بعد ذلك لأن يضحى بكل شيء في سبيل أن يسحبها . وما كان لهذا كله أن يقع على كل حال لو قد تنبأ راكيتين بأن المحامي قد اطلع أثناء هذه الفترة القصيرة على أدق تفاصيل الأمور .

قال المحامي حين جاء دوره لاستجواب الشاهد ، قال وعلى نغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والمودة والاحترام .

— اسمح لي أن أسألك هل أنت ذلك السيد راكيتين نفسه الذي نشرت له سلطات الأبرشية في الآونة الأخيرة كتيباً عنوانه « سيرة الأب السعيد الشيخ زوسينا » ، وهو كتيب مليء بأفكار دينية أخلاقية عميقة ، ومُهدى بكثير من التبجيل واللباقة الى صاحب العظمة سيادة البطريق ؟ لقد قرأت هذا الكتيب مؤخراً بكثير من الاهتمام .

تمتم راكيتين يقول وقد بدا عليه الاضطراب فجأة كأنه يشعر بخزي :

— أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر ، وانما نشرت بعد ذلك دون علمي .

— ها . . . عظيم !! ان مفكراً مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظمة في النظر الى الأمور ، ازاء جميع جوانب الحياة الاجتماعية . وقد قُبِّض لكتيبك الممتاز ، بفضل حماية صاحب العظمة البطريق ، أن ينتشر انتشاراً واسعاً وأن يكون ذا فائدة . . . ولكنني

أحب من جهتي ، دون أن أكون مسرفاً في الفضول ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : لقد ذكرتَ منذ قليل أنك تعرف جيداً السيدة سفيتلوفاء ، أليس كذلك (ليلاحظ القارئ أنه عُرف في تلك اللحظة وحدها أن اسم أسرة جروشنيكا هو سفيتلوفاء . ولقد سمعت هذا الاسم في هذه المناسبة لأول مرة) .

هتف راكيتين يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

– لا يمكن أن أؤاخذ على معرفتي بجميع من أعرف من الناس
... أنا شاب ... ومن ذا الذي يتحمل تبعه جميع ما يعرض له من لقاءات ؟

فهتف فيتوكوفتش هو أيضاً يقول متظاهراً بالخجل حريصاً على المبادرة الى الاعتذار :

– طبعاً ، طبعاً ، مفهوم ! أنا أفهم هذا حق الفهم . انه لمن الطبيعي جداً أن تجتذبك ، كما تجتذب أيَّ انسان آخر غيرك ، متعةُ امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل في بيتها زهرة شبان المدينة ... ولكنني ... أريد أن توضح لي نقطة واحدة : نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفاء قد تمت منذ شهرين ، بكثير من الالحاح ، أن تتعرف الى الكسي فيدوروفتش ، أصغر الاخوة كارامازوف ، وأنها رجلك أن تجيئها به ، وأن تجيئها به مرتدياً ثوب الرهبان الذي يرتديه ، وقد وعدتك اذا أنت أفلمحت في أن تجيئها به ، وعدتك بمكافأة مقدارها خمسة وعشرون روبلاً . ونحن نعلم أنك لبيت طلبها ، وأن الزيارة تمت في تلك السهرة نفسها التي اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى . لقد قدت ألكسي فيدوروفتش الى بيت السيدة سفيتلوفاء ، وأخذت منها المبلغ الذي وعدتك به ، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، هل هذا كله صحيح ؟ ذلك ما أحب أن توضحه لنا الآن .

– كانت تلك مزحة لا أكبر *** ولست أرى فيم يمكن أن يعنىك هذا الأمر *** وقد أخذت المبلغ من باب اللعب والعبث *** وعلى نية رددّه اليها بعد ذلك ***

– ولكنك قبلت المبلغ ، ولم ترّده حتى الآن *** أم تراك رددته ؟
تمتم راكيتين يقول :

– هذه سفساف • وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع *** طبعى أننى سأرد هذا المال •

همّ الرئيس أن يتدخل فى تلك اللحظة ، ولكن المحامى أسرع يعلن نه لم يبق لديه سؤال اخر يلقىه على راكيتين • وانصرف راكيتين منكسراً مهزوماً • لقد فسد ما أحدثه خطابه من شعور بانه انسان نبيل النفس ، فسد هذا الشعور فساداً لا صلاح له بعده *** وكان فيتوكوتش الذى لاحقه بنظرة ساخرة ، كان كمن يخاطب الجمهور قائلاً له : « انظروا الى شهود الاتهام هؤلاء ، ما قيمتهم ! » وانى لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثاً فى هذه المناسبة أيضاً • فانه وقد اخنقه اللهجة التى تكلم بها راكيتين عن جروشنكا ، صاح فجأة يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب : « برنار » ، وحين اتجه الرئيس ، بعد استجواب راكيتين ، حين اتجه الى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد ابداءها ، صرخ ميتيا يقول بصوت مجلجل :

– لقد اقترض منى مالاّ عدة مرات • هذا برنار حقير ، لا يؤمن بالله ، وقد ضل صاحب العظمة البطريق وغرّر به •

طبعى أن ميتيا قد أمر من جديد بالتزام النظام ، واجتناب الألفاظ النابية ، ولكن السيد راكيتين كان قد فقد مهابته وتجلل بالخزى • ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالى ، وهو الكابتن سنيجيريوف ،

أكبر من حفله مع الشاهدين السابقين ، ولكن لسبب آخر . لقد جاء سنجيريف الى المحكمة مشعث الثياب وسخ الهيئة موحد الحذاءين ، وسرعان ما أدرك الناس أن المسكين سكران سكرأ تاماً ، رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم « تقرير الخير » . فلما سئل عن الالهانة التي ألحقها به ميتيا رفض باصرار عنيد أن يجيب . وقال :

— سامحه الله . ان صغيرى ايلوشا لا يريد هذا . سينصفنى الله فى الآخرة .

— من الذى لا يريد ؟ من يمنعك من الكلام ؟

— ايلوشا ، ابنى الصغير : « بابا . . . حيبى بابا . . . ما أكثر ما أذلك ! » . هكذا كلمنى قرب الصخرة . وهو الآن يموت .

قال الكابتن ذلك ثم انفجر باكياً منتحباً على حين فجأة ، وسجد أمام قدمى الرئيس . فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور وقهقهاتهم ، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين .

واستمر المحامى يستعمل جميع أساليب فنه ، واستمر الناس يدهشون مزيداً من الدهشة لاطلاعه العجيب على القضية بأدق تفاصيلها . هكذا احدثت الشهادة التى أدلى بها تريفون بوريستش أثراً قوياً فى أول الأمر ، وكانت هذه الشهادة تُدين ميتيا طبعاً . من ذلك خاصة أنه حسب ، قرشاً قرشاً ، النفقات التى أنفقها ميتيا أثناء رحلته الأولى الى موكرويه قبل وقوع الفاجعة بشهر ، فبيّن أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل ، أو ما يقرب من ذلك . ما أكثر ما رمى للنجريات من مال ! « أما فلاحونا المقمّلون فانه لم يكتف بأن ينفصحهم نقوداً صغيرة أو نقوداً من فئة الخمسين كوبك بل

كان يوزع عليهم أوراقاً مالية لا تقل واحدة منها عن خمسة وعشرين روبلاً ! ناهيك عما سُرق منه في تلك الليلة !! ان اللصوص لم يتركوا بطاقات زيارة ، ولا كان يمكن أن يخطر ببال أحد أن يبحث عنهم ويعثر عليهم بينما كان ميتيا نفسه يتلف المال اتلافاً ويبدده تبديداً . ان فلاحينا لصوص لا ضمير لهم ولا وجدان . والبنات ! بنات قريتنا ! انه لم ينسهن ! لقد اغتبن منذ ذلك الحين ، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة ، . الخلاصة أن تريفون بوريسشس أحصى جميع النفقات ، وبدا أنه يجرى حساباً دقيقاً . وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق الا ألفاً وخمسمائة روبل ، وانه خاط باقى المبلغ فى كيس صغير ، بذلك يكون ذلك الافتراض مردوداً مرفوضاً . « رايث الثلاثة آلاف روبل بعينى » ، ما أنا بمن يُخدع فى مثل هذه الأمور ! . كذلك كان يصيح تريفون بوريسشس ، وكان واضحاً أنه انما يفعل ذلك حباً بارضاء السلطات ؛ ولكن حين جاء دور المحامى لالقاء الأسئلة على الشاهد ، اكتفى المحامى بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن فى شهادة صاحب الفندق ، قال : ان الخوذى تيموتى وفلاحاً آخر اسمه آكيم قد عثرا بورقة مالية بمائة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو فى حالة سكر ، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها تريفون بوريسشس الذى كافأ كلاهما بروبل ، « فهل أرجعت المائة روبل هذه الى السيد كارامازوف أم أنت لم ترجعها ؟ أجب ! » . فحاول تريفون بوريسشس أن يتملص من الجواب ، ولكنه بعد سؤال الفلاحين اللذين عثرا بالورقة المالية ، اضطر أن يعترف بالواقعة ، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة المالية الى دمترى فيدوروفتش فوراً ، وأنه فعل ذلك بدافع الأمانة والشرف ، ولكن المتهم كان قد بلغ منه السكر كل مبلغ حينذاك ، فمن الجائز أن يكون قد نسي ان المال أعيد اليه فى حينه . «

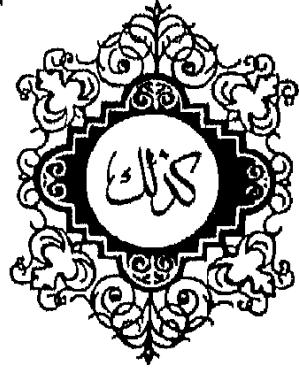
ولكن لما كان تريفون بوريستش قد ظل الى حين مثل الفلاحين ينكر العثور بورقة نقدية على ارض الدهليز أصلاً ، فان ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أرجعت الى ميتيا الثمل ، أصبح مطعوناً فيه . هكذا رأينا شاهداً من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته تزعزعاً قوياً .

وكذلك كان شأن « السيدين » البولنديين . لقد أظهرنا في البداية كبرياءً وغروراً ، وأكد بصوت قوى انهما « خدما التاج » * بأمانة واخلاص وأن « السيد » ميتيا عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة آلاف روبل ثمناً لشرفهما ، وأنهما شاهدا ذلك المبلغ في يديه بأعينهما . وقد استعمل « السيد » موزيالوفكتش عدداً كبيراً من الألفاظ البولندية في جملة ، فلما لاحظ أن ذلك قد رفع قدره وزاد قيمته في نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة ، شعر بارتياح وسرور وأخذ يتكلم بالبولندية . ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضاً بشباكه : فرغم أن تريفون بوريستش ، الذي استدعى الى القاعة مرة أخرى ، قد حاول الانكار ، فانه اضطر أخيراً أن يعترف بأن « السيد » فروبلفسكى قد استبدل بورق اللعب الذي أخذه منه ورقاً آخر أخرجه خلسة ، وأن « السيد » موزيالوفكتش قد غش في اللعب أثناء استلامه دور « البنك » . وقد جاءت أقوال كالجانوف الذي أدلى بشهادته بعد ذلك ، جاءت مؤيدةً لصحة هذه « التفاصيل » ، فخرج « السيدان » البولنديان مرتبكين مجلدين بالعار تشيعهما قهقهات الحضور .

وهذا المصير نفسه كان ينتظر شهود الاتهام الآخرين الخطرين . فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية ، فانصرفوا وهم في حالة يرثى لها . وقد أعجب محبو الاطلاع ورجال القانون ببراعة المحامي هذه ، ولكنهم كانوا يتساءلون

ما الذى يمكن أن يجنيه بهذا الأسلوب من فائدة للقضية ؛ ذلك لأنهم - أكرر هذا - كانوا يشعرون جميعاً بأن الاتهام قوى قوة لا تقاوم ولا تغالب ؛ ولأن الأدلة ضدّ المتهم كانت تتكاثر ويتراكم بعضها فوق بعض ، وما تنفك تزداد تهديداً باقتراب المتهم من الادانة مزيداً من الاقتراب . ومع ذلك كان الناس يدركون ، من ملاحظة الثقة البادية فى هيئة «المجوسى الكبير» ، أنه كان هادئاً مطمئناً ، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة بكثير من الشوق . ليس عبثاً أن يزعم « مثل هذا الأستاذ » نفسه بالمجئء الى بلدتنا من سان بطرسبرج ، فما هو حتماً بالرجل الذى يرجع خائباً دون ثمرة يجنيها .

الشهادة الطبية ورطل من بنرق



لم يبد أن شهادة الطب تنفع المتهم • وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوّل كثيراً عليها ، فيما يبدو ، كما ظهر ذلك من بعد • وانما عمّد الى استخدامها بسبب الحاح كاترين ايفانوفنا التي استقدمت لهذا الغرض طبيباً شهيراً من موسكو • كان واضحاً أن الدفاع لن يخسر باستخدام شهادة الطب شيئاً ، حتى لقد يجنى بعض النفع اذا واثت الظروف • على أن شهادة الطب هذه قد صحتها مشاهد مضحكة جداً ، وذلك بسبب اختلاف الأطباء في الرأي • كان الأطباء الذين عيّنوا خبراءاً للدلاء بأرائهم في هذه القضية هم أولاً الاخصائي الشهير الذي استقدم من موسكو ، ثم طيبينا الطيب الدكتور هرتسنشتوبه ، وأخيراً الطبيب الممارس الشاب فارفنسكى • على أن هذين الطبيين الأخيرين قد مثلاً أمام المحكمة بصفتهما شاهدين أيضاً ، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك • فأما الحير الأول الذي استدعى للدلاء برأيه فهو الدكتور هرتسنشتوبه • انه عجوز في السبعين من عمره ، أشيب أصلع ، مربع القامة قوى البنية ، كان الناس في مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيراً • كانوا يعلمون أنه صاحب ذمة وضمير ، وأنه طيب القلب على الأخلاق • حتى لقد كانوا يزعمون أنه ينتمى الى ملة دينية هي ملة « الاخوان

المورافين « * اذا لم يخطيء ظني * وهو يقيم في مدينتنا منذ سنين طويلة
وكان على جانب عظيم من الوقار والمهابة * وكان رجلاً انسانياً كريماً ،
فهو يعالج الفقراء والفلاحين مجاناً ، ويعودهم في أكواخهم ويترك لهم
مالاً لشراء الأدوية * ولكنه كان في الوقت نفسه عنيداً عناد بغل * كان
لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأى قلم في ذهنه * ومهما يكن من
أمر ، فلقد كان جميع الناس يعلمون ان الاختصاصي الشهير الآتي من
موسكو قد استطاع خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي قضاها في مدينتنا
أن يفصح مراراً عن آراء تطعن في كفاءات الدكتور هرتسنشتوبه الطيبة
طعنًا بالغاً جارحاً * ورغم أن هذا الاختصاصي قد تقاضى خمسة وعشرين
روبلًا على الأقل عن كل كشف طبي أجراه ، فما كان أكثر الذين
ابتهجوا في مدينتنا لقدمه ، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشارته غير
ضائنين بالمال * وطبيعي أن جميع هؤلاء المرضى كان قد عاجلهم الدكتور
هرتسنشتوبه قبل ذلك ، فكان الاختصاصي الشهير ينتقد المعالجة التي وصفها
لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقداً لاذعاً بالفاظ قاسية جداً ، حتى لقد صار
آخر الأمر يبادر المرضى الوافدين اليه بهذا السؤال : « هيه ! أليس
الدكتور هرتسنشتوبه هو الذي صيرك الى هذه الحال ؟ قه قه قه هه هه » *
وقد أنبىء الدكتور هرتسنشتوبه طبعاً بما كان يقوله عنه هذا الطبيب
الاخصائي * وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد
واحد كخبراء ! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعة واحدة ان « المتهم
لا يملك كامل قواه العقلية ، وأن هذا يرى من أول نظرة » * وحين
بسط آراءه في هذا الموضوع (وهي آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول
ان الشذوذ النفسي الذي يعاني منه المتهم يتجلى لا في طائفة كبيرة من
الأعمال التي سبق أن ارتكبها فحسب ، بل يمكن أن يلاحظ أيضاً - وهذا
أهم - في سلوكه في جلسة المحاكمة هذه نفسها فلما طلب الى الدكتور

هرتسنشتوبه أن يقول أين هو الشذوذ في وضع المتهم الآن ، أجاب الطبيب العجوز قائلاً بالسذاجة المعهودة فيه ان المتهم حين دخل القاعة « كان يمشی مشية غريبة لا تلائم الظروف التي هو فيها ، فهو يسير قدماً لا يلوى على شيء ، كما يسير جندي ، وهو يحدّق بعينه تحديقاً ثابتاً لا ينظر يمنة ولا يسرة ، مع أن الشيء الطبيعي السوي بالنسبة اليه هو أن ينظر يسرةً ، حيث توجد النساء من الحضور ، لأنه رجل يحب الجنس اللطيف حبا عظيماً ، فلا بد أن يقيم وزناً كبيراً لرأى السيدات ، لما عسى أن يكون رأى السيدات فيه حينذاك » . وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغة أصيلة خاصة به . يحسن أن نذكر أنه كان يتكلم اللغة الروسية بانطلاق وتدفق ، ولكن كل جملة من جملة كان فيها شيء ألماني لا أدري ما هو ، وذلك أمر لم يكن يقلقه البتة ، لأنه تعود طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية اتقاناً كاملاً ، وأن روسيته « خير من روسية الروس أنفسهم » . وكان يحب كثيراً أن يروي أمثالاً روسية ، وكان يؤكد في كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب . يجب أن أضيف الى هذا أنه كثيراً ما كان يتفق له أثناء الحديث - عن زهول في أغلب الظن - أن ينسى ألفاظاً هي أكثر الألفاظ استعمالاً ، ألفاظاً يعرفها حتماً ، ولكنها اختفت من ذهنه على حين فجأة . على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضاً . وهو في اللحظات التي يحدث له فيها ذلك ، يأخذ يحرك يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التي طارت ، وما من أحدٍ يستطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدى الى اللفظة الضائعة .

أثارت الملاحظة التي ذكرها عن المتهم حين قال انه كان عليه أن ينظر الى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة ، أثارت هذه الملاحظة في جمهور الحضور دمدمات ضاحكة . لقد كان العجوز يؤثر النساء على

الرجال • وكانت النساء تعرف أنه - على كونه عازباً - قد عاش طوال حياته عفاً طاهراً ، وأنه يعد النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية • ولذلك بدت ملاحظته هذه التي لم تكن تُتوقع منه ، بدت لجميع الناس مثيرةً للدهشة والاستغراب •

وجاء دور سؤال الاخصائي القادم من موسكو ، فصرح بلهجة قاطعة والباح حاسم ان حالة المتهم العقلية هي في رأيه حالة غير سوية ، بل هي « غير سوية الى أقصى حد » • وتكلم في اسهاب وتفقه عن مرض «الحصار» وعن مرض «المانيا» ، وبرهن بالاستناد الى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبل اعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة حصار ؛ فاذا سلمنا جدلاً بأنه كان حين ارتكابه الجريمة واعياً شاعراً بما يفعل ، فمما لا شك فيه أنه فعل ما فعله بغير ارادة تقريباً ، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضى الذى كان قد سيطر عليه واستبد به • كذلك قال الاخصائي شارحاً • ثم أضاف يقول : على أن المريض كان مصاباً ، عدا مرض الحصار ، بداء « المانيا » ، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدى به الى الجنون الكامل (ملاحظة: اننى أنقل هنا بلغتى أنا ، أقوال ذلك الطبيب الاخصائي فى الأمراض العقلية الذى استعمل عندئذ لغة تكنيكية فيها كثير من التفقه) • وتابع الطبيب كلامه فقال : « لقد كان يتصرف فى جميع الأحوال تصرفاً يخالف العقل والمنطق • لن أقول شيئاً عما لم أره بنفسى ، أعنى الجريمة وتلك الدراما كلها ؛ ولكن يجب على أن أذكر مع ذلك أن نظرتة ، أمس الأول ، أثناء حديث جرى بينى وبينه ، كان فيها جمود غريب ليس له تفسير • يضاف الى هذا أنه كان يضحك بدون أى سبب يدعو الى الضحك • وقد لاحظت لديه حنقاً مستمراً غير مفهوم ، كما لاحظت أنه يستعمل كلمات غريبة مثل « برنار » ، « ايطيكا » ، وغير ذلك من الفاظ لا محل لها اطلاقاً » • على أن أبرز

شيء يتميز به مرض « المانيا » لدى المتهم ، فى نظر الطبيب ، هو أن المتهم
 كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التى يعتقد أن أباه
 حرمه منها ، والا يُصاب بحالة شديدة من الاندفاع ، بينما يكون قبل
 ذلك هادئاً كل الهدوء أثناء كلامه عن اخفاقات أخرى أو اهانات أخرى
 تحملها أثناء حياته وهو يتذكرها الآن دون أى اضطراب ظاهر . هذا
 ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر حنقه
 كلما ذكرت هذه الثلاثة آلاف روبل ، رغم أنه ، على ما يشهد به
 الشهود ، لا يعد متهافتاً على المنفعة ولا يعد طماعاً . ثم أضاف الطبيب
 الوافد من موسكو يقول بلهجة ساخرة خاتماً كلامه : « أما عن رأى
 زميلى العالم الذى يذهب الى أن المتهم كان ينبغى له عند دخوله القاعة أن
 ينظر الى جهة السيدات لا أن ينظر الى أمام ، فانى أعتقد أن من واجبي
 أن أؤكد ، بصرف النظر عما تتسم به هذه الملاحظة من طابع الملاحظة
 الفكهة ، أن هذه الملاحظة خطأ فاحش . فانى على موافقتى لرأى زميلى
 المحترم فى أن المتهم ما كان ينبغى له أن ينظر الى أمام ، أثناء دخوله قاعة
 المحكمة التى سيتقرر فيها مصيره ، وعلى موافقتى لرأى زميلى المحترم
 فى أن فعلة المتهم هذه يجب ان تعد عرضاً من اعراض حالته العقلية
 المختلة ، أقول اننى من جهتي أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر
 بسرة الى جهة السيدات ، بل أن ينظر يمناً الى جهة محاميه باحثاً عنه
 فى تلك اللحظة بعينه ، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد ، ولأن مصيره
 كله متوقف على دفاع هذا المحامى . ، . أعرب الطبيب الاخصائى عن
 رأيه هذا بلهجة قاطعة جازمة لا تُرد . غير أن الخلاف المضحك الذى
 قام بين الأطباء الخبراء انما وصل الى أوجه وبلغ ذروته حين جاء دور
 الدكتور فارفسكى الذى سئل عن رأيه آخر من سئل من الأطباء ،
 فأخذ يدلى بأرائه ويقدم شروحه . قال هذا الطبيب ان المتهم هو ، الآن

وفى الماضى على السواء ، رجلٌ حالته النفسية سليمة كل السلامة ؛ ولئن كان قبل اعتقاله فى حالة عصبية ، وكان مضطرباً اضطراباً شديداً ، فذلك كله يمكن تعليقه بأسباب طبيعية تماماً ، كالغيرة ، والغضب ، والاسراف المستمر فى الشراب وما الى ذلك . فهذه العصبية ليس فيها أى شىء من الاختلالات التى تنتمى الى مرض «الحصار» الذى جرى على ذكره ؛ أما فيما يتعلق بالمسألة التى أثيرت حول الجهة التى كان ينبغى للمتهم أن ينظر اليها لحظة دخل القاعة ، فقد أعلن هذا الحخير الثالث أنه كان على المتهم « بحسب رأيه المتواضع » أن ينظر الى أمام ، كما فعل تماماً ، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها ، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره ، كانوا قبائلته فى تلك اللحظة . « وهو ، اذ نظر الى أمام فعلاً ، قد برهن على أنه فى حالة نفسية سليمة بريئة من المرض » . بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب « رأيه » المتواضع .

فصرخ ميتيا من مكانه يقول :

- مرحى يا حكيم ! هذا صحيح كل الصحة !

وأُسكت ميتيا طبعاً ، ولكن رأى الطبيب الشاب أحدث أثراً حاسماً فى أعضاء المحكمة وفى جمهرة الحضور على السواء ، لأن جميع الناس فى مدينتنا قد انحازوا الى رأيه ، كما ظهر ذلك فيما بعد . ثم ان الدكتور هرتسنشتوبه ، حين استُجوب كشاهد ، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد البتة . ان الدكتور هرتسنشتوبه ، وهو يقطن مدينتنا منذ عهد بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل ، قدّم معلومات تساعد الاتهام كثيراً ، ولكنه أضاف يقول وكأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة :

- ومع ذلك فان هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيراً أفضل ، لأنه كان فى طفولته طيب القلب ، وكان طيب القلب بعد ذلك

أيضاً ، أنا أعرف هذا + على أن هناك مثلاً روسياً يقول : « حسن أن يكون المرء ذا عقل ، ولكن أحسنُ من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل ، لأن عقليين اثنين خير من عقل واحد + + + » .

- تريد أن تقول ان في اتحاد العقول قوة لها + + +

كذلك تدخل الرئيس متململاً وهو يعرف طريقة الطيب العجوز في بطة الكلام وجرّ الألفاظ دون أن يعباُ بأثر ذلك في مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد صبرهم عند الاصغاء اليه (حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدراً كبيراً مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة ، ويستعملها مبتهجاً ابتهاجاً واضحاً + وكان الى ذلك يحب الأقوال الحلوة حباً عظيماً) .

استأنف الطيب العجوز كلامه فقال معانداً :

- نعم ، ذلك هو ما قلته + عقلان اثنان خير من عقل واحد + ولكن هذا الشاب لم يزوره رجل عاقل آخر ، فمضى عقله هو + + + مضى ي + + + مضى يعمل ماذا ؟ + + + نسيت الكلمة + + + الكلمة التي تعبّر عما مضى يعمل عقله + نسيت تلك الكلمة (كذلك ردّد وهو يحرك يده أمام عينيه) آ + + + نعم + + + تذكرت + + + مضى عقله يتنزّه +

- مضى عقله يتنزّه ؟

- نعم يتنزّه + ذلك ما قلته أيضاً + مضى عقله يتنزّه ، فوصل الى مكان بعيد تائه لا يستطيع فيه أن يهتدى الى نفسه ويجد ذاته + ولكنه كان فتى نبلاً حساساً + أوه + + + اننى أتذكره يوم كان صغيراً جداً قد أهمله أبوه فهو يجرى في فناء المنزل حافي القدمين لا يكاد يمسك سرواله الا زر واحد + + +

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنة انفعال صادق + فارتعش فتوكوفتش اذ أوجس موأاة الفرصة الحسنة ، وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد .

واصل الطيب العجوز كلامه فقال :

- نعم ، نعم ، كنت ما أزال شاباً في ذلك الوقت ... كان عمري ... نعم ... كان عمري خمسة وثلاثين عاماً * وكنت قد استقررت في هذه المدينة منذ فترة قصيرة * لقد أشفقت على الصبي وتساءلت : « لماذا لا أشتري له رطلاً من ... » نعم ، رطلاً من ... ولكن رطلاً مماذا ؟ نسيت الكلمة ... ما اسم ذلك النوع ؟ هو شيء من تلك الأشياء التي يحبها الأطفال كثيراً ... هو ! كيف نسيت ؟ ... كيف نسيت ؟ ... (وحرّك الطيب يديه أمام عينيه من جديد) ... هو ينبت على الأشجار ، على الشجيرات فيقطع ويوزّع على الجميع ...

- من تفاح ، ربما ؟

- أوه ! لا ، لا ! رطلاً ، قلت رطلاً * التفاح يباع باليدسته لا بالرطل ... عجيب ! ... هو وافر جداً ، وهو صغير ... تضعه في فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق ...

- بندق ؟

- نعم ، بندق ، ذلك بعينه ما قلته أنا ...

كذلك وصل الطيب العجوز قوله هذا بقوله السابق هادئاً نل الهدوء ، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة ، فتابع يقول :

- جئت الصبي برطل من البندق ، لأن أحداً لم يكن قد جاءه شيء منه قبل ذلك * رفعت اصبعي وقلت له : « اسمع أيها الصبي الصغير العزيز ، باسم الاله الأب ... » فضحك وردّد : « باسم الاله الأب » ، فقلت : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن » ، فردّد ضاحكاً مزقزقاً من جديد : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن » ، فقلت :

« باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس » ، فضحك وطفق يردد عدة مرات « باسم الاله روح القدس » * . ثم انصرفت . ومررت قرب الصبي غداً غدٍ . فصرخ يقول : « سيدي ! باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن ! » ولكنه نسي روح القدس . فذكرته بها ، ورثيت لحاله وأشفت عليه من جديد . ولكنهم نقلوه من هذه المدينة فلم أراه بعد ذلك . وانقضت ثلاثة وعشرون عاماً ، ففيما أنا في عيادتي ذات صباح ، وكان شعري قد ابيض ، اذا بي أرى شاباً مزهر الوجه زاهي المحيا يدخل عليّ . ما كان لي أن أعرف من هو هذا الشاب . وها هو ذا يرفع يده ويقول : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس . لقد وصلت الى هذه المدينة منذ قليل ، وأحب أن أشكر لك رطل البندق الذي أهديته اليّ في الماضي . ما كان أحدٌ قد أهدي اليّ شيئاً منه قبلئذٍ . أنت وحدك أهديت اليّ رطلاً من بندق » . تذكرت عندئذٍ شبابي الغابر السعيد ، وتذكرت الصبي الصغير الذي كان يجري في فناء الدار حافي القدمين . وتأثر قلبي فقلت له : « أنت شاب نبيل النفس كريم القلب ، لأنك لم تنس رطل البندق الذي جئتك به في طفولتك » . وقبّلته ، وباركته باكياً . فكان يضحك ، ويبكي أيضاً . . . ان الروس كثيراً ما يضحكون حيث يحسن البكاء . ولكنه بكى ، أنا متأكد من ذلك ، رأيتُه يبكي . والآن . . . واحسرتاه ! هو ذا . . .

صاح ميتا من مكانه يقول :

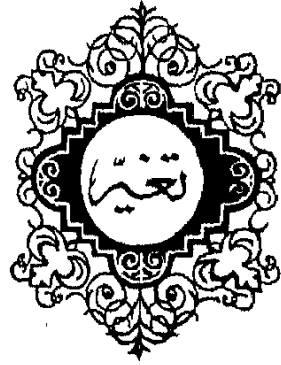
– والآن أبكى أيها الألماني الشهم ! نعم أبكى . . . أنت انسان شهم .

مهما يكن من أمر ، فان هذه القصة الصغيرة قد أحدثت في الحضور

أثراً طيباً • غير أن الأقوال التي أدلت بها كاترين ايفانوفنا والتي سأحدث عنها بعد قليل ، هي التي خدمت قضية ميتيا خاصة • وفي وسعنا أن نقول على وجه العموم ان الحظ أخذ يبتسم فعلاً لميتيا منذ بدأ توافد شهود النفي ، لأسباب لم يكن يتوقعها المحامى نفسه ، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أى شىء آخر • على أن أقوال أليوشا قد سُمعت قبل أقوال كاترين ايفانوفنا • وقد تذكر أليوشا على حين فجأة واقعةً يبدو أنها يمكن أن تكون برهاناً وضعياً يفيد ميتيا ، ويدمر نقطة من أهم النقاط التي يركز عليها الاتهام •

٤

الحظايب تسم ليديا



الحظ كإنما بمصادفة ، دون أن يكون أليوشا قد سعى الى هذه النتيجة • لم يُحَلِّف أليوشا اليمين • وانى لأتذكر أن الطرفين كليهما قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأفوال الاولى من شهادته • ولعل القارىء يدرك أن سمعة أليوشا الحسنة كانت قد سبقته الى قاعة المحكمة • تكلم أليوشا بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، ولكن ما يشعر به نحو أخيه البأس من عاطفة حارة قد تدفق في أقواله • قال في الجواب عن سؤال ألقى عليه ان أخاه ان يكن عنيفاً شديد الاندفاع في أهوائه ، فانه في الوقت نفسه نبيل القلب كريم النفس سخى جواد قادر على التضحية حين تجب التضحية • ولكن أليوشا اعترف أن توله أخيه بغرام جروتسكا ، وتنافس مع أبيه ، قد جعلاه في الأيام الأخيرة صعب المراس ، ووضعاه في حالة لا تطاق • وفي مقابل ذلك استاء أليوشا استياءً شديداً من الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع في المال ، ولكنه اعترف من جهة أخرى أن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولدت في نفس ميتيا شيئاً يشبه أن يكون مساً ، فهو دائم التفكير فيها ، وهو يعدها جزءاً من ميراثه الذي حرمه أبوه منه زوراً واختلاساً ، وهو على كونه زاهداً في الربح قليل الاهتمام بالمنفعة ، لا يستطيع أن

يتكلم فى أمر هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبد به حنق شديد
وغضب ملتهب • أما التنافس الذى أشار اليه وكيل النيابة بين «المرأتين» ،
أى بين جروشسكا وكاترين ايفانوفنا ، فقد تكلم عنه أليوشا متهرباً
متملصاً ، ورفض أن يجيب عن بعض النقاط •

سأله وكيل النيابة :

- ألم يذكر لك أخوك ، على الأقل ، أنه كان ينوى أن يقتل أباه ؟

ثم أضاف :

- تستطيع الامتناع عن الاجابة اذا كنت تؤثر الامتناع •

قال أليوشا :

- لم يقل لى ذلك على نحو مباشر •

- أقاله اذن على نحو غير مباشر ؟ كيف قاله ؟

- حدثنى عن الكره الذى يحمله لأبينا ، وعن خوفه من أنه قد
لا يستطيع أن يمسك عن قتله ••• ذات يوم ••• فى لحظة اندفاع شديد
••• اذا استبد به تقزز لا سبيل الى التغلب عليه •

- هل صدقته حين سمعته يقول هذا الكلام ؟

- لا أجرؤ أن اقول اننى صدقته • ولكننى كنت دائم الاقتناع بأن
عاطفة عليا ستقذه فى اللحظة الحاسمة ، وقد انقذته فعلاً لأنه ليس هو
الذى قتل أبى •

هكذا ختم أليوشا كلامه بصوت ثابت قوى ترجع الى آخر القاعة •

ارتعش وكيل النيابة كحصان فى ساحة القتال سمع صوت البوق ؟

وقال :

- ثق اننى مقتنع بصدقك ، واننى لا أنسب اقتناعك هذا الى ما تشعر به نحو أخيك المسكين من حب + وقد اطلعنا من التحقيق الأولى على نظرتك الخاصة الى الأحداث المفجعة التى جرت فى أسرتك ؛ ولكننى لا أكتفك أن رأيك يبدو لنا غريباً الى أبعد حدود الغرابة ، وأنه يناقض جميع الشهادات الأخرى التى جمعها الاتهام + ذلك هو السبب فى اننى أرى من واجبى أن أطلب اليك ملحقاً أن تذكر لنا الأساس الذى تبنى عليك رأيك حين تؤكد باقتناع جازم أن أخاك برىء ، وحين تسند هذه الجريمة الى شخص آخر سبق لك أن أسميته على نحو غير مباشر فى التحقيق التمهيدي +

قال أليوشا بصوت هادىء عذب :

- فى التحقيق التمهيدي ، اقتصرتُ على الاجابة عن الأسئلة التى أُلقيت علىّ ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسى +
- ولكنك أسميته ، أليس كذلك ؟

- ذكرته مستنداً الى أقوال دمترى + لقد ذكر لى ، قبل ذلك الاستجواب ، ما قد حدث عند اعتقال أخى ، وقيل لى ان أخى اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك + اننى مقتنع اقتناعاً كاملاً ببراءة أخى + واذا لم يكن هو القاتل ، فقد لا يكون القاتل الا ...

- الا سمردياكوف ؟ لماذا سمردياكوف بالذات ؟ وما الذى يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك ؟

- لا أملك أن أشك فى صدق أقواله + أنا أعلم أنه لن يكذبنى بحال من الأحوال + ثم اننى رأيت فى عينيه أنه كان يقول الحقيقة +
- فى عينيه فقط ؟ أليس لديك براهين أخرى ؟
- ليس لدى براهين أخرى +

– وبالنسبة الى اتهام سمردياكوف ، أليس عندك من البراهين أيضاً
الا أقوال أخيك وتعبير وجهه ؟

– لا ، ليس لدىّ براهين أخرى •

هنا عدل وكيل النيابة عن الاستمرار في استجواب أليوشا • وقد
أثارت أجوبة أليوشا كثيراً من خيبة الأمل لدى الجمهور • كان الناس
في مدينتنا قد تكلموا عن سمردياكوف كثيراً قبل المحاكمة • وكان هناك
أشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور ، قد ألقوا في روع
الناس أن أليوشا جمع أدلة قوية كل القوة تقرر براءة أخيه وثبت أن
الخادم هو الجاني • فاذا بكل شيء يتبدد الآن • ان أليوشا لم يأت بأي
عنصر حاسم ، ولم يجيء الا باقتناع نفسى وهو أمر طبيعى عند أخى
المتهم •

عندئذ جاء دور فيتوكوفتش لاستجواب الشاهد • بدأ المحامى
بسؤال أليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله ،
وهل أفضى اليه بهذه المسارات أثناء لقائهما الأخير قبل وقوع المأساة ؟

وفيما كان أليوشا يجيب عن هذا السؤال ، اذا هو يرتعش فجأة
كأنه تذكر شيئاً ما في تلك اللحظة نفسها •

وأخذ يقص بكثير من الحرارة والانتعاش ، كأن فكرة مفاجئة قد
ومضت في ذهنه ، كيف أن أخاه ، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير
قرب شجرة في المساء ، قد لطم صدره عدة مرات ، قد لطم «أعلى صدره»
عدة مرات ، مردداً بالحاح أنه يملك الوسيلة لاسترداد شرفه ؟ وأن هذه
الوسيلة موجودة هنا ، في هذا الموضع ، على الصدر ••• « ظننتُ عندئذ
أنه حين لطم صدره على ذلك النحو كان يشير الى قلبه » • قدّرت أنه
كان يرى أن قلبه يملك من القوة ما يكفي لاتقاء عارٍ رهيب يهدده ،

عار لا يجرو أن يعترف لى به • أعترف أننى افترضت أنه كان يلطم الى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالحجل والخزى من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف • ولكننى أتذكر الآن أنه انما كان يشير الى شىء ما على صدره ، حتى اننى خطر ببالى فى تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه ، فانما يوجد القلب تحت ذلك ، وهو يلطم من صدره موضعاً أعلى كثيراً من موضع القلب ؛ كان يلطم هنا ، تحت العنق ، ويظل يشير الى ذلك الموضع نفسه دائماً • لقد بدا لى هذا غباءً حينذاك فلم أعبا به ، ولكننى أتساءل الآن فجأة ألم يكن يشير لى الى الكيس الصغير الذى خاطه على الألف وخمسمائة روبل ؟ ••••

صاح ميتيا من مكانه يقول :

– هو ذاك تماماً ! لقد حذرت يا أليوشا • هو ذاك • كنت أُلطم الكيس الصغير فى تلك اللحظة •

أسرع فيتوكوفتش يهدىء ميتيا متوسلاً اليه أن يسكن ويطمئن ؛ ثم التفت نحو أليوشا يتابع الاستماع الى شهادته متشبهاً بها تشبهاً قوياً • تحمس أليوشا لذكراه هذه ، فعرض فكرته بحرارة ، قائلاً ان العار الذى حدثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا ، رغم أنه يملك الألف وخمسمائة روبل ، أى نصف المبلغ الذى يدين به لكاترين ايفانوفنا ، ورغم أن فى وسعه أن يردّها اليها هذا الجزء من دينها عليه ، قد آثر أن لا يرد المبلغ ، وذلك ليستخدمه فى غرض آخر هو أن يملك ما يمكنه من الرحيل مع جروشنيكا متى وافقت جروشنيكا على أن تتبعه •

وصاح أليوشا يقول بحماسة شديدة :

- نعم نعم ، هو ذاك ، هو ذاك • لقد ذكر لي أخى في ذلك المساء أن
في وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار ، نعم من نصفه ، نصفه ، لقد
قال لي ذلك (ردّد أليوشا كلمة « نصفه » مراراً) ، ولكن ضعف ارادته
يمنعه من الاقدام ••• كان يعلم مقدماً أنه لن يستطيع الاقدام ، أنه
لا يملك القوة اللازمة لذلك !

سأله فيتوكوفتش بنهم :

- أنت تتذكر تذكراً واضحاً جلياً أنه لطم من صدره ذلك الموضوع
بعينه تماماً ؟

- أنذكر ذلك تذكراً واضحاً جلياً ، لأننى تساءلت عندئذ : « لماذا
يلطم من صدره ذلك الموضوع العالى مع ان القلب يقع تحت هذا
الموضع ؟ » • وأتذكر أن هذا التساؤل بدا لي غيباً ••• أتذكر ذلك
تذكراً واضحاً جداً • كان هذا خاطراً خاطفاً ومض في ذهنى ومض •
وبسبب ذلك التساؤل انما تذكرت الآن هذه الواقعة • واننى لأتساءل
كيف أمكن أن أنساها حتى الآن ؟ واضح أنه كان يشير عندئذ الى الكيس
الصغير برهاناً على أن فى وسعه أن يردّ الألف وخمسمائة روبل ،
ولكنه لن يفعل • وبعد ذلك ، حين قبض عليه فى موكرويه ، صرخ
يقول - أنا أعلم هذا فقد ذكر لي - صرخ يقول انه يرى أن أكبر عار
فى حياته هو أنه رغم أنه كان يملك القدرة على أن يردّ الى كاترين
ايفانوفنا نصف دينها (نعم ، ذكر كلمة النصف) ، فلا يكون فى نظرها
بعد ذلك لصاً ، لم يعزم أمره على ردّ المبلغ ، مؤثراً أن يعدّ لصاً فى
نظرها على أن يتنازل عن المال • ومع ذلك ما أشد ما كان يعذبه هذا
المال ! أوه ! ما أشدّ ما كان يعذبه !

بهذا ختم أليوشا كلامه •

وقد تدخل وكيل النيابة طبعاً ، فرجا أليوشا أن يصف المشهد ثانيةً وألحَّ مراراً كثيرة من أجل أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو مشيراً الى شيء موجود على صدره حين لطم صدره • لعله كان لا يزيد على أن يضرب صدره بقبضة يده غضباً ؟

هتف أليوشا يقول :

- لا ، لا ، لا ، انه لم يضرب صدره بقبضة يده • وانما كان يشير الى الموضع بأصابعه ، بأصابعه ، وكان يريني الموضع ، هنا ، فوق ، عالياً جداً ••• كيف أمكن أن أنسى هذا ، وأن لا أتذكره الا في هذه اللحظة ؟

عندئذ سأل الرئيس ميتيا هل لديه ملاحظات يديها في أمر هذه الشهادة ، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، وأنه قد أشار بيده الى الألف وخمسمائة روبل التي كان يحملها معلقةً في صدره ، تحت الرقبة بقليل • وصرحَ بأن هذا كان في نظره هو العار • وهتف يقول : « ذلك عار لا يخطر ببالى أن أنكره ، فهو أحقر عمل قمت به في حياتي ! كان في امكاني أن أردّ المال ، ولكنني لم أفعل ، آثرت أن تعذبني لصاً ، ولم أرجع المال • وأحقر ما في الأمر أنني أعلم مقدماً أنني لن أردّ المال • صدق أليوشا • شكراً يا أليوشا ! » •

هنا انتهى استجواب أليوشا • ان أهمّ وأبلغ عنصر في شهادة أليوشا هو أنه اكتشفت أخيراً واقعة يمكن أن تكون ولو شبه برهان ، ولو بداية برهان على صدق حكاية ذلك الكيس والألف وخمسمائة روبل التي يضمها • فمن المحتمل اذن أن لا يكون ميتيا قد كذب أثناء

التحقيق الأولى حين صرخَّ ، في موكرويه ، أن هذه الألف وخسمائة روبل « هي له » .

شعر أليوشا بسعادة • ومضى يجلس في المكان الذي دلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال ، ولبت بضغ دقائق يدمدم بصوت خافت : « كيف أمكن أن أسى هذه الواقعة ؟ كيف أمكن أن تخرج من رأسي ؟ ما أغرب أن لا أتذكرها الا الآن ! » •

ودُعيت كاترين ايفانوفنا الى الادلاء بشهادتها بعد أليوشا • فلما ظهرت في القاعة اجتاح الحضور انفعالٌ قوى • فالسيدات وجهن نحوها نظاراتهن ، والرجال اضطربوا في أماكنهم ؛ ونهض بعض الحضور ليحسنوا النظر اليها ، وليجيدوا رؤيتها • وقد روى فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه في تلك اللحظة فجأة ، وشحب شحوباً شديداً •

كانت ملابس كاترين ايفانوفنا سوداء كلها ؛ وتقدمت الى المكان الذي دلَّت عليه ، تقدمت بتواضع وبما يشبه الحجل • ظلت قسماً وجهها هادئة ساكنة ، فلا شىء مما تشعر به قد ظهر للعيان • غير أن عزيمة لا تنتنى كانت تسطع في عينيها الدكناوين المهيبتين • وقد أكدَّ أشخاص كثيرون فيما بعد أنها كانت جميلة جداً خاصاً في تلك اللحظة • كانت تتكلم بصوت خافت ، ولكنه صوت واضح متميز ، فكان الناس يسمعونها في آخر القاعة • وكانت تتحدث هادئة ، أو كانت على الأقل تحاول أن تظل هادئة • استجوبها الرئيس بكثير من التأنى وأظهر لها كثيراً من المداراة ، كأنه كان يخشى أن يمس « أوتاراً معينة » ، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة ، وبليّة كبيرة • ولكن كاترين ايفانوفنا أسرعت تؤكد بقوة ، منذ البداية ، جواباً عن سؤال ألقى عليها ، أنها كانت خطيبة المتهم « الى اللحظة التي هجرني فيها

من تلقاء نفسه » (كذلك أضافت تقول) • فلما سئلت عن الثلاثة آلاف روبل التي عهدت الى ميتيا أن يرسلها الى قريباتها بالبريد ، أجابت بحزم ولبات قائلة : « أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فوراً • لقد أدركت أنه كان في حاجة ماسة الى المال ••• في ذلك الأوان ••• فأعطيته تلك الثلاثة آلاف روبل ورجوته أن يرسلها في غضون شهر اذا شاء • ولقد أخطأ اذن حين عذّب نفسه ذلك التعذيب كله بسبب هذا المبلغ ••• » •

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسئلة التي أُلقيت عليها ، وجميع الأجوبة التي أجابت بها ، وانما سأقتصر على اجمال الأمور الأساسية في شهادتها • واصلت كاترين ايفانوفنا كلامها فقالت :

– كنت مقتنعةً اقتناعاً جازماً بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه • أنا لم يساورني أى شك في نزاهته وأمانته يوماً ••• لم يساورني أى شك في شدة نزاهته وفرط أمانته ••• في شؤون المال ••• لقد كان واثقاً ثقةً مطلقةً بأنه سيقبض من أبيه هذه الثلاثة آلاف روبل ، وقد حدثني في ذلك مراراً وتكراراً • كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات ، وكنت مقتنعةً وما أزال أن اباد قد حرمه من حقه • على أنني لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه • بحضورى على الأقل لم يتكلم بهذه الطريقة مرةً واحدة • اننى لم أسمعه يهدّد ويتوعد في يوم من الأيام • ولو قد جاءني في تلك الآونة اذن لطمأنته في شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التي كان مديناً بها لي • ولكنه لم يعد الىّ منذ ذلك الحين ••• ورأيتنى أنا نفسي في وضعٍ لا يمكنني من أن أبادر الى استدعائه •

ثم أضافت تقول فجأةً وقد دوّت في صوتها عندئذ نبرة قوية :
– ثم اننى ما كان يحق لي بحال من الأحوال أن أتشدد معه في موضوع هذا الدين • فأنا نفسي قد أخذت منه في الماضي مبلغاً أكبر

كثيراً من تلك الثلاثة آلاف روبل ، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم اننى لم أكن أستطيع أن أتنبأ فى ذلك الحين أننى سأصبح فى يوم من الأيام قادرة على أن أردّه اليه . . .

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وقد ألت بصوتها نبرة حسرة وأسف ولوعة . وفى تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقى أسئلته .

قال فيتوكوفتش بحذر المحامى ، وهو يوجس مقدماً الفائدة التى سيخفيها من هذه الشهادة :

— لم يحدث ذلك فى هذه المدينة ، اذا صدق فهمى ، وانما حدث فى بداية علاقاتكما ، أليس كذلك ؟ (يجب أن نذكر بين قوسين ما يلى : رغم أن المحامى قد استدعى من بطرسبرج بمبادرة كاترين ايفانوفنا تقريباً ، فلقد كان يجهل كل شىء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التى أعطها ميتيا للمرأة الشابة فى المدينة التى كانت ترابط فيها كتييته ، وكان يجهل كل شىء عن « التحية الساجدة » التى حيّاها بها عندئذ . ان كاترين ايفانوفنا لم تحدث المحامى عن هذا الأمر ، واعتقدت أن من واجبها أن تخفى عنه تلك الوقائع حتى ذلك الحين . وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريباً . ولكن من الممكن أن نقدّر مع ذلك أنها كانت هى نفسها تجهل حتى آخر دقيقة أتكشف للمحكمة عن وقائع تلك الفترة أم لا تكشف عنها ، وأنها كانت تنتظر نوعاً من الالهام أو ضرباً من الوحي لتعزم أمرها وتتخذ قرارها) .

لا ، لن أستطيع فى يوم من الأيام أن أنسى تلك اللحظات الطافحة بالتأثر ! لقد بدأت كاترين ايفانوفنا قصتها فكشفت عن كل شىء ، كشفت عن جميع التفاصيل التى أفضى بها ميتيا الى أخيه أليوشا بصدد « التحية الساجدة » والأسباب والدوافع التى قادت خطأها ، والحالة التى كان

عليها أبوها ، ومجيئها الى بيت ميتيا . ولكنها فى مقابل ذلك ، لم تذكر أن ميتيا كان قد أوحى الى أختها بأن ترسل اليه كاترين ايفانوفنا لتأخذ المال . . . لم تقل عن هذا كلمة واحدة ، وصمتت صمتاً كريماً عن سلوك ميتيا نحوها قبل ذلك . لم تخجل أن تؤكد أنها هى التى هرعت من تلقاء نفسها الى بيت ضابط شاب آملة لا أدري ماذا . . . للحصول منه على مال . كانت تلك لحظات رهيبية . شعرتُ ببرد يسرى فى ظهري وأخذت أرتعش وأنا أصغى الى كلام كاترين ايفانوفنا . وجمد جمهور الحضور على صمت مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها شرباً . كان فى وضع هذه المرأة الشابة شئ لا عهد لأحد بمثله من قبل ، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من امرأة تبلغ هذا المبلغ من الكبرياء والتسلط والازدراء ، أن تدلى بشهادة فيها كل هذه الصراحة التامة الكاملة ، تضحيةً وفداءً . ولماذا تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل من تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل انقاذ رجل خانها وأهانها ، فى سبيل أن تساهم فى انقاذه على قدر طاقتها الضعيفة ، وذلك بأن ترسم له صورة جميلة تؤثر فى نفوس الناس تأثيراً حسناً . وذلك ما حدث فعلاً : فان الصورة التى رسمتها ، صورة ضابط يهب الحمسة آلاف روبل الأخيرة التى يملكها - أى كل ما تبقى له من ثروة - يهبها لفتاة بريئة ثم ينحني لها احتراماً الى درجة السجود ، أقول ان هذه الصورة قد أعجبت الجميع وفتنتهم ! وقد أحسست عندئذ أنها بذلك تعرض نفسها للأقاويل والنمائم ، وأن تخرصات كثيرة ستسمى بين الناس فى حقها . وذلك ما حدث كما لعلكم تتوقعون . فقد أخذ أهل مدينتنا يومئذ فى أحاديثهم بعد ذلك ، وهم يتسمون ابتسامات ملأى بالغمزات الخبيثة ، الى أن القصة التى روتها المرأة الشابة لم تكن كاملة جداً ، ولا سيما فى الموضع الذى يتضمن أن الضابط تركها تتصرف « مكثفياً » -

فيما ادعت - بأن حياتها ساجداً « فأغلب الظن أنها « أسقطت » هنا جزءاً مما جرى . وقالت السيدات المحترمات في مجتمع مدينتنا : « هبها لم تسقط من القصة شيئاً ، هبها قالت الحقيقة كلها كاملة » ، فان هذا لا يمنع من التساؤل : هل كان يليق حقاً بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف هذا التصرف وأن تسلك هذا السلوك ، ولو لانقاذ أبيها ؟ . كيف يمكن أن يصدق المرء أن كاترين ايفانوفنا ، بما لها من ذكاء حاد وبصيرة نفاذة ، لم تتنبأ بأن أقاويل من هذا القبيل ستسعى بين الناس في حقها ؟ لا شك في أنها تنبأت بذلك حتماً ، ومع ذلك قررت أن تقول كل شيء ! وطبيعي أن هذه الشكوك المسيئة المهينة لم تولد الا فيما بعده . أما أثناء ادلاء كاترين ايفانوفنا بشهادتها فان جميع الناس قد سيطر عليهم انفعال قوى حاد . فأعضاء المحكمة أصغوا الى كلام كاترين ايفانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون . ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بالقاء أى سؤال في هذا الشأن . وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحنى لها انحناء شديداً . أوه ! انتصر المحامي ! ان هذه الشهادة رصيد كبير له : هل يتصور عقل أن الرجل الذي وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها ، في وثبة كريمة من قلبه ، هل يتصور عقل أن يكون من الممكن أن يقتل هذا الرجل أباه ، ليلاً ، في سبيل أن يجرّده من ثلاثة آلاف روبل ؟ ان في سلوك كهذا السلوك لتناقضاً لا سبيل الى فهمه . وأحسّ فيتوكوفتش أنه يستطيع بعد الآن أن يبعد تهمة السرقة في أقل تقدير . لقد اكتست « القضية » وجهاً جديداً ، وظهر ميتيا على حين فجأة انساناً محبباً . أما عن سلوكه هو أثناء ادلاء كاترين ايفانوفنا من كلامها فقد هتف يسألها بصوت يخالجه نسيج وهو يمد نحوها ذراعيه :

- كاتيا ، لماذا سببت هلاكى ؟

ثم أخذ ينتحب انتحاباً قوياً جداً ، لكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه ،
وصاح يقول :

- الآن ضعت !

ثم سكن جامداً ، كازاً أسنانه ، مصالباً ذراعيه على صدره •
وطُلب من كاترين ايفانوفنا أن تبقى فى القاعة ، فجلست على الكرسي
الذى عيّن لها • كانت شاحبه اللون غاضة طرفها • وقد روى الأشخاص
الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعد بكل جسمها ، كأن بها
حمى • واستدعى الشاهد التالى ، جروشكا •

اننى اقترب هنا من لحظة الكارثة التى سقطت على ميتيا فجأة ،
وكانت سبب ضياعه فعلاً ، فيما يبدو • وأنا من جهتي مقتنع بأنه لولا
ذلك الحادث الذى وقع - وذلك رأى يشاركنى فيه الجميع ، ويشاركنى
فيه رجال القانون خاصة - لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف
مخففة على الأقل • سأعود الى ذكر هذا الحادث بعد قليل ، ولكن يجب
أن أقول بضع كلمات عن شهادة جروشكا أولاً •

لقد دخلت جروشكا ، هى أيضاً ، بثياب سوداء ، واضعة شالها
الأسود الرائع على كتفيها • تقدمت الى المكان الذى يقف فيه الشاهد
ماشية مشيتها الصامتة الرفيعة الهادئة ، مع شيء من ذلك الاهتزاز الذى
نراه احياناً فى النساء البدينات بعض البدانة ، محدقة الى الرئيس
تحديقاً ثابتاً ، لا تنظر يمناً ولا يسرة • فى رأى أنها كانت فى تلك
اللحظة جميلة جداً ، ولم تكن شاحبه اللون البتة ، كما زعمت ، فيما
بعد ، السيدات اللواتى شهدن جلسة المحاكمة • وقد زعم أيضاً أن
وجهها كان فيه تقلص يعبر عن خبث وشر • ولكننى أميل الى الاعتقاد
بأنها كانت تشعر بغيظ وغضب ، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول

التي كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التواق الى الفضيحة . ان جروشنيكا ذات شمم وكبرياء وأنفة ، فهي لا تطيق الاحتقار . وان فيها كذلك لحجلاً مع شعور خفي بالحزى من هذا الحجل في الوقت نفسه ، فكان طبيعياً والحالة هذه أنها لم تتكلم بصوت واحد أثناء ادلائها بشهادتها ، وانما تكلمت بغضب تارة ، وباحتقار تارة أخرى ، مصطنعةً في الحالتين لهجة خشنة قاسية ؛ ثم اذا هي بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبرات صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتأخذ تلقى اللوم على نفسها . كانت في بعض الأحيان تتكلم كمن يسقط في هوة ولا يبالي العواقب ، وكأنها تقول لنفسها : « ليكن ما يكون ! ليحدث ما يحدث ! فسأقولها . . . » صرّحت تقول فيما يتعلق بصلاتها مع فيدور بافلوفتش ، صرّحت تقول بلهجة قاطعة : « هذه كلها سفاسف ! هل ذنبي أنا أنه تعلق بي ؟ » ثم ما انقضت على ذلك دقيقة واحدة حتى أخذت تقول : « أنا الآئمة ، أنا المسئولة عن كل شيء . لقد عبثت بهما كليهما - عبثت بالعجوز وعبثت بهذا - فدفعتهما بذلك دفعاً الى الكارثة . الذنب ذنبي أنا في كل ما حدث . » ولما ذكر اسم سامسونوف ، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة : « ليس لأحد أن يتدخل في هذا . انه الرجل المحسن الى . . . لقد انتشلني من وهدة البؤس حين طردني أهلي » . فذكرها الرئيس ، ولكن بلهجة مهذبة جداً ، بأن عليها أن تقتصر على الاجابة عن الأسئلة التي تلقى عليها دون الخوض في تفاصيل لا داعي اليها . فاحمرت جروشنيكا ، والتمعت عيناها .

صرحت جروشنيكا بأنها لم تر الظرف والمال المودع فيه ، وانما هي علمت من ذلك « الوغد » أن فيدور بافلوفتش قد أعد لها ثلاثة آلاف روبل . ثم أضافت تقول :

- على أن هذه كلها سخافات ، لأنني لم أحمل الأمر على محمل الجد ، وما كان لي أن أذهب اليه بحال من الأحوال ، هذا مؤكد ***
سألها وكبل النيابة :

- من هذا الذي وصفته بأنه « وغد » ؟

فأجابت :

- هو ذلك الخادم ، هو ذلك السمردياكوف الذي قتل مولاه ، ثم شنق نفسه أمس .

طبعي أنها سئلت فوراً عن الأساس الذي تبني عليه رأيها حين تقرر اتهاماً واضحاً هذا الموضوع ، ولكن اتضح أنها هي أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محددة . قالت :

- دمترى فيدوروفتش نفسه هو الذي قال لي ذلك وليس عليكم الا أن تصدقوه !

ثم أضافت تقول وهي ترتعد كرها وحقدآ ، ويختلج في صوتها شر وخبث :

- ان تلك المرأة هي التي ضيعته ، هذه هي الحقيقة كلها ! انها هي سبب كل شيء ، هي وحدها ! ذلكم واضح !

سئلت جروشنيكا من جديد أن تعين الشخص الذي تعنيه بكلامها ، فقالت :

- أعني الأنسة ، أعني هذه الكاترين ايفانوفنا الحاضرة هنا ! لقد دعنتني الى منزلها ، وقدمت لي شوكولاته ، آملة أن تغريني وأن تفتنني . ليس فيها حياة ، هذه المرأة ***

تدخل الرئيس ليقفها عن هذا الكلام ، وطلب منها بلهجة قاسية أن تراقب ألفاظها • ولكن قلب المرأة الشاب كان يغلى من الغيرة ، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضى الى النهاية لا تخشى النتائج ولا تهاب العواقب •••

وتدخل وكيل النيابة فقال :

- حين قبض على المتهم فى قرية موكرويه ، فان الناس منذ هرعت مسرعة من الغرفة المجاورة ، قد رأوك وسمعوك تصرخين قائلة " انك أنت سبب كل شىء وانك تريدان أن تصحيه الى السجن • فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت موقنة منذ تلك اللحظة بأن المتهم قد قتل أباه ؟

فأجابت جروشكا قائلة :

- لا أنذكر المشاعر التى اضطرت فى نفسى حينذاك • كان جميع الناس يتهمونه فى تلك اللحظة بأنه قتل أباه ، فأدركت أن الذنب ذنبى ، وأنه انما قتل أباه بسببى • ولكن حين أكد لي أنه برىء ، صدقته فوراً ، وما زلت أصدقاه ، وسأظل أصدقاه الى الأبد ، لأنه ليس بالرجل الذى يكذب •

وجاء دور فيتوكوفتش ليلقى أسئلته •

أذكر أنه أشار عندئذ ، بين أمور أخرى ، الى حكاية راكيتين والمبلغ الذى أعطته اياه ، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، مكافأة له على أنه أتاها بالكسى فيدوروفتش كارامازوف الى منزلها • فقالت جروشكا وهى تضحك ضحكة صغيرة خبيثة فيها ازدراء واحتقار :

- لا عجب أن أخذ المبلغ • لقد كان يجىء الى دائماً ليستعطينى بعض المال ، وكان يسحب منى بهذه الطريقة حوالى ثلاثين روبلاً

فى الشهر ینفقها على سلیاته خاصة ، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنین له •
سألها فیتوکوفتش ، غیر عابىء بالرئیس الذى أخذ یتحرك
ویضطرب :

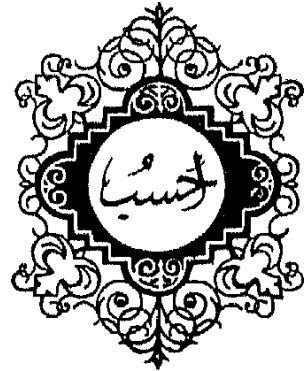
- ما هو السبب الذى جعلك سخیةً ذلك السخاء كله مع السید
راکیتین ؟

- السبب بسیط ، هو أن راکیتین ابن خالتى • أمى وأمه اختان •
صحیح أنه رجائى أن لا أقول هنا كلمةً واحدة عن هذه القرابة ، اذ
یدو أنه یتسر بعاری کبیر من کونه یمت الی بقربى !

بوغت الجميع بهذه الواقعة الجديدة ودُهِسوا منها ، لأنها كانت
مجهولةً فى مدينتنا حتى ذلك الحین ، وكانت مجهولةً حتى فى الدير •
وكان میتیا نفسه لا یعرفها • وقد ادعى بعضهم أن راکیتین قد احمر
احمراراً شديداً على كرسيه حينذاك • وكانت جروشسكا قد علمت ،
قبل دخولها الى القاعة ، أن راکیتین أدلى بشهادة تسمى الى میتیا ، فأغضبها
ذلك وأحرقها • وما هو ذا الخطاب الجمیل الذى كان قد ألقاه راکیتین
مفيضاً فى كلام نبیل ، نائراً على نظام القنائة ، منتقداً لما یسيطر على روسيا
من فوضى ، ما هو ذا الخطاب یتحطم تحطماً لا قیام له بعده ، فلا یبقى منه
فى أذهان الحضور أى أثر • وغبط فیتوکوفتش نفسه : لقد أسعفته
السماء • ولم یطل استجواب جروشسكا كثيراً على وجه الاجمال ،
لا سيما وأنها لم تجىء بمعلومات جديدة كثيرة • وقد تركت شهادتها
فى النفوس أثراً هو الى السوء أقرب منه الى الحسن • وتابعتها مثات
نظرات الاحتقار حين انتهت من الادلاء بشهادتها • فمضت تجلس فى القاعة
بعيداً عن کاترین ایفانوفنا • وفى أثناء استجوابها كان میتیا صامتاً كأنه
متجمد ، وكان غاضباً بصره ، مطرقاً بعینه الى الأرض •
واستدعى الشاهد التالى : ایفان فیدوروفتش •

٥

نازلة مباحث



أن من المفيد أن أذكر أنه كان قد استدعى مرةً قبل أليوشا • غير أن حاجب المحكمة جاء يبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع أن يمثل أمام المحكمة الآن ، وذلك بسبب وعكة أو نوبة مباحثه ، وأنه مستعد للتمول متى أريد له أن يمثل بعد أن تتحسن حالته • ولم ينتبه أحد الى هذا الأمر ، ولم يعلم به أحد إلا فيما بعد • ولم يكن الحضور ، على كل حال ، يولون ظهور هذا الشاهد اهتماماً كبيراً ، فان الأشخاص الرئيسيين في هذه الدراما ، ولا سيما المرأتين المتنافستين ، كانت قد سُمعت أقوالهم ، فارتوى فضول الناس بذلك الى حين • حتى لقد لوحظ نية من التعب أصاب الجمهور • وما تزال هنالك عدة شهادات يجب سماعها ، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتي بأشياء جديدة كثيرة ، لأن الأمور الأساسية قد قيلت • وكان الوقت يمضى •

اقترب ايفان بخرطى بطيئة بطئاً غريباً ، دون أن ينظر الى أحد ، غاضباً بصره مطرقاً الى الأرض ، كأنه يبذل جهوداً شاقة في سبيل أن يجمع شتات أفكاره • كان ملبسه سليماً لا مأخذ عليه ، ولكن تعبير وجهه قد أحدث في النفوس أثراً أليماً ، أو أحدث هذا الشعور الأليم في نفسى

أنا على كل حال : كان وجهه يبدو بلون التراب كأنه وجه انسان
 'يحتضر' • وكانت نظرتة زائغة تائهة مضطربة • رفع عينيه ، وأجال
 بصره في القاعة ببطء • انتفض أليوشا ، وأن أنه صغيرة • اننى اتذكر
 هذا تذكراً واضحاً ، رغم أن أحداً لم يكذب يتبه اليه •

بدأ الرئيس بأن قال له انه لن يُحلف اليمين ، وان فى وسعه أن
 يتكلم أو أن يسكت ، على ما يحب ، وانما ينبغى له أن يقتصر طبعاً على
 ذكر الحقيقة وحدها فيما يقول ، النخ • فكان ايفان يصغى محققاً اليه
 بنظرة غامضة مبهمه • غير أن قسما وجهه افترت عن ابتسامة شيئاً
 بعد شئ ، فما ان فرغ الرئيس الذى كان يراقبه مدهوشاً ، ما ان فرغ
 الرئيس من كلامه ، حتى انفجر ايفان ضاحكاً مقهقهاً ، وقال للرئيس
 سائلاً بصوت رنان :
 - وماذا أيضاً ؟

خيم على القاعة صمت مطبق ، وأحس الناس بأن درامة ستقع •
 واضطرب الرئيس • وسأله وهو يبحث بعينه عن الحاجب :
 - أترك ما تزال مريضاً ؟

فأجابه ايفان بصوت هادى فيه احترام وتوقير :
 - اطمئن يا صاحب السعادة ، فاننى بخير تماماً ، واننى قادر على
 أن أذكر لكم أشياء هامة •

فعاد الرئيس يسأله وهو ما يزال فى شك من أمره :
 - أعندك أشياء هامة تريد أن تنقلها إلينا ؟
 فخفض ايفان فيدوروفتش عينيه ، وانتظر بضع نوان ، ثم رفع
 رأسه وأجاب فى تردد :

- لا ••• لا شئ ، ليس عندى شئ خاص يمكن أن أذكره لكم •

وألقيت عليه أسئلة ، فكان يجيب عنها على مضض ، مقتضياً اقتضاباً
مخلاً ، متضايقاً تضايقاً ما ينفك يزداد . ولكن اجاباته كانت مترننه
معقولة . وأعلن عدة مرات أنه لا يعرف شيئاً عما يُسأل عنه . من ذلك
أنه قال انه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه ودمترى .
وأضاف يقول : « وكان ذلك لا يهمنى على كل حال » . واعترف بأنه
سمع المتهم يهدّد بقتل أبيه . أما الطرف الذي كان يضم المال فانما علم
بوجوده من سمردياكوف .

وصاح ايفان يقول في ملك وضجر وسأم :

– لا جديد ليس لدى شيء خاص أقوله لكم .

وبدأ الرئيس يتكلم فقال :

– أنا أدرك أنك مريض ، وأفهم أن

ثم اتجه الى وكيل النيابة والمحامي يدعوهما الى استجواب الشاهد
اذا كانا يريان في ذلك فائدة .

فاذا بايفان يتضرع على حين فجأة قائلاً بصوت منطفىء :

– اسمح لي بالانصراف يا صاحب السعادة ، فاننى أشعر بضعف

شديد .

وما ان قال هذه الكلمات حتى استدار على عقبيه دون أن ينتظر
أن يؤذن له بالانصراف ، واتجه نحو باب الخروج . ولكنه لم يسر بضع
خطوات حتى توقف كأنه يفكر في شيء ما ، وابتسم صامتاً ، وعاد الى
حيث كان من مكان الشهود ، وقال :

– أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التي كانت

كما تعلمون تقول : « ان شئت ذهبت ، وان شئت لم اذهب » . كانوا

قد جاءوها بثوب الزفاف ليقودوها الى الهيكل ، ولكنها كانت تردد بغير انقطاع : « ان شئت ذهبت ، وان شئت لم أذهب » .

هذا مشهد من مسرحية هزلية شعبية .

قاطعته الرئيس قائلاً بلهجة قاسية :

– ما الذى تريد أن تخلص اليه من هذا الكلام ؟

فأجاب ايفان فيدوروفتش وهو يسلم من جيبه حزمة الأوراق المالية فجأة :

– ما الذى أريد أن أخلص اليه ؟ اليك ما الذى أريد أن أخلص

اليه ان هذا المال هو الذى كان موجوداً فى هذا الطرف (وأوماً

الى المائدة التى جمعت عليها وثائق الاتهام) ، والذى بسببه قُتل أبى .

أين تريدون أن أضعه ؟ ياسيدى حاجب المحكمة ، انقل هذا المال الى من

يجب نقله اليه .

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية ومدّها الى الرئيس .

سأله الرئيس مدهوشاً :

– كيف وُجد هذا المال معك ؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلاً ؟

– أخذته أمس من سمردياكوف ، من القاتل . زرتة قبل انتحاره

ببرهة قصيرة . انه هو الذى قتل أبى . ليس أخى القاتل . سمردياكوف

هو الذى قتل ، وأنا الذى حرضته على ذلك ودفعته اليه . من ذا الذى

لا يتمنى موت أبيه ؟

صاح الرئيس يقول على غير ارادة منه :

– أأنت تملك عقلك كاملاً ؟

– المصيبة كلها هي اننى أملك عقلى كاملاً ••• وهو عقل قدر من
جهة أخرى ، لا يقل قدارةً عن عقولكم أنتم وعن عقول جميع هؤلاء
الأغبياء البلهاء •••

قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجمهور • وأضاف يقول صارفاً
بأسنانه معبراً عن احتقار مبغضٍ كاره :

– هم جميعاً قتلوا آباءهم ، ثم يتظاهرون بالهول والروع ! انهم
يمثلون أيها السادة ، يضحك بعضهم على بعض ••• كاذبون ! انهم
جميعاً يتمنون موت آبائهم • السراطين يأكل بعضها بعضاً • اذا لم يوجد
أناس يقتلون آباءهم ، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين ••• انهم فى حاجة
الى مشهد يتسلون بالنظر اليه ! خبزاً ومشاهد سيرك * • ولست أنا خيراً
منهم على كل حال • هل عندكم ماء ؟ اسقونى ماء ناشدتم الله !

كذلك صاح وهو يمسك رأسه بيديه •

أسرع الحاجب يقترب منه • ووثب أليوشا من مكانه صائحاً :

– انه مريض ، لا تصدقوه ، انه مصاب بنوبة حمى حارة !

وانتصبت كاترين ايفانوفنا واقفةً وقد جمدها الخوف ، وحدقت
الى ايفان فيدوروفتش • ونهض ميتيا أيضاً ، فتأمل أخاه وهو يتشم
ابتناسمة أليمة بينما كان يصغى اليه فى نهم وشراهة •

واستأنف ايفان كلامه فقال :

– اطمثوا • ما أنا بمجنون • أنا قاتل فحسب •

ثم أضاف يقول لا يدري أحد لماذا :

– ليس يسأل قاتل أن يكون فصيحاً •

وضحك مقهقهاً ساخرآ •

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطرباً اضطراباً واضحاً؛ واضطرب
سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهايمسون • كان فيتوكوفتش يصغى بانتباه
شديد • وصمت الجمهور ينتظر متجمداً • وبدا على الرئيس فجأة أنه تاب
الى نفسه واسترد ثبات جنانه ، فقال :

– أيها الشاهد • ان أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة في هذا المكان •
هدىء روعك اذا استطعت ، وقل لنا هل لديك شيء تريد أن تذكره فعلاً
••• قل لنا ما هي الأدلة التي تقيم عليها مثل هذا الاعتراف ••• اذا كنت
لا تهذى فحسب !

– ليس عندي شهود • ان ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل اليكم
اعترافه من السماء ••• في ظرف • وأتم لا بد لكم دائماً من ظروف •
فلو أرسل اليكم سمردياكوف ظرفاً لكان هذا الظرف كافياً • لا ، ليس
عندي شهود •

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة واجمة :

– اللهم الا شاهداً واحداً •

– من هو هذا الشاهد ؟

– ان له ذيلًا يا صاحب السعادة ، وليس يتفق والنظام أن تُسمع
شهادته هنا • الشيطان لا وجود له البتة !

وواصل ايفان كلامه ، دون أن يضحك في هذه المرة ، وانما هو
يصطنع لهجة المسارة والنجوى :

– لا تلقوا اليه بالاً ، انه شيطان تعيس حقير • لا شك في أنه مختبئ
بمكان ما هنا ، ربما تحت مائدة وثائق الأثبات • أين عساه يختبئ ان لم
يختبئ هناك • اسمعوا ، اصغوا الىّ : لقد قلت له اننى لن أستطيع أن
أسكت ، وكان هو لا ينفك يحدثنى عن ذلك التحول الجيولوجى •••

سخافات ! هيه ! ماذا تنتظرون لتفكوا أسر المسخ الأشوه ولتطلقوا سراحه ؟ * * * لقد غنى نشيده لأنه كان فرح القلب ! هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانيا المسافر الى بيتر ! أنا من جهتي مستعد لأن أهب كادريوناً من الكادريونات فى سبيل ثانيتين من فرح ! أوه ! انكم لا تعرفوننى ! ما أغبى هذا كله ! خذونى أنا بدلاً عنه ! لا بد أننى جئت لأمرٍ ما * * * لماذا ، لماذا كل هذا الغباء ؟ * * *

وأجال ايفان على القاعة نظرة بطيئة ، وهو واجم مفكر • اضطرب جميع الناس • اندفع أليوشا نحو أخيه ، ولكن الحاجب كان قد أمسك ايفان من ذراعه •

صرخ ايفان وهو يتفرد فى الحاجب :

... ما هذا أيضاً ؟

ثم قبض على كتفيه فجأة ، ورماه على أرض القاعة •
هرع الحرس وسيطروا على ايفان • فأطلق عندئذ من صدره عويلاً حاداً ، وظل يعول هذا الاعوال راشقاً عبارات مفككة ، بينما كان يُقاد الى خارج القاعة •

نشب اضطراب شديد ، وقامت بلبلة كبرى • لا أتذكر جميع التفاصيل ، لاننى كنت أنا نفسى منفصلاً أشد الانفعال فى تلك اللحظة ، فلا أستطيع لهذا السبب أن أحسن الرصد والملاحظة • لكننى أعلم أنه حين عاد النظام الى نصابه ، قرّع الحاجب تقريباً قاسياً ، رغم أنه أفاض فى الشرح قائلاً ان الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض ، وان الطبيب الذى فحصه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليماً معافى • وأضاف الحاجب يقول : ثم انه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلاماً معقولاً ، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له •

هذا الى أنه كان يحرص هو نفسه أشد الحرص على أن يدلى بشهادته ،
وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما يكلف الأمر •

ولم يكن الانفعال الذى أثاره هذا المشهد فى النفوس قد تبدد تماماً ،
حين حدث حادث أليم آخر • لقد أصيبت كاترين ايفانوفنا بنوبة عصبية ،
فأخذت تنسج نشيجاً قوياً ، وتطلق صرخات حادة ، ولكنها رفضت أن
تنصرف ، وظلت تتخبط ضارعة متوسلة أن لا يبعدها • ثم صرخت تقول
للمرئيس فجأة :

- عندى تصريح آخر أريد أن أفضى به • يجب على أن أذكر
الحقيقة فوراً ••• فوراً ! اليكم هذه الورقة ، انها رسالة ••• خذوها
فاقرأوها ، بسرعة ! هى رسالة أرسلها الى هذا الانسان الأشوه ، هذا ،
نعم ، هذا (وأومات الى ميتيا) • انه هو الذى قتل أباه ، سترون ، لقد
ذكر لى ذلك كتابة • كتب الى أنه سيقتل أباه ! أما الآخر فهو مريض ،
مريض ، انه مصاب بحمى حارة ! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مريض •
كانت تصرخ وهى نهب اضطراب شديد • تناول الحاجب الرسالة
ومدّها الى الرئيس • وتهاوت كاترين ايفانوفنا على كرسيها وهى تغطى
وجهها بيديها ويهزها بكاء تشنجى صامت • وكانت تحاول مع ذلك أن
تخفق نشيجها مخافة أن تطرد من قاعة المحكمة • ان الورقة التى تناولها
الحاجب من كاترين ايفانوفنا هى بعينها الرسالة التى كتبها ميتيا فى كاباربه
« العاصمة الكبرى » ، والتى كان يصفها ايفان فيدوروفتش بأنها برهان
رياضى على الجريمة • واحسرتاه ! لقد عدت هذه الرسالة برهاناً له قوة
اليقين الرياضى فعلاً ، فلولا هذه الرسالة الشقية لكان من الجائز جداً أن
لا يضيع ميتيا ، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية البائسة كل البؤس على
الأقل • أعود فأقول : لقد كان من الصعب على المرء أن يلاحظ كل شىء
تفصيلاً ، وما تزال ذكرياتي الى الآن تختلط فى شعورٍ بفضى شاملة •

لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامي والمحللين على تلك الرسالة فوراً • لا أدري • ولكننى أتذكر أن كاترين ايفانوفنا قد أعيد استجوابها • سألتها الرئيس فى رفق ولطف أهى تشعر بأنها هادئة هدوءاً كافياً لتستطيع الاجابة ، فهتفت تقول بقوة :

— أنا مستعدة ، مستعدة كل الاستعداد •

وأضافت وهى تخشى خشية رهيبه ، فيما يبدو ، أن يرفضوا الاستماع اليها :

— أنا قادرة على الاجابة كل القدرة ، كل القدرة !

سئلت أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها اليها • فقالت :

— وصلتني عشية وقوع الجريمة ، وقد كتبها هو فى اليوم السابق ، أى قبل ارتكابه الجريمة بيومين • انظروا : ان هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هى نوع من فاتورة حساب (كذلك صاحت تقول لاهثة) • كان يكرهنى فى تلك الآونة ، لأنه اقترف عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة • • • ولأنه كان مديناً لى بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً • • • أوه ! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ ، لأنه كان يدرك حطته ودناءته ! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل ، فاليكم كيف جرت الأمور • أرجوكم أن تستمعوا الىّ ، أضرع اليكم أن تستمعوا الىّ : قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء الىّ فى ذات صباح • كنت أعلم أنه فى حاجة الى مال ، وكنت لا أجهل سرّ حاجته الى المال • كان يريد ، نعم ، كان يريد أن يغرمى هذه المخلوقة وأن يرحل بها • وكنت أعلم منذ ذلك الحين أنه قد خاننى وأنه يفكر فى تركى • وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسى • أعطيته ذلك المبلغ بحجة أننى أريد منه أن يرسله الى أختى فى موسكو •

وحيث سلمته المال أعلنت له ، وعينى فى عينيه ، أنه يستطيع أن يرسله « بعد شهر » اذا كان ذلك يناسبه • فكيف ، كيف يمكن أن لا يكون قد أدرك فى تلك اللحظة أننى كنت فى الواقع أقول له : « أنت فى حاجة الى أن تخوننى مع تلك المخلوقة ؟ اذن خذ المال ، اننى أعطيك المال من تلقاء نفسى • خذه ، اذا كنت خالياً من المروءة والشرف خلواً تستطيع معه أن تقبل المال منى » • كنت أريد أن أُخجله • فماذا تظنون أنه فعل ؟ لقد أخذ المال ، أخذه ومضى لينفقه بعد ذلك فى ليلة واحدة ، هنالك ، مع هذه المخلوقة • وقد فهم مع ذلك ، فهم فى تلك اللحظة أننى كنت على علمٍ بكل شيء • صدقونى أنه فهم أننى كنت أريد أن أمتحنه حين عهدت اليه بهذا المال ، واننى كنت أحب أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف أن يأخذ منى هذا المال • كنت أهدق الى عينيه ، وكان يهدق الى عينى هو أيضاً ، لأنه كان يفهمنى حق الفهم ، وكان يفهم كل شيء • ورغم ذلك أخذ المال ، أخذه ومضى به •

زار ميتا يقول فجأة :

– هذه هى الحقيقة بعينها يا كاتيا ، كنت أهدق الى عينيك فأدركت أنك تريدن تلطيخ شرفى بالعار • ومع ذلك أخذت المال • احتقرينى • انا انسان شقى ، وعليكم جميعاً أن تحتقرونى • اننى استحق هذا الاحتقار !

هتف الرئيس يخاطبه :

– يا متهم ! اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فلأخرجك من القاعة • وواصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية :

– كان يعذبه هذا المبلغ • كان يريد أن يردّه الىّ ، هذا صحيح ، كان يحرص على أن يردّه ، ولكنه كان فى حاجة الى مال من أجل هذه

المخلوقة • لذلك قرر أن يقتل أباه ، ولكنه لم يردّ إلى ديني ، وإنما ذهب مع هذه المرأة الى تلك القرية ، فتم القبض عليه هناك • لقد بدّد في تلك القرية ، مرةً أخرى ، المال الذي سرقه من أبيه بعد أن قتله • وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب الىّ الرسالة • كتبها وهو سكران ، أدركت ذلك فوراً • وكتبها عن خبث وشر ، لعلمه علم اليقين بأنني لن أطلع عليها أحداً ، ولو ارتكب هذه الجريمة ، والا لما كتبها • كان يقدر أنني لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه • هلاًّ قرأتم الرسالة ! اقرأوا بمزيد من الامعان ، أرجوكم ، لتعلموا انه قد وصف في هذه الرسالة كل شيء سلفاً ، ذكر كيف سيتدبر الأمر ليقتل أباه ، وذكر أين يوجد المال مخبأً ، ذكر ذلك كله سلفاً • وأحب أن ألفت انتباهكم الى احدى عباراته خاصةً ، راجيةً أن تفقوا عندها ، وتتلثثوا عليها : « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هل رأيتم ؟ لقد قتل عن سابق تصور وتصميم ، وفكّر في جميع التفاصيل (كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بخبث وشر وسوء ، كأنما لتؤثر في عقول القضاة تأثيراً أقوى وأضمن •) واضح أنها كانت قد درست هذه الرسالة المشثومة دراسة دقيقة ، وأنها تحفظ كل كلمة من كلماتها على ظهر القلب) • ولولا أنه كان عندئذ في حالة سكر لما كتب الىّ بهذه الطريقة • انظروا كيف تذكر هذه الرسالة سلفاً كل شيء ، كل شيء ، حتى أدق التفاصيل • لقد عرض لي خطة قتل حقيقية !

هكذا كانت تصيح غضبي ؛ وواضح أنها كانت لا تبالي في تلك اللحظة عواقب شهادتها • ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل ، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مراراً كثيرة وهي ترتعش استياءً : « أيجب عليّ أن أقرأ هذه الرسالة في جلسة المحاكمة ؟ » • أما وأنها عزمت أمرها ، فانها لا تأسف الآن على شيء ، ولا تبالي شيئاً •

أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عالٍ ،
فأحدثت في الجميع شعوراً بالادانة •

وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بأنه هو كاتب الرسالة ، فصاح
ميتيا يقول :

- هي رسالتي ، نعم ، رسالتي • وما كنت لأكتبها لولا السكر ! ••
يا كاتيا ، ان كلاً منا يكره الآخر لأسباب كثيرة • ولكنني أحلف لك ،
أحلف لك على أنني ، حتى حين كرهتك ، كنت لا أزال أحبك •
أما أنت فلا ! •••

قال ميتيا ذلك ، وتهالك على كرسيه وهو يلوى يديه كرباً ويأساً .
وتناوب وكيل النيابة والمحامي القاء الأسئلة على كاترين ايفانوفنا ، ملحين
خاصةً على الأسباب « التي دفعتها الى أن تسكت في بداية شهادتها عن
وجود رسالة تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن ، وأن تدلى بتصريحات
تختلف في لهجتها وروحها عن أقوالها الآن » • فقالت كاتيا منقلبة
السحنة تقريباً :

- صحيح ، نعم ، كذبتُ منذ قليل • كذبت عن عمد وقصد ،
على خلاف ما توجهه أمانتي ويوجه ضميري • ولكنني أردت أن أنقذه
في تلك اللحظة ، لأنه كان يكرهني ويحتقرني • أوه ! كان يحتقرني
احتقاراً فظيماً ؛ واعلموا أنه كان يحتقرني دائماً ! احتقرني منذ اللحظة
التي انحنيت فيها أمامه ساجدةً في سبيل ذلك المال • رأيتُ ذلك •••
أحسست به فوراً ، ولكنني لبثت زمناً طويلاً أتردد في تصديقه • كم
من مرة قرأت في عينيه أنه يقول لي : « مع ذلك ، أنت التي جئت الى
في الماضي » • آه ••• انه لم يفهمني ، انه لم يفهم شيئاً من سلوكي
في يوم من الأيام ، انه لم يدرك سبب مجيئي اليه ، لأنه لا يستطيع أن

يتخيل الا أحقر الدوافع وأدنا البواعث • لقد حكم عليّ من خلال نفسه هو •

وأضفت كاترين ايفانوفنا تقول وهى تصرف بأسنانها غضباً ، لأنها كانت فى حالة اندفاع شديد :

- ظن أن جميع الناس مثله • ولم يخطر بباله أن يتزوجنى بعد ذلك الا لأننى ورثت ثروة • ذلك هو السبب ، ذلك هو السبب ! لقد قدرت دائماً أن ذلك هو السبب الحقيقى ! آه ••• هذا شيطان رجيم • ظن أننى سأظل طول حياتى أرتعش أمامه خجلاً من أننى ذهبت اليه فى الماضى ، وأنه سيستطيع أن يحتقرنى لهذا وأن يتسلط علىّ • ذلكم هو السبب فى أنه أراد أن يتزوجنى ، ذلكم هو السبب ! هذا ما حدث ، وأكد لكم أن هذا ما حدث ! حاولت أن آخذه بالحب ، بحب لا نهاية له ، حتى لقد كنت مستعدة لأن أغفر له خيائه • ولكنه لم يفهم شيئاً ، لم يفهم شيئاً البتة ، البتة ! وهل هو قادر على أن يفهم أى شىء ؟ هذا مخلوق أشوه ! وصلتني منه هذه الرسالة فى صباح الغد ، جاءونى بها من الكاباريه ، بينما كنت فى ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شىء ، حتى خيائه !

حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهدّثاها طبعاً • وانى لعلى يقين من أنهم جميعاً كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال ، ومن الاستماع الى اعترافاتها • أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها : « نحن نفهم مدى ما تعانين من ألم ، وثقى أننا نشاطرك هذا الألم » النخ ، النخ • ولكن هذا لا ينفى أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت فى حالة قريبة من الهستريا ، وبينما أصبحت لا تسيطر على نفسها ولا تتحكم بسلوكها • ووصفت أخيراً بوضوح ما بعده وضوح - وهذا ما يتجلى فى كثير من

الأحيان ، « ولو على نحو عابر » ، في لحظات التوتر النفسى الشديد الذى من هذا النوع - كيف ان ايفاز فيدوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب الفكرة التى حاصرته واستبدت به ، وهى أن عليه أن ينقذ أخاه ، « هذا الشيطان ، هذا القاتل » .

وهتفت تقول :

- كان عذابه لا ينقطع ولا يهدأ . وكان يريد أن يطفئ ذنب أخيه قائلاً لى انه كان هو نفسه لا يحب أباه ، وانه ربما كان يتمنى موته . آه . . . هذا انسان ذو ضمير حى ووجدان رفيع ! لقد مرض من كثرة ما عانى من عذاب الوجدان والضمير . قال لى كل نبيء ، كل نبيء اطلاقاً ! كان يجيىء الى كل يوم فيتحدث الى حديته مع صديقه الوحيدة ! (هكذا هتفت تقول فجأة بنوع من التحدى وقد التمت عينها) لقد ذهب الى سمردياكوف مرتين . وفى ذات يوم جاء الى فقال لى : « اذا لم يكن القاتل أخى بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القسائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، كانت قد أطلقت فى الناس) ، فمن الجائز أن أكون أنا أيضاً جانباً ، لأن سمردياكوف كان يعلم اننى لا أحب أبى وأنتى أتمنى موته » . وعندئذ انما أخرجت تلك الرسالة فأطلعت عليها . فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل ، فاذا بهذه الفكرة تحطم نفسه أخيراً . لم يطق أن يتصور أن يكون أخوه قاتل أبيه . وقد لاحظت ، منذ أسبوع ، أن ذلك أمرضه فعلاً . كان يتفق له فى الأيام الأخيرة أن يأخذ يهنى أثناء زيارته لى . وأدركت أنه فى الطريق الى الجنون . كان يهنى وهو يسير ، وقد شوهد هائماً على وجهه مجدناً نفسه فى سوارع مدينتنا . وحين فحصه ، أمس الأول ، تلبيةً لطلبى ، الطيب' الاخصائى الذى وفد الى مدينتنا ، قال لى انه على وشك أن يصاب بالحمى الحارة . ذلك كله بسببه ، بسبب هذا الشيطان

الرجيم • وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمردياكوف قد انتحر ، فأحدث هذا النبأ في نفسه أثراً بلغ من القوة أنه فقد عقله ••• وذلك كله بسبب هذا الشيطان الرجيم ، بسبب رغبته في انقاذ هذا الشيطان الرجيم •

أنا أعلم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلى باعترافات من هذا النوع الا مرة واحدة طوال حياته ، في اللحظات التي تسبق الموت متلاً ، أو حين يصعد درجات المشنقة • ولقد كانت كاتيا في حالة من هذا النوع نفسه ، وهي حالة تتفق وطبعها على كل حال • انها في الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التي هرعت في الماضي الى بيت الضابط الفاسق انقاذاً لأبيها ، انها كاتيا تلك نفسها التي ارتضت منذ قليل أن تضحى على رءوس الأشهاد بحياتها وخبرها ، هي العفة الطاهرة ذات الأنفة والكبرياء ، فقصت قصة « السلوك النييل الذي سلكه ميتيا » ، لا لشيء الا أن تخفف المصير الذي ينتظره بعض التخفيف • وهي بهذه الطريقة نفسها ، وعلى هذا النحو نفسه ، انما تضحى بنفسها الآن ، ولكن في سبيل رجل آخر ، في سبيل رجلٍ لعلها أدركت لأول مرة في تلك اللحظة مدى ما تضرر له من محبة • تضحى بنفسها في سبيله مخافة أن يكون قد أساء الى شرفه والى سمعته حين قال انه هو القاتل • لقد بدا لها فجأةً أنه بشهادته قد ضيَّع نفسه ، فهي تضحى بنفسها لتنقذه هو ، لتنقذ اسمه وسمعته ومهابته ! على أن هناك سؤالاً مقلقاً يطرح نفسه : هل كذبت قبل ذلك حين تكلمت عن عواطفها نحو ميتيا ، وهل تجنت عليه حين وصفت موقفه منها ؟ لا ، لا ، لا ••• انها لم تندد به عامدةً حين صرخت تقول انه يحتقرها بسبب التحية الساجدة التي حيته بها في الماضي ! لقد كانت تؤمن بذلك صادقة ، لقد كانت مقتنعة ، ربما منذ حيته بتلك التحية ، أن ميتيا ، هذا الطفل البسيط الطيب الذي كان يحبها حب العبادة في ذلك الأوان ، قد احتقرها وسخر منها

واستهزأ بها. وهي ماتعلقت به ذلك التعلق، ولا أحبته ذلك الحب الهستري المصطنع المغالى الا من قبيل الكبرياء وحدها • ان ذلك الحب ، الذى نشأ عن زهو جريح ، كان أقرب الى الانتقام منه الى الحنان • صحيح أن هذه العاطفة المجلوبة كان يمكن أن تستحيل الى حب حقيقى ، ولقد كانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال ، ولكن ميتيا أساء اليها بخيانتة اساءة عميقة ، وأهانها اهانةً بالغة ، فلم تستطع نفس الفتاة المتكبرة المتعطرسة أن تغفر له • وحلّت ساعة الانتقام فجأة ، على نحو لم تكن تتوقعه هى نفسها ، فاذا بالأحقاد التى تراكمت فى قلب المرأة المهانة تراكمًا أليماً خلال هذه المدة الطويلة كلها ، اذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعةً واحدة على حين بغتة • ان كاتيا تخون ميتيا الآن ، ولكنها تخونه بخيانة نفسها ! وطبيعى أن التوتر العصبى قد زال منذ أفصححت عما يعتلج فى قلبها فأخذ يستولى عليها الشعور بالحزى والعار • لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة ، فتهاوت على مقعدها وهى تشيح وتئن • فاضطروا الى نقلها من القاعة • وفيما كانوا يبعدونها هرعت جروشكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدّها والسيطرة عليها :

– ميتيا ! ان هذه الأفعى قد ضيعتك !

وأضافت تقول وهى ترتعش غضباً وتتجه بكلامها الى أعضاء المحكمة :

– ها هى ذى الآن تظهر على حقيقتها •

وبأمرٍ من رئيس المحكمة ، أمسكت جروشكا واقتيدت الى خارج القاعة • كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا • فأخذ ميتيا يعول هو أيضاً ، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها • فأمسكوه وسيطروا عليه •

افترض أن سيداتنا اللواتي جئن الى جلسة المحاكمة كمشاهدات ، قد أرضاهن ما رأين : ان هذا المشهد يستحق منهن ما لقين من عناء في سبيل أن يرينه • وأتذكر أن الطبيب الاخصائى الوافد من موسكو قد ظهر في تلك اللحظة • يبدو أن رئيس المحكمة كان قد كلف الحاجب باستدعائه لاسعاف ايغان فيدوروفتش • قال الطبيب للمحكمة ان ايغان فيدوروفتش مصاب بنوبة خطيرة جداً من نوبات حمى حارة ، وان من الواجب صرفه فوراً • وجواباً عن أسئلة ألقاها عليه وكيل النيابة والمحامي ، صرّح بأن المريض قد جاء يستشيريه فى أمر مرضه منذ يومين ، وبأنه قد تنبأ له بنوبة حمى حارة وشيكة ، ولكن ايغان فيدوروفتش رفض أن يُعالج • قال الطبيب راوياً : « لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً • واعترف لى هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له ، فتارةً يرى فى الشارع أشخاصاً ماتوا منذ زمن بعيد ، وتارةً يزوره فى المساء ابليس » •

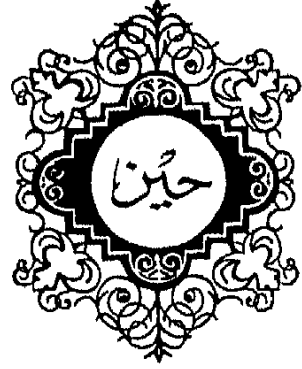
وانصرف طبيب الأمراض العقلية بعد أن فرغ من عرض آرائه •

وضُمّت الرسالة التى قدمتها كاترين ايغانوفنا ، ضُمّت الى وثائق الاثبات • وتشاور أعضاء المحكمة ، فقررروا أن يواصلوا المناقشات ، ودوّنت الشهاداتان اللتان لم تكونا متوقعتين (أعنى أقوال كاترين ايغانوفنا وايغان فيدوروفتش) فى محاضر المحاكمة •

أحسب أنه لا داعى الى سرد تنمة وقائع المناقشات • فان أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك ام تأت بشىء جديد ، ولم تزد على تكرار ما عرفه القارىء حتى الآن ، مع بعض الفروق الطفيفة الشخصية • وأقول مرةً أخرى : ان جميع الشهادات قد لخصتها وكثفتها مطالعة وكيل النيابة التى سأعرض لها حالاً • وحسبى أن أشير هنا الى

أن الحضور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شديد عنيف من هول
النازلة ، وكان الجميع ينتظرون خاتمة الدرامة وخطابي الاتهام والدفاع
بقلوب يحرقها نفاذ الصبر . وكان يبدو على فيتوكوفتش أن أقوال كاترين
ايفانوفنا قد أرهقته من أمره عسراً . أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً .
حتى اذا انتهت المناقشات رفعت الجلسة نحو ساعة . وأعلن الرئيس
أخيراً أن الكلام لوكيل النيابة . وأظن أن الساعة كانت هي الثانية من
المساء حين بدأ هيوليت كيريلوفتش القاء مطالعته .

مطالعة النسيابة . عن صبر بارزة



بدأ هيوليت كيريلوفتشس القاء مطالعته كان يرتعش ارتعاشة عصبية ، وكان يشعر بعرق بارد على جبينه وصدغيه + انه يصاب بحمى ثم يصاب بارتعاد ، مرة بعد مرة + بهذا وصف هو نفسه ، فيما بعد ، الحالة التي كان عليها حينذاك + كان يرى أن هذا الخطاب « خير اتاجه » و « أحسن آثاره » ، وتاجاً يتوج حياته في آخر عهده بمهنته ، ونشيداً كنشيد البجعة يصدح به صوته قبيل مماته + وقد مات هيوليت كيريلوفتشس فعلاً بعد ذلك بتسعة أشهر ، من سلٍ خييت لم يمهلها طويلاً ، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغنى قبل موتها ، اذا صدق أنه أوجس ذلك حقاً + لقد وضع في هذه المطالعة كل قلبه ، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً ، وبرهن في هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقفاً منه ، وأنه يهتم هو أيضاً « بالمشكلات الحادة » ، على الأقل في حدود قدرة صاحبنا المسكين هيوليت كيريلوفتشس على فهمها + وقد فتن الناس بصدقه خاصة : كان هيوليت كيريلوفتشس يؤمن فعلاً بأن المتهم هو الجاني ، فكان لا يتهمه ويطالب بانزال « العقاب » في الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب ، وانما كان كذلك مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بما يقول ، وكان مشبعاً بعاطفة « انقاذ

المجتمع » • ان النساء من جمهور المشاهدين ، وهنَّ يعادين بمشاعرهن هيبوليت كيريلوفتشس ، لم يخفين الأثر العميق الذي أحدثه خطابه في نفوسهن . ولقد بدأ وكيل النيابة القاء خطابه بصوت متوتر منقطع ، ولكنه صوت ما ينفك يقوى ويثبت شيئاً فشيئاً ، ثم يدوَّى في القاعة كلها الى نهايته • ومع ذلك أوشك هيبوليت كيريلوفتشس أن يُغمى عليه حين فرغ من القاء الخطاب • بدأ وكيل النيابة مطالعته هكذا :

« سادتي المحلفين ! ان القضية التي ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة في روسيا كلها • ولكن فيم ندهش وفيم نروّع ؟ هل من حقنا أن ندهش وأن نروّع ؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل ؟ ألا ان أشنع ما في الأمر هو أن فظاعات تبلغ هذا المبلغ من السواد قد أصبحت لا تهز نفوسنا ! ذلكم هو بلاؤنا ! وان هذا التعود على الشر هو ما ينبغي أن نحزن له ، لا هذه أو تلك من الجرائم يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين • فما هي أسباب قلة اكرائنا ، ما هي أسباب عدم انفعالنا ازاء جرائم من هذا النوع ، جرائم هي في حقيقة الأمر علامات شر مستطير تنذر بمستقبل مظلم ؟ هل ترجع تلك الأسباب الى ما صرنا نتصف به من استهتار واستخفاف ، هل ترجع الى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً في مجتمعنا هذا الذي ما يزال فتياً ثم هو قد اهترأ قبل الأوان ؟ هل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكرائنا الى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهترت ، اللهم الا أن تكون هذه المبادئ الأخلاقية أموراً نعوزنا أصلاً ؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة ، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة مقلقة ، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن ، لا يحق له أن يطرحها فحسب ، بل يجب عليه أن يطرحها أيضاً • ان صحافتنا التي ماتزال في بداياتها ، والتي تُظهر شيئاً من التهيب في بعض الأحيان لهذا السبب، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية خدمات كبيرة ، فلولاها لما

استطعنا أن نعرف كل ما يعيث في بلادنا فساداً من انحلال الإرادة وفساد الأخلاق • انها تطلعتنا على الأنباء في أعمدها كل يوم ، وبذلك لا تقتصر معرفة الواقع المرير على الذين يحضرون المحاكمات التي يعد نشر وقائعها حسنة من حسنات النظام القائم ، وانما تتعداهم الى جميع المواطنين بغير استثناء . فماذا نقرأ كل يوم في هذه الصحف ؟ وا أسفاه ! اننا نقرأ في هذه الصحف أنباء عن جرائم يفوق هولها هول القضية التي ننظر فيها اليوم ، ولا تعد هذه القضية بالقياس اليها الا حادثاً تافهاً مبذولاً • وأخطر ما في الأمر أن عدداً كبيراً من قضايانا الجنائية الوطنية ، قضايانا الروسية ، يدل على نوع من سقوط جماعى عام شامل هو بلاء مشترك بيننا جميعاً ، بلاء رسخ في أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً ، فأصبحت محاربه أمرأ شاقاً عسيراً • ضابط شاب لامع ينتمى الى الأوساط الارستقراطية • انه في بداية حياته وبداية مهنته • ها هو ذا لا يتردد ، في ذات يوم ، عن ذبح موظف بسيط متواضع كان قد قدم له خدمة ، وعن ذبح خادمة هذا الموظف ، دون أن يشعر بشيء من حياء ، ودون أن يحس بشيء من عذاب الضمير ، وذلك ليتردد من هذا الموظف سنداً كان حرره له اعترافاً منه بدينه عليه ؟ ثم هو ينتهز الفرصة ، فيسطو على ما يجده في منزل القليل من مال ، قائلاً لنفسه : « سينفعنى هذا المال في الاستمرار على معاشره المجتمع الراقى ، وسيسهل ارتقائى في وظيفتى تبعاً لذلك » ؛ حتى اذا فرغ من الاجهاز على ضحيته ، لم ينس أن يضع تحت رأسيهما وسادة ، وانصرف • واليكم مثلاً آخر : شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته • ها هو ذا يقتل في الطريق ، كما يفعل قاطع الطريق ، ها هو ذا يقتل أمّ رئيسه المحسن اليه ؛ ومن أجل أن يطمن شركاءه فى الجريمة ، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته فى ارتكاب الجريمة ، يقول لهم : « ان هذه المرأة تحبني كابنها ، ولهذا

ستنبح نصائحى دون أن تتخذ أى احتياطات من الاحتياطات » • صحيح أن هذا انسان شاذ • ولكننى لا أجروؤ أن أقول انه حالة مفردة فى هذا العصر الذى نعيش فيه • وهناك آخرون قد لا يقتلون ، ولكن نفوسهم تتهيش بهذه الرغبات نفسها وهذه المشاعر نفسها التى تهيش بها نفس ذلك المجرم ، وهم خالون من الشرف خلوة هو منه ، ولعلمهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون : « ما هو الشرف ؟ أليس الخوف من سفك الدم وهماً من الأوهام الباطلة ؟ » • قد تأخذون على أنى متشائم تشاؤماً هو الى المرض أقرب ، وأننى أجتز رؤى مظلمة ، وأشهر بالناس تشهيراً خبيثاً ، وأغالى فى وصف الشر الذى ألاحظه مغالاة هاذية ! آه ••• كم أتمنى يا رب السماء أن يكون هذا المأخذ قائماً على أساس صحيح ! • لكم أن لا تصدقوننى اذا شئتم ، ولكم أن تعدوا قلقي هذا وخوفي هذا مرضاً ، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم : اذا لم يكن فى أقوالى الا عشر معشار من صدق ، فذلك وحده رهيب ! هل فكرتم ، أيها السادة ، فى العدد المروّع من الشباب الذين ينتحرون فى بلادنا ؟ انهم يقتلون أنفسهم بلا كلام ، دون أن يتساءلوا ، كما فعل هاملت ، عمّا سيصيرون اليه بعد الموت • لكأن مشكلة النفس الانسانية ، لكأن مشكلة المصير الذى ينتظرنا فى الحياة الآخرة ، أصبحت غريبة عن عقولهم ، فهم قد نسوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمان طويل • وانظروا ، بعد ، الى فساد أخلاقنا وتحلل عاداتنا الذى يتجلى لدى الفاسقين الماجنين من أبناء مجتمعنا • ان فيدور بأفلوفتس ، الشمقى المجنى عليه فى هذه القضية ، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً اذا قيس بأولئك الفاسقين الماجنين ، ولقد عرفناه جميعاً ، « وكان واحداً منا » ••• قد يجىء يوم تعكف فيه عقول متفوقة ، فى بلادنا وفى البلاد الأخرى ، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسى ، لأن الموضوع

يستحق عناء الدرس طبعاً • ولكن هذه الدراسة ستتم في المستقبل ، حين يهدأ البال ويطمئن العقل ، حين تصبح ضروب المآسى التي يعاني منها عصرنا ذكرى لا أكثر ، فيكون من الممكن عندئذ أن تدرس دراسةً فيها من الانصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال متلى في هذا الأوان ؛ نحن الآن مروّعون ، أو نحن نتظاهر بأننا مروّعون ، مع تلذذنا بمشهد الجريمة ، لأننا نحب الاحساسات القوية الشاذة العنيفة التي توقف نفوسنا من الحذر وتهز ما نعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستخفاف والاستهتار ؛ أو قولوا أيضاً اننا أشبه بأطفال صغار ، نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا ، وندفن وجهنا في الوسادة الى أن تغيّب تلك الرؤى المرعبة ، عازمين على أن ننساها فوراً بالمسرات واللعب • ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرةً على أن نأخذ الحياة مأخذ الجد ، وعلى أن نفكر فيما توجهه علينا الحياة وما تقتضيه منا • لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لنستطيع أن نفهم ، أو لنحاول أن نفهم ، على الأقل ، ما يجري في مجتمعنا • ان كاتباً كبيراً من كتاب عهد قريب ، * قد شبهه روسيا ، في خاتمة كتابه الرائع ، بعربة ترويكّا تعدو عدواً سريعاً نحو غاية مجهولة ، فهتف يخاطبها قائلاً : « أيتها الترويكّا ، يا طائراً سريعاً ، من ذا الذي أوجدك ؟ » وأضاف يقول في اندفاعه كبرياء وعجب وزهو : ان الشعوب لتتنحى باحترام عن طريق الترويكّا الجبارة • ليكن ، أيها السادة ! لنسلم بأن الشعوب تنحى أو لا تنحى • ولكنني أعتقد ، في رأيي التواضع ، أن الفنان العبقرى انما استعمل هذه الصورة وهو في حالة اندفاع مثالى طفولى يُغفر له ، أو لعله لجأ الى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات في ذلك العهد ؛ اذ لو شدّ الى هذه الترويكّا أبطال روايته نفسها ، أمتال سوباكيفتش ونوزدريوف وتشيتشيكوف ، فهل تعلمون الى أين يمكن أن تقودنا الترويكّا بهذه

الحيول أياً كان الحوذى الذى يقودها؟ وتلك مع ذلك خيولٌ من عهد
غابر لا تضارع خيول هذا الزمان • وقد رأينا بعدها كثيراً • • • •

هنا قطع خطابَ هيوليت كيريلوفتشس تصفيقٌ من الجمهور • لقد
طرب الجمهور مما فى صورة الترويكا هذه من لبرالية • ولكن التصفيق
الذى انطلقت به الأكف كان تصفيقاً متفرقاً هنا وهناك ، لذلك لم يرَ
رئيس المحكمة أن عليه أن « يهدد باخلاء القاعة » ، واقتصر على أن
يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية • غير أن هيوليت كيريلوفتشس قد
تشجع • انه لم يُصنَّق له حتى الآن يوماً فى حياته • لقد ظل الناس
سنين طويلة يرفضون الاصغاء اليه ، وها هو ذا يستطيع على حين فجأة أن
يسمع صوته روسيا كلها ! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال :

« ما الذى تمثله فى الواقع أسرة كارامازوف هذه التى اكتسبت
فى بلادنا ، بين عشية وضحاها ، شهرةً سوداء هذا السواد كله ؟ قد
تظنون اننى أبالغ ، ولكنى أحسب أن حياة هذه الأسرة تعكس عناصر
بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر ؛ صحيح أنها تعكسها مصغرةً
تصغيراً مكروسكوبياً ، كما « تعكس الشمس قطرة ماء » ، ولكننا نجد
فيها قبسات ذات دلالة • انظروا أولاً الى ذلك العجوز الشقى ، ذلك
الفاسق الجرىء ، ذلك « الأب » الذى لقي مصيراً حزيناً تعيساً • لقد بدأ
حياته طفيلياً مسكيناً رغم نبالة محتده ؛ وأتاح له زواج موفق لم يكن
بأمله ، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به • لم يكن الرجل فى ذلك
الحين الا غشاشاً ضيق المدي ومهراً جاً يتملق الأقوياء ، لكنه يملك مزايا
ذكاء تُجحد • وهو قبل كل شيء مراب • وتتقضى السنون ، فيربو رأس
ماله ، ويأخذ يرفع رأسه شيئاً بعد شيء • وتخفى المذلة والاستكانة
وتزول الزلفى والمداهنة ، ولا يبقى من الرجل الا انسان فاجر عاهر ،
انسان شرير خبيث ساخر • غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً

لا رجعة لها بعده ، وأصبح ظمؤده الى اللذة ظمأً جارفاً لا حدود له ،
وغدا لا يرى في الوجود الا المباهج والمتع والممذات ؛ وبهذه الروح انما
نشأ أولاده ، أما الواجبات الأخلاقية التي تقع على عاتق أب فانه لم يعبأ
بها ولم يكثرث لها . انه لا يبالي أبناءه ، بل يتركهم في الفناء الخلفى من
منزله ، ويعد نفسه سعيداً حين ينتزعون منه . ثم ينسى وجودهم آخر
الأمر نسياناً تاماً . ان قاعدة السلوك التي ارتضاها هذا الرجل لنفسه
وأخذ بها تلخص في قول القائل : من بعدى الطوفان ! * ان نظراته
ومفاهيمه تجعل منه نقيض المواطن ، فهو يعيش بعيداً عن المجتمع ،
في عزلة تشسبه أن تكون معادية للمجتمع ، ولسان حاله يقول :
« ألا فليهلك المجتمع كله ، شريطة أن أكون أنا بخير » . ولقد كان
بخيراً فعلاً ، فهو راض عن مصيره ، مغتبط بما ناله ، يتمنى بحرارة أن
يعيش عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى . وهو يغبن ابنه ويسلبه
حقه ؛ وبالمال الذي آل الى الفتى من ميراث أمه ورفض الأب أن يردّه
اليه ، يحاول الأب أن ينتزع من الابن عشيقته . لا ، لن أترك عبء الدفاع
عن المتهم للمحامى اللامع الذي وفد الينا من سان بطرسبرج ! سأقول
الحقيقة بنفسى ، لأننى أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب
في نفس ابنه . ولكن كفانا ما قلناه عن ذلك العجوز ، لأنه قد عوقب على
آثامه عقاباً كافياً . ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرنا .
أقولون اننى أهين المجتمع اذا زعمت أنه واحد من عدد كبير من الآباء
المعاصرين ؟ وأأسفاه ! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه ، فى عصرنا
هذا ، الا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك
الاستهتار نفسه ، بينما هم فى الواقع يشاطرونه آراءه ! لنسلم جدلاً
بأننى متشائم . لقد اتفقنا على أن تعذرونى هذه المرة . فليكن مفهوماً منذ
الآن أنكم قد لا تصدقوننى ، ولكننى سأعبر عن آرائى تعبيراً حراً ،

وسأقول كل ما أعتقد به فى فرارة نفسى • لكم أن لا تصدقونى • ولكن شيئاً مما سأقوله سيبقى فى نفوسكم مهما يكن من أمر •

لنتقل الآن الى أبناء ذلك العجوز ، ذلك الأب الذى هو رب أسرة : ان واحداً منهم يجلس الآن أمامكم على دكة المتهمين ، وسأتحدث عنه ، فيما بعد ، حديثاً أطول • أما الآخرون ، فسأوجز الكلام عليهما • ان أكبرها هو واحد من شبابنا الحديثين يملك ثقافة ممتازة وذكاءً عظيماً ، ولكنه لا يؤمن بشيء ، لأنه كان قد نبذ وجحد أموراً كثيرة قبل ذلك ، كآبيه تماماً • اننا نعرفه جميعاً : لقد استقبل استقبالاً حاراً فى مجتمعنا ، وأُحسنت وفادته • وكان لا يخفى آراءه • بالعكس : كان يجاهر بها ، وذلك يجيز لى أن أتكلم عنه اليوم بشيء من الصراحة ، فأحلله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً ، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف • لقد انتحر بالأمس ، فى الطرف الأقصى من المدينة ، رجلٌ شقى ضعيف العقل مريض ، مرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً ، هو الخادم القديم وربما الابن غير الشرعى لفيدور بافلوفتش • أقصد سمردياكوف • لقد روى لى ذلك المسكين ، أثناء التحقيق الأولى ، وهو يبكى بكاءً متشنجاً ، كيف أن هذا الشاب كارامازوف ، أعنى ايفان فيدوروفتش ، قد روَّعه باباحية تفكيره • كان يقول له : « كل شيء مباح ، كل شيء مشروع ، كل ما قد يشتهي الانسان فى هذا العالم حلال ، وما ينبغى أن يحرمَّ شيء بعد الآن » • ذلكم ما كان يعلمه اياه • ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صوابه نهائياً بتأثير هذه الأفكار ، وان يكن من الجائز أيضاً أن يكون مرضه ، وهو مرض الصرع ، قد أثر فى حالته العقلية كذلك ، وأن تكون الدراما الرهيبة المروَّعة التى وقعت بالمنزل قد أسهمت فى اختلال عقله • ومع ذلك فان هذا الأبله قد ساق فى يوم من الأيام ملاحظة شائقة هامة يمكن أن يفخر

بمنلها رجل أذكى منه ، ولذلك أرى أن المفيد أن أذكرها هنا • لقد أفضى الىّ بقوله : « بين جميع أبناء فيدور بافلوفتش ، لا شك أن الذى يشبهه فى طبعه أكثر مما يشبهه سائرهم ، هو ايفان فيدوروفتش • » • أريد أن أختتم ، بهذه الملاحظة ، التحليل السيكولوجى الذى عرضته لكم ، فليس يجمل أن ألح مزيداً من الالحاح • ولا أريد أن أتعبل استخراج النتائج وأن أكون المتنبىء بالشقاء لشاب فى فجر حياته • لقد رأينا فى هذه القاعة ، منذ اليوم ، أن القوة التى لا سبيل الى مغالبتها ، أعنى قوة الحقيقة ، ما تزال تؤكد نفسها فى قلب هذا الفتى ، وأن عواطف التعلق العائلى لم يخنقها الكفر بالدين ولا قضى عليها الاستخفاف بالأخلاق ، وهما كفر واستخفاف يرجعان الى الوراثة أكثر مما يرجعان الى تفكيره الخاص •

« وانظروا بعد ذلك الى أصغر هؤلاء الأبناء • ان هذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً تقياً يحاول ، على نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التى تدفع الى الانحلال والتى أخذ بها أبوه ، يحاول أن يتعلق بما يُزعم أنه « أسس روح الشعب » ، أو ما يطلق عليه فى أيامنا هذه ، فى صفوف بعض الأوساط المتقفة من مجتمعنا ، هذا الاسم الذى فيه شىء من الادعاء • لقد بحث عن النجاة فى الاعتصام بدير ، وكاد يرتدى هو نفسه مسح الراهب • يتخيّل الىّ أنه لا بد أن يكون قد أحس ، ربما على غير شعور منه ، بذلك الكرب الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسى منهما الآن ، فى بلادنا الشقية ، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروّعهم ما يشيع فى مجتمعنا من استهتار واستخفاف ، وتحلل من الأخلاق • واذ كان هؤلاء الأشخاص يعززون الشر كله الى الثقافة الغربية ظلماً بغير حق ، فانهم يرجعون ، كما يُقال ، الى « تراب الوطن » ، ويسارعون الى الاحتماء بذراعى الأرض الأم التى أَرْضعتهم ،

مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روّعهم رؤى أشباح ، فهم يلودون بالصدور الناضبة من أمهاتهم الموهنة ، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم وراحة الغفو على أقل تقدير . وهم يتمنون أن يستطيعوا أن يناموا هذا النوم طول حياتهم ، هرباً من منظر الأهوال التي تروّعهم . اننى ، من جهتى ، أتمنى أحسن التمنيات لمستقبل هذا المراهق اللطيف المحب الموهوب . وآمل أن لا تنقلب مثاليته الشابة وأن لا ينقلب ميله الى الأفكار الشعبية ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان ، الى صوفية ضبابية وغيبية جاهلة فى مجال الأخلاق ، والى تعصب قومى أعمى على صعيد السياسة . فهذان ضلالان هما فى نظرى أشد شؤماً على مستقبل أمتنا من الانحلال الأخلاقى المبكر الذى ولّدتَه فى أخيه ثقافة غربية لم يحسن هضمها وتمثلها » .

هنا انطلقت بعض الأكف بانتصيق من جديد ، على ذكر التعصب القومى والصوفية الغيبية . وواضح أن هيوليت كيريلوفتش قد استرسل فى هذا الكلام المستفيض بدافع الفصاحة والبلاغة ، وأن ملاحظاته لا تمت الى القضية بأية صلة من الصلات . ثم لقد كان كلامه كله غامضاً مبهماً ، ولكن هذا الرجل المصدور الحائق قد أراد أن يفصح عمّا بنفسه مرة واحدة فى حياته على الأقل . وقد قيل فيما بعد انه انما انقاد فى تحليله النفسى لايفان فيدوروفتش لعاطفة فيها شئ من حقد ، لان ايفان فيدوروفتش كان قد أخرجهُ وأربكه مراراً فى الأحاديث التى كانت تدور فى صالونات المجتمع ، فلم ينس هيوليت كيريلوفتش ذلك ، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثار لنفسه وأن ينتقم فيما قيل . أما أنا فاننى أتساءل هل هذا الرأى صحيح له ما يستوغه . مهما يكن من أمر ، فان هذا الجزء من خطابه لم يكن الا استهلالاً ، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كتب . واصل وكيل النيابة القاء خطابه فقال :

« أعود الآن الى الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة الحديثة • انكم ترونه أمامكم جالساً على دكة المتهمين ، وأمام أبصاركم تخطر حياته كلها ، أعماله وسلوكه : لقد حانت الساعة التي يتضح فيها كل شيء • انه يمثل ، خلافاً لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية ، انه يمثل روسيا على حالتها الطبيعية ان صح التعبير ، ولكن لا روسيا كلها من حسن الحظ ، لا روسيا كلها والحمد لله ! ولكننا نجد روسيا فيه ، نشم رائحتها المألوفة ، نحزر حضورها ! نعم ، نحن أناس على حالة الطبيعة ، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً • نحب الثقافة ونعجب بشيلدر ، ولكننا نتحدث عن الفضائح في الكاباريهات ونجد لذةً في جرّ رفاق السكر من لحاهم • صحيح أننا نعرف كيف نكون أخياراً طيبين وكراماً أسخياء في المناسبات ، ولكن ذلك لا يحدث لنا الا حين نكون سعداء راضين عن أنفسنا • نحن نحب الأفكار النبيلة ، ونلتهب حماسةً لها ، نعم ، نلتهب حماسةً لها ، ولكن شريطة أن تهبط علينا من السماء بغير جهد نبذله ، وأن لا تكلفنا شيئاً ، خاصةً أن لا تكلفنا شيئاً • نحن لانريد أن نبذل لها شيئاً ، نحن نكره أن نكون مضطرين الى العطاء • ولكننا في مقابل ذلك نحب أن نأخذ ، نحب الأخذ في جميع الميادين • لسان حالنا يقول : اعطونا ، اعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات لأننا لا نرضى بأقل من ذلك) ، ولا تعارضوا رغباتنا في شيء ، تروا عندئذ كيف نستطيع ان نكون لطافاً محبين ؛ ما نحن بالطماعين النهمين طبعاً ، ولكننا نريد أن تعطونا مالاً ، أن تعطونا مالاً كثيراً ، أن تعطونا أكبر قدر ممكن من المال : وسوف ترون عندئذ كيف نستطيع ، باحتقار نيل كريم للمعدن الخسيس ، أن نبذّده وأن نتلفه في ليلة واحدة أثناء قصف محموم وهو مسعور • فاذا شاء سوء الحظ أن يُمنع عنا هذا المال ، أظهرنا ما نحن قادرون على أن نفعله للحصول عليه متى اشتدت

حاجتنا اليه • ولكنني ألاحظ أنني أستبق الأمور • فلنعمد الى عرض
 الأشياء مرتبة منظمة • هذا هو الصبي الصغير يتركه أبوه ، « فيسكع
 في الفناء الخلفي حافي القدمين » ، على حد تعبير مواطننا المحترم المحبب ،
 الذي يرجع الى أصل أجنبي وأسفاه ! أعود فأقول : انني لن أترك لأحد
 عبء الدفاع عن المتهم • سوف أكون المتهم له والمحامى عنه في آن
 واحد • ذلك أننا بشر نحن أيضاً ، وسأعرف كيف أقيم وزناً لما تخلفه
 مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوي من آثار في النفس وما تتركه من
 بصمات على الطبع • ويكبر الصبي ، فيصبح مراهقاً ، ثم يصبح نواباً ،
 ويخدم في الجيش ضابطاً • وفي أعقاب أعمال عنفٍ بها ، وعلى أثر
 استفزاز الى مبارزة ، نفي الى مدينة صغيرة نائية ، تقع قرب حدود
 وطننا الغني الواسع • وهناك واصل حياته العسكرية ، واسترسل يستمر
 في افراطه طبعاً ، فهو يلهو ويقصف ويعبث • ولا بد له من المال ، لا بد
 له من المال قبل كل شيء • لذلك قرر ، بعد مناقشات طويلة ومجادلات
 كثيرة ، أن يساهل مع أبيه ، فقبل أن يدفع له أبوه مبلغاً أخيراً قدره
 ستة آلاف روبل ، وقد تقاضى هذا المبلغ فعلاً • لاحظوا أن هناك سنداً
 مهموراً بتوقيعه هو رسالة يصرِّح فيها أنه يتنازل عن باقي الميراث ، وأنه
 يعد استلام هذه الستة آلاف روبل نهاية لنزاعه مع أبيه في أمر هذا
 الميراث • وفي تلك الفترة يلتقي بفتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة • أوه !
 اعفوني من الدخول في التفاصيل ، فقد سمعتم هذه القصة هنا ! ان
 المسألة مسألة شرف ومروءة ، مسألة تضحية ، فلا يسعني الا أن أسكت
 باحترام واجلال • ان الصورة التي رُسمت لكم عن شاب هو انسان
 طائش منحل ولكنه يعرف كيف ينحنى أمام نفس نبيلة صادقة ، أمام
 مثل أعلى كريم رفيع ، ان هذه الصورة قد أحببناها جميعاً وأعجبنا بها
 جميعاً • ولكنكم قد اطلعتم بعد ذلك بلحظات ، في هذه القاعة نفسها ،

على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، اطلعت على قفا الصورة • سأمتنع هنا أيضاً عن فرض الفروض ، وسأعدل عن تحليل الأسباب التي دفعت الشاهدة الى تغيير موقفها • وهى أسباب موجودة حتماً • لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسها ، وهى تبكى من آلام طال كظمها ، تعلن لنا أنه كان أول من ازدراها واحتقرها للعمل الذى قامت به ، العمل الذى ربما كان فيه طيش وعدم تبصر ، ولكنه نبيل المنبع كريم الهدف على كل حال • ففى منزل هذا الشاب ، فى منزل خطيبها ، انما رأت هذه الفتاة ، لأول مرة ، تلك النظرة التى تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية ، تلك النظرة التى لم تنطق هذه الفتاة خاصة أن تحتملها • وحين علمت أنه خانها (وقد خانها لا اعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شيء ، حتى الخيانة) ، تعمّدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة آلاف روبل وهى تفهمه بوضوح ، وربما بوضوح مفرط ، انها انما تعطيه هذا المال لتتيح له أن يمضى فى حياته الى نهايتها • وكانت نظرتها الفاحصة تسأله : « هيه ! أتقبل المال أم لا ؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفاف ؟ » وقد قرأ هو نظرتها ، وأدرك ما يخفيه تفكيرها ، أدركه ادراكاً تاماً (ألم يعترف فى هذا المكان نفسه ، أمامكم ، أنه أدركه ؟) ولكنه قبل الثلاثة آلاف روبل دون تردد ، وأنفقها خلال يومين على لهوه فى حبه الجديد • فماذا نصدق ؟ هل الحقيقة قائمة فى الصورة الأولى التى رسمت لنا عنه ، هل الحقيقة قائمة فى أسطورة تلك الاندفاع النبيلة الكريمة التى حملت الضابط الشاب على أن يضحى بآخر ما يملك ، وعلى أن ينحنى أمام الفضيلة ؛ أم الحقيقة قائمة فى ظهر تلك الصورة ، فى ظهرها الذى يبعث على الاشمئزاز ويثير التقزز ؟ انه ليحدث فى الحياة عادةً أن توجد الحقيقة فى الوسط ، حين يكون هناك عنصران متناقضان • ولكن الأمر ليس كذلك فى الحالة التى ننظر فيها الآن • وانما أغلب الظن أن الشاب كان صادق النبل فى المرة الأولى

بقدر ما كان صادق الحسنة والحطة في المرة الثانية • فاذا سألتهموني : لماذا؟ قلت لأننا ازاء طبائع واسعة هي طبائع آل كارامازوف - وذلك ما أريد أن أخلص اليه - أعنى أننا ازاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحياة ، وعلى أن يرنوا بأبصارهم الى الهوتين كليهما في آن واحد ، الهوة العليا التي تحلق فيها أنبل الصبوات وأرفع الأشواق ، والهوة السفلى التي تغوص فيها أحقر المخازى وأدنى أنواع السقوط • تذكروا تلك الفكرة اللامعة التي عبّر عنها ، منذ قليل ، السيد راكيتين ، هذا الشاب الذي أوتى موهبة الملاحظة العميقة ، وأتيح له أن يدرس آل كارامازوف من كتب ، وذلك حين قال : « ان هذه الطبائع العنيفة المسعورة تحتاج الى الاحساس بالدناءة والسقوط كحاجتها الى أرفع النبيل » • ألا ان هذا لصادق كل الصدق : ان هذا المزيج الشاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التي يقتضيها طبعهم بغير انقطاع • لا بد لنا من هوتين اثنتين أيها السادة ، هوتين اثنتين نستطيع أن نرنو اليهما معاً في آن واحد ، والا شعرنا بالشقاء وعدم الرضى ، لأن حياتنا يعوزها الامتلاء عندئذ • نحن واسعون ، واسعون سعة أمنا الطيبة روسيا ؛ نحن نستطيع أن نضم في أنفسنا كل شيء ، أن نضم كل شيء وأن نقبل كل شيء ! بالمناسبة ، أيها السادة : لقد أثرت الآن موضوع تلك الثلاثة آلاف روبل ، فاسمحوا لي أن أستبق الأمور قليلاً • هل فى وسعكم أن تتصوروا أن هذا المتهم ، الذى وصفت لكم طبعه ، قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسه الذى أخذ فيه المال من خطيبته - لقاء مذلة لا مذلة بعدها ، وخزى لا يضارعه خزى - هل فى وسعكم أن تتصوروا أنه قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخييط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك فى عنقه خلال شهر بكامله دون أن يفض الكيس ويأخذ المال ، رغم الاغراءات التي لا حصر لها والحاجات التي

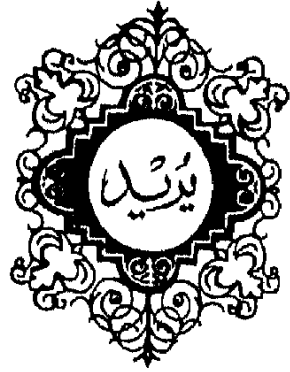
سبيل الى مغالبتها ، رغم هذه الاغراءات وهذه الحاجات التي تحفل بها حياته ؟ كيف يمكنه أن لا يمس هذه الذخيرة لا أثناء افراطه في الشراب في الكاباريهات ، ولا في اللحظة التي قام فيها بمساع لا يعلمها الا الله في سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة بغية أن يستطيع السفر مع حبيبته الغالية التي يريد أن يوقها ما يريد منها أبوه ، غريمة ومنافسه ؟ أما أنا فأرى أنه كان لا بد له أن يفض الكيس ، ولو لم يكن له من هدف الا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام اغراءات أبيه الذي يغار هو منه ، وأن يبقى الى جانبها حارساً يقطاً بانتظار اللحظة التي تقول له فيها اخيراً « أنا لك » ، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها الى حيث يبعد بها عن هذه البيئة الموبوءة . ولكن لا ، انه يأبى أن يمس حرزه ؟ وما حجته في ذلك ؟ ان الباعث الأول الذي ذكره ، كما قلنا منذ قليل ، هو رغبته في أن يدخر هذا المال للحظة التي ستقول له فيها : « أنا لك » فخذني الى حيث تشاء » ، فيكون في وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك المال . ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس الى الحجة الثانية ، وذلك باعتراف المتهم نفسه . كان المتهم يحدث نفسه قائلاً : « ما ظلمت أحمل هذا المال ، فاني أكون شقياً ولكنني لا أكون لصاً ، لأنني أكون قادراً في كل لحظة على أن أذهب الى خطيبي التي أهنتها ، وأن أضع أمامها نصف المبلغ ، وأن أقول لها : « انظري ! لقد أتلفت نصف مالك في اللهو والقصف ، مبرهنناً بذلك على أنني ضعيف مخل بما تقتضيه الأخلاق ، وعلى انني شقي ان شئت (انني استعمل تعابير المتهم نفسها) ، ولكنني ، مهما أكن شقياً ، لست بسارق ! فلو كنت سارقاً لما رددت اليك النصف الذي بقي لي من مالك ، وانما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول . » . يا لهذا التعليل لسلكه ما أشد غرابته ! ان هذا الرجل العنيف ، ولكن الضعيف ، ان هذا الرجل الذي

عجز عن مقاومة اغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها في ظروف تلتطخ شرفه ذلك التلطخ كله ، يوجد في نفسه على حين فجأة قوة رواقينه تمكنه من أن يعلق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمس هذا المبلغ في لحظة من اللحظات ! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم ؟ اننى لا أتردد في رفض هذا التعليل ؛ وسأجيز لنفسي أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف ، في رأيي ، دمترى كارامازوف الحقيقي ، اذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه في صدره • انه في سبيل أن يسر المرأة الحبيبة التي كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغاً مماثلاً ، كان سيفض الكيس فيأخذ منه ولو مائة روبل ، مثلاً ، في أول الأمر ، قائلاً لنفسه عندئذ : « علام أدّخر نصف المبلغ تماماً ، أى ألفاً وخمسمائة روبل ؟ يكفي أن أرد إليها ألفاً واربعمائة ، فالأمران واحد » لأنه سيظل قادراً على أن يقول لها : - أنا شقى ولكننى لست لصاً ، فهأنا ذا أرد اليك ألفاً وأربعمائة روبل ، على حين أن اللص يأخذ المبلغ كله ولا يرد منه شيئاً • وبعد مدة من الوقت ، يفض الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مائة روبل أخرى ، ثم يفضه ليأخذ منه مائة ثالثة ، فمائة رابعة ، وهكذا دواليكم ؛ فما ينقضى الشهر الا ويكون قد أخرج ألفاً وأربعمائة ألف روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المائة روبل قائلاً لنفسه : « يكفي أن أرد إليها مائة روبل ، أليس الأمران واحداً ؟ » - أنا شقى ، ولكننى لست لصاً • لقد أتلفت في اللهو والقصف ألفين وتسعمائة روبل ، ولكننى أرد اليك مائة روبل رغم كل شيء ، وما كان اللص أن يرد اليك شيئاً • « وفي النهاية ، بعد أن يتلف تلك المائة السابقة على الأخيرة ، كان سيهتف قائلاً : « علام أرد إليها مائة روبل ؟ فلأنفقها كما أنفقت ما عداها ! » • ذلكم هو التصرف الذي كان سيتصرفه دمترى كارامازوف الحقيقي ، الذي نعرفه • على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع

تناقضاً مطلقاً • ان فى وسع المرء أن يتخيل كل شىء الا هذا • ولكننا
سنعود الى هذا الأمر فيما بعد « •

وبعد أن عرض هيوليت كيريلوفتشس ، بالترتيب ، كل ما تبين من
التحقيق الأولى فيما يتعلق بالمنازعات المالية والخلافات العائلية بين الابن
وأبيه ، وبعد أن أشار مرة أخرى الى أن الوقائع المعروفة ليس فيها أى
شىء ييجيز لنا أن نقطع برأى حاسم وأن نجيب اجابة شافية على سؤالنا
أى الرجلين غش الآخر وغبنه عند اقتسام الميراث ، انتقل هيوليت
كيريلوفتشس الى الكلام عن الحالة النفسية التى كان عليها ميتا حين غدا
اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه ولا تبرحه فى لحظة
من اللحظات ، فجاء فى هذه المناسبة على ذكر تقرير الخبرة الطيبة •

لمحة تاريخية



تقرير الخبرة الطبية أن يبرهن لنا على أن المتهم لا يملك جميع قواه العقلية وأنه مصاب بمرض « المانيا » . أما أنا فأؤكد أن المتهم يملك عقله كاملاً ، وذلك هو بلاؤه وشقاؤه : فلو كان لا يملك عقله كاملاً ، لكان من الممكن أن يتصرف تصرفاً أقرب الى الذكاء . أما أن يكون مصاباً بمرض « المانيا » ، فذلك أمر أسلم به ، ولكن مرض « المانيا » عنده لا ينصب على نقطة واحدة هي تلك التي أشار إليها تقرير الخبير الطبي ، أعنى الفكرة التي رسخت في ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل فيما يزعم . ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحق الذي يجتاح نفسه ويستبد به كلما دار الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل ، نستطيع لتعليل ذلك أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن بالمتهم استعداداً للجنون . اننى ، من جهتي ، أشاطر الطبيب الشاب رأيه الذي يقول ان المتهم كان يملك وما يزال يملك جميع قواه العقلية ، وأنه طبعى سليم من الناحية السيكولوجية ، ولكنه منفعل حائق حاقد . تلكم هي عقدة القضية : ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل ، ليس المال هو السبب فيما كان يعاينه المتهم من

غضب متصل وحنق مستمر • ان هناك سبباً آخر كان يثير غضبه ، وهو سبب خاص : انه الغيرة ! » •

أفاض هيبوليت كيريلوفتشس بعد ذلك فى الكلام على الهوى الجامح المشثوم الذى سدّ المتهم الى جروشسكا ؛ وذكر تاريخ هذا الهوى منذ اليوم الذى ذهب فيه المتهم الى « تلك المرأة الشابة » على نية أن « يضربها » - على حد تعبيره - فاذا هو بدلاً من أن يضربها يتهاوى على قدميها • قال وكيل النيابة : « تلك كانت بداية هذا الحب • وفى ذلك الأوان نفسه انما ألقى العجوز ، أبو المتهم ، عينيه على هذه المخلوقة • يا للمصادفة العجيبة المشثومة ! لقد اشتعل القلبان حباً فى آن واحد ، فى ساعة واحدة تقريباً ، مع أن كلاهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيرة • وكان الهوى الذى ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف • وفى وسعنا أن نصدّق أقوال هذه المرأة الشابة • لقد ذكرت لنا ، فى هذا المكان نفسه ، أنها قد ضحكت على الرجلين كليهما وسخرت منهما كليهما • وتلكم هى الحقيقة : لقد اشتتت فجأة أن تضلللها وأن تغرر بهما كليهما • لم تكن قد اشتتت ذلك من قبل ، ولكن هذه الفكرة استهوت نفسها وفتنت فكرها على حين فجأة ، فاذا بالرجلين يزحفان وراء قدميها آخر الأمر • فالعجوز الذى كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئاً الا المال ، أعدّ لها ظرفاً فيه ثلاثة آلاف روبل يهديها اليها متى ارتضت أن تمن عليه بزيارة فى منزله ، بزيارة لا أكثر؟ ثم اذا هو يعلن أنه مستعد لأن يلقى على قدميها اسمه وثروته متى قبلت أن تصبح زوجته الشرعية • ان أمانا شهادت واضحة جداً فى هذا الموضوع • أما المتهم فان المأساة التى صار اليها وضعه واضحة لنا مبسوطه أمانا • وهى « لعبة » هذه الانسانة مع ذلك • ان المغوية الخطرة لم تهب لهذا الشاب حتى أملاً ، لأنه لم يعرف أملاً ، أغنى لم يعرف

أماماً حقيقياً ، الا فى آخر لحظة ، حين جتا أمام المرأة التى سببت له تلك الآلام كلها ومدّ نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه ، غريمه ومنافسه • وقد قبض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فلما رأت أنه يعقل ، استولت عليها ندامة صادقة ، فهتفت تقول : « اسجنونى معه ، أريد أن أتبعه ، لأننى أنا التى أوردته موارد الهلاك ، لأننى أنا المذنبة ! » • ان السيد راكينين ، الشاب الذى يملك حساً سيكولوجياً مرهفاً والذى تحدثت عنه منذ قليل ، قد تولى تحليل خفايا هذه القضية ، ووصف طبع بطلتنا فى بضع جمل موجزة ، فقال : « خيبة الآمال وتبدد الأوهام فى ميعة الصبا ؛ والمقاساة من كذب البشر فى سن مبكرة ؛ ثم السقوط ؛ وخيانة خطيب أغواها ثم هجرها ؛ وأخيراً موكب البؤس والفقر ، ولغات أسرة محترمة ، والاحتشاء بتاجر عجوز ما تزال تعده الى هذا اليوم محسناً اليها منعماً عليها • هكذا تجمّع الغضب وتراكم الحقد فى قلبها الذى لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة • فنشأ عن ذلك طبع حيسوب ، وميل الى كنز المال ، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح المكر والخداع والاحتقار والثأر والانتقام • » • ان هذا التحليل السيكولوجى يتيح لنا أن ندرك كيف أمكن هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما فى آن واحد ، بدافع النزوة وحدها ، لتلهو بهما لهواً خبيثاً شريراً ولو أدى ذلك بهما الى الدمار • وفى أثناء ذلك الشهر الملىء بحب لا يعرف الأمل ، وبسقوط أخلاقى ، وبالحيانة للخطيبة ، وبالاستيلاء على مبلغ أو تمن عليه وليس له ، فى أثناء ذلك الشهر لا بد أن يكون المتهم قد عرف ، عدا هذا ، حنقاً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه عذاباً قاسياً ؛ وممن كانت غيرته ؟ من أبيه نفسه ! وأخطر ما فى الأمر أن العجوز الطائش المجنون كان يحاول أن يفتن المرأة التى توله بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذى كان ابنه يعده حقاً آل اليه من ميراث أمه ،

ويدأب أبوه على حرمانه منه وحجبه عنه • نعم ، اننى لأعترف بأن احتمال هذا كان عسيراً عليه ، قاسى الواقع فى قلبه ! حتى ليتمكن أن يتصور المرء أن يُصاب الشاب من ذلك بمرض « المانيا » • فليست المسألة مسألة مالٍ فى الواقع ، وانما هى مسألة أن هذا المال نفسه يُستخدم فى تحطيم سعادته باستهتار يثير الحق والغضب كل تلك الاثارة ! » •

بعد ذلك وصف هيبوليت كيريلوفتش كيف أن رغبة المتهم فى قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئاً فشيئاً ، وذكر الوقائع التى تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة • قال :

« كان فى أول الأمر يذم ويقدر فى الكاباريهات ، وظل شهراً بكامله لا يعمل شيئاً غير أن يذم ويقدر • انه يحب صحبة الناس ، ويحلوا له أن يفضى ، الى جميع من يلقاهم ، حتى بأشد أفكاره خطراً وايداءً ، متوقفاً من هؤلاء الأشخاص الذين يسمعون لبوحه الى حين ، أن يظهروا له عطفهم عليه ومودتهم له وأن يعربوا عن فهمهم لآرائه وتأييدهم لأفكاره • كان يقتضيه ، لا يدري أحد لماذا ، أن يشاركوه همومه ويشاطروه هواجسه ، وأن يؤيدوه تأييداً كاملاً ، فلا يعارضوه فى شىء مما عقد النية عليه ، والا ثارت ثائرتة وأخذ يقلب كل شىء فى الكاباريه (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التى وقعت للمتهم مع الكابتن سنيجيرييف) • وقد انتهى الأمر بالذين لاحظوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر الى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة ، وأن دمترى كارامازوف ، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجته عن طوره ، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حاز الحين (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلى الذى عُقد فى الدير ، وذكر أحاديث المتهم مع أليوشا ، وصوّر ذلك المشهد الكريه الذى وقع فى منزل الأب بعد الغداء يوم اقترح ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه

العنف ثم تابع وكيل النيابة كلامه) • لست أمضى الى حد الادعاء أن المتهم كان ، قبل وقوع مشهد العنف هذا ، قد فكر فى الجريمة ملياً ، وعزم عزمًا جازمًا قاطعًا على ارتكابها • ولكننى أقول ان فكرة القتل هذه قد راودته مراراً وأنه قد فكر فيها تفكيراً واعياً ، وهذا ما تثبته الوقائع ، وتثبته أقوال الشهود ، كما تثبته اعترافاته هو نفسه • اننى اعترف لكم ، يا سادتى المحلِّفين ، أننى ظلمت حتى هذا اليوم أتردد فى اتهام الرجل بأنه ارتكب ، عن سابق تصور وتصميم ، جريمة القتل هذه التى كان يحس بأنه مدفوع اليها • صحيح أننى كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً فى أن يقدم فى المستقبل على انهاء القضية بهذه الحاتمة الفاجعة ، ولكننى كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر فى هذا الحل الا على أنه احتمال قد يتحقق ، دون أن يحدد لتنفيذه يوماً بعينه ، وطريقة بعينها • وقد زالت اليوم تردداتى هذه ، حين اطلعت على تلك الوثيقة الحاسمة التى قدمتها الآنسة فرخوفتزيفا الى المحكمة • لقد سمعتم يا سادتى كيف صاحت تقول : « هذه خطة قتل ! » بهذا وصفت تلك الرسالة المشؤومة التى كتبها هذا الرجل العائر الخبط وهو فى حالة سكر • والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة ، وعلى أن الجريمة قد ارتكبت عن سابق تصور وتصميم • لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين ، ومعنى هذا أن المتهم قد حلف ، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بشمانى واربعين ساعة ، أنه اذا لم يستطع أن يحصل على المال فى الغد ، فليقتلن أباه ليستولى على المبلغ المخبأ تحت الوسادة فى ظرف مربوط بشريط وردى اللون ، « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هل سمعتم ؟ « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • كان اذن فى تلك اللحظة قد عيّن جميع تفاصيل التنفيذ ، ووزن جميع الاحتمالات • ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذى ورد وصفه فى الرسالة ! ان التصور والتصميم

واضحان : لقد ارتكبت الجريمة بقصد السرقة • المتهم نفسه أعلن هذا كتبه بخط يده وذَّيِّله بتوقيعه • ولم ينكر المتهم توقيعه • فإذا قيل انه كان في تلك اللحظة سكران ، فلت ان ذلك لا ينقص من خطورة الأمر شيئاً • بالعكس : لقد كتب وهو في حالة السكر ما سبق أن فكر فيه ملياً وهو في حالة الصحو • فلولا أنه كان قد اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر ، لما كشف عن نيته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر • وقد يقال أيضاً : فلماذا أعلن عن نيته قبل ذلك جهاراً في الكاباريهات ؟ ان الذين يريدون ارتكاب جريمة من الجرائم عن سابق تصور وتصميم حقاً ، يصمتون في العادة ، ويكتمون ما يجول في أذهانهم ، ويخفون ما عقدوا العزم عليه ! هذا صحيح ، ولكن المتهم لم يكن يصيح ذلك الصياح الا حين لم يكن لديه خطة مبيتة وبرنامج مدبر ، وانما كان يشعر بمجرد الرغبة في القتل والميل الى القتل • ولقد اصبح بعد ذلك لا يتكلم عن هذا الأمر الا قليلاً • وفي المساء الذي كتب فيه تلك الرسالة ، بعد أن سكر في كاباريه « العاصمة الكبرى » ، بدا صامتاً على غير عادته ، ولم يلعب البلياردو ، وظل منتحياً لا يقترب من أحد ، ولا يخاطب أحداً ، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل في محل تجارى • ثم انه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريباً ، لأنه كان يستحيل عليه أن لا يتشاجر مع أحد في كاباريه • صحيح أن المتهم ، حين عزم عزمًا حاسماً على ارتكاب الجريمة ، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف في الكلام بالمدينة قبل ذلك ، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادةً عليه بعد تنفيذ خطته ، ولكن لم يكن له في الأمر حيلة ، فقد فات الأوان وليس في وسعه أن يسترد الأقوال التي أفلتت من لسانه • وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين ، فما يزال يعوّل على الحظ • لقد كان يتكل على نجمة يا سادتي ! على أن من واجبي أن أعترف أنه قد بذل جهوداً كثيرة في

سبيل أن يؤخر اللحظة المشئومة ، آملاً أن يتجنب هذا الحل الدموي •
 كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به : « سأحاول في الغد أن أتمس هذا
 المبلغ لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف يسيل
 الدم » • هنا أيضاً يبوح وهو في حالة السكر بما كان قد انتواه وهو
 في حالة الصحو ، وسوف يتصرف في حالة الصحو هذا التصرف
 نفسه الذي وصفه في رسالته • • »

عرض هيبوليت كيريلوفتشس بعد ذلك بالتفصيل المحاولات التي قام
 بها ميتيا في سبيل الحصول على المال لتجنب الجريمة • روى مساعيه لدى
 سامسونوف ، والرحلة التي قادته الى عند لياجافى ، مستشهداً على ذلك
 بوقائع مستمدة من ملف القضية •

« عاد الى المدينة أخيراً وقد انهدت قواه ، وأرهقه التهم عليه ،
 وأنهكه الجوع ، وباع ساعته ليدفع للحدودى أجره (مع أنه كان يحمل
 ألفاً وخمسمائة روبل ، فى زعمه ، فى زعمه !) ، ومزقته الغيرة لأنه
 ترك محبوبته التي تشعل نار قلبه ، ويخشى أن تذهب أثناء غيابيه الى
 فيدور بافلوفتشس ••• عاد الى المدينة أخيراً • الحمد لله ! لم تذهب
 حبيبته الى فيدور بافلوفتشس • وها هو ذا يوصلها بنفسه الى منزل حاميها
 سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف • تلك سمة
 سيكولوجية خاصة تتميز بها هذه القضية) • ثم يسارع الى المرافطة
 فى مرصده خلف الحديقة • وهناك يعلم نبأ نوبة الصرع التي أصابت
 سمردياكوف ، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر • الساحة اذن خالية •
 وهو يعرف « الاشارات السرية » • أليس فى هذا اغراءً قوى له ؟
 ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شيء ، ويذهب الى هوخلاكوفا ،
 السيدة الجليلة التي تقيم فى مدينتنا الى حين ، والتي نحمل لها جميعا هنا
 أعماق الاحترام • ان هذه السيدة تشفق عليه وترثى لحاله وتهتم بمصيره

منذ زمن ، فها هي ذى تسدى اليه بنصيحة حكيمة عاقلة ، وهى أن يعدل عن هذا الحب المخزى ، وأن ينقطع عن هذا التنقل اللاهى بين الكاباريهات ، وأن يعزف عن تبديد قوى شبابه فى هذه الترهات الباطلة ، فيسافر الى سييريا ، الى مناجم الذهب • وقالت له : « هنالك ستجد مصباً للقوى والطاقات التى تفور وتغلى فى نفسك ، وهنالك ستجد فرجاً لطبيعتك الرومانسية المولعة بالمغامرات • » •

وبعد أن قصَّ وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث ، وحين وصل الى اللحظة التى علم فيها المتهم فجأة أن جروشنكا لم تمكث عند سامسونوف ، وصف الغضب الذى استولى على المسكين ، والغيرة التى تأججت نيرانها فى قلبه حين تصور أن هذه المرأة قد كذبت عليه ، وأنها الآن عند فيدور بافلوفتش • واعتقد هيوليت كيريلوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا الى الدور الذى لعبته المصادفة ، فقال :

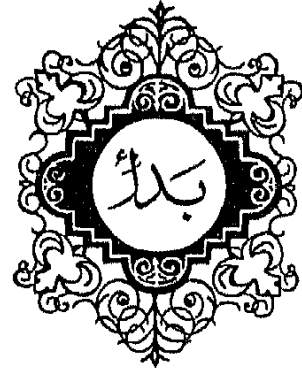
« لو قد اتسع وقت الخادمة لأن تقول له ان حبيته موجودة فى موكرويه مع « الصديق القديم المشروع » ، لكان من الجائز أن لا يحدث شيء البتة • ولكن الخادمة ، وقد ماتت من الخوف ، طفقت تحلف له أغلظ الأيمان على أنها لا علاقة لها بالأمر ولا دخل لها فيه ، ولئن لم يقتلها المتهم فوراً ، فما ذلك الا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة فى الحال • ولكن لاحظوا هذه النقطة : ان المتهم ، رغم أنه قد جن جنونه غضباً ، لم ينس أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسى • فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحاً آخر ؟ ما دام قد فكر فى ارتكاب الجريمة خلال شهر كامل ، فمن الطبيعى أن يتناول أول شيء تقع عليه يده مما يصلح أن يكون سلاحاً • لذلك أدرك عفو الحاضر أن هذا المدق يفى بالغرض ويحقق الهدف • معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشتموم على غير شعور منه ، على غير ارادة منه • وها هو ذا الآن فى حديقة

أبيه : الساحة خالية ، لا شهود ، لا شيء الا الليل العميق ، والظلمات ، والغيرة • وتصور أنها الآن هناك ، قرب غريمه ، مع منافسه ، وربما كانت في هذه اللحظة تسخر منه وتستهزئ به • استولت هذه الفكرة على المتهم • ليس الأمر في هذه المرة أمر شكوك وشبهات ، ليس الأمر أمر خوف مبعثه الخيال ، واأسفاه • قال لنفسه : « الخيانة واضحة ! » هي هنا ، هنا ، في هذه الغرفة التي يرى نافذتها مضاءة ••• انها مختبئة وراء الستائر • ويتسلل المسكين نحو النافذة ••• هل تريدون منه أن يكتفى بأن يلقي على الغرفة نظرة احترام ، ثم يهدأ على الفور ، وينصرف في تعقل وحكمة ، تجنباً لبلية من البلايا وتحاشياً للاندفاع في عمل خطر مجافٍ للأخلاق ؟ ذلكم هو مع ذلك ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التي كان عليها في تلك الدقيقة ! اننا نعرف الحالة النفسية التي كان عليها ، نعرفها من وقائع ثابتة ، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالاشارات التي يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب ، فيدخل الى البيت ! » •

حين جاء هيوليت كيريلوفتشس على ذكر الاشارات السرية ، اعتقد أن من اللازم أن يستطرد قليلاً ، وأن يقطع ، الى حين ، عرضَه للأدلة التي تدين المتهم ، وأن يندفع في تحليلات تتناول شخص سمردياكوف • كان واضحاً أنه انما يريد أن يقضى على ذلك الافتراض الذي يذهب الى أن سمردياكوف قد يكون هو الجاني ، وأن يستأصل هذه الفكرة من عقول المحلفين استئصالاً نهائياً • لم يهمل وكيل النيابة أي أمر من الأمور التفصيلية • وأدرك الجميع أنه ، وان كان يستبعد هذا الافتراض باحتقار وازدراء ، يرى أن التوقف عنده والتلبث عليه أمر هام جداً •

٨

مقالة عن سمردياكوف



هيوليت كيريلوفتشس كلامه عن سمردياكوف بهذا السؤال : « أولاً ، كيف نشأ هذا الافتراض ؟ » ثم قال : « ان أول من اتهم سمردياكوف هو المتهم نفسه + صرخ يتهمه لحظة القبض عليه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم حتى الآن واقعة واحدة يمكن أن تؤيد مثل هذا الاتهام + واقعة ؟ بل ولا ظل واقعة يستطيع انسان أوتى ذرة من عقل أن يعدها مقبولة محتملة + وبعد المتهم ، لم يعبر عن هذا الاتهام الا ثلاثة أشخاص هم : أخوا المتهم والسيدة سفيتلوففا + ولكن ايفان فيدوروفتشس لم يفصح عن شكوكه ونسبتهاته حول هذا الموضوع الا في هذه الجلسة ، بينما هو مريض قد انتبته نوبه هذيان وحمى حارة لا شك فيها + أما خلال الشهرين الماضيين ، فقد ظل مقتنعاً ، كما نعلم ذلك ، بأن أخاه هو الجاني ، ولم يحاول قط أن يدحض هذه الفكرة + وان لنا عودة الى تصريحاته على كل حال + ثم لقد أكد لنا الأخ الأصغر من أخوى المتهم ، أكد لنا منذ قليل أنه لا يملك أى دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو الجاني ؛ وانما هو يبنى اتهامه على هذيان المتهم ، وعلى « تعبير وجهه » + نعم أيها السادة ، ان هذا الشاهد قد قدم لنا هذا الدليل مرتين ! أما السيدة سفيتلوففا فقد قالت كلاماً أغرب من هذا الكلام

أيضاً ، قالت : « ما عليكم الا أن تصدقوا المتهم ، فليس هو بالرجل الذى يكذب ! » • تلکم هى جميع الأدلة المادية التى أمکن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن ، وقد قدمها الينا ثلاثة أشخاص يعنيههم مصير المتهم ويهمهم كثيراً • ومع ذلك ، أيها السادة ، فان الشكوك والشبهات حول سمردياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال تنتشر ، رغم كل ما فى ذلك من غرابة ، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يصدقه العقل • » •

وهنا اعتقد هيوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفى سمردياكوف ، الذى « أنهى حياته أثناء نوبة جنون » ، فصوره على أنه امرؤ ضعيف العقل ، يملك مبادئ ثقافة ، ولكن المفاهيم الفلسفية التى تتجاوز حدود ذكائه قد هزّت عقله ، كما أن بعض الآراء الحديثة فى الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روّعت قلبه • وقد تعلم هذه النظريات ، على الصعيد العملى ، من الحياة الفاسقة التى يعيشها مولاه فيدور بافلوفتش الذى ربما كان أباه أيضاً ، وتعلمها على الصعيد النظرى من الأحاديث التى كانت تدور بينه وبين ايفان فيدوروفتش ، الابن الثانى من أبناء مولاه • كان ايفان فيدوروفتش يتسلى هذه التسلية من حين الى حين ، من قبيل التفكه والتندر ، ومن قبيل الضحك على هذا المسكين فى أغلب الظن ، وذلك حين لا يكون لديه شىء آخر يسرّى به عن نفسه • » •

وواصل هيوليت كيريلوفتش كلامه قائلاً :

« لقد وصف لى هو نفسه الحالة النفسية التى كان عليها طوال الأيام الأخيرة التى قضاها فى منزل مولاه • وأيّد ذلك أشخاص آخرون : أيّده المتهم نفسه خاصة ، وأيّده أخو المتهم ، بل وأيّده جريجورى أيضاً ، أى أيّده جميع أولئك الذين يعرفونه من كتب • ثم ان سمردياكوف ، الذى هدّه مرض الصرع ، « كان وجلاً كدجاجة » . لقد أسرّ الينا المتهم

فى عهدٍ لم يكن يتصور فيه ، بعدُ ، ما قد يشتمل عليه هذا التصريح
 من ضرر له ، أسراً الينا قوله : « كان يرتضى على قدمي ويقبلهما » ،
 وقال لنا فى يوم آخر ، بهذه اللغة الخاصة به المعهودة فيه : « هو دجاجة
 مصابة بداء الصرع » . ومع ذلك فإن هذا الرجل الضعيف هو الذى
 يتخذ المتهم نجياً له يفضى اليه بأسراره ويبوح له بخفايا نفسه (وذلك
 ما اعترف هو به) ، ويبلغ من ترويعه وارهابه وتخويفه أن المسكين ارتضى
 آخر الأمر أن يكون له جاسوساً يزوده بالأخبار ويحمل اليه الأنباء ،
 فلما ارتضى أن يكون « مخبراً » ، خان مولاه وأطلع المتهم على وجود
 الظرف المودع فيه المال ، وعلّمه فى الوقت نفسه الاشارات التى سيتسنى
 له بواسطتها أن يدخل المنزل . وهل كان فى وسعه أن لا يطلعه عليها ؟
 لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتعش أمامنا خوفاً ، رغم
 أن جلاّده كان قد قبض عليه فى ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن يقتص
 منه ، قال لنا : « لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلنى ، رأيت بعينيّ أنه
 سيقتلنى لو كتمتها عنه . كان لا ينفك يشته فى ويشك فى صدقى ؛
 فكنت حين يروّنى ويرهبنى ، أسارع فأكشف له عن جميع الأسرار
 التى أعرفها ، لأدفع عن نفسى غضبه ، مبرهنّاً له على براءتى وصدقى ،
 منقذاً بذلك حياتى » . تلكم هى الألفاظ التى أستعملها المسكين فى كلامه
 بنصها ، وقد دوّنتها . « كنت اذا أخذ يصرخ ، ارتضى جائياً على ركبتيّ
 أمامه » . وكان الخادم المسكين ، وهو بطبيعته أمين أمانة بالغة ، قد حظى
 بنقّة مولاه الذى أيقن من صدقه وأمانته يوم ردّ اليه الأوراق النقدية
 المضاعة . ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيراً من عذاب الضمير
 لأنه خان مولاه هذا الذى كان يحبه ويرى أنه محسن اليه منعم عليه .
 ان أطباء الأمراض العقلية البارزين يعرفون أن الأشخاص المصابين بداء
 الصرع ميالون الى اتهام أنفسهم بغير انقطاع ، وأنهم يقاسون عذاباً شديداً

من شعورهم بأنهم « مذنبون » في حق أحد أو في حق شيء ، وأن تبكيت الضمير يرهقهم ارهاقاً مضنياً دون أن يكون هنالك ما يدعو إلى ذلك في كثير من الأحيان ، وأنهم يضحمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يقع في وهمهم أنهم ارتكبوها . فما بالكم بانسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه آكره على ذلك بالارهاب . يضاف إلى ذلك أن سمردياكوف كان يحس سلفاً أن الأحوال التي يرى تطورها في منزل مولاه قد تؤدي إلى بلاء عظيم وشر مستطير . فحين أراد الابن الثاني من أبناء فيدور بافلوفتش أن يسافر إلى موسكو قبيل وقوع الكارثة ، تضرع إليه سمردياكوف أن يبقى ، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف ووجل ، لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح وجلاء عن المخاوف التي تساوره ، واكتفى بالاماع إليها الماعاً ، ولكن ايغان لم يفهم عنه . يجب أن نلاحظ أن وجود ايغان فيدوروفتش في المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعاً من الحماية له ، كأنه كان على يقين من أن شيئاً لن يحدث ما بقي ايغان حاضراً . تذكروا ما كتبه دمتری كارامازوف في « رسالة السكر » التي بعث بها إلى كاترين ايغانوفنا : « شريطة أن يكون ايغان غائباً » . كان حضور ايغان اذن ضماناً لاستتباب الأحوال وطمأنينة البال في نظر الجميع . ولكنه سافر . فما أن انقضت على رحيله ساعة واحدة ، حتى اتت سمردياكوف نوبة صرع . وذلك أمر مفهوم معقول . يجب أن لا ننسى أن سمردياكوف كان ، خلال الأيام الماضية ، وقد هداه الحوف وأضناه نوع من اليأس النفسي ، كان يحس بدنو نوبة من نوبات الصرع هذه التي سبق أن انتابته مراراً في ساعات التوتر العصبي والانهيال النفسي . صحيح أن من المستحيل على المصاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه النوبة ، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسوا مقدماً بوشك حدوثها .

ما ان ابتعدت عن عربه ايفان فيدوروفتش عن المنزل حتى نزل سرديا كوف الى القبو لسان من سنئون الخدمة . وكان في تلك اللحظة يروح تحت وطأة الشعور بالعزلة والهجران ، ويحس بأنه أعزل لا يملك عن نفسه دفاعاً ، وكان يتساءل وهو يهبط السلم : « هل ستوافيني نوبة ؟ ما عسى يحدث لو سقطت الآن ؟ » . وبسبب هذه الحالة النفسية ، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذي ألقاه على نفسه ، انما حدث له على حين فجأة تقلص في الحلق هو ذلك التقلص الذي يسبق موافاة النوبة دائماً ، ثم اذا هو يتدحرج الى القبو مغشياً عليه . ان هذا الحادث ، الطبيعي تماماً ، قد ولد سنكوكاً وشبهات ، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية ميّنة ، وادعى أن هذا الرجل قد اصطنع النوبة اصطناعاً وتظاهر بها تظاهراً . فلنترض الآن أن هذا الادعاء صحيح . غير أن هناك سؤالاً ما يلبث أن يطرح نفسه علينا وهو : ما عسى يكون هدف هذا الرجل من ذلك التظاهر المزعوم ؟ ما عسى يكون الحساب الذي أجراه ، وما عسى يكون الغرض الذي سعى الى تحقيقه باصطناع النوبة والتظاهر بها ؟ لترك الطب جانباً . فانه يقال ان الطب يمكن أن يخطيء ، وكثيراً ما يؤدي الى ضلال الرأي وفساد الحكم ، وان الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائماً بين مرض صادق ومرض مصطنع . لنسلم بأن هذا صحيح . ولكنني أطلب منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال : ما هي الفائدة التي كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع ؟ لو كان قد نوى ارتكاب الجريمة ، أفكان يتمنى مثلاً أن يلفت اليه انتباه جميع من في المنزل سلفاً بنوبة صرع يفتعلها ؟ لاحظوا ، يا سادتي المحلفين ، أنه كان في منزل فيدور بافلوفتش ، ليلة حدوث الدراما ، خمسة أشخاص لا أكثر : فأما الأول فهو فيدور بافلوفتش نفسه . ولكن من الواضح أن فيدور بافلوفتش ليس هو القاتل ، وأما الثاني فهو خادمه جريجورى ، ولكن جريجورى أوشك

أن يكون قتيلاً هو نفسه ؟ وأما الثالث فهو زوجة جريجورى ، الحادمة مارفا اجناتفسا ، ولكن من المضحك أن تتخيل أن تكون هى التى قتلت مولاها . لم يبق هنالك اذن الا شخصان ، هما المتهم وسمردياكوف . ولما كان المتهم يدعى أنه برىء ، فلا يمكن اذن أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد الا سمردياكوف . ليس هناك حل آخر ، اذ يستحيل اكتشاف شخص يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين . على هذا النحو انما نشأ اذن ذلك الافتراض « البارع » الذى سمح بتوجيه هذا الاتهام الرهيب الى أبله مسكين هو ذلك الشقى الذى انتحى بالأمس . لقد اتهموه لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يوجهوا اليه اتهامهم ! ولو كانوا يملكون ولو ظلَّ شبهة تسمح باتهام شخص سادس ، لاستحى المتهم نفسه - وأنا من هذا على يقين - أن ينسب الجريمة الى سمردياكوف ، ولوجه التهمة عندئذ الى ذلك الشخص السادس . ان الاشتباه فى سمردياكوف سخف محض !+

« ولكن دعونا من السيكلوجيا أيها السادة ، ودعونا من الطب ، ودعونا حتى من المنطق ، ولنقتصر على النظر فى الوقائع وحدها ، وفى الظروف المادية . لنترك للوقائع أن تتكلم . لنفرض أن سمردياكوف قد قتل ، ولنتساءل كيف قتل ؟ أقتل وحده ، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم . لننظر فى الافتراض الأول ، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده . من البديهي أنه اذا كان قد قتل ، ففى سبيل أن يجنى نفعاً ما ، ولما كان لا يجيش فى نفسه أى باعث من البواعث التى يمكن أن تحض المتهم على القتل ، كالكره والغيرة وما الى ذلك ، فان سمردياكوف ما كان ليرتكب هذه الجريمة الا بدافع الطمع فى المال طبعاً ، وذلك ليستولى على تلك الثلاثة آلاف روبل التى رأى مولا يودعها فى ظرف ؛ حتى اذا عقد النية على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضى الى شخص آخر - الى

شخص يعنيه الأمر كثيراً ، أعنى الى المتهم - بجميع التفاصيل المتصلة بالمال ، وبالإشارات السرية ، وبالمكان الذى 'خبىء فيه الظرف ، وبالكتاب التى كتبت على الظرف ، وبالطريقة التى تسمح بدخول منزل رب الدار . أفتقال هذا الكلام ليفضح نفسه ؟ أقاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولى عليه ويحرمه منه ؟ رب قائل يقول انه انما تكلم من شدة خوفه ! عجيب ! هل يقبل رجل لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة هذه الفظاعة كلها ، جريمة هذه الجرأة كلها ، أن يفضي - عن خوف ! - بمعلومات لا يعرفها أحد فى العالم سواء ، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد اذا هو كتبها ؟ لا ، لا ، ان الرجل مهما يكن شديد الخوف ، ما كان له أن يبوح لأحد ، بعد أن اتوى ارتكاب مثل هذه الجريمة ، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والاشارات ، ولو فعل ذلك لكان يشى بنفسه سلفاً . ان هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئاً آخر ، أن يكذب وأن يخترع ويلفق اذا هو أجبر على الكلام ، أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا ! ولو لم يذكر شيئاً عن المال ، ثم استولى على الظرف لنفسه ، لما خطر ببال أحد فى العالم - أكرر هذا - أن يتهمه بالقتل طمعاً فى المال ، لأن أحداً غيره فى العالم لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المبلغ ، ولا رأى هذا المبلغ ، ولا يخطر بباله أن له وجوداً فى المنزل . واذا اتهم الرجل بعد ذلك بالقتل ، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه الى ارتكاب الجريمة . ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أى سبب يمكن أن يحضه على القتل ، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن مولاه يحبه ويكرمه بمحضه ثقته ، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله ، ولكان آخر من يمكن أن توجّه نحوه الشكوك ، ولفكر الناس عندئذ فى اتهام ذلك الذى تجيش فى نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها فى كل مكان ، ولم يكتبها عن أحد ،

بل كان يصارح بها أول فادم ، أى لا تهم الناس عندئذ ابن المجنى عليه ، أعني دمترى فيدوروفتش . أفلا يكون هذا فى مصلحة القاتل سمردياكوف ؟ فما قولكم اذا كان دمترى هذا نفسه هو بعينه الشخص الذى أفضى اليه سمردياكوف ، بعد أن عقد النية على القتل ، بالمعلومات التى تتصل بالمال والظرف والاشارات السرية ؟ باللمنطق الواضح !

« ويجيء يوم ارتكاب الجريمة التى اتواها سمردياكوف ، ويندحرج الى أرض الكهف « متظاهراً » بنوبة صرع . ولكن ما هو هدفه من ذلك ؟ أياكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم جريجورى ، الذى كان قد قرر أن يداوى مرضه ، أن يعدل عن هذه المداواة وأن يرجئها الى وقت آخر ، ليتولى بنفسه حراسة المنزل ، اذ يلاحظ أن المنزل أصبح بغير حراسة ؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر رب الدار ، حين يلاحظ أنه لم يبق هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذى يخشى أن يداومه ولا يكتفم خشيته هذه ، أن يبادر رب الدار الى مزيد من الحذر والاحتياط والتهيؤ ؟ أكثر من ذلك : هل كان سمردياكوف يستهدف ، من التظاهر بنوبة الصرع ، أن ينقل من المطبخ الذى كان ينام فيه عادةً والذى كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد ، هل كان يستهدف أن ينقل الى الطرف الآخر من المبنى الملحق ، الى غرفة جريجورى ليُمدد هناك سريعاً وراء حاجز رقيق لا يبعد عن سرير الخادم العجوز وامراته الا ثلاث خطوات ، كما كان يفعل ذلك به كلما وافته نوبة من نوبات الصرع ، بأمر من رب الدار ومن مارفا اجناتنا الرحيمة الشفوق ، حتى اذا أُضجع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل ، ليحسن تمثيل دوره ، فاذا هو يوقظ الشخصين النائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك

ما حدث فعلاً ، بشهادة جريجورى وامراته) ؛ أياكون سمردياكوف قد تخيل هذا كله ، قد تخيل هذه التمثيلية كلها ، ليتسنى له أن ينهض فيمضى بقتل مولاه بمزيد من السهولة واليسر ؟

« رب معترض يقول لى ان سمردياكوف انما تظاهر بنوبة الصرع ليدفع عن نفسه الشبهات بحجة مرضه ، وانه أطلع المتهم على المعلومات المتصلة بالطرف والاشارات السرية ، ليغرى المتهم بأن يجيء فيتولى القتل بنفسه ، حتى اذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملاً معه المال ، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما أن توقظا سكان الدار ، نهض سمردياكوف ، نعم ، نهض فمضى ... مضى يفعل ماذا ؟ مضى ليقتل مولاه مرة أخرى ، وليسرق مرة أخرى المال الذى سبقه اليه المتهم وذهب به . أتضحكون أيها السادة ؟ انى لأعترف لكم بأننى أشعر أنا نفسى بالحجل حين أرانى مضطراً الى النظر فى افتراضات من هذا النوع . ولكن هذا التفسير هو بعينه التفسير الذى يقدمه لنا المتهم . فتصوروا وتأملوا ! ان المتهم يدعى أن سمردياكوف قد قام بقتل مولاه وبسلبه ماله ، فى الوقت الذى كان هو فيه قد غادر المنزل بعد أن جندل جريجورى . لن أطيل الكلام على هذا التساؤل : كيف تسنى لسمردياكوف أن يتنبأ بكل شىء هذا التنبؤ ، وأن يحسب حساباً دقيقاً ان الابن العنيف المندفع الخارج عن القانون سيجىء لا لغرض آخر غير أن يلقى من خلال النافذة نظرة احترام ، وأنه على علمه بالاشارات السرية سينصرف فى الحال تاركاً الغنيمة له هو سمردياكوف ؟ أيها السادة ، اننى أسألكم جاداً : فى أية لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة ؟ دلثونى على تلك اللحظة ، والا لم يمكن النظر فى هذا الافتراض أساساً .

« قد يقال لعل نوبة الصرع كانت صادقة غير مصطنعة ، ولعل المريض صبحا من غيبوبته فجأة ، فسمع صراخاً فخرج . وماذا بعد

ذلك ؟ لعله نظر حواليه فعزم أمره على حين بغتة قائلاً : « آ ... عندي فكرة ! سأمضى أقتل مولاي ! » • ولكن أنى لسمردياكوف أن يكون قد حزر ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغشياً عليه ؟ اننى أتوقف عن الاسترسال فى مثل هذا الكلام ، لأن للمخيل حدوداً هو أيضاً •••

« وقد يقول نفر ممن أوتوا فكراً مرهفياً : ربما كان هذا كله صحيحاً ، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة ، فارتكباها معاً واقتسما المال ؟

« ذلكم فى الواقع افتراض له وزنه ، افتراض يستند الى قرائن قوية جداً ، كما سترون : أحد الشريكين يقتل ويتحمل كل العناء وحده ، بينما الثانى يستريح متظاهراً بنوبة صرع ، لا لشيء الا أن يجعل جميع من بالمنزل فى يقظة ، وأن لا يثير القلق فى نفس مولاه وفى نفس جريجورى ! ألا أنه لأمر شائق أن نعرف ما عسى تكون الأسباب التى دفعت الشريكين الى تخيل خطة حمقاء الى هذا الحد ! وقد يقول بعضهم ان مشاركة سمردياكوف فى الجريمة لم تكن مشاركة فعالة ، وانما كانت مشاركة سلبية لعله قبلها على مضض ، فلعل المسكين لم يزد على أن ارتضى أن لا يعارض صاحبه فى ارتكاب الجريمة ، وذلك من شدة ما شعر به من خوف ، وما كان يقاسيه من ارهاب صاحبه له ؛ واذا أدرك مع ذلك أنه سيتهم بأنه سهّل مقتل مولاه لأنه لم ينبّه ولم يسارع الى الدفاع عنه ، فلعله توسّل الى دمترى فيدوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يصطنع أثناء ذلك نوبة صرع قائلاً له : « اقتل ما شاء لك هواك أن تقتل ، فذلك أمر لا شأن لى به » • ولكن لو صحّ هذا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبّه المنزل كله حتماً ، ولما قبل دمترى كارامازوف الذى لا بد أن يتنبأ بذلك ، لما قبل تدبيراً من هذا النوع • ومع ذلك فلنسلم بأن دمترى قد ارتضى هذا التدبير • سوف ينتج عن ذلك فى هذه الحالة

أن دمترى كارامازوف يكون هو القاتل ، هو المحرّض والفاعل في آن واحد ، أما سمردياكوف فلا يكون الا شريكاً مستتراً ، بل انه يكون أقلّ من شريك ، يكون شاهداً كتم الجريمة رغم ارادته من شدة الخوف ؛ ولن يفوت المحكمة عندئذ أن تحدد درجة مسؤولية كل من الرجلين . ولكن ما الذى رأيناه بالفعل ؟ رأينا المتهم ، ما ان قبض عليه ، حتى ألقى الجرم كله على عاتق سمردياكوف ، واتهمه بأنه « وحده » الفاعل . انه لم يش به شريكاً له فى الجرم ، بل وشى به فاعلاً منفرداً بارتكاب جناية القتل . صاحب يقول : « هو القاتل ، هو وحده القاتل ، هو الذى قتل وسرق ! » الجريمة من صنع يديه وحده ! » فكيف تتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة ؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن . وانظروا أيضاً الى الخطر الذى يعرّض له دمترى كارامازوف نفسه حين يتصرف هذا التصرف : انه هو القاتل الرئيسى ، على حين أن الآخر ليس له من المشاركة فى الأمر الا نصيب ضئيل وحصة تافهة ، فما هو الا شاهد لم يحرك ساكناً ، ولبت راقداً على حصيرته وراء الحاجز ؛ فحين يلقى دمترى كارامازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل ، فانما يعرّض نفسه عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر الى الكشف عن الحقيقة كاملة على الفور ، ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها . كان سمردياكوف سيروى عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً ، ولكنه لم يتولّ هو تنفيذ القتل ، وانما اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه فيما عزم عليه من ارتكاب جريمة القتل . ذلك أن سمردياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة فى الجريمة نصيب ضئيل ، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه ، اذا هو عوقب ، أخفّ كثيراً من العقاب الذى ستزله المحكمة فى الفاعل الرئيسى الذى يحاول أن يلقى الجرم كله على

عاتقه • فلو كان الأمر كذلك ، اذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع الى الاعتراف بكل شيء • ولكننا لم نر شيئاً من هذا • ان سمردياكوف لم يتفوه بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم ، رغم أن القتائل قد اتهمه اتهاماً قاطعاً صريحاً ، وكان يسميه دائماً على أنه الفاعل الوحيد الذى ارتكب الجريمة • وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه « هو » الذى زوّد المتهم بالمعلومات التى تتعلق بالمبلغ ، وبالاشارات السرية ، فلولاها لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئاً • فهل كان يمكن أن يكشف لقاضى التحقيق عن هذه الحقائق كلها ، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه ، لو كان شريكه فى الجرم فعلاً ؟ ألا انه لو كان شريكه حقاً لحاول استبعاد هذه التفاصيل ، ولأنكرها محاولاً أن يشوه الوقائع وأن يخففها • ولكنه لم يشوه شيئاً ولم يخفف شيئاً • ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف الا انسان برىء ، انسان لا يخشى أن يُتهم بالاشتراك فى الجريمة • وأمس شنق هذا الرجل نفسه وهو فى حالة انهيار مرضى مرده الى داء الصرع والى النازلة التى ألت بدوييه ؛ وقبل موته كتب كلمة يقول فيها بأسلوبه الخاص : « أنهيت حياتى بارادتى حراً ، فلا تتهموا أحداً » • فلماذا لم يضيف الى ذلك قوله : « أنا القتائل ، لا كارامازوف » ؟ انه لم يضيف هذا الكلام • أيقون عنده من شرف الذمة وعذاب الضمير ما يكفى لدفعه الى قتل نفسه ، ثم لا يكون عنده منهما ما يكفى لدفعه الى تبرئة برىء ؟ دعونا من هذا الكلام ايها السادة ، دعونا من هذا الكلام !

« واليكم الآن شيئاً آخر : لقد 'أتى الى هذه المحكمة منذ قليل بمبلغ من المال هو ثلاثة آلاف روبل (على زعم أن هذا المبلغ هو الذى كان مودعاً فى الظرف الموجود الآن على منضدة وثائق الاتهام ، وقد ادعى الشاهد أنه أخذه أمس من سمردياكوف) • ولكن المشهد الأليم الذى

جرى هنا منذ قليل ، ما يزال ماثلاً في أذهانكم • لن أذكر تفاصيل هذا المشهد ، وسأكتفى بأن أسوق بعض الملاحظات في هذا الصدد ، وهي ملاحظات تافهة ، ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد نغيب عن البال وقد تسهل ؛ فأقول أولاً : ان المفروض هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس وردَّ المال لأنه شعر بعذاب الضمير • (فلولا عذاب الضمير لما ردَّ المال) • وبالأمس اذن انما يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لايفان كارامازوف لأول مرة ، كما ذكر لنا ايفان كارامازوف ذلك في شهادته ؛ وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد سكت عن الأمر حتى الآن • ولكن اذا كان سمردياكوف قد اعترف بجريمته ، فأننى أعود فأسأل : لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها في الكلمة التي كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئاً قد يصدر في حقه غداً حكم فظيع ؛ ان المال وحده لا ينهض دليلاً على شيء • من ذلك مثلاً أننى علمت منذ أسبوع ، بطريق المصادفة وحدها ، كما علم ذلك شخصان آخران حاضران في هذه القاعة أن ايفان كارامازوف قد صرف في مركز المقاطعة سنيين بفائده خمسة في المائة ، قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل • واذا كنت أذكر هذا فأننى لا أذكره إلا لأبّين أن أى انسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال في لحظة معينة ، وان ابراز ثلاثه آلاف روبل مستحيل أن يبرهن برهاناً قاطعاً على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذى كان مودعاً في درج معين أو في ظرف معين • ثم اننى أتساءل أخيراً : لماذا لم يبادر ايفان كارامازوف ، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقى على اعترافات تبلغ هذا المبلغ من الخطورة ، أقول لماذا لم يبادر الى القيام بعملٍ من الأعمال على الفور ، لماذا لم يبادر الى ابلاغ القضاء فى الحال ؛ لماذا أرجأ تصريحه الى الغد ؛ لماذا ؛ أحسب أننى أحزر : انه وهو مريض منذ ثمانية أيام ، انه وهو يعانى من هلوسات

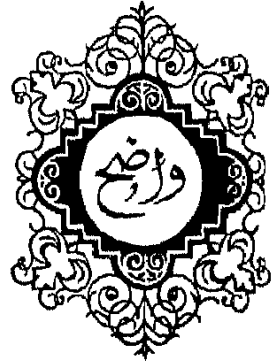
ويرى أشباحاً وتهجس في نفسه أوهام فيتخيل أنه يرى في الشارع أشخاصاً قد ماتوا منذ زمن طويل ، انه وهو في عشية نوبة من نوبات حمى حارة رأيتم كيف صرخته منذ قليل ، انه وهو في تلك الحال قد علم فجأة بأن سمردياكوف مات ، فاذا هو يفكر التفكير التالي : « لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهمه • أما أخى فسوف أنقذه • وعندي مال : سوف آخذ من هذا المال حزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل ، فأصرح للمحكمة بأن سمردياكوف أعطانيها قبل موته » • قد تقولون لي ان في هذا مجافاةً للشرف والأمانة ، وان من واجب المرء أن لا يتجنى ولو على ميت ، وان من الواجب على المرء أن لا يفترى ولو لانقاذ أخيه • اننى أسلم بهذا • ولكن لعل ايفان فيدوروفتش قد كذب على غير شعور منه بأنه يكذب ، متخيلاً أن الأمور قد جرت فعلاً على هذا النحو ، لأن عقله قد اختل اختلالاً نهائياً حين علم بغتةً بنبا موت ذلك الخادم • لقد شهدتم المشهد الذى جرى هنا ، فرأيتم الحالة التى كان عليها هذا الشاهد • كان واقفاً على قدميه وكان يتكلم ، ولكن أين كان عقله ؟ وبعد الأقوال التى أوردها هذا الرجل المريض ، قدّمت الينا وثيقة هى رسالة كتبها المريض قبل وقوع الجريمة بيومين ، وأرسلها الى الأنسة فرخوفتزييفا ، مضمناً هذه الرسالة خطة مفصلة لتنفيذ الجريمة • فهل من الضروري بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نعمن فى التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل ؟ لقد تم ارتكاب الجريمة على النحو الذى جاء وصفه فى هذه الرسالة تماماً ، فلا يمكن أن يكون الجانى الا ذلك الذى كتب الرسالة • نعم ، يا سادتى القضاة ، « ذلك مكتوب ! » • ان المتهم لم يترك نافذة أبيه لاثناً بالفرار فى احترام ووجل ، بينما كان فوق ذلك مقتنعاً بأن حبيبته موجودة مع أبيه • وانما الواقع أنه دخل البيت ، ونفذ خطته الى النهاية • جائزٌ أن يكون قد قتل وهو فى حالة احتياج شديد

وحتى مبالغت سيطرت عليه واستبدت به منذ رأى غريمه المقيت • جائز أن يكون قد قتل في لحظة واحدة ، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحه بالمدى النحاسى ، ثم أدرك بعد ذلك ، حين فتش جميع أركان الغرفة ، أن تلك المرأة لم تكن هناك • ولكنه لم ينس ، بعد أن أنفذ جريمه القتل ، لم ينس أن يدس يده تحت الوسادة ، فيسل الظرف الذى يحتوى على المال ، ذلك الظرف المسزوق الذى يوجد الآن على منضدة وثائق الاتبات • وانا أجيء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم الى أمر هو فى نظرى من الأمور الهامة جداً • لو كان الجانى مجرمًا ذا خبرة ، لو كان قاتلاً يهدف الى سرقة مال ، أكان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة ، قرب الجثة ، حيث عُثر عليه فيما بعد ؟ اذا فرضنا مثلاً أن جريمة القتل قد ارتكبها سمردياكوف بغية السطو على المال ، أفما كان يكتفى سمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف دون أن يخطر على باله أن يفضه ، لأنه موقن من أن المال مودع فيه ، فقد رأى مولاه يضع المال فى الظرف ويغلق الظرف على المال ؟ لو كان سمردياكوف هو القاتل اذن لأخذ الظرف قاتلاً لنفسه : متى اختفى الظرف فلن يخطر ببال أحد أن هناك سرقة • اننى لأسألكم يا سادتى المحلفين : هل كان يمكن أن يتصرف سمردياكوف على النحو الذى تكشف عنه وقائع القضية ؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة ؟ لا ، ان هذا التصرف لا يمكن أن يكون الا تصرف قاتل خارج عن طوره ، قاتل أصبح لا يفكر تفكيراً واضحاً ، قاتل لم ينجىء من أجل أن يسرق ولا سبق له أن سرق قبل ذلك فى يوم من الأيام ، قاتل لا يتصرف حتى فى تلك اللحظة ، حين دس يده فى السرير ليسل المال ، تصرف سارق يسطو على غنيمته ، وانما يتصرف تصرف رجل يسترد مالاً كان قد سلب منه ؟ وتلك هى فى الواقع أفكار دمترى

كارامازوف فى هذا الشأن ، وهى أفكار كادت تصير فى ذهنه الى هوس يحاصره ولا يبارحه • لذلك فانه حين أمسك الطرف الذى لم يسبق أن رآه قبل ذلك ، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقاً ، ثم وضع المال فى جيبه وولى هارباً دون أن يحمل نفسه عناء التفكير فى أنه يخلف وراءه دليلاً قاطعاً هو هذا الطرف الممزق الملقى على الأرض • ذلك كله من فعل كارامازوف ، لا من فعل سمردياكوف ، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وفسه لأن يفكر ! ويهرب ايفان كارامازوف ، ويسمع صرخة الخادم العجوز الذى لحق به فأمسكه ، وكان سيقبض عليه ، فاذا بالعجوز يتهاوى على حين فجأة مجدلاً بضربة من المدف ؟ وعندئذ يبس المتهم من على السياج ، ويسيل على العجوز • هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف ؟ ذلك ما يدعيه ، تخيلوا ! • • • انه يزعم أنه مال على الخادم العجوز شفقةً ورأفةً ، ليرى هل فى وسعه أن يسمعفه وينجده ! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالرحمة والحنان فعلاً ؟ لا ، وانما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذى عرف جريته ما يزال حياً ؟ ان كل باعث آخر ، وكل عاطفة أخرى ، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما فى مثل تلك اللحظة • لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب جريجورى ، وأنه مسح رأسه بمنديله ، فلما أيقن أن الخادم قد مات ، مضى ينصرف كمجنون ، ملطخاً بالدماء ، ليركض مرة أخرى الى منزل جيبته • كيف لم يخطر بباله فى تلك الدقيقة أنه مغطى بالدماء وأنه سرعان ما سيشتبه فيه ؟ ان المتهم يصرح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه الى الدم الذى كان ملطخاً به • ان فى وسعنا أن نصدق كلامه فى هذه النقطة • ذلك جائز جداً ، وذلك ما يحدث للمجرمين فى مثل

تلك اللحظات على وجه العموم • انهم يجرون حسابات شيطانية في بعض الأمور ، ثم هم ينسون التفكير في أمور أخرى نسياناً تاماً • ثم ان سؤالاً واحداً كان يشغل باله في تلك اللحظة ، فهو لا يفكر الا في ذلك السؤال : أين « هي » ؟ كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين عساها تكون • وهرع الى منزلها ، فعلم هنالك نبأ لم يدر في خلداه ولا كان في حسباناه ، نبأ هز نفسه هزاً قوياً عنيفاً ، وهو : أنها سافرت الى موكرويه ، وأنها مع « صديقها القديم الذي لا يُجحد » •

سيرة الجيعة ريعاً عربة الترويكاتعدو - خاتمة



أن هبوليت كيريلوفتش قد اختار الخطاب منهجاً في العرض هو المنهج التاريخي الصارم الذي يصطنعه جميع الخطباء العصبيين محاولين أن يلتزموا أطراً ذات حدود دقيقة في سبيل أن يضبطوا سيل اندفاعهم العارم . فلما وصل الى هذه النقطة من خطابه ، أفاض في الكلام على الحبيب الأول الذي « لا يُجحد » ، فساق في هذا الموضوع أفكاراً شائقة . قال ان كارامازوف ، الذي يشعر بغيرة كاسرة من الجميع ، قد امحى فجأة وزال أمام هذا الحبيب « القديم الذي لا يُجحد » ؛ وذلك أمر يثير الاستغراب والدهشة لا سيما وأنه لم يكذبكر قبل الآن في الخطر الجديد الذي كان يهدده به هذا الغريم الذي لم يكن في حسبانته . كان يتصور هذا الخطر بعيداً ، فان رجلاً مثل كارامازوف لا يعيش الا في اللحظة الحاضرة . ولعل هذه الصفحة من الحياة الماضية التي عاشتها المرأة الشابة كانت قد اتخذت في ذهنه صورة وهم من الأوهام أو خيال من الأخيلة لا يمت الى الواقع بصلة . ولكن ها هو ذا يدرك الآن ، محطماً القلب ، ان هذه المرأة ان أخفت عنه حتى ذلك

الحين أمر وصول هذا الرجل فى القريب ، وان كذبت عليه تلك الكذبة الأخيرة ، فما ذلك الا لأن لهذا الرجل وزناً كبيراً فى حياتها بالفعل ، ولأنه يمثل فى الواقع كل آمال روحها ، وأشواق قلبها . فلما أدرك هذه الحقيقة أذعن واستسلم . « ليس فى وسعى ، يا سادتى المحلفين ، أن أغفل هذه السمة من سمات طبع المتهم الذى كان يبدو عاجزاً عن القيام بتضحية كهذه التضحية حتى الآن . لقد استولت على نفسه فجأة حاجة قوية الى الحقيقة ، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقها فى أن تحب كما يشاء لها هواها حرة طليقة ، وذلك فى تلك اللحظة التى كان فيها قد صبغ يديه بدم أبيه من أجلها وفى سيلها . ولا شك أن هذا الدم كان يطالب بالتأثر منذ ذلك الحين ، ولا بد أن المتهم كان يتساءل بعد أن ضيَّع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض : « ما أنا بالنسبة اليها بعد اليوم ، ما الذى أستطيع أن أهبه الآن لهذه الانسانة التى أحبها وأعبدتها أكثر من أى شىء فى العالم ؟ ما أنا فى نظرها بالقياس الى الصديق « القديم » الذى عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التى هجرها فى الماضى ثم رجع يحمل اليها الآن حباً جديداً وآمالاً مشرقة فى حياة شريفة سعيدة تبعثها بعثاً جديداً ؟ » . نعم ، ما الذى يستطيع أن يقدمه اليها فى هذه الساعة ، ما الذى يمكنه أن يهبه لها الآن ؟ لقد أدرك كارامازوف ذلك كله ، أدرك أن جريمته قد سدَّت أمامه جميع سبل الحياة ، وأنه ليس بعد اليوم الا قاتلاً سينزل فيه العقاب ، وأنه أصبح لا ينتمى الى عالم الأحياء . أرهقته هذه الفكرة ودمَّرتة . وفى تلك اللحظة انما تصور ، على حين فجأة ، مشروعاً لا بد أن يكون بالنسبة الى طبع كطبعه المخرج الوحيد من وضع يائس . ذلك المخرج هو الانتحار . فما هو ذا يهرع الى الموظف برخوتين ليسترده مسدسيه المرهونين لديه ؟ وفيما هو فى الشارع ، يسرع فيُخرج من جيبه الأوراق المالية التى من أجلها

صنع يديه بدم أبيه منذ قليل • ذلك أنه أصبح الآن في حاجة الى المال أكثر من أى وقت مضى : فان كارامازوف سيموت ، ان كارامازوف سينتحر ، وينبغى أن يتذكر الناس هذا المشهد ! ليس عبثاً أنا شعراء ، ليس عبثاً أنا شعراء ، ليس عبثاً أننا أفيينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها • « يجب أن أراها ، يجب أن أراها أولاً ••• وبعد ذلك ••• آه ••• بعد ذلك سأقصف وألهو ما شاء لى هواى أن أقصف وأن ألهو ، سأحتفل احتفالاً لم ير له مثل من قبل ، احتفالاً يظل يتحدث الناس عنه زمناً طويلاً بعدى • وفى وسط الصرخات الوحشية ، والأغاني العجرية ، والرقصات المحمومة ، سأرفع كأسى ، فأشرب نخب السعادة الجديدة التى ستنعم بها المرأة المعبودة • وبعد ذلك ، فوراً بعد ذلك ، اهشم دماغى فأسقط على قدميها مكفراً عن ذنوبى وآثامى ! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف ، وسترى كم كنت أحبها ، وسترتى عندئذ لحال ميتيا وتشفق عليه ! » بهذا كان المتهم يحدث نفسه • ان فى هذا المشروع الذى عزم المتهم على انفاذه غير قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية ، وان فيه كثيراً من ذلك الاندفاع العارم والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف ، وان فيه شيئاً آخر ، شيئاً آخر يا سادتى القضاة ، شيئاً كان يصرخ فى أعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه ، ألا وهو ضميره ، يا سادتى القضاة ، ضميره الذى أدانه وحكم عليه ، وأصبح يعذبه ويرهقه من أمره عسراً ! ولكن المسدس سيتيح له أن يضع حداً لكل شىء ، فهو الحل الوحيد ، ولا حلّ سواه • أما عما سيحدث بعد ذلك ، فأننى لا أدرى هل تساءل كارامازوف فى ذلك الأوان عمّا سيصير اليه فى العالم الآخر • لا أدرى هل كان كارامازوف قادراً على أن يفكر فى حياته الآخرة كما فعل هاملت • لا يا سادتى القضاة ، نحن أناس

ليس عندنا أمثال هاملت ؛ ان بلادنا ليس فيها حتى الآن الا أمثال كارامازوف ! » •

وبعد ذلك وصف هيوليت كيريلوفتشس ما أعدّه ميتيا بالتفصيل ، وصف زيارته للموظف برخوتين ، ومروره بمتجر البقالة ، ومناقشاته مع أصحاب العربات ؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته وإشاراتهِ وحركاته ، مستمداً ذلك كله من شهادات الشهود • فكان للوحة التي رسمها تأثير كبير في الحضور ، وكان تكامل الوقائع التي سردها هو الذي خطف الانتباه وأسر العقول خاصةً ، وأصبح واضحاً للجميع أن هذا الرجل الذي كان يتخبط طائش العقل ولا يراعى نفسه هو الجاني فعلاً • وتابع هيوليت كيريلوفتشس كلامه فقال :

« أصبح المتهم في غير حاجة الى الحذر والتروى ، لذلك اتفق له مرتين أو ثلاث مرات أن كاد يعترف بكل شيء ؛ فكان يُلمع الى جريمته بدون انقطاع ، ولكنه لم يمض الى حد التحدث عنها صراحةً (هنا ذكرٌ وكيل النيابة بشهادات الشهود) ؛ حتى لقد صرخ يسأل الحوذى وهو فى طريقه الى موكرويه : « هل تعرف أنك تُقلُّ فى عربتك قاتلاً ؟ » • ومع ذلك كان لا يملك أن يمضى فى اعترافاته الى آخرها • فانما المهم أن يصل أولاً الى موكرويه وأن يكمل القصيدة • ولكن اليكم ما كان ينتظر المسكينَ هناك : لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى ، منذ أن وصل الى تلك القرية ، لاحظ أولاً ثم ادرك ادراكاً واضحاً بعد ذلك أن منافسه الذى « لا يُجحد » ، أو الذى كان يظن أنه « لا يُجحد » ، ليس بالمنافس الذى « لا يُجحد » حقاً ، وأن الحبيبة لا تنتظر منه ، هو ميتيا ، أن يهنئها بالسعادة الجديدة • على أنكم تعرفون الوقائع ياسادتى المحلّفين ، تعرفونها من نتائج التحقيق • لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصاراً كاملاً • وعندئذ ، عندئذ ياسادتى ، انما بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات

قلبه وتباريح نفسه ، مرحلة هي أفضح المراحل التي عرفها والتي سيرفها
ايضاً • آه يا سادتي القضاة ! الا انا لنستطيع أن نؤكد ان الطبيعة تنزل
فيمن يسيء اليها عقاباً أشد هولاً من العقاب الذي تنزله فيه عدالتنا
الأرضية : ذلك هو عذاب القلب ! بل نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا
فنؤكد أن العقاب الذي يمكن أن توقعه العدالة الانسانية يخفف العقاب
الذي توقعه الطبيعة ، وهو في هذه الأحوال ضروري لنفس المجرم ،
لأنه السيل الوحيد الى نجاة روحه من اليأس • ليس في وسعنا أن نتخيل
انواع الهول وضروب العذاب وصنوف الروع التي لا بد أن يكون
كارامازوف قد عاهاها وقاسى منها حين علم أن هذه المرأة تحبه ، وأنها
تعدل في سبيله عن صديقها « القديم الذي لا يُجحد » ، وأنها تدعوه
هو ، هو ميتاً الى أن يبدأ معها حياة جديدة ، وأنها تعده هو ، هو ميتاً ،
بالسعادة ؟ وذلك في اللحظة التي كان فيها كل شيء في نظره قد انتهى ،
فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأي أمل ، وأن يتشبث بأي رجاء • أحب
في هذه المناسبة أن أثبت واقعةً أحسب أنها هامة جداً لفهم الوضع الذي
كان عليه المتهم في تلك اللحظات : ان تلك المرأة التي كان يحبها
ويشتهيها شهوة جياشة عارمة ، كانت قد ظلت الى آخر دقيقة ، الى حين
القبض عليه ، بعيدة المال لا يستطيع الظفر بها • فرب سائل يسأل :
لماذا لم يتحرر اذن ، لماذا عدل عن نيته حتى لقد نسي مسدسه ؟ الجواب
على هذا أن هواه المشبوب وأمله المفاجيء في ارضاء هذا الهوى لم يلبثا
أن صدّاه عن انفاذ ما عقد النية عليه • انه وهو في سكرة اللهو والقصف
قد التصق بحبيته التي كانت تشاركه لهوه وقصفه ، والتي كانت تبدو له
في تلك اللحظات أجمل وأروع وأقن وأحق بالحب والعبادة منها في أي
وقت مضى ، فهو لا يحوّل عنها بصره ، وهو لا ينفك يزداداً اعجاباً بها
وامحاءً أمامها • حتى أن هذا الهوى الحار وهذا الظمأ الشديد الى الحب

قد خنقا في نفسه ، أول الأمر ، لا الخوف من الاعتقال فحسب ، بل عذاب الضمير ايضاً . ولكنهما لم يخنقاها الا لحظات قصارا ايها السادة ، لحظات قصارا ايها السادة ، لحظات لا اكثر ! اننى أتخيل الحالة النفسية التى كان عليها المتهم وقد استبدت به عناصر ثلاثة : اولها ابخرة الحمرة التى صعدت الى رأسه وضوضاء الرقصات والأغاني التى تدوى فى أذنيه وهذه المرات التى تخضب وجهها بالحمرة من أثر الشراب واخذت تغنى وترقص سكرى هى أيضاً ، وكانت تبسم له ابتساماً فتاناً ؛ وثانيها أمل فى أن الحاتمة المحتومة ما تزال بعيدة ، او أنها ليست وشيكة على الأقل ، وأنها لن يحين حينها قبل الغداة ، وأنه لن يُقبض عليه قبل طلوع الفجر ، وأن أمامه اذن ساعتين من الوقت هما وحدهما سعادة كبيرة عظيمة ! وثالثها ان فى وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خطأ كثيرة . اننى أتصور أن حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذى يقاد الى الميدان الذى سيُسُنق فيه ، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربه التحقير والتشهير بينما الحصان يسير بخطى بطيئة أمام ألوف المشاهدين : « ما يزال هناك شارع ، شارع طويل سأجتازه » ، ثم تنعطف العربة يميناً وتلج شارعاً آخر لا يظهر الميدان الذى نصبت فيه المشنقة الرهيبة الا فى نهايته . . . يُخيل الى أن المحكوم عليه لا بد أن يشعر ، فى بداية هذه الرحلة ، أنه ما تزال أمامه أبدية حياة . ولكن المنازل تتخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر ، والعربة تتقدم بغير شفقة ولا رحمة ، والرجل يقول لنفسه : « ما هذا بشئ » ، ما يزال المنعطف بعيداً ، ويظل يتفرس ، رابطاً الجأش ، فى ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث ، والذين تحديق أبصارهم اليه . انه يتصور عندئذ أنه شبيه بجميع هؤلاء الخلق ، وأنه ما يزال ينتمى الى عالم الأحياء . وما هى ذى العربة تنعطف الى الشارع الآخر . أوه ! ما هذا

بشيء ، ما هذا بشيء ، فما يزال هناك هذا الشارع كله . وتخطر المنازل
واحدًا بعد آخر ، ولكنه يظل يردد : « ما يزال هناك منازل كثيرة » ،
ويستمر على ذلك حتى النهاية ، حتى لحظة الوصول الى الميدان المحتوم
المشئوم . تلکم هي في رأيي الحالة النفسية التي كان عليها كارامازوف
أثناء تلك الساعات . كان يقول لنفسه : « لم يتسع وقتهم لاكتشاف
الجريمة ، وفي وسعي أن أهتدى الى تليل ما . أوه ! سوف أهتدى
الى تليل ما . أوه ! سوف أهتدى في أثناء هذا الوقت الى خطة دفاع ،
الى وسيلة أدرأ بها الخطر عن نفسي . . . أما الآن ، أما الآن ، فما أجملها
وما أروعها ! » . صحيح أنه كان مضطرباً مهموماً ، ومع ذلك فقد ملك
من حضور البديهة ما مكّنه من اقتطاع نصف المبلغ الذي جاء به ،
واخفائه في مكان ما - ذلك أنني لا أستطيع أن أفسّر بغير هذا كيف
أمكن أن يختفى نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التي استلها من تحت
وسادة أبيه . كان قد جاء قبل ذلك الى موكرويه ، وظل يقصف فيها
يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبي الكبير القديم ، يعرفه حق معرفته ،
يعرف جميع أركانه وزواياه ، طاف في أروقه ، وتجول في حجراته .
اننى افترض أنه في ذلك المنزل انما خبأ نصف المال قبل أن يقبض عليه
بلحظات ، دسته في شق من الشقوق أو تحت وتد من الأوتاد ، في زاوية
مظلمة ، أو بين القرميد ، هل أدري ؟ فاذا سألتمونى ماذا كان هدفه من
اقتطاع نصف المبلغ واخفائه ، قلت ان الهدف واضح . فالمصيبة قد تسقط
عليه من لحظة الى لحظة ، وهو لمّا يفكر بعد في وسائل حماية نفسه منها ،
وليس في وقته متسع للتفكير في ذلك ، ما دام رأسه يضح هذا الضحج
كله ، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق انما كان يدفعه نحو الحبيبة !
ولكن المرء يحتاج الى المال في جميع الظروف . ومن ملك شيئاً من مال ،
فقد ظل في هذا العالم شيئاً مذكوراً . رب قائل يقول ان مثل هذا

الحساب ليس طبيعياً فى ساعة كتلك الساعة • ولكننى أسألكم : ألم يقل لنا المتهم نفسه انه منذ شهر ، فى ساعة مضطربة درامية أيضاً من حياته ، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً ؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً ، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل ، فان هذا لا ينفى أن هذه الفكرة كانت قد ساورته وأنه كان قد درسها ؛ حتى يمكن أن نذهب الى أنه حين أعلن لقاضى التحقيق بعد ذلك أنه احتجز نصف المبلغ فى كيس (كيس لم يوجد فى يوم من الأيام على كل حال) ، انما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه ، أعنى لأنه كان قد اقتطع نصف المبلغ فى موكرويه ، قبل ساعتين ، وخبأه من باب الاحتياط الى الفجر ، حتى لا يحتفظ به فى أحد جيوبه ، خاضعاً فى ذلك لوحى مباحث والهام مفاجيء • تذكروا الهوتتين ، يا سادتى القضاة ، تذكروا الهوتتين اللتين يمكن أن يتأملهما رجل مثل كارامازوف فى آن واحد معاً ! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعث على شيء ؛ فمن الجائز أن يكون المال ما يزال موجوداً فيه ، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المال قد أخذ فى الغد وأنه الآن فى حوزة المتهم • مهما يكن من أمر ، فلقد كان المتهم قرب هذه المرأة ، جاثياً على ركبتيه أمامها ، حين جاء رجال السلطة للقبض عليه • كانت هى مستلقية على السرير ، وكان هو ماداً ذراعيه نحوها ، وقد بلغ من نسيان كل ما عدا ذلك فى تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاءوا للقبض عليه • لم يكن قد هياً بعد شيئاً يجب به عن أسئلتهم • لقد داهموه على غير توقع منه •

« وها هو ذا يقف عندئذ أمام قضائه الذين سيقرون مصيره • سادتى المحلّفين ، اننا ، أثناء ممارسة وظيفتنا ، نمر بلحظات يعترينا فيها ، على حين فجأة ، خوف ووجل أمام المتهم وأمام المصير الذى ينتظره ؛ وهى اللحظات التى نرى فيها لدى المجرم ذلك الهلع الغريزى الذى

يستولى عليه حين يدرك أن كل شيء قد ضاع ، ولكنه يظل يناضل ، ويظل يحاول أن يقاومنا • ان غريزة البقاء تستيقظ في نفسه عندئذ فوية قوة هائلة ، فاذا هو وقد تسلطت عليه رغبة مخمومة مسعورة في الافلات منا ، يتفرس فينا بنظرة نافذة ، نظرة مستفهمة أليمة في آن واحد ، محاولاً أن يحزر أيسر تعبيرات وجوهنا وأن يعرف أخفى ما يجول في خواطرنا ، متسائلاً ما هي الجهة التي سنأتيه منها ؟ وسرعان ما تقوم في ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط الدفاعية ، ولكنه يخاف مع ذلك أن يتكلم ، يخاف أن تفلت منه كلمة متعجلة ليس فيها تروٍ أو تبصر • ان هذه اللحظات التي يذل فيها الانسان ، وهذه الشدائد التي تقاسى منها النفس ، وهذه الرغبة البهيمية في الافلات من العقاب ، ان هذا كله يبعث منظره أشدّ الألم ، ويثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضي التحقيق • لقد شهدنا هذا المنظر حين القبض على كارامازوف • بدا في أول الأمر مصعوقاً ، قد انهارت قواه وانهدت مقاومته ، فأفلتت من لسانه كلمات تعرضه للخطر • قال : « سفحت دماً ! استحق هذا المصير ! » ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه ، فماذا يقول ، ماذا يقول ؟ هو لا يعرف بعد ماذا يقول لأنه لم يهيئ شيئاً ، فليجأ في أول الأمر الى انكارات قاطعة هاتفاً : « أنا لم أقتل أبى ! » • كان ذلك هو المتراس الوحيد الذي أقامه ارتجالاً ليحتمى به ، وفي نيته أن يقيم متاريس أخرى • قال لنفسه : « سأجد تليلاً ، سأتخيل شيئاً ما ! » • وحاول بعد ذلك أن يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التي لم يكن فيها شيء من التروى والتبصر ، فاستبق أسئلتنا وأعلن أنه لا يعد نفسه مسئولاً الا عن موت الخادم جريجورى • قال : « صحيح أنني سفحت دمه هو ، ولكن من الذي قتل أبى ، من الذي قتله أيها السادة ؟ من ذا الذي قتله اذن ، ما دمت لست أنا القاتل ؟ » هل سمعتم : انه يلقي علينا نحن هذا

السؤال ، نحن الذين انما جئنا لنلقى هذا السؤال نفسه عليه ! لاحظوا هذه الطريقة التي يعمد اليها في استباق الأمور وأخذ زمام المبادرة قائلاً : « ما دمت لست أنا القاتل » ، انظروا الى هذا المكر البهيمى ، والى هذه السذاجة ايضاً ، والى هذا التسرع الذى يدل على نفاذ الصبر والذى هو شئ من طبيعة رجل مثله ! لست أنا القاتل ، وانى لأحظر عليكم حتى الوقوف عند هذه الفكرة والتلبث عليها . ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً بعد قليل (انه يتعجل ، يتعجل تعجلاً رهيباً) : « كنت أريد أن أقتله أيها السادة ، كان فى نيتى ذلك ؛ ولكن لست أنا الذى قتلته ، لست أنا المسئول عن مقتله ! » . هو يسلم لنا بأنه كان ينوى أن يقتله ، فكأنه يقول لنا : انظروا كم أنا صادق ، فعليكم أن تصدقونى متى أكدت لكم اننى لم أقتل . ان المجرمين يبرهنون فى لحظات من هذا النوع على خفة كبيرة وطيش شديد وسذاجة لا يتصورها العقل . وفى تلك اللحظة نفسها سئل ، كأنما بمصادفة ، وكان الأمر عادى طبيعى الى أبعد الحدود : « أليس من الجائز أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟ » . فعمد الى طريقة هى بعينها الطريقة التى تنبأنا بها : غضب حين لاحظ أننا كشفنا خبيثة نفسه بغتةً بينما هو لم يتسع وقته بعد لاعداد متراسه واختيار أفضل لحظة لالقاء التهمة على سمردياكوف ؛ فبادر يندفع الى الطرف الأقصى الآخر ، خاضعاً فى ذلك لقوانين الطبيعة ، وطفق يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على أن سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل ، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل . ولكن لا تصدقوه ، فما كان هذا الاحيلة ومكراً ودهاء : انه لم يعدل أبداً عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه . بالعكس : سوف يقدم سمردياكوف متى آن الأوان ، وهل يوجد الا سمردياكوف شخصٌ يستطيع أن يحمّله الجريمة ؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد ، أما الآن فقد ضاعت الفرصة وفسد الأمر .

قد يُخرج سمردياكوف غداً أو بعد بضعة أيام • سوف ينتظر الفرصة المواتية ليصبح قائلاً : « انظروا ! ألا تتذكرون أنني استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟ ألا تتذكرون أنني دافعت عنه أكثر مما دافعتم انتم عنه ؟ ولكنني قد اقتنعت الآن بأنه هو الذي قتل ، وأنه الوحيد الذي يمكن أن يكون مرتكب هذه الجريمة ! » • أما في تلك اللحظة فقد اصطنع أماننا موقف الإنكار القاطع والنفى الجازم ، متظاهراً بكثير من الغيظ والحنق • ومع ذلك فإن نفاذ الصبر وشدة الغضب قد أوحيا إليه بتفسير لسلوكه هو بين جميع التفسيرات الممكنة أقلها حذقاً وبراعة وأبعدها عن المعقول ، فأخذ يروي لنا كيف أنه اقتصر - في زعمه - على أن نظر من خلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام • يجب أن لا ننسى خاصة أن المتهم لم يكن على علم في تلك اللحظة بخطورة الأقوال التي وردت في شهادة جريجورى بعد أن صحا جريجورى من غيبوبته • وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة ، فأحرقه هذا الاجراء ، ولكنه شجعه في الوقت نفسه ، فاننا لم نعر على الثلاثة آلاف روبل كاملة ، ولم نجد الا ألفاً وخمسمائة روبل • وواضح أنه في أثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب والإنكار المقهور انما خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس • لا شك في أنه كان هو نفسه يحس بأن هذا الاختراع غير معقول ولا مقبول ، ولا شك في أنه كان يُعمل فكره جاهداً من أجل أن يجعل هذا التلفيق جائزاً محتملاً ، دون أن يدري ما الذي يجب عليه أن يتخيله حتى يشيء رواية يصدقها العقل • ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين في مثل تلك اللحظات هو أن يباغتوا المتهم فلا يدعوا له فسحة من الوقت لتحضير اجابته ، وأن يقودوه بذلك الى الكشف عمماً يضمه من حساب مع كل يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة ومن بعد عن الاحتمال ، ومع كل ما يحتويه من تناقضات • ولا يمكن اجبار

المجرم على أن يفضح نفسه هذا الفضح الا اذا أُطلع بغتة ، بما يشبه المصادفة العابرة ، على واقعة لها دلالة بليغة وخطورة عظيمة ، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع اذن أن يستعد لها • وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة ••• كنا قد أعددناها منذ مدة طويلة ••• ألا وهي شهادة الخادم جريجورى الذى صرّح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذى هرب منه القاتل مفتوحاً • كان المتهم قد نسي نسياناً تاماً أن يفكر فى ذلك الباب ، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون جريجورى قد رآه • فلما فاجأناه بهذه الواقعة ، كان لها فيه أثر فظيع ، فها هو ذا يثب عن مكانه ويصرخ قائلاً لنا : « سمردياكوف هو الذى قتل ! انه سمردياكوف ! » • هكذا كشف المتهم عن فكرته الخبيثة ، وفضح خطة دفاعه الأساسية ، ولكنه أسلمنا ذلك فى صورة هى أبعد الصور عن المعقول والمحتمل ، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل الا بعد أن جندل المتهم جريجورى وولى هارباً • فلما قلنا له بعد ذلك ان جريجورى رأى الباب مفتوحاً قبل أن يهوى على الأرض مضرجاً بدمائه وانه حين خرج من غرفته قد سمع سمردياكوف يثب ويتوجع وراء الحاجز ، حين قلنا له ذلك صُعق فعلاً • ان زميلى المحترم الذكى نيكولا بارفينوفتش قد روى لى بعد ذلك أنه أشفق عندئذ على المتهم ، وتأثر تأثراً شديداً حتى كادت تفيض عيناه بالدموع • وفى تلك اللحظة انما سارع المتهم ، اصلاًحاً للموقف ، فأفضى الينا بقصة الكيس العجيبة تلك ، فلا بد أنه قال لنفسه عندئذ : « طيب ••• اليكم الآن هذه الرواية فابلعوها ! » • سبق أن ذكرت لكم رأيى فى هذه القصة يا سادتى المحلّفين ، وسبق أن ذكرت لكم لماذا أعدتُ اختراع هذا الكلام عن مبلغ اقتطعه المتهم وخاط عليه كيساً قبل الحادث بشهر ، لماذا أعدتُ اختراع هذا الكلام أسخف وأضعف تفسير من التفسيرات التى كان

يمكن اختلاقتها في حالة من هذا النوع • ومهما يبحث المرء فلن يستطيع أن يتصور شيئاً أبعد عن المعقول وأتأى عن الاحتمال من هذه القصة الملققة • ان في وسعنا في هذه النقطة أن نربك قصصنا المرتجل الواصل من نفسه ، وأن نفضح كذبه وندمر حجته ، بأن نجابهه ببعض التفاصيل ، أن نجابهه بتفاصيل من تلك التفاصيل التي ما أكثر ما يحفل بها الواقع ، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير ارادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهة زائدة لا قيمة لها ، بل ولا تخطر لهم على بال أصلاً • فان وقتهم لا يتسع للاهتمام بهذه السفاسف ، وانما هم يتصورون حكاياتهم في خطوطها العريضة وصورتها المجملية ... ولكن ها هم أولاء يجابهون بتلك التفاصيل الشقية ! وعندئذ انما نستطيع أن نضبظهم • ألقينا على المتهم هذا السؤال : « من أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير ، ومن الذى خاطه لك ؟ » فأجابنا : « خطته بنفسى » • فألحنا نسأله : « والقماش ، من أين جئت به ؟ » فشعر باستياء وضيق ، كأن الأمر أمر ترهات لا تليق به • ولقد كان عندئذ صادقاً كل الصدق ، نعم كل الصدق • فلا تعذّبوه • انهم جميعاً على هذه الشاكلة ، هؤلاء المجرمون ! قال : « انتزعت قطعة قماش من قميصى » • قلنا : « عظيم • اذن سنعثر غداً على هذا القميص بين ملابسك ، سنعثر على هذا القميص الذى تنقصه قطعة » • انكم لتدركون يا سادتى المحلّفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلاً على ذلك القميص (وهل كان يمكن أن لا نعثر عليه فى حقيته أو فى درج من الأدراج لو كان له وجود حقاً) ، لكان ذلك واقعة محسوسة ملموسة تشهد بصدق أقواله • ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله • واستأنف كلامه يقول : « لست أتذكر جيداً • أظن اننى لم انتزع قطعة القماش من قميص ، بل قصصتها من طاقية لصاحبة المنزل الذى أسكن فيه » • سأله : « أية طاقية ؟ »

فأجاب : « طاقة أخذتها من عندها وكانت ملقاةً في غرفتها ، هي متاع من تلك الأمتعة العتيقة القطنية » • قلنا : « هل ذكرياتك دقيقة ؟ » قال : « لا ، ليست دقيقة ! » ، وأخذ يفضب ويشور علينا • ألا اننى لأسألكم : كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر ؟ ان التفاصيل التي من هذا النوع هي التي تعود الى ذاكرة المرء في أشقى ساعات الحياة ، في لحظة الاعدام مثلاً ، فاذا بالمحكوم عليه ، الذي ربما يكون قد نسي كل ما عدا ذلك ، يتذكر السطح الأحمر من منزل أبصره أثناء الطريق ، أو يتذكر غراباً أسود رآه واقفاً على صليب ، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة في الذاكرة الى الأبد • ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيظ ذلك الكيس ، ولا بد أن يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من خشية مذلة وألم ممرض حين كان ممسكاً بالابرة وهو يرتعش خوفاً من أن يدخل عليه أحد فيباغته متلبساً بالفعل ؛ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أيسر ضجة فيهرع يخبئ وراء الستارة (لأن في غرفته ستارة) ••• على أننى أتساءل ، يا سادتي المحلّفين ، لماذا أذكر لكم هذا كله ، لماذا أذكر لكم جميع هذه التفاصيل ، وجميع هذه الترهات !

بهذا هتف هيبوليت كيريلوفتشس على حين فجأة ، ثم واصل كلامه قائلاً :

« اننى مضطر الى أن أفعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصراً في عناد ما بعده عناد على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة الباطلة • انه خلال هذين الشهرين الماضيين ، منذ تلك الليلة التي حملت اليه ذلك الشؤم كله ، لم يأتنا بتعليل واحد مقبول ، ولم يستطع أن يضيف أيسر واقعة مادية محسوسة الى ما سبق أن لفق لنا خياله العجيب • هذه في نظره تفاصيل لا قيمة لها ، وانما يجب علينا أن نصدق أقواله على عهد الشرف وحده • والحق أننا لا نتمنى الا أن نصدقه ، والحق أننا نحب كثيراً أن

ثق به وأن نركن الى كلامه ولو على عهد الشرف وحده • فهل نحن أناس سفاكون سفاحون متعطشون الى دماء البشر ؟ ألا فاعطونا واقعة واحدة ، ألا فدلونا على واقعة صغيرة واحدة يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم ، فنفرح بذلك أشد الفرح ، ونغضب له أشد الاغضب • ولكن لا بد لنا من عنصر محسوس ملموس ، لا بد لنا من عنصر واقعي ، لا بد لنا من شيء غير الاستنتاجات التي يستنتجها أخوه من تعبير وجهه ، ولا بد لنا من شيء غير قول القائل ان المتهم حين ضرب صدره انما كان يدل على الكيس المخبأ فيه ، انما كان يشير الى هذا الكيس ، وذلك في ظلمة الليل أيضاً ! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة ، لسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسارع الى الاعتراف ببراءة المتهم • ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا في هذه الساعة ، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التي تدين المتهم ، ولسنا نملك الا أن نظهر كم عليها •

هنا وصل هيبوليت كيريلوفتش الى خاتمة مطالعته • كان يرتجف عندئذ من الحمى ، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح ، دم الأب الذي قتله ابنه « بدافع حقير هو الطمع في المال » ؛ وألحّ الحاحاً شديداً على أن الأدلة القاطعة التي تدين المتهم متوافرة توافراً تاماً لا يدع مجالاً لشك أو تردد • وختم كلامه قائلاً : « أياً كان الكلام الذي سيقوله لكم بعدى وكيل' المتهم ، المحامي المعروف بموهبته (لم يملك هيبوليت كيريلوفتش الا أن يضيف هذه الكلمات) الذي سترجع في هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل أن يهز عواطفكم ، فلا تنسوا يا سادتي المحلفين أنكم أمام هيكل العدالة المقدس • تذكروا أن رسالتكم هي أن تدافعوا عن الحقيقة ، وأن مهتمكم هي أن تحموا وطننا المقدس روسيا ، وأن تصونوا أسس حياتنا القومية ، وأن تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية ! نعم يا سادتي المحلفين ، انكم تمثلون الآن

روسيا كلها ، تمثلون روسيا التي تشخص بأبصارها اليكم في هذه الساعه
 حماة وقضاة من حمايتها وقضاتها ، فعلى قراركم يتوقف أن يشتد
 أزرها وتتسجع حميتها ، أو أن يخيب ظنها ويخور عزمها . فلا تعذبوا
 روسيا ، لا تخيخوا رجاءها ، لأن الترويكاجامحة التي تحمل مصائرنا
 القومية تعدو عدواً سريعاً ربما هوى بهذه المصائر الى الضياع والهلاك .
 ان العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم الى الخيول الهائجة ، منذ زمن
 طويل ، ضارعين مبتهلين أن يوقف اندفاعها العنيف العارم . واذا كانت
 الشعوب الأخرى تتنحى الآن عن طريق الترويكاجامحة الطائشة ، فربما كانت
 لا تتنحى الآن من باب الاحترام ، كما أراد الشاعر أن يقول ، وانما هي
 تتنحى من قبيل الخوف والذعر ، من قبيل الخوف والذعر ، وربما من
 باب الاشمتزاز والتقزز أيضاً ومن حسن الحظ أنها ما تزال تتنحى
 على كل حال ، لأنها ستكف في يوم من الأيام عن الخوف منها ، فاذا هي
 تنتصب سداً منيعاً أمام الاندفاع المسعور فتوقف ركبنا المجنون المتحلل
 الفاسد صيانةً لنفسها ، وانقاذاً للحضارة والثقافة . ان أصواتاً قلقة قد
 ارتفعت منذ الآن في أوروبا ، ووصلت الى مسامعنا . ان احتجاجات قد
 أخذت تنطلق في البلاد الأخرى . فلا تغفروا بنا أعداءنا ، ولا تزيدوا
 كرههم لنا وحقدهم علينا باصدار حكم يسوِّغ أن يُقتل أبٌ بيد
 ابنه ! »

جملة القول ان هيوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وانساق مع
 بلاغته ، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلاً ، فكان الأثر
 الذي أحدثه في نفوس الحضور أثراً كبيراً جداً . فلما انتهى من القاء
 مطالعته أسرع يخرج الى الغرفة المجاورة ، وكاد يُغمى عليه كما سبق
 أن ذكرت . ولم يصفق الجمهور ، غير أن الرصينين الوقورين من الحضور
 قد شعروا بالارتياح والرضى . وكانت السيدات أقل اغتباطاً وابتهاجاً

بطبيعة الحال ، ولكنهن قد تذوقن ، هنَّ أيضاً ، فصاحة وكيل النيابة وأعجبين ببلاغة ، لا سيما وأن الشك في نهاية المحاكمة لم يساورهن ، فهنَّ لا يخشين شيئاً من هذه الناحية ، لأنهن يعولن كثيراً على فيتوكوفتش ، فانه « سيتكلم أخيراً ، وسينتصر لا محالة ! » • واتجهت جميع الأعين نحو ميتيا : كان قد أصغى الى مطالعة النيابة صامتاً ، متسجح اليدين ، كازَّ الأسنان ، خافض البصر • وكان في بعض الأحيان يرفع رأسه ، ويصيح بسمعه • وهذا ماحدث خاصةً حين جاء ذكر جروشنيكا • فحين أورد وكيل النيابة رأى راكتين فيها ، ارتسمت على شفقي ميتيا ابتسامة شريرة محتقرة ، وقال بصوت مسموع : « هؤلاء أناس من أمثال برنار ! » • وحين روى هيوليت كيريلتوفتش كيف عذب المتهم في موكرويه ، رفع ميتيا رأسه من جديد ، وبدا عليه أنه يصغى بانتباه شديد • وفي لحظة من اللحظات ، كاد يشب عن مكانه ، على نية أن يقول شيئاً ما بطبيعة الحال ، ولكنه لم يلبث أن كبح جماح نفسه واكتفى برُفع كتفيه احتقاراً • وقد أثارَت خاتمة المطالعة التي ألقاها وكيل النيابة ، ولا سيما حديثه عن المهارة التي قاد بها استجواب المتهم في موكرويه ، أثارَت مناقشات كثيرة ومحادثات طويلة بعد ذلك في مجتمعنا ؛ ولم ينس الناس أن يسخروا من هيوليت كيريلوفتش ، فكانوا يقولون : « انه لم يستطع مقاومة الاغراء الذي يحضه على الزهو بنفسه والاعجاب بمقدرته » •

ورُفعت الجلسة ، ولكنها لم تُرفع الا مدة قصيرة جداً هي ربع ساعة أو عشرون دقيقة في أكثر تقدير ، سُمعت أثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجب كثيرة اليكم بعض ما حفظته منها :

قال سيد بين نفر من الناس وهو يقطب حاجبيه :

— خطاب جاد كل الجد ، خطير كل الخطورة !

فأجابه آخر :

– أسرف في السيكولوجيا مع ذلك !

– ولكن ما قاله هو الحقيقة ، هو الحقيقة بعينها خالصة !

– نعم هو حجة في هذا الميدان •

– عرض تاريخ حياة المتهم •

وتدخل ثالث فقال :

– وقد نلنا نصيبنا نحن أيضاً ، في بداية مطالعته ، هل تتذكرون ؟

حين أكد أننا جميعاً نشبه فيدور بافلوفتش •

– وفي نهاية خطابه كذلك • ولكنه كذب !

– ثم لقد تضمن خطابه فقرات كثيرة غامضة •

– انقاد لدافع الفصاحة والبلاغة •

– كان ظالماً ، ظالماً جداً •

– لا أرى هذا الرأي • وقد كان بارعاً على كل حال • طال انتظاره

ساعته ، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً ! هيه !

– اننى أتساءل عما سيقوله المحامى •

وفي جماعة أخرى ، دار الحديث التالى :

– أخطأ حين نال من هذا المحامى الآتى من سان بطرسبرج :

« حتى يؤثر في عواطفكم » • لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة •

– نعم ، لقد أخطأه التوفيق هنا !

– أسرف في التعجل •

– هو رجل عصبى •

- نحن نضحك ، نحن ، أما بالنسبة الى المتهم فليس فى كلام وكيل النيابة ما يبعث على الضحك •
- أى والله • مسكين ميتيا !
- وددت لو أعرف ما سيقوله المحامى !
- وفى جماعة نالته جرى هذا الحوار :
- من هى تلك السيدة الجالسة فى الركن ، الواضحة على عينيها نظارة صغيرة ؟
- هى زوجة جنرال • انها مطلقة • أنا أعرفها •
- آ ••• لهذا تضع نظارة •
- هى هول من الأهوال •
- أما أنا فأرى أنها مثيرة •
- على مقربة منها ، بعد كرسيين ، توجد صغيرة شقراء أوثرها عليها •
- لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة فى موكرويه ، ألا ترون هذا الرأى ؟
- لا أنكر أنهم كانوا بارعين • لم يستطع وكيل النيابة مقاومة الاعراء الذى يحضه على سرد هذه الأمور مرة أخرى • لقد طالما سمعناه يقص هذه القصة مراراً قبل الآن ، فى بيوت بعض الأصدقاء !
- لا حيلة له فى دفع هذا الاعراء • غلبه حب الظهور على أمره •
- هو رجل ما ينفك يشعر أنه مغبون ! هه !•••
- وهو الى ذلك سريع التأذى • وقد أسرف فى اصطناع أساليب البلاغة ، وكانت عباراته مفرطة فى الطول •

– ثم لقد حاول أن يخيفنا ، جاول أن يروّعنا باستمرار • هل تتذكرون ما قاله عن الترويكما ؟ « ان عند الشعوب الأخرى رجالاً من أمثال هاملت ، أما نحن فليس عندنا بعد الا أمثال كارامازوف ! » • تلك براعة منه •

– أراد أن يتملق اللبراليين • انه يخاف منهم •

– حتماً ! انى لأتساءل ما الذى سيقوله السيد فيتوكوفتش •

– مهما يتكلم فلن ينتصر على فلاحينا !

– أتظن ذلك ؟

وفى جماعة رابعة جرى هذا الحديث :

– أحبيت كثيراً تلك الفقرة التى تكلم فيها عن الترويكما ، الفقرة التى تكلم فيها عن الأمم الأخرى •

– لقد قال الحقيقة بعينها – هل تتذكر ؟ – حين أكد أن الشعوب الأخرى ستضيق ذرعاً بنا آخر الأمر !
– لماذا ؟

– ظهرت بوادر ذلك منذ الآن • ففى الأسبوع الماضى قام أحد أعضاء البرلمان الانجليزى ، فقدم سؤالاً الى الوزارة عن العدميين ، وسأل : أما آن الأوان لردع هذا الشعب الهمجى وردّه الى الصواب من أجل تأديبه • الى هذا انما ألمع هيوليت كيريلوفتش • أنا أعرف ذلك • لقد حدثنا عن هذه الواقعة منذ بضعة أيام •

– ان ايديهم أقصر من أن تستطيع أن تنالنا بشيء •

– كيف ؟

- الأمر بسيط • يكفي أن نغلق ميناء كرونشتات ، وأن نقطع عن
امدادهم بالقمح • فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ ؟

- من أين ؟ أنسيت اذن أمريكا ؟ ان عندهم الآن قمحاً ،
في أمريكا !

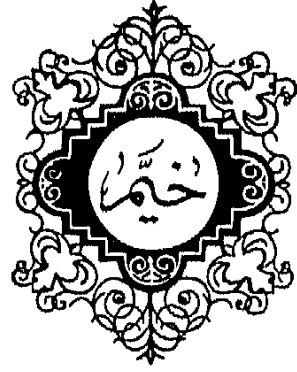
- غير صحيح !

ولكن جرس رئيس المحكمة دوى رنينه ، فأسرع الجميع الى
أماكنهم • وتقدم فيتوكوفتش لالقاء مرافعه •

١٠

المرافعة

سلاح فوحدين



على القاعة صمت كبير منذ الكلمات الأولى التي
نطق بها الخطيب الشهير • وكانت جميع الأبصار
متجهة إليه منصبه عليه • بدأ مرافقته بدون جل
طنانة ، ومضى الى هدفه رأساً ، بساطة تامة
مقنعة ليس فيها شيء من ادعاء أو غرور • خلا كلامه من كل ما يمكن
أن يدل على رغبة في الفصاحة وميل الى البلاغة ، أو ايثار للألفاظ
الرنانة التي تسهل التأثير في العواطف • لكأنه رجل يتحدث في حلقة
ضيقة من الأصدقاء • وكان له صوت جميل قوى محبب ينم جرسه عن
الصدق وطيب السريرة وحسن النية • غير أن جميع الناس قد أدركوا
مع ذلك أن هذا المتحدث قادر على أن يرتفع الى مستوى الخطابة التي
تؤثر في السامعين تأثيراً قوياً حقاً ، وأن « يهز أوتار القلوب هزاً عنيفاً
لا يجاريه فيه أحد » • لعله كان يتحدث بلغة ثقل سلامة عن لغة
هيوليت كيريلوفتش ، ولكنه لا يستعمل عبارات طويلة ، وهو أميل منه
الى الوضوح وأقرب الى الدقة • ومع ذلك هناك أمر لم يعجب السيدات

فيه : لقد كان يحنى ظهره دائماً ، ولا سيما فى بداية مرافقته ، لا كما يحنى المرء ظهره فى التحية ، وانما هو يحنى ظهره كمن يندفع نحو سامعيه • وأكثر من هذا أنه كان لا يحنى الا نصف ظهره الطويل الذى كان يبدو كأنه مزود بمفصلة فى وسطه تتيح له أن ينثنى زاويةً تكاد تكون قائمة •

وقد تكلم فى بداية خطابه على نحو مبغىر مشتت ، دون أن يلاحظ السامع وجود خيط ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاء بعضها ببعض ، وانما هو ينتقل من واقعة الى أخرى بما يشبه المصادفة ، غير أنه قد أخرج من ذلك فى النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط • وفى وسعنا أن نقسم مرافقته قسمين : فأما القسم فهو يشتمل على نقد ودحض للاتهام ، وكان فى بعض مواضعه لاذع السخر كاوى التهكم • وأما القسم الثانى فقد غير فيه الخطيب لهجته بل وغير موقفه فجأة ، فاذا هو يرتقى دفعةً واحدة الى نبرة مؤثرة تهز أوتار القلب • وكأن القاعة كانت تنتظر تلك اللحظة ، فأخذت ترتعش حماسة جياشة • وقد عمد المحامى الى مواجهة القضية رأساً ، فأعلن قبل كل شىء أنه وان كان يمارس المحاماة عادةً فى سان بطرسبرج فقد اتفق له مراراً أن ذهب الى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك الا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسبها • وأضاف يقول شارحاً :

« وهذا ما حدث لى أيضاً فى القضية التى يُنظر فيها الآن • فاننى منذ قرأت أولى المقالات التى نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهى ظروفٌ تشهد ببراءة المتهم • على أن جانباً قانونياً محضاً هو الذى همنى فى أول الأمر • لقد رأيت عندئذ ، رغم أن الملاحظات التى من هذا النوع كثيرة فى ممارسة القضاء ، رأيت أن الأمور التى تشهد ببراءة المتهم لم تكن فى أية قضية من القضايا واضحة بقوة كقوة وضوحها

فى هذه القضية ، ولم نشتمل على تفاصيل بارزة تبلغ هذه الكثرة التى تبلغها فى هذه القضية ، فيما يخيل الى . وربما كان ينبغى لى أن أحتفظ بهذه الآراء الى آخر المرافعه ، حين أكون قد فرغت من تمحيص الوقائع ، ولكننى أوتر أن أعبر عما يجول فى فكرى منذ البداية ، لأن من عيوبى أننى أمضى الى هدفى رأساً ، غير مبالي بما يكون لكلامى من تأثير ، وغير مكترث بما يجب على المحامى فى مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرج فيما يريد أن يحمله الى نفوس السامعين . وقد أكون فى هذا متهوراً غير مترو ، ولكننى مخلص صادق على كل حال . اليكم الفكرة التى أريد أن أعبر عنها : اننا نرى ، من جهة أولى ، قرائن قوية ثقيلة قاطعة تشهد بأن المتهم هو الجانى ، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة من الوقائع التى تتخذ أساساً للاتهام يمكن أن تصمد وحدها لأى تنفيذ جدى ! وقد عزز هذا الشعور فى نفسى كل ما قاله الناس أو نشرته الصحف عن هذه القضية . ثم هأنذا أتلقى من أهل المتهم ، على حين فجأة ، دعوة الى تولى الدفاع عنه . فقبلت على الفور ، حتى اذا وصلت الى هذه المدينة ، صار اقتناعى الى يقين . فمن أجل أن أهدم تلك القرائن المتراكمة التى تميل الى ادانة المتهم ، ومن أجل أن اكشف عن بطلانها واستحالتها ، ومن أجل أن أظهر ضعف كل عنصر من عناصر الاتهام على حدة ، انما قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم . « . »

بهذه الكلمات استهل المحامى مرافعته ، ثم هتف يقول :
« سادتى المحلفين ، أنا امرؤ جاء من مدينة أخرى لا يحمل أفكاراً ميّنة ، ولا أتر فى مشاعره أى تحيز . ان هذا المتهم الذى يتصف بطبع عنيف جامع لم يسيء الىّ فى الماضى كما لعله أساء فى هذه المدينة الى عدد من الأشخاص اساءات تفسّر لنا ما يحمله له هذا العدد الكبير كله من الناس من شعور العداء . اننى اعترف طبعاً بأن الرأى

العام ليس نائراً عليه بغير سبب : فان المتهم رجل عفيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه • ومع ذلك كان يُستقبل في المجتمع الراقي ، وكان يُدلل حتى في أسرة السيد وكيل النيابة الذي أقدر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً •

(ملاحظة : أثارت هذه الكلمات في الجمهور ضحكات صغيرة لم تلبث أن خفت ، ولكن جميع الناس لاحظوها ، لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا في منزله على مضض ، لمجرد أن زوجته رأت في ميتيا فتى شائقاً . ان زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة ، وهي سيدة فاضلة الى أبعد الحدود ، ولكنها غريبة الطبع قليلاً ، تحب أن تعاكس زوجها أحياناً ، ولا سيما في الأمور التي ليس لها كبير شأن • على أن ميتيا لم يزرهما الا لماماً) •

تابع المحامي كلامه فقال :

« ولكنني أستطيع أن أوكد مع ذلك أن موكلّي العائر الحظ قد خلف أثراً سيئاً حتى في نفس خصمي الذي يتصف باستقلال الرأي ويتميز بالانصاف والعدل • انني لأعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه أن يحمل الناس على اساءة الظن فيه واساءة الحكم عليه ، وأن يحملهم على أن لا يضمروا له عاطفة طيبة • ان مخالفة الشعور الأخلاقي ، ومجافاة الحس الجمالي خاصة ، أمران لا يغتفران • لقد سمعنا في المطالعة اللامعة التي ألقتها النيابة تحليلاً قاسياً لنفسية المتهم وأعماله ، وسمعنا عرضاً تناول وقائع القضية بنقد صارم ؛ وقد حاولت النيابة خاصة ، في سبيل أن تُفهمنا جوهر القضية ، أن تطل بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة أن يسبرها لولا أنه يضمّر لشخص المتهم شيئاً من العداة أو سوء الظن • على أن هناك ، في مثل هذه الحالات ، أموراً أنكى وأشأم مما قد يحمله المرء للمتهم من عاطفة

سيئة ، أو ما قد يتخذه منه من موقف معادٍ عن عمد وقصد . ذلك ما يحدث خاصةً حين نقاد لنوعٍ من العبث الفنى ، لنوعٍ من الحاجة الى الخلق الشعري ان صح التعبير ، لنوع من الرغبة فى انشاء رواية وتأليف قصة ، وهذا أمر مفهوم معقول حين تكون العناية الالهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية . اننى وأنا فى سان بطرسبرج بينما كنت أستعد للمجئى الى هذه المدينة قد نُبِّهت - وما كنت أجهل ذلك على كل حال - اننى سأواجه فى هذه القاعة خصماً أوتى احساساً سيكولوجياً خارقاً مرهناً عميقاً ، وهو خصم اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة فى هذا الميدان قدراً من السمعة والمجد لدى الأوساط التى ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابية . ولكن السيكولوجيا ، يا سادتى ، سلاح ذو حدين ، مهما تكن عميقة . (هنا سُمعت فى الجمهور ضحكات صغيرة) . اننى لعلى ثقة بأنكم ستغفرون لى هذا التشبيه العامى ، فأنا أمرؤ لا أملك ما يملكه غيرى من جمال البيان وقوة البلاغة . لنأخذ مثلاً هو أول مثال يعرض لنا فى مطالعة النيابة . ان المتهم ، حين هرب فى جوف الليل من خلال الحديقة ، تسلق السور ، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذى تشبث بساقه . وعاد يثب الى الحديقة بعد ذلك من جديد ، ففضى قرب العجوز الذى جنده خمس دقائق طويلة محاولاً أن يعرف أهو قد قتله أم لا . ان النيابة ترفض رفضاً قاطعاً أن تسلّم ، بحال من الأحوال ، أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكد أنه قد شُغل بجريجورى شفقةً عليه ورأفةً به . يقول خصمى : « لا ، ان هذه العاطفة لا محل لها فى مثل هذه الحالة ، ولا يمكن أن تكون طبيعية ، فانما قفز المتهم الى الحديقة من جديد لا لسبب الا أن يتأكد من ان الشاهد الوحيد قد مات ، فكأنه حين فعل ذلك قد وقع اعترافاً بجريمته ، فما كان ليحضه على ذلك أى باعث آخر أو أن تحضه عليه أية عاطفة أخرى ،

حين عاد يشب الى الحديقة ، * اننى أسلم بأن هذا الكلام هو من
السيكولوجيا * ولكن ألا فلنأخذ هذه السيكولوجيا فنطبقها على الوقائع
تطبيقاً جديداً من الجهة المعارضة ، فترى أن النتائج التى نصل اليها عندئذ
لا تقل اقناعاً عن النتائج التى وصلت اليها النيابة * ان القاتل الذى وثب
الى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات ، كان قد ترك ،
منذ لحظات ، فى غرفة أبيه الذى قتله ، قرينةً يصفها السيد وكيل النيابة
نفسه بأنها قرينة قاطعة ودليل حاسم ، ألا وهى الظرف الممزق الذى
تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل * فلو أن
المتهم قد أخذ هذا الظرف ، اذن لما خطر ببال أحد أنه كان هنالك ظرف ،
لا ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال ، ولما استطاع أحد أن ينسب
الى المتهم فعل السرقة * ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة * فمن جهة أولى
اذن ، نرى رجلاً طاش صوابه وذهب عقله ، واستحوذ عليه الخوف
فهرب تاركاً فى أرض الغرفة برهاناً على ارتكابه الجريمة ؛ ومن جهة
ثانية نرى هذا الرجل نفسه يسترد على حين فجأة كل صحو ذهنه
وحضور بديهته ، ويبرهن على أنه يحسب الأمور حساباً يبلغ أبعد حدود
الدهاء ، ويمضى الى أقصى آحاد النأى عن العاطفة الانسانية * لنسلّم مع
ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، لنسلّم بأن كل رهاقة
السيكولوجيا انما تكمن هنا : قرب فرد واحد بعينه يملك فى بعض
الظروف بصيرة دموية كبصيرة نسر من نسور القفقاس ، ثم هو يصبح
بعد لحظة واحدة أعمى هلوعاً كخلدٍ مروّع بائس * ولكن اذا كنا قد
بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حدّ الوثوب مرة أخرى الى أسفل
السور بعد ارتكابنا جريمة قتل ، لا لهدف الا أن نتأكد من أن الشاهد
الذى قد يشهد علينا قد مات ، فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق
طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه الينا شهود آخرون

في أغلب الظن ؟ لماذا نبذل منديلنا بالدم الذي يسيل من رأس الضحية ، مع أن هذا المنديل قد يُستخدم بعد ذلك دليلاً علينا ؟ ألم يكن من الأفضل لنا ، ونحن على هذا القدر من شدة التوحش وقسوة القلب ، أن نبادر بعد الوثوب عن السور الى الحديقة من جديد ، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوى بها على رأسه بمدق الهاون لنصبح على يقين من موته ، ثم نهرب وقد فرغنا من هذا الهم وتخلصنا من هذا الخوف ! والكيم تناقضاً آخر : أثب الى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج ، ثم أترك على ممر في الحديقة دليلاً قاطعاً علىّ هو ذلك المدق الذي أخذته من عند امرأتين يمكن أن تتعرفاه وأن تشهدا بأنني أنا الذي أخذته من عندهما ؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق في الممر نسياناً أو انه سقط منا سهواً بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب . لا ، فانما نحن رمينا ذلك السلاح رميةً عامدين ، فقد وُجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذي كان راقداً فيه جريجورى . فاذا سأل سائل لماذا فعلنا ذلك ، قلنا فانما نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لصرعنا رجلاً هو خادم عجوز . فلما استولى علينا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذي استعملناه في ارتكاب هذا الذنب ، ألقيناه بعيداً عنا . ذلكم هو التفسير الوحيد الممكن . وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع . ولكن اذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة كلها لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز ، فان معنى هذا أننا لم نقتل أبانا : فلو قد ارتكبنا جريمة قتل الأب ، لما ملنا على الضحية الثانية مشفقين ، ولكان شعورنا عندئذ مختلفاً عن هذا الشعور كل الاختلاف ، ولما فكرنا عندئذ الا في نجاتنا نحن وفي خلاصنا نحن ، ولما أشفقنا على غير أنفسنا البتة . ذلك أمر بديهى لا سبيل الى المماراة فيه . بالعكس : كنا سنجهاز عندئذ على

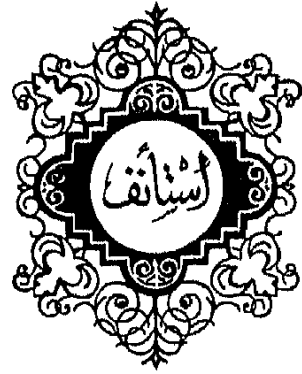
الضحية ، بدلاً من أن نُشغل بها خمس دقائق طويلة !... ولئن شعرنا بالشفقة ، ولئن استيقظت فينا العواطف الحيرة في تلك اللحظة ، فما ذلك الا لأننا كنا نحس حتى ذلك الحين ببراءة الذمة وطهارة الضمير . ان هذا من السيكولوجيا أيضاً ، ولكنه سيكولوجيا مختلفة بعض الاختلاف . وانما تعمدت ، يا سادتي المحلّفين ، أن أعمد أنا أيضاً الى استدالات سيكولوجية ، لأظهر لكم بوضوح وجلاء أن في وسع المرء أن يخلص من أمثال هذه التحليلات الى ما يشاء الخلوص اليه من نتائج ، وأن يستخرج منها ما يجب له هو ان يستخرجه من أحكام . والأمر كله يتوقف على الهدف من استعمال هذه التحليلات ، ويتوقف على الشخص الذي يقوم بهذه التحليلات . ان السيكولوجيا ، يا سادتي ، يمكن أن تغري أحرص الناس على الجدل وأكثرهم تمسكاً بالانصاف ، يمكن أن تغريهم بانشاء روايات وتأليف قصص ، وذلك على غير ارادة منهم . وطبيعي يا سادتي أن ما قلته الآن لا يتناول الا بعض مبالغات التحليل السيكولوجي ، وبعض اساءات استعماله » .

هنا سُمعت ضحكات صغيرة أخرى يؤيد بها الجمهور سخرية المحامي من وكيل النيابة . ولكنني لن أنقل كل المرافعة التي القاها المحامي ، وانما أقصر على مقتطفات منها هي أهم ما ورد فيها .

١١

لم يكن ثمة مال، لا ولا صدقة

المحامى كلامه فقال :



« سادتى المحلّفين ، ان فى هذه القضية أمراً خاصاً يخطف انتباه كل انسان غير متحيز • هذا الأمر الخاص هو اتهام موكلى بالسرقة مع انتفاء أى دليل قاطع على أن هناك مالاً قد سُرق • يُقال ان مبلغ ثلاثة آلاف روبل قد اختفى ، ولكن ما من أحد يعرف على وجه اليقين هل كان لهذا المبلغ وجود • فكروا قليلاً : من الذى أعلمنا بوجود هذه الثلاثة آلاف روبل ، من الذى رآها ؟ لا أحد الا الخادم سمردياكوف الذى زعم أن هذا المال كان مودعاً فى طرف عليه الكتابة التى علمتم • وهذا الخادم سمردياكوف هو الذى نقل أيضاً هذا النبأ ، قبل وقوع الكارثة ، الى المتهم والى أخيه ايفان فيدوروفتش ، كما تحدث عنه كذلك الى السيدة سفيتلوفنا • غير أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يروا هذا المال بأعينهم • وما من أحد رآه الا سمردياكوف فيما زعم • ولكن لا بد لنا أن نلقى على أنفسنا عندئذ هذا السؤال : لنفرض أن سمردياكوف كان صادقاً فيما قال ، فمتى رأى هذا المبلغ آخر مرة ؟ لتتخيل مثلاً أن مولاه قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه فى صندوقه دون أن يبلغ الخادم ذلك • لاحظوا أن أقوال

سمردياكوف تذهب الى أن المال كان مخبأً في السرير تحت الفراش • فلا بد اذن أن يكون المتهم قد نبش السرير • فهل رأيتم السرير منبوشاً؟ كلاً • • • وتلك واقعة مسجلة في محضر التحقيق • فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعد غطاء السرير ولو تجعيداً يسيراً ، بل كيف يمكن أن يكون قد دس يديه المملختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوّث المفارش النظيفة المصنوعة من دقيق النسيج ، التي وُضعت على السرير في ذلك المساء خصيصاً؟ رب سائل يسأل : فما قولك بالظرف؟ ألا فلتتكلّم اذن عن هذا الظرف قليلاً • لقد دُهِشت بعض الدهشة منذ قليل حين رأيت السيد وكيل النيابة ، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه ، في مطالعته اللامعة ، حين رأيتَه هو نفسه - نعم هو نفسه أيها السادة - يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل : « لولا وجود ذلك الظرف ، لولا أن ذلك الظرف كان ملقى على الأرض دليلاً مادياً ، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه ، اذن لما خطر ببال أحد في العالم شيء عن وجود هذا الظرف ووجود المال المودع فيه ، ولما أمكن أن يُنسب الى المتهم أنه سرق » • معنى ذلك أن هذه القطعة الحقيرة من الورق الممزق ، مع العبارة المكتوبة عليها ، هي وحدها الأساس الذي يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة • فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة حدثت ، ولما كنا على يقين من وجود المال • فهل يمكن حقاً أن نزعّم أن هذه المزقة الحقيرة من الورق الملقاة على الأرض تنهض دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة؟ قد يُعترض على هذا بأن « سمردياكوف قد رأى المال في الظرف » ، ولكننا نسأل عندئذ : متى ، متى رأى هذا الظرف آخر مرة؟ ذلكم هو السؤال الذي ألقيه عليكم • لقد تحدثت في هذا الأمر مع سمردياكوف ، فذكر لى أنه رآه قبل حدوث الدراما بيومين • فهل محذور علينا أن نفترض والحالة هذه أن

العجوز فيدور بافلوفتش قد خطر بباله فجأة ، حين كان وحده في الغرفة منتظراً حبيبته على قلق ، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفضه ، قائلاً لنفسه : « إذا كان المال مودعاً في الظرف فقد يراودها شك ، أما إذا رأت في يدي ثلاثين ورقة جميلة من فئة المائة روبل ، فسوف تقتنع رأساً ، وسوف يسيل لعابها طمعاً ! » • ها هو ذا اذن يمزق الظرف ويخرج منه المال ، ثم يرميه على أرض الغرفة بحركة واثقة هي حركة رب الدار الذي لا يخشى طبعاً أن يكون في ذلك شهادة عليه • هل هناك حقاً ، أيها السادة ، افتراض أقرب الى المعقول وأدنى الى الجواز من هذا الافتراض الذي صورته لكم ؛ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ؛ ولكن اذا جرت الأمور على هذا النحو ، أو على نحو قريب من ذلك ، فقد سقطت تهمة السرقة من تلقاء نفسها : فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال • اذا كانت النسيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال ، فلا شيء يمنعني أنا من أن أؤكد نقيض ذلك • وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض الا لأنه قد أفرغ من المال ، أفرغه منه صاحبه نفسه سلفاً • رب سائل يسأل الآن : « ولكن اذا صحّ هذا ، اذا صحّ أن فيدور بافلوفتش هو الذي أخرج المال من الظرف ، فأين صار هذا المال ؛ انا لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل » • ان جوابي عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عثر عليه في صندوق القليل ؛ وثانياً أن من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال في صباح يوم الحادثة ، أو قبل ذلك بيوم ، لينصرف فيه تصرفاً آخر ، كأن يدفعه لأحد أو أن يرسله الى أحد ؛ وثالثاً أن من الجائز أن يكون قد عدل عن رأيه فيما بعد ، فغيراً خطه عمله تغييراً كاملاً ، دون أن يرى اطلاع سميردياكوف على ذلك سلفاً • فاذا كان هناك أيسر امكان لتفسير الأمور على هذا النحو ، ففيم هذا الاصرار كله وهذا الاستمرار كله على

تأكيد أن المتهم قد قتل ليسرق ، وأنه سرق بعد أن قتل ؟ ألا ان هذا لرواية مؤلفة تأليفاً ! حين يزعم أحد أن شيئاً ما قد سُرق ، فانما ينبغي له ، على الأقل ، أن يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشيء ، وأن يبرهن لنا على أنه وُجد فعلاً . أما في هذه القضية فان الشيء المسروق لم يره أحد . لقد حدث في سان بطرسبرج ، منذ وقت قصير ، أن شاباً يكاد يكون مراهقاً ، في الثامنة عشرة من عمره ، يعمل بائعاً متجولاً ، قد داهم دكان صراف في وضع النهار ، متسلحاً ببليطة ، فقتل الصراف بجراحة قصوى ، وسطا على ألف وخمسمائة روبل . ولكنه قبض عليه بعد بضع ساعات ، فحُثر على المبلغ معه كاملاً لم ينقص منه الا خمسة عشر روبلاً . كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها . هذا الى أن أجبر الصراف ، حين عاد الى الدكان بعد وقوع الجريمة ، استطاع أن يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب ، وانما ذكر للشرطة أيضاً ممّ يتألف ذلك المال، أى ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها ، وعدد الدنانير الذهبية التي حملها القاتل . وقد عُثر مع القاتل على تلك الأوراق ذاتها وعلى تلك الدنانير نفسها . يضاف الى ذلك أن القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة صادقة ، فقال انه قتل وسرق . ذلكم يا سادتي المحلّفين ما أستطيع أن أسميه أدلة قاطعة . ها هنا لا مجال للشك : فالمال أمامي ، أراه وألمسه ، ويستحيل علىّ أن أزعم أنه لم يوجد . فهل الأمر على هذا النحو في القضية الراهنة ؟ والمسألة مع ذلك مسألة حياة أو موت ، مسألة مصير انسان ! ربّ قائل يقول : « طيب . . . ولكن هذا لا ينفي أن المتهم قد قصف في تلك الليلة نفسها ، وأنه بعثر المال يمنة ويسرة ، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسمائة روبل . فمن أين أتى بهذا المال ؟ » . ولكنني أقول ان هذه الواقعة ، وهي أنه لم يُعثر معه الا على ألف وخمسمائة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود المبذولة أن يكتشف

النصف الثانى من المبلغ الذى يُزعم أن المتهم قد سرقه ، أقول ان هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودعاً فى ظرف • ان التدقيق فى أجزاء الزمن الذى قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حُسب هذا الزمن حساباً دقيقاً) قد أوضح وبّين أثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب الى بيته بعد أن خرج راكضاً من عند الخادمتين ليمضى الى منزل الموظف برخوتين ، وانه لم يذهب الى أى مكان آخر ، وأنه عدا ذلك كان فى صحبة أشخاص آخرين طول الوقت بعد ذلك ، فمن المستحيل والحالة هذه أن يكون قد اقتطع جزءاً من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها فى مكان ما بالمدينة • وهذه الاعتبارات بعينها هى التى حملت السيد وكيل النيابة على أن يتصور أن المال لا بد أن يكون قد أُخفى فى جحر من الجحور أو شق من الشقوق فى قرية موكرويه ؟ لماذا لا نقول انه مخبأ فى أقبية قصر أودولف ؟ * أليس هذا الافتراض عجيباً غريباً فى الواقع ؟ لاحظوا يا سادتى المحلّفين أنه متى سقط هذا الفرض ، أعنى متى سقط الفرض الذى يذهب الى أن المتهم قد خبأ المال فى موكرويه ، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطاً تاماً ، والا فأين ذهبت الألف وخمسمائة روبل الأخرى ؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثبت أن المتهم لم يدخل الى أى مكان ؟ أبلاستناد الى روايات ينشئها الخيال على هذا النحو ، يجوز لنا أن ندمّر مصير انسان ؟ فاذا قيل لى ان المتهم لم يستطع أن يدلنا على مصدر الألف وخمسمائة روبل التى عُثر عليها معه ، وانه كان معروفاً لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك قرشاً واحداً قبل تلك الليلة ، قلت : من يدري ؟ ان المتهم قد قدم لنا ، من جهته ، تفسيراً واضحاً قوياً لمصدر ذلك المبلغ ؛ وما أحسب الا أنكم تسمعون لى ، يا سادتى المحلّفين ، بأن أنادى قائلاً انه لا يمكن أن يكون هناك ولا يتصور العقل أن يكون هناك أقوالٌ أقرب الى الصحة وأدنى

الى الاحتمال من الأقوال التي أدلى بها المتهم حول هذه النقطة ، لا سيما وأن ما رواه المتهم يتفق كل الاتفاق مع طبعه وخصاله النفسية • لقد حلا للاتهام في القصة التي ألفها أن يتخيل أن رجلاً ضعيف الإرادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل يقدمها اليه خطيبته في ظروف مخزية الى ذلك الحد ، لا يمكن أن يملك من القوة ما يمكنه من أن يقطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يخفيه في صدره ؟ وهبه فعل ذلك فانه ماكان ليستطيع الا أن يفتح الكيس كل يومين فيسل منه مائة روبل بعد مائة روبل ، الى أن يتلف المبلغ كله في غضون شهر • ذلك كله قد قاله لنا السيد وكيل النيابة ، كما تتذكرون ، بلهجة قاطعة لا تقبل الأخذ والرد • فماذا اذا كانت الأمور لم تجر على نحو ما صورت قصتكم هذه التي حركتم فيها شخصية روائية من صنع الخيال والوهم ؟ ألا ان البلاء هو انكم صورتتم لنا شخصية روائية لا وجود لها في الواقع ! رب معترض يقول ان هناك شهوداً رأوا المتهم يبدد مرة واحدة في موكرويه ، قبل وقوع المأساة بشهر ، كل الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من الأنسة فرخوفتريفا ، فلا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه • ولكن من هم هؤلاء الشهود ؟ ان درجة الثقة التي يستحقون أن نوليهم اياها قد اتضحت لنا اتضحاً كافياً أثناء المناقشات • ثم ان قطعة الخبز تبدو لنا دائماً أكبر مما هي في الواقع حين نراها في يد غيرنا • يضاف الى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يعدد المبلغ بنفسه ، ولم يتكلم أحد عن مقدار ذلك المبلغ الا على أساس رؤية العين • ألم يمس الشاهد ماكسيموف الى حد ادعاء أنه رأى في يدي المتهم عشرين ألف روبل؟ هكذا ترون ، ياسادتي المحلّفين ، أن السيكولوجيا سلاح ذو حدين ، فاسمحوا لي لذلك أن أواجهها من الطرف الآخر لنرى ما سيخرج منها •

« قبل وقوع المأساة بشهر ، عهدت الأنسة فرخوفتريفا الى المتهم

بتلاثة آلاف روبل ، وكلفته أن يرسلها بالبريد • اننى لأتساءل مع ذلك هل صحيح أن هذا المال قد سلّم اليه على النحو المذل المخزى الذى وُصف لنا منذ قليل ؟ ان الشهادة الأولى التى أدلت بها الأنسة فرخوفتزيبا كانت مختلفة عن هذا ، كانت مختلفة عن هذا اختلافاً كبيراً • أما شهادتها الثانية فلم تكن الا خليطاً مشوشاً مضطرباً من صرخات غضب وانتقام ، والا انفجاراً لكره طال أمد كبتة • ويكفى أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقةً فى تصريحاته الأولى حتى نشك فى صدق التصريحات الأخرى التى أدلى بها بعد ذلك • ان السيد وكيل النيابة « لم يشأ ولم يجروء » - وتلك كلماته نفسها - أن يمسّ هذا الجانب من المسألة • ليكن له ذلك ، وهأنذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا والتلبث عنده • غير أننى أسمح لنفسى مع ذلك بابداء هذه الملاحظة : حين نرى انسانة طاهرة فاضلة مثل الأنسة فرخوفتزيبا التى نحترمها جميعاً أكبر الاحترام ، حين نراها تسمح لنفسها فجأة بأن تتراجع أثناء جلسة المحاكمة عن شهادتها الأولى على نية أن تضيّع المتهم ، فانه يكون واضحاً عندئذ أن شهادتها لا تخلو من الهوى ولا تتصف بالموضوعية • فهل حرام علينا والحالة هذه أن نتصور أن امرأة تجيش فى نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثأر ، هل حرام علينا أن نتصور أن هذه المرأة قد بالغت فى كثير من الأمور ، وضخمت كثيراً من الأشياء ؟ ان من الممكن خاصةً أن تكون قد ضخمت طابع الذل وصفه الحزى والعار فى تقديمها المال الى خطيبها • وانى لمقتنع بأن هذا المبلغ قد قدّم الى المتهم تقديماً يمكن من قبوله ، لا سيما بالنسبة الى رجل خفيف خفة صاحبنا المتهم هذا • ويجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم كان ينتظر أن يستلم من أبيه فى القريب مبلغ الثلاثة آلاف روبل الذى يدين أبوه له به تصفيةً لحساب الميراث • صحيح أن ذلك كان منه طيشاً

وتسرعاً ، ولكن الحفة هي بعينها التي جعلته لا يشك في أن أباه سيرد اليه هذا المبلغ ، فيكون في وسعه في كل وقت أن يعيد الى الأنسة فرخوفتريفا بالبريد المال الذي عهدت اليه به واثمنتته عليه ، فيسدّد دينها عليه ويبريء تجاهها ذمته . ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع ، في ذلك اليوم نفسه ، نصف المبلغ الذي أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً ؛ فالسيد وكيل النيابة يرى أن ذلك « لا يتفق وطبع المتهم ، وأن المتهم ما كان له أن يشعر بمثل هذه العواطف » . ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين ان لأمثال كارامازوف طبيعة واسعة ، ألم تتكلموا هنا عن الهوتّين اللتين يمكن أن يتأملهما في آن واحد معاً رجلٌ مثل كارامازوف ؟ ألا ان كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذي لا حدود لامكانياته في الاتجاهين كليهما ، انه رجل الهوتّين الذي اذا انقاد لفرحة اتلاف المال واستسلم لظماً الابتهاج واللهو والقصف كان يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يتوقف فجأة متى راودته فكرة أخرى تريبه الوجه الآخر للموقف . ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً : انه الحب الذي اشتعل في نفسه ، وكان يحتاج من أجله الى المال احتياجاً أشد من احتياجه اليه في سبيل اللهو والقصف مع حبيته . فيومَ تقول له حبيته : « أنا لك . اننى لا أريد فيدور بافلوفتش » ، سيرحل معها ، وسيكون عندئذ في حاجة الى مال . وذلك أخطر شأنًا من القصف واللهو ، ما في ذلك ريب . ان رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن الا أن يدرك هذا . وذلك بعينه هو ما كان يعذبه تعذيباً يوشك أن يصير الى مرض ، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره محاصرة ولا تبرحه في لحظة من اللحظات . فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادخره من باب الاحتياط ؟ ولكن الوقت كان يمضي وفيدور بافلوفتش لا يرد الى المتهم الثلاثة آلاف روبل . والأدهى من

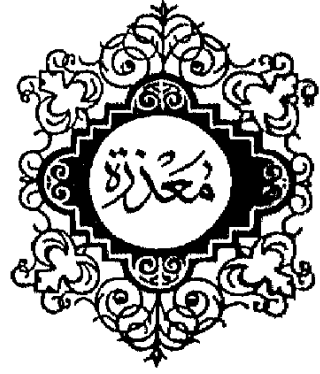
ذلك أن المتهم قد علم أن فيدور بافلوفتشس ينوى أن يستخدم هذا المبلغ نفسه لاغواء حبيبته ، لاغوائها بماله هو . فقال لنفسه عندئذ : « ان لم يردّ الى فيدور بافلوفتشس هذا المبلغ فسوف تعذبني كاترين ايفانوفنا لصاً » . عندئذ وُلدت في ذهنه تلك الفكرة ، وهى أن يمضى فى يوم من الأيام بالألف وخمسمائة روبل التى ما يزال يحملها فى عنقه ، أن يمضى بها الى الأنسة فرخوفتزييفا فيقول لها : « أنا شقى ولكننى لست لصاً » . أصبح هنالك اذن سببان يدفعانه الى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمائة روبل ، والى المحافظة عليها محافظة شديدة والى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه والى أن لا يفيض الكيس ليسلّ مائة روبل بعد مائة روبل . لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف ؟ لا يا سادتى ! ان هذا المتهم يملك الاحساس بالشرف ؟ قد يكون فى احساسه بالشرف شىء من البعد عن طريق الصواب ، وقد يظهر هذا الاحساس فى بعض الأحيان مقلوباً ، ولكنه يحس بالشرف احساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى والاندفاع ، ولقد برهن على هذا ! ويتعقد الأمر مع ذلك ، فهذه تباريح الهوى تبلغ أوجها ، وهذان سؤالان ، سؤالان قديمان ، ما يزالان يلحان على نفسه المضطربة الحاحاً شديداً ، وما يزالان يؤلمانه مزيداً من الألم : « سأرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولكن من أين أجيء بعد ذلك بما سأحتاج اليه من مال لأرحل مع جروشنكا ؟ » . ولعل السبب فى أن سلوكه كان طوال هذا الشهر فاسداً ذلك الفساد وأنه كان يقبل على السكر بغير انقطاع ، لعل السبب فى هذا هو أن نفسه كانت تفيض مرارة ، وأنه لم يفلح فى السيطرة على ألمه ؛ وتفاقت الحواطر التى كانت تثيرها هذه المسائل فى ذهنه ، تفاقت حتى أودت به الى اليأس . وأوفد أخاه الصغير الى أبيه يرجوه مرة أخيرة أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل ، ولكنه داهم المنزل دون أن ينتظر جواباً ، وانتهى به الأمر

الى ضرب العجز على مرأى من شهود • وبعد ذلك فقد أى أمل فى الحصول على هذا المبلغ ، لأنه أيقن أن أباه سيرفض حتماً اعطاءه المال ، حقدًا عليه وانتقاماً منه • وفى ذلك اليوم نفسه ، حين التقى بأخيه فى المساء ، لطم صدره ، لطم أعلى صدره ، فى الموضع الذى يوجد فيه الكيس ، وحلف أن فى امكانه أن لا يصبح شقياً حقيراً ، ولكنه سيصبح كذلك ، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الامكان ، لافتقاده القوة النفسية التى تتيح له ذلك • انى لأسألكم لماذا يرفض الاتهام أن يثق بأقوال ألكسى كارامازوف وأن يركن الى شهادته التى أدلى بها بريثاً تلك البراءة كلها ، صادقاً ذلك الصدق كله ، عفويًا تلك العفوية كلها ، والتى هى من جهة أخرى معقولة محتملة الى أبعد الحدود ؟ ولماذا يُراد لى ، فى مقابل ذلك ، أن أُقسر قسراً على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خبئ فى شق خفى من الشقوق أو فى قبو من أقبية قصر أودولف ؟ وفى ذلك المساء نفسه ، بعد حديثه مع أخيه ، كتب المتهم تلك الرسالة المشثومة ، تلك الرسالة التى هى أقوى قرينة ضده ، وأكبر دليل عليه ، والتى هى الأساس الرئيسى لاتهامه بالسرقه • « سأمضى ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف أقتل أبى ، وسوف استولى على المال المخبأ تحت الفراش فى ظرف مربوط بشريط وردى اللون ، شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هذه خطة قتل • فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه ، أليس كذلك ؟ « ذلك مكتوب » • بهذا صاح السيد وكيل النيابة • ولكننى أقول أولاً ان هذه الرسالة قد كتبت فى حالة سكر ، بينما كان يستحوذ على المتهم حنق شديد وغيظ كبير ؟ وأقول ثانياً ان المتهم لا يتكلم فى هذه الرسالة عن الظرف الا اعتماداً على أقوال سمردياكوف ، لأنه لم ير الظرف بنفسه ؟ وأقول ثالثاً ان هذه الرسالة قد كتبت فعلاً ، ولكن ما الذى يبرهن لنا على أن

المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء في تلك الرسالة ؟ هل أخرج
الظرف من تحت الفراش ، هل وجد فيه المال ، بل كان لهذا المال
وجود ؟ تذكروا ان المتهم لم يهرع الى منزل أبيه بغرض الحصول على
هذا المال ، تذكروا هذا أيها السادة ! وانما هو تسلل الى الخديقة
كالمجنون ، لا يسرق ، بل ليعرف أين توجد تلك المرأة ، تلك المرأة
التي يجبها حب العباد ، فهو اذن لم يذهب الى منزل أبيه لينفذ الخطة
الموسومة في الرسالة ، انه لم يذهب الى منزل أبيه لارتكاب سرقة
مدبرة ؛ وانما هو أسرع الى هناك بغير تدبير ولا تفكير ، وقد استبدت به
وسيطرت عليه نوبة غيرة مسعورة • رب قائل يقول : « ولكن هذا
لا ينفى أنه قتل أباه بعد ذلك ، واستولى على المال » • هنا أسألکم
أخيراً : « هل قتل ؟ هل قتل حقاً ؟ » • اننى ارفض تهمة السرقة
مستنكراً مستهجنًا : فليس يجوز لنا توجيه تهمة من هذا النوع حين
لا نستطيع أن نحدد الشيء المسروق على وجه الدقة : تلك بديهية من
البديهيات • ولكن هل قتل المتهم ، هل قتل دون أن يسرق ؟ هل جريمة
القتل ثابتة ؟ ألسنا ، هنا أيضاً ، بصدد رواية مؤلفة ؟

١٢

الدلائل قتل



، سادتي المحلّفين ، ولكن الأمر يتوقف عليه
مصير انسان ، فيجمل بالمرء أن يلتزم جانب
الحكمة والحذر والتروي . لقد سمعتم السيد
وكيل النيابة يصرّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى
آخر يوم ، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه ، في أن ينسب الى المتهم
جريمة قتل عن سابق تصور وتصميم ، وأنه ظل يتردد في ذلك حتى
اللحظة التي قدّمت فيها الى المحكمة تلك الرسالة المشؤومة ، تلك
الرسالة التي كتبها سكران . « ذلك مكتوب » . ولكنني أعود فأقول
مكرراً ان المتهم قد تسلل الى الحديقة ليعثر على تلك المرأة ، وليس له من
هدف الا أن يعرف أين هي . تلك واقعة ثابتة لا سبيل الى انكارها .
فلو قد وجدها في منزلها لما ذهب الى دار أبيه ، ولظلّ الى جانب تلك
المرأة ، ولما نفّذ ما أعلن عنه في رسالته . لقد هرع الى منزل أبيه بحركة
مباغتة لم يكن يتوقعها ، ولعله كان في تلك اللحظة قد نسي الرسالة التي
كتبها وهو سكران . رب قائل يقول : « ولكنه أخذ مدق الهاون ، أليس
كذلك ؟ » . ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكلوجية التي اتخذ
هذا المدق الشقي ذريعة لها وحجة ، وكيف أريدَ افناعنا بأن المتهم لا بد

أن يكون قد عدّ هذا المدق سلاحاً ، وأنه قد استولى عليه أداةً لارتكاب جريمته قتل النخ . ان فكرة بسيطة جداً تحضرني في هذه المناسبة : ترى ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعاً على المائدة أو على رفٍ فرآه المتهم فتاوله ، وانما كان مودعاً في خزانة متلاً ؛ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يخطف بصر المتهم ، ولانصرف المتهم عندئذ خالي اليدين ، لا يملك سلاحاً ، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل أحداً . فكيف نستطيع بعد هذا أن نعدّ ذلك المدق دليلاً على سابق تصور وتصميم ، وبرهاناً على نية التزود بسلاح ؛ رب قائل يقول : طيب . . . ولكن المتهم قد صرخ يقول هو نفسه ، في الكاباريهات ، انه سيقتل أباه ؛ ومع ذلك فانه قبل الحادث بيومين ، في المساء الذي كتب فيه رسالة السكران تلك ، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً في أحد الكاباريهات مع مستخدم صغير من مستخدمي المتاجر : « لأن كارامازوف كان لا يستطيع الا أن يتشاجر مع أحد » . وأقول في الردّ على هذه الحجة ان رجلاً فكر في ارتكاب مثل هذه الجريمة وانتوى أن يقتربها وفق خطة مرسومة سلفاً ، ما كان له قطعاً أن يتشاجر مع أحد ، ولو مع مستخدمٍ في متجر ؛ بل ولا كان له أن يدخل الى أحد الكاباريهات أصلاً ، لأن الرجل الذي يفكر في اقتراف جريمة من هذا النوع ، انما ينشد الهدوء والعزلة ، ويحاول أن لا يلاحظه أحد ، يحاول أن لا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد ، وكأنه يتمنى في قرارة نفسه أن يقول للناس : « انسوا وجودي ، اذا أمكن ذلك » ، لا عن حساب وتدبير ، بل بغريزته وحدها . ان السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتي المحلّفين ، وانا لنحسن استعمالها نحن أيضاً . أما التهديدات التي أطلقها في الكاباريهات طوال ذلك الشهر فما هي الا زعيق شبيه بزعيق الأطفال ، وما هي الا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يشتجرون

فيأخذون يعولون قائلين : « لأصرعك ، لأقتلك ! » ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً . وأما تلك الرسالة المشؤومة فليست الا صرخة سكر وغضب هي أيضاً ؛ ليست الا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة : « لأقتلكم ، يمينا لأقتلكم جميعاً ! » . فيم البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل ، فيم الاصرار على رفض هذا التعليل ؟ ان هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة ، أفليس الأولى أن توصف بأنها كلام مضحك ؟ نعم . . . ان الأولى أن توصف بأنها كلام مضحك ! ولكن لا . . . انهم لا يريدون لها الا أن تكون دليلاً قاطعاً وحجة دامغة ، لسبب واحد هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً ، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفي يده سلاح ، وأن هذا الشاهد قد صُرع هو أيضاً بعد ذلك ؛ فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لخطة مرسومة من قبل ، فلا يمكن اذن أن تكون تلك الرسالة كلاماً مضحكاً ، ولا يمكن الا أن تكون دليلاً قاطعاً ؛ وحمدوا الله على أنهم وصلوا الى النقطة الحاسمة فقالوا : « أما وأنه كان في الحديقة فقد قتل » . ان هذه الكلمات الصغيرة الثلاث « أما وأنه » هي في الواقع جوهر الأساس الذي تقوم عليه القضية ويستند اليه الاتهام . « كان في الحديقة ، فهو اذن . . . » . ماذا لو أسقطنا كلمة اذن . . . « ماذا لو أسقطنا كلمة « اذن » هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان في الحديقة ؟ ألا اننى لأسلم بأن الوقائع في هذه القضية متوافقة ، وأن كثرتها تخطف البصر وتستأثر بالانتباه . ولكن هلاً حملتم أنفسكم عناء تحميم كل واقعة من هذه الوقائع في ذاتها على حدة ، دن أن تهتموا بتوافقها ؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال انه انصرف عن نافذة أبيه ؟ تذكروا الأسلوب الساخر المتهم الذي استعمله السيد وكيل النيابة حين تكلم في هذا الموضوع فأشار الى مشاعر الاحترام وعواطف الفضيلة التي

اجتاحت نفس القاتل على حين فجأة • أى عجب فى أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، أى فى أن يكون المتهم قد استيقظت فى نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترام بالضرورة ، ولكنها مشاعر فضيلة • لماذا يكون هذا مستحيلاً ؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق : « لا بد أن تكون أُمى قد تشفعت لى فى تلك اللحظة » • فالتهم قد هرب اذن منذ أدرك أن السيدة سفيثلوا ليست فى صحبة أبيه • فان ردت النيابة على هذا قائلة : « ما كان المتهم ليستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من النافذة » ، قلت لم لا ؟ لقد فتحت النافذة بعد أن قرع المتهم النافذة بالإشارات المتفق عليها • ومن الجائز أن يكون فيدور بافلوفتش قد أفلتت منه فى تلك اللحظة كلمات أو صرخات استتج منها المتهم أن السيدة سفيثلوا ليست فى المنزل • لماذا هذا الاصرار على تأويل الوقائع تأويلاً يتفق وما تخيلته النيابة أو ما جهدت أن تتخيله ؟ ان الواقع يشتمل فى كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها ، احتمالات تعيب عن أدق الروايتين ملاحظة وأنفذهم رؤيه • رب معترض يقول : « طيب ، ولكن هذا لا ينفى أن جريجورى قد رأى الباب مفتوحاً ، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل ، وعلى أنه اذن قد قتل • » • ها نحن أولاء وصلنا الى حكاية الباب هذه ، يا سادتي المحلّفين • تعلمون يا سادتي المحلّفين أن هناك شخصاً واحداً يزعم أنه رأى الباب مفتوحاً ، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ فى حالة خاصة ، كان فى حالة ••• ولكن لا داعى الى الالحاح ••• لنسلّم جدلاً ، اذا كنتم تحرصون على ذلك ، بأن الباب كان مفتوحاً ، وبأن المتهم قد كذب فى هذه النقطة أثناء التحقيق ، يدفعه الى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه ، وهو أمر مفهوم فى مثل وضعه • لنسلم جدلاً بأنه دخل البيت ، نعم ، لنسلّم جدلاً بذلك • فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل ؟

ان من الممكن أن يكون قد اقتحم البيت ، وطاف بالغرف راكضاً ، ودفع أباه بل وربما ضربه أيضاً • فلما ثبت له بعد ذلك أن السيدة سفينتلوفا ليست في الدار ولى هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه • ولئن قفز الى الحديقة مرة ثانية بعد ذلك بدقائق فمال على المسكين جريجورى الذى صرعه فى لحظة من غضب شديد ، فانه لم يغفل ذلك الا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة ورحمة بسبب أنه انتصر على اغراء قتل أبيه ، فكان قلبه يفيض فرحاً وصفاء وبراعة • ان السيد وكيل النيابة قد وصف لنا ، ببلاغة مظلمة قائمة ، الحالة النفسية التى لا بد أنها كانت حالة المتهم فى موكرويه ، حين أدرك أن السعادة والحب يعرضان له ، ويناديانه الى حياة جديدة ، بينما كان محظوراً عليه أن يحب ، لأنه خلف وراءه جثة أبيه الدامية ، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذى لا مناص منه • ولكن السيد وكيل النيابة قد سلم مع ذلك بأن الحب قد تكلم فى قلب المتهم ، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة معتمداً على تحليلات سيكولوجية مرهفة ، فقال : « هذه حالة تشبه السكر ، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد الى ساحة الاعدام ، فيحدث نفسه قائلاً ان الطريق ما يزال طويلاً ، الخ » • ولكننى أتوجه الى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال : « ألم تخلق هنا شخصية روائية من صنع الخيال ؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعة تبلغ من قلة الاحساس وشدة الاستخفاف والاستهتار أنه يستطيع ، بعد أن سفك دم أبيه ، أن يفكر فى الحب وأن يبنى خططاً مآكرة للدفاع عن نفسه ؟ كلا ثم كلا ! انى لا أتردد لحظة واحدة عن أن أهتف قائلاً : كلا ثم كلا ! انى لأحلف بأغلظ الأيمان على أن المتهم ، حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه ، وحين رآها تناديه الى حياة جديدة هائثة ، كان لا بد أن يشعر برغبة فى الانتحار لا تغالب ولا تقاوم ، وكان سينتحر حتماً ،

لو أن ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً ! وما كان لينسى عندئذ
 أين وضع مسميه ! اننى أعرف المتهم : ان ما ينسبه اليه جانب الاتهام
 من فسوة القلب وقلة الاحساس يناقض طبيعته . لو كان المتهم آمناً
 لانتحر حتماً ، هذا محقق ! واذا كان لم ينتحر فلأن « أمه قد تشفعت له »
 فلم يسفح دم أبيه ؛ واذا ظل يتعذب طوال تلك الليلة في موكرويه ، واذا
 ظل يلوم نفسه ويؤاخذها ، فان ذلك لم يكن الا بسبب جريجورى الذى
 كان المتهم قد صرعه ، فكان المتهم لا ينفك يسأل الله صامتاً أن يعود ذلك
 العجز الى الحياة ، وأن لا تكون ضربة المدق قد قضت عليه ، وأن ينجو
 هو نفسه من العقاب . لماذا نرفض تأويل الوقائع على هذا النحو ؟ ما الذى
 يبرهن لنا على أن المتهم يكذب ؟ رب سائل يسأل : « وجثة الأب ؟ اذا
 كان المتهم قد هرب دون أن يقتل فمن ذا الذى قتل اذن فيسودر
 بافلوفتش ؟ » .

« أعود فأقول : ان كل المنطق الذى يستند اليه الاتهام هو هذا .
 من ذا الذى قتل ، اذا لم يكن المتهم هو القاتل ؟ ... يُقال لنا : انه من
 المستحيل علينا أن نعثر على قاتل آخر . فهل هذا صحيح يا سادتى
 المحلّفين ؟ هل يستحيل حقاً أن نسب هذه الجريمة الى أشخاص
 آخرين ؟ لقد سمعنا السيد وكيل النيابة يحصى جميع من كانوا فى المنزل
 ليلة وقوع الجريمة . انهم خمسة اشخاص ، منهم ثلاثة يجب استبعادهم
 من القضية فوراً : المجنى عليه ، وجريجورى ، وامرأته . لم يبق اذن
 الا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هما المتهم وسمردياكوف .
 وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة : لئن عمد المتهم الى
 تسمية سمردياكوف قاتلاً ، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف
 يستطيع أن يشى به ؛ فلو كان هناك شخص سادس ، بل طيف شخص
 سادس يمكن اتهامه بالقتل ، اذن لأسرع يترك اتهامه لسمردياكوف

محمراً الوجه من الخجل ، ولمضى يتهم ذلك الشخص السادس على الفور • ولكن ما الذى يمنعنى يا سادتى المحلّفين من أن أقلب هذا الدليل ؟ هناك شخصان لا ثالث لهما : المتهم وسمردياكوف • أفلا يجوز لى أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلى الا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون اليه التهمة ؟ ولكن لئن لم تجدوا شخصاً آخر توجهون اليه الاتهام فما ذلك الا لأنكم قد تحيزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعة واحدة ، فاستبعدتم كل شبهة حوله ، ورفضتم كل شك فيه •

صحيح أن أحداً لم يسمّ سمردياكوف قاتلاً ، الا المتهم وأخويه والسيدة سفيتلوف • غير أن هناك شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه • ان شائعات غامضة تجرى فى المدينة عنه ، ان أسئلة وشبهات لا يفصح الناس عنها تدور فى الخواطر حوله ، ان قلقاً مبهماً يساور الأنفس ويستحيل الى توقع عام وانتظار شامل • ثم ان هناك وقائع مقلقة تشهد عليه رغم غموض دلالتها : من ذلك أولاً نوبة الصرع تلك التى وافته فى يوم وقوع الكارثة نفسه ، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه - لا أدرى لماذا - أن يهتم اهتماماً كبيراً بالألحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تحليلها • ومن ذلك ثانياً انتحار سمردياكوف عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه أحد • ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التى لم يكن يتوقعها أحد أيضاً ، أعنى شهادة أخى المتهم ، ايفان فيدوروفتش ، الذى ظل الى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل ، فاذا هو يجيء اليوم الى المحكمة حاملاً المال المسروق قاتلاً ان سمردياكوف هو القاتل ! صحيح أننى أشاطر المحكمة والنيابة العامة رأيها فى حالة الشاهد النفسية • فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً بأن ايفان كارامازوف مريض ، وأنه مصاب بنوبة حمى حارة ، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصورها وهو فى حالة هذيان فى سبيل أن ينقذ أخاه بالقضاء الجريمة على عاتق رجل

• مات ولكن هذا لا ينفى أن اسم سمردياكوف قد ذكر في هذه المناسبة مرة جديدة ، مع كل ما يرتبط بذكر اسمه هذا من أمور توشك أن تكون الغزاً ، فكأن هناك ، يا سادتي المحلّفين ، أشياء لم تُذكر الى آخرها فيما يتعلق بهذا الرجل ، وكأن الملاحظات التي قيلت في حقه لم تكمل بعد ، ولعلها تكمل فيما بعد • ولكن ما ينبغي أن نستبق الأمور • لقد قررت المحكمة منذ قليل متابعة المناقشات ، ففى وسعى ، ما دما الآن فى انتظار ذلك ، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصوص المرحوم سمردياكوف التي صورها لنا السيد وكيل النيابة بكثير من البراعة والرهافة والموهبة • اننى على اعجابى بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن فى رسم تلك اللوحة النفسية ، لا أستطيع أن أشاطره رأيه فى هذا الرجل مشاطرة تامة • لقد ذهبت الى سمردياكوف ، رأيت وتحدثت معه ، فترك فى نفسى صورة تختلف عن الصورة التي رسمها لنا السيد وكيل النيابة • لا ، ان سمردياكوف ليس ذلك الشخص الضعيف الذي وصفه لنا الادعاء • اننى لم أجد فيه أثراً من ذلك الوجع الهلوع الذي تكلم عنه السيد وكيل النيابة بالحاح شديد • أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده البتة • بالعكس : لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً خبيثاً ، وان تدثر هذا الحذر وهذا الدهاء بمظاهر سذاجة مصنوعة ، كما لاحظت فيه ذكاء قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة • سادتي المحلّفين ، فى رأى أن السيد وكيل النيابة قد تسرع قليلاً حين ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل • لقد خلّف سمردياكوف فى نفسى شعوراً واضحاً كل الوضوح : تركته مقتنعاً بأنه انسان تفيض نفسه شراً وخبثاً ، وحقداً وحسداً ، وغروراً وميلاً الى الانتقام • ومن جهة أخرى ، فقد جمعت بعض المعلومات عنه : لقد كان يكره أصله ، ويحمر خجلاً منه ، ويكره أسنانه غضباً حين يذكر أنه ابن امرأة « تنّة » • وكان يسىء معاملة

الخدم جريجورى وامراته اللذين أحسنا اليه وانعما عليه فى سننى طفولته . وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها ويستهزئ بها ، وكان حلمه هو أن يسافر الى فرنسا وأن يصبح فرنسياً . وكثيراً ما كان يقول انه يحتاج الى مالٍ من أجل أن يرحل . وأعتقد أنه كان لا يحب الا نفسه ، وكان يقدر نفسه فوق قدرها كثيراً . كان يعد نفسه رجلاً مقفلاً لأنه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة ويتعل حذاءين لامعين . واذ كان يعد نفسه ابناً غير شرعى لفيدور بافلوفتش (ذلك أمر تتبته الوقائع أيضاً) ، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع أبناء مولاد الشرعيين قد أورثه مرارة وحقدآ : كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا ، وكان هو لا يتمتع بأية مزية . كانوا يملكون جميع الحقوق وكانوا يستطيعون أن يرثوا أباهم ، أما هو فلم يكن الا طباحاً . لقد أسرّ الى أنه ساعد فيدور بافلوفتش فى ايداع المال فى الطرف . والهدف الذى نذر له هذا المبلغ - وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه فى تحقيق أغراضه - لا بد أن يكون قد أثار فى نفسه غيظاً شديداً . ثم انه رأى فى تلك اللحظة ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا عامداً) ، وأنتم تعلمون، يا سادتى ، أنه ما ينبغى لنا أن نلأىء مبلغاً ضخماً أمام عينى انسان حسود مغرور ؟ وكانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يرى مالاً يبلغ هذا القدر من الضخامة فى يدى شخص واحد . فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة من الأوراق النقدية الجديدة قد أحدثت فى نفس هذا الرجل شعوراً مرضياً دون أن يترتب على ذلك شىء فى بداية الأمر . ان السيد وكيل النيابة الذى نعجب بموهبته كل الاعجاب قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التى يمكن اللجوء اليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل ، وقد ألحَّ خاصةً على هذا السؤال : لأى سبب كان يمكن أن يصطنع سمردياكوف نوبة الصرع تظاهراً

وكذباً؟ ولكن سمردياكوف لم يكن في حاجة الى ذلك التظاهر ، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً من تلقاء نفسها ، ومن الجائز ان تكون قد زايلته على ذلك النحو نفسه أيضاً . من الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته وثاب الى وعيه . صحيح أنه لا يكون قد شفى عندئذ من مرضه ، ولكن كان لا بد أن يعود اليه شعوره عاجلاً أو آجلاً ، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع . ان الادعاء يسأل : في أية لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل ؟ الحق ان الجواب عن هذا السؤال يسير جداً ، فما أسهل أن نعيّن تلك اللحظة . فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد ثاب الى وعيه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائماً فقط ، فان نوبات الصرع يعقبها دائماً نوم عميق) ، في تلك اللحظة نفسها التي تشبث فيها العجوز جريجورى بساق المتهم (حين كان هذا يحاول أن يهرب من فوق السياج) فصرخ يقول معولاً بصوت حاد ملء حنجرتة : « يا قاتل أبيه ! » . فمن الجائز أن تكون هذه الصرخة الحارقة التي دوت في صمت الليل قد أيقظت سمردياكوف من نومه الذي لعله لم يكن عندئذ عميقاً كل العمق ، لأن سمردياكوف لا بد أن يكون قد أخذ يفيق منذ ساعة ؛ فلما نهض اتجه على غير شعور منه ، وبدون أية نية معينة ، الى الجهة التي جاءت منها الصرخة . وكانت أفكاره ما تزال مبهمه ، وكان خياله ما يزال وسان . ولكن ها هو ذا يصل الى الحديقة ، وها هو ذا يقترب من النافذة المضاءة ، فاذا هو يعلم بالنبأ الرهيب من فم مولاه نفسه ، الذي اغتبط لرؤيته طبعاً ؛ واذا بفكرة الجريمة تثبت في رأسه فجأة . لقد أطلعه مولاه المدعور على ما جرى . وها هي ذى الفكرة التي نبتت في رأسه المريض المشوش تظهر الى النور واضحة المعالم بينة الحدود . انها فكرة رهيبه ولكنها مغرية يؤيدها منطق

لا يرحم : وهى أن يقتل العجوز ويستولى على الثلاثة آلاف روبل ، ثم يلقي الجريمة بعد ذلك على عاتق ابن القليل ! من ذا الذى يمكن أن يُشتبه فيه الآن ، من ذا الذى يمكن أن يُتَّهم ، غير هذا الابن الذى تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة ؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات ؟ من الجائز اذن أن تكون قد استبدت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبية الى السطو على المال ، وظماً شديداً الى الاستيلاء على الغنيمة ، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب . ألا اتنا لنعرفها ، هذه الاندفاعات المفاجئة القاهرة التى تشب فجأة فى نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة فى معظم الأحيان لا يخطر ببالهم ولا يدور فى خلدتهم أنهم سيقتلون . من الجائز اذن أن يكون سمردياكوف قد دخل الى غرفة مولاه ، ونفذ خطته . فاذا سألتمونى ما هو السلاح الذى استعمله فى القتل ، قلت ان من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه فى الحديقة ؟ واذا سألتمونى ما هو الهدف الذى قتل من أجله قلت انه تلك الثلاثة آلاف روبل التى يمكنها أن تؤمن مستقبله ! لا ، لا ، انى لا أناقض نفسى : فمن الجائز أن يكون المال موجوداً . ومن يدري ؟ لعل سمردياكوف هو الشخص الوحيد الذى كان يعرف المخبأ الذى أخفى فيه مولاه المال . رب معترض يقول : « والظرف ؟ الظرف الممزق الملقى على أرض الغرفة ؟ » ، فأجيب قائلاً : ان السيد وكيل النيابة قد أورد فى موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غاية الدقة والرهافة ، وهى أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة الا لص يقوم بفعل السرقة عرضاً ، وليس له خبرة سابقة أى لا يمكن أن يتركه الا لص مثل كارامازوف ، أما رجل مثل سمردياكوف فما كان له بحال من الأحوال أن يرتكب مثل هذه الغفلة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون قرينة قاطعة ودليلاً دامغاً على أنه هو الفاعل . سادتى المحلِّفين ، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدى

هذه الملاحظة الدقيقة المرهفة أحسست أنني أسمع صوت جرس معروف عندى مألوف لى • تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذى يمكن أن يسلكه كارامازوف فيما يتصل بهذا الطرف ، تصوروا أن هذه الفكرة قد عرضها لى ، منذ يومين ، شخص ليس الا سمردياكوف نفسه • وعدا ذلك ، فان وضعه فى تلك اللحظة قد خطف انتباهى ، فشعرت شعوراً واضحاً بأن سذاجته متصنعة كاذبة ، وأنه انما كان فى حقيقته الأمر يسبقنى فيوحى الىّ بهذه الفكرة بغية أن تتجسد فى نفسى بعد ذلك ، فأستخرج منها النتائج التى يريد أن يبثها بهذه الطريقة فى ذهنى • أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لقّن قاضى التحقيق هذه الفكرة أيضاً ؟ أفلا يمكن أن يكون قد انتبها خلصةً فى فكر السيد وكيل النيابة الذى يمتاز بمواهب عظيمة ؟ رب قائل يقول : ولكن العجوز زوجة جريجورى قد ظلت تسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاثة خطوات من سريرها طوال الليل ! لست أنكر أنها سمعت أنينه ، ولكن هذه الحجة من أوهى الحجج • عرفتُ سيدة شكت يوماً بكثير من المرات من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم ، وأكدت هذه السيدة أن جفنها لم يغمض • وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح فى الواقع الا مرتين أو ثلاث مرات متباعدة جداً • ان أمثال هذه الأخطاء طبيعية : هذا انسان نائم يسمع أنيناً فيصحو حانقاً لأنه أوقف من نومه ؛ ثم ما يلبث أن يعود ينام فوراً ؛ وتنقضى على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات ، فاذا بأنين جديد ينطلق ، فيستيقظ الرجل ثم يعود ينام كما فى المرة السابقة ؛ وبعد عدة ساعات أخرى يوقظه أنين ثالث ، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثاً لا أكثر • ولكن صاحبنا ، حين يستيقظ فى الصباح ، سيشكو من أن أنيناً متصلاً غير منقطع قد حرمه من النوم طوال الليل • ولا بد أن يحس هذا الاحساس حتماً ، لأنه لن

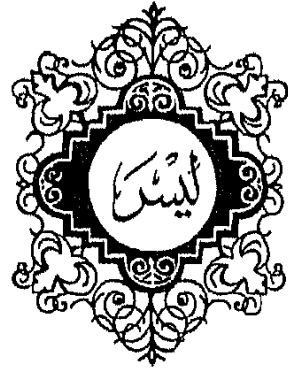
يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التي كان أثناءها نائماً ، ولن يحتفظ الا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة • لذلك سيتخيل أنه أوقف ايضاً متصلاً غير منقطع • وقد هتف السيد وكيل النيابة سائلاً : « ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته في الكلمة التي كتبها قبل موته ؟ أيكون عنده من الضمير ما يكفي لحملة على الانتحار ، ثم لا يكون عنده من الضمير ما يكفي لحملة على الاعتراف ؟ » • هنا أففكم لأقول : ان الضمير يتضمن الندم • ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأي ندم حين انتحر ، ولعله لم يختر هذا المخرج الا يأساً وقنوطاً • ان الندم واليأس شيان اثنان يختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف • فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما ؟ وحين ينتحر سمردياكوف فانه يستطيع أن يكره مزيداً من الكره أولئك الذين ظل يحسداهم طوال حياته • سادتي المحلّفين ، اياكم والخطأ القضائي ! هل في هذا التأويل الذي أضعه بين أيديكم شيء يخالف العقل ويجافي الاحتمال ؟ دلّوني على خطأ واحد فيما عرضته لكم ، دلّوني على استحالة واحدة ، أو بطلان واحد ! ولكن اذا كان هذا الافتراض الذي بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال ، ولو على ظل امكان أو جواز ، كان عليكم أن تمنعوا عن اصدار حكم يدين المتهم • فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظل حقيقة ! ألا اننى لأحلف لكم بكل ما أقدسه في هذا العالم على أننى ، من جهتي ، مقتنع اقتناعاً عميقاً بصدق تأويل الوقائع على النحو الذي وصفت • وانى لأشعر باضطراب شديد وقلق عظيم يخرجاني عن طورى حين تراودنى هذه الفكرة التي تلاحقنى وتطاربنى بغير انقطاع ، وهي أنه ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التي جمعها الادعاء قرينة واحدة يمكن أن تعدّ واضحة ، ويمكن أن تصمد للتنفيذ والدحض • ان اجتماع هذه القرائن بعضها الى بعض هو الشيء الوحيد الذي يوشك أن يكون سبباً في هلاك

انسان • أنا أعلم ان اجتماع هذه القرائن رهيب : ذلك الدم السائل من
يدي المتهم ، ذلك القميص الملوث بالدم ، تلك الصرخة التي دوّت في
ظلام الليل قائلة : « يا قاتل أبيه ! » ، وسقوط الرجل الذي أطلق تلك
الصرخة ، سقوطه على الفور مهشّم الجمجمة ، ثم جميع تلك الشهادات
المتوافقة التي أدلى بها الشهود ، وجميع تلك الحركات والصيحات التي
صدرت عن المتهم ••• آه ••• ان ذلك كله يمكن أن يؤثر في الفكر
وأن يولد اقتناعاً خطأ ••• ولكن لا في عقولكم أنتم يا سادتي المحلّفين ،
لا في عقولكم أنتم ، فما أنتم بمن يمكن تضليلهم على هذا النحو • تذكروا
أنكم تملكون سلطةً لا حدود لها ، وأنكم قد أُعطيتم حق العقد والحل •
وعلى قدر السلطة انما تكون المسؤولية ! اننى لا أتراجع عن حرف واحد
مما قلته ، ولكن فلنسلم جدلاً ، خلال دقيقة ، بالرأى الذي يذهب اليه
الادعاء حين يزعم أن موكلى قد غمس يديه بدم أبيه • أكرر أن هذا
افتراض ، فأنا لا أشك لحظة واحدة في براءة موكلى • ولكننى اتنازل
هذا التنازل ، فاسلم جدلاً بأن المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب • ألا
فاسمعوا اذن ما أحب أن أقوله لكم حين أسلّم جدلاً بهذا الافتراض •
اننى أحرص على أن أكلمكم بصراحة في هذه النقطة ، لأننى أحس
وأقدّر أن معركة تنشب الآن في نفوسكم وعقولكم ••• سادتي
المحلّفين ، اغفروا لى هذا الدخول الذى لا حقّ لى فيه ، الى مشاعركم
الصميمة • فقد آليت على نفسى لأبقينّ مخلصاً وصادقاً الى النهاية •
نعم ، يا سادتي المحلّفين ، لكن جميعاً مخلصين صادقين ! ••• » •

هنا قطع مرافعة الدفاع تصفيقٌ متصل • ذلك أن المحامى قد نطق
هذه الكلمات الأخيرة بلهجة فيها من الصدق ما جعل جميع الناس

يشعرون بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً ، وأن ما سيعبر عنه الآن هو جوهر القضية فعلاً • ولكن رئيس المحكمة ما ان سمع التصفيق حتى علا صوته مهدداً باخلاء القاعة اذا « تكرر شيء من هذا مرةً أخرى » • فعاد الجميع الى الصمت ، واستأنف فيتوكوفتشس مرافعه بصوت تغيرت نبرته على حين فجأة وأصبح نافذاً قاطعاً يختلف اختلاف التعارض والتناقض عن اللهجة التي تحدث بها حتى ذلك الحين •

١٣ سفسطائي



اجتماع الوقائع وحده هو الظرف المشثوم الذى
يدين موكلى * لا يا سادتى المحلّفين ، وانما تدينه
فى الواقع جثة أبه ! فلو كانت جريمة القتل
هذه جريمة عادية ، لترددتم كثيراً أمام هذه
الوقائع التى تفقد قيمتها وتصبح غير معقولة ولا محتملة متى 'محصت كل
واحدة منها على حدة بدلاً من النظر إليها فى مجموعها ، ولتراجعتم أمام
افتقاد الأدلة والبراهين ، ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة ؛ أو لرفضتم على
الأقل أن تدمروا مصير انسان بسبب ما قام فى الأذهان من رأى سىء
فيه ، وهو رأى يستحقه فى الحقيقة واأسفاه ! ولكن الجريمة ليست
جريمة عادية * وانما هى جريمة قتل ابن أباه ! فهذا الظرف يؤثر
فى النفوس والعقول تأثيراً يبلغ من القوة أنه يضفى على أتفه الأدلة
وأوهن القرائن خطورة خارقة، فاذا الضمائر لا يقلقها عندئذ أن يستحيل
البرهان القاطع على أن المتهم هو الجانى * هل يخطر ببال أحد أن يبرىء
مجرماً من هذا النوع ؛ ان الفكر يرفض أن يسلم بأن هذا المتهم يمكن
أن يبرأ * كيف يرتكب جريمة كهذه الجريمة ثم يخرج منها سليماً ؛
تلك فكرة تثير النفوس * هذا ما يحسه كل انسان فى قرارة نفسه ، على
غير ارادة منه تقريباً * نعم ، انه لشيء رهيب أن نسفح دم أب ، دم

انسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه ، دم رجل لم يدخر في سيلنا وسعاً ، وكان في طفولتنا يتألم اذا مرضنا ، ولم يفكر طوال حياته الا في سعادتنا ، ولم يعتد طوال حياته الا بما نشعر به من أفراح وما نصيبه من نجاح ! أن يقتل امرؤ أباً كهذا الأب ، فذلك يا سادتي شيء لا يتصوره العقل ؛ ولعل الخيال يرفض أن يصدق وقوع جريمة كهذه الجريمة . ما الأب يا سادتي المحلفين ؟ ما الأب الحق ؟ ماذا تضمه هذه الكلمة من معنى عظيم يهز قلوبنا ، ما هي الدلالة الرفيعة الهائلة التي تختفي في اسم الأب هذا الذي يستأثر باحترامنا جميعاً ؟ لقد وصفنا منذ هنيهة ، ولو وصفاً ضعيفاً ما يمكن وما يجب أن يكونه أب حقيقي ، فهل كان فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وهو الضحية في هذه القضية التي تشغلنا وتدمي قلوبنا ، هل كان ينطبق على هذا المثل الأعلى الذي رسخ في أعماق نفوسنا عن الأبوة ؟ ذلك شقاء يا سادتي . ان بين الآباء من هم كارثة . فلننظر في هذه المسألة من قرب ، لأننا يجب أن لا نخشى شيئاً وأن لا نتراجع أمام شيء ، يا سادتي المحلفين ، فان القرار الذي ينتظر الناس منكم أن تتخذوه قرار بالغ الخطورة . يجب علينا أن لا نهاب مجابهة الواقع وجهاً لوجه ، ويجب علينا أن لا نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة ، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الجميل الذي استعمله رجل القضاء اللامع الذي استمعتم الى خطابه منذ قليل . على أن خصمى المحترم (ولقد كان خصماً لي حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) قد هتف عدة مرات يقول انه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم ، وانه لن يتكل في أمر الدفاع عنه على المحامي الواقد من سان بطرسبرج ، وانه سينهض بمهمتي المدعى والمدافع في آن واحد . لقد نادى بذلك عدة مرات . ولكنه نسي أن يذكر أن هذا المتهم المقيت قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعاطفة الشكر وشعور

الامتنان بسبب رطل من بندق أهدها عليه رجل كان هو الانسان الوحيد الذى دلتله فى منزل أبيه • وفى مقابل ذلك لم يكن فى وسع المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر أن يركض أثناء طفولته حافى القدمين فى الفناء الخلفى من المنزل ، « مرتدياً سروالاً لا يمسكه الا زر واحد » ، كما ذكر لكم الدكتور هرتسنشتوبه الطيب الشهم الرحيم • انى لأسألكم يا سادتى المحلّفين هل من اللازم حقاً أن تتلبث طويلاً على الكلام عن هذه « الكارثة » الأبوية ، وأن نلجّ على أمور يعرفها جميع الناس قبل الآن ؟ أىّ استقبال لقيه موكلى حين جاء الى هذه المدينة ليزور أباه ؟ لماذا ، نعم لماذا هذا الاصرار العنيد على تصوير موكلى فى صورة رجل عديم الاحساس ، أنانى الطبع ، شاذ الخلقه ؟ هو عنيف مندفع ، هو متوحش صخّاب ، وبسبب هذا انما نحكم عليه اليوم • ولكن من المسئول عن مصيره ، وعلى من يقع الذنب اذا هو ربّى تربيةً يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه ورقة قلبه ؟ هل تولى أحد فى يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يتقف عقله ، بأن يكشف له عن جمال العلم ؟ هل مال عليه أحد فى حب وحنان أثناء سنى طفولته ؟ لقد شب موكلى فى رعاية الله وحده ، شبّ كحيوان متوحش • لعله كان ظامئاً الى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها ، ولا بد أنه طرد من خياله مائة مرة قبل ذلك ، الأشباح المقيتة التى ملأت أيام طفولته والتى كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم ثقيل ، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح مائة مرة فى سبيل أن يغفر لأبيه بكل نفسه. ولقد أسرع بحتضن أباه بذراعيه • ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أن تلقاه بالسخرىات والأمازيح المستهتره عجوزٌ شكاك ريبّاب، لا يخشى على شىء كما يخشى على مال الميراث • ولا بد أن الشاب قد شهد محادثات كان المتوفى يعرض فيها فلسفته فى الحياة وهى فلسفة تثير فى نفوسكم التقزز وكان العجوز

يسطها وهو يشرب أقداحاً صغيرة من الكونياك + وزاد الطين بلةً في آخر الأمر أن رأى أباه يحاول أن يسلمه حبيته ، هو ابنه ، مستعملاً في ذلك مالاً يعده الشاب ماله . آه يا سادتي المحلّفين ، ذلك كله رهيب قاسٍ الى أبعد الحدود . وكان العجوز فوق ذلك هو الذى يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام له والعاطفة نحوه ، وكان لا يتردد عن التشهير به فى المجتمع ، والاساءة اليه بالنمائم والوشايات ، وشراء سندات ديونه لايداعه السجن ! سادتي المحلّفين ، ان الرجال الذين هم من طينة موكلى ، ان هؤلاء الرجال الذين يدل ظاهراً على العنف والقسوة والاندفاع ، يملكون فى أكثر الأحيان قلباً رقيقاً الى أبعد حدود الرقة ، ولكن نوعاً من الحياء يمنعهم من اظهار ذلك . تلك حالة شائعة جداً . آه . . . لا تسخروا من هذا الشرح الذى أقدمه اليكم عن طبعه وخلقه! ان السيد وكيل النيابة الذى أُعجبُ بمهنته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة ولا رحمة على المتهم وعلى ميله الى شيلر ووجهه للأمور « النيلة الرفيعة » . ولو كنت فى مكان السيد وكيل النيابة لامتنعت ، عند القاء مطالعة النيابة ، عن الاستهزاء بما يجيش فى نفس المتهم من صبوات عليا وأشواق سامية . ان النفوس التى من هذا النوع - واسمحوا لى يا سادتي أن أدافع عن أمثال هذه النفوس التى ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً بغير حق ! - أقول ان النفوس التى من هذا النوع كثيراً ما تكون ظمأى الى الحنان والجمال والطهارة ، كأنما تبحث بذلك عن ملجأ يقيها من عنفها نفسه ويجنبها قسوتها نفسها . قد تكون هذه الصبوات وهذه الأشواق لاشعورية ، ولكنها مع ذلك عارمة قوية . ان هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهراً على جموح الهوى وقسوة القلب ، قادرون على الحب الى درجة الألم ، قادرون على أن يحبوا امرأةً حباً روحياً سامياً الى أقصى حدود الروحية والسمو . لا ، لا ، لا تضحكوا

يا سادتي ! فذلك ما يحدث ، دائماً على وجه التقريب ، لدى الطبائع التي تشبه طبيعة هذا الرجل . والبلاء كله في هذه الطبائع أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التي تكون في بعض الأحيان عنيفة فظة ؛ وما يخطف بصراً الناس فيها هو ما يُلاحظ من ظاهر سلوكها ، أما حياتها النفسية الداخلية فتبقى خافية عن الأبصار لا يراها أحد . ومع ذلك فإن أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة ، فاذا الرجل الذي كان يُظن أنه عديم الاحساس ، وأنه فظ غليظ ، اذا هو يحاول أن يجدد نفسه وأن يجدد حياته قرب انسان نبيل طاهر متمنياً اصلاح حاله بالاتصال به ، آملاً أن يصبح طاهراً هو أيضاً . « النبل والسمو » . . . آه . . . فيم الاستهزاء بهاتين الكلمتين ؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أنني لن أجزى لنفسي أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع الأنسة فرخوفتريفا . ولكن يجب أن يباح لي مع ذلك أن أشير الى هذه القصة اشارة سريعة مقتضبة . ان ما سمعناه في هذه القاعة المغلقة لم يكن شهادة شاهد ، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعرت حنقها وجنّ جنونها ! لا ، ما هي بالتي كان يحق لها أن تتهم موكلي بالحيانة ، لأنها هي التي خاتته في الواقع ! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً ، اذن لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة . لا تصدقوها يا سادتي . ليس موكلي بالرجل الذي وصفته الأنسة فرخوفتريفا بأنه « سيّطان رجيم » . ان المصلوب الذي كان يحب بني الانسان قد هتف يقول وهمو يصعد التل الذي نصب عليه الصليب : « أنا الراعي الصالح الذي يبذل حياته في سبيل خرافه . فلن يهلك واحد من الخراف » * ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك نفساً انسانية ! لقد سألت منذ هنيهة : ما الأب ؟ وهتفت أقول : هذه كلمة كبيرة ، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر في القلب الى غير حد . ولكن يحسن المرء أن يكون صادقاً أميناً فيما يقول يا سادتي المحلفين ؛ ولهذا سأسمح لنفسي أن أسمى الأشياء بأسمائها فأقول : ان

رجالاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق في أن يسمى أباً ، لأنه غير جدير بهذا الاسم . ان حب الابن أباه يصبح سخفاً باطلاً حين لا يسوّغه خُلُق الأب . ان مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل . ما كان للحب أن يقوم على العدم ، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم . ان الرسول بولس الذي كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقول : « وانتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم » * . اننى أبيع لنفسي أن أستشهد بهذه الآيات المقدسة لا لأننى أفكر فى موكلى فحسب ، وانما أنا استشهد بها متجهاً الى جميع الآباء . من الذى وهب لى حق أن أعظمهم بما يقع على عاتقهم من واجب ؟ لا أحد ! ولكننى أناديهم بصفتى انساناً ومواطناً ! ان اقامتنا على هذه الأرض قصيرة ، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة ، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة . فيحسن بنا لهذا السبب أن نتنهد دقيقة كهذه الدقيقة التى تجمعنا فى مكان واحد ، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات خيرة طيبة تواسى القلب وتشد الأزر وتقوى العزيمة . وذلك ما أفعله الآن : اننى أهتبل الفرصة لأخاطبكم جميعاً . ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنا هذا المنبر : ان الكلمات التى ننطق بها هنا تسمعها روسيا كلها . فالى جميع الآباء انما اتجه اذن بالكلام ، لا الى الآباء الحاضرين فى هذه القاعة ، فحسب ، فأهتف قائلاً : « وانتم أيها الآباء ، لا تغيظوا أولادكم ! » . يجب علينا أن نطبق نحن أولاً تعاليم المسيح ، وبعد ذلك انما يحق لنا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها . فاذا لم نفعل ذلك لم نكن آباء ابنائنا بل كنا أعداءهم ، وسيصبحون اعداءنا هم أيضاً ، سيصبحون اعداءنا بسبب خطئنا نحن . « بالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » * . لست أنا من يقول هذا الكلام ، وانما يقوله الانجيل : كيلوا بالكيل الذى يكال به لكم . فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنا بالكيل الذى نكيل لهم به ؟ لقد وقع فى فنلندا ،

في الآونة الأخيرة ، أن اشتبه الناس في امرأة خادمة واعتقدوا أنها ولدت ولداً . فأخذوا يراقبونها فاكتشفوا في عنبر المنزل حقيبة لها كانوا يجهلون وجودها ، وقد أُخفيت الحقيبة في ركن من العنبر وراء بعض القرميدات . فلما فتحو الحقيبة وجدوا فيها جثة طفل وليد ، ووجدوا في الحقيبة أيضاً هيلكين عظيمين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما من قبل فقتلتهما فور ولادتهما ، وذلك ما اعترفت به هي نفسها . فهل نستطيع يا سادتي المحلفين أن نسمى تلك المرأة أمّاً ؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الأولاد ، ولكن هل كانت أمهم حقاً ؟ هل يجرؤ أحد منا أن يسبغ عليها هذا اللقب المقدس ، لقب الأم ؟ ألا فانتجمل بشجاعة الفكر يا سادتي المحلفين ! ألا فلنكن جسورين بل ومتهورين في هذا الأمر ، لأن من واجبنا في هذه اللحظة أن لا تنهيب بعض الألفاظ وأن لا نخاف بعض الأفكار ، وأن لا نكون شبيهين ببائعات موسكو أولئك اللواتي يؤمن بالحرافات ، فيخشين كلمتي « معدن » و « كبريت » * بالعكس : يجب أن نبرهن على أن التقدم الذي تحقق في هذه السنين قد شمل تطورنا الروحي الأخلاقي . يجب أن نعلن بغير تردد أنه ليس يكفي المرء أن ينسل نسلًا حتى يكون أباً ، وإنما ينبغي له أن يستحق شرف هذا الاسم . أنا أعلم أن هناك رأياً مختلفاً عن هذا الرأي ، أن هناك فهماً آخر لمعنى كلمة الأب ، هو أن أبي يظل أبي ولو كان شيطاناً رجيماً ومجرماً عاتياً في حق أولاده ، وذلك يا سادتي لمجرد أنه أوجدني . ولكن هذا التصور تصور غيبي ان صح التعبير ، تصور لا يستطيع أن يدركه العقل ، ولا يمكن قبوله الا على أنه عقيدة وإيمان ، مثله كمثل كثير من الأمور التي لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها . ومثل هذا التصور يبقى عندئذ في خارج الحياة الواقعية . أما في واقع الحياة الذي لا يشتمل على حقوق فحسب ، بل يفرض علينا

واجبات أيضاً ، فانه ينبغي لنا ، اذا أردنا أن نكون انسانيين واذا أردنا أن نتصرف تصرف مسيحيين ، أن نقصر على أفكار يؤيدها العقل وتدعمها التجربة ، أفكارٍ مرت بوثقة التحليل المنطقي ؛ أى ينبغي لنا أن نتصرف تصرف بشر عقلاء ، لا تصرف أناس طاشت عقولهم فهم يتحركون في حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى بأخينا الانسان وحتى لا نعذب أحداً من الناس ظلماً بغير حق ، وحتى لا نضيع امرءاً من مخلوقات الله • ذلكم هو الموقف المسيحي حقاً ، الموقف الذي لا يكون عندئذ غيباً فحسب ، بل يكون في الوقت نفسه معقولاً مستوحى من حب صادق لأقراننا البشر • • • » •

هنا انطلقت الأكف بتصفيق حاد من جميع أرجاء القاعة ، ولكن فيتوكوفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده ، كأنه يضرع اليهم أن لا يقاطعوه وأن يأذنوا له باتمام كلامه • فسرعان ما ساد الصمت من جديد ، وواصل الخطيب حديثه فقال :

« أتراكم تظنون يا سادتي المحلفين أن المسائل التي من هذا النوع لا تطرح نفسها على فكر أبنائنا حين يبلغون سنّ المراهقة مثلاً ، فيأخذون يفكرون ويبحثون ويناقدون ؟ ألا انكم اذن لتتوهمون ! ان ابناءنا لا يمكن الا أن يتساءلوا في هذه الحالة ، وليس في وسعنا أن نحول بينهم وبين ذلك ، والا كنا نطلب المستحيل • ان المراهق لا بد أن يشعر باضطراب كبير وحيرة شديدة حين يرى أباه دنيئاً منحطاً ، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد آخرين هم رفاقه ، فيلاحظ ما بين السلوكين من تضاد وتناقض • قد يقال له عندئذ ، على ما جرت به العادة المألوفة المتبذلة : « لقد وهب لك الحياة ، وأنت دم دمه ، فعليك أن تحبه » • ولكن الفتى سيتساءل عندئذ على غير ارادة منه : « فهل كان يجبني حين وهب لي الحياة ؟ » ، وسيزداد اضطراب الفتى أثناء

تأملاته ، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه : « لا ، انه لم يهب لى الحياة حباً بى أنا ؛ انه لم يكن يعرفنى ، بل انه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى فى لحظة الخلق تلك ، فى لحظات الهوى تلك انتى لعل الخمرة هى التى كانت توقدها ، فلم يورثنى الا حب الشراب والميل الى السكر . تلك كانت كل نعمه وآلائه على ... فلماذا يُراد منى أن أحبه لا لسبب غير أنه ولدنى ، مع أنه لم يكثر بى بعد ذلك فى يوم من الأيام ؟ » . قد تجدون هذا التفكير فظلاً قاسياً يا سادتى ، ولكن لا تطلبوا من عقل فتى مراهق أكثر مما يطيق : « اطرذوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة » * . ولنحاذر خاصةً ، يا سادتى ، لنحاذر قبل كل شيء ، أن يسيطر علينا الخوف من « المعدن » و « الكبريت » ؛ ولنقض فى الأمر بما توجهه قوانين العقل الانسانية ، لا بما تفرضه التصورات الغيبية . فما الذى نقرره عندئذ ؟ اليكم الأمر : ليتقدم الابن الى أبيه وليلق عليه فى أناة وروية هذا السؤال « قل لى يا أبى لماذا يجب على أن أحبك » * ، فإذا كان الأب قادراً على أن يجيب عن هذا السؤال ، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه ان يحبه ، كنا بصدد أسرة طبيعية سوية سليمة حقاً ، أسرة قائمة لا على أوهام غيبية ، بل على وقائع واضحة التصور انسانية الحدود . أما فى غير هذه الحالة ، أى اذا عجز الأب عن الاتيان بالبرهان المطلوب ، فقد انتهت تلك الأسرة ، ولم يعد من حق الأب أن يتصرف تصرف أب ، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر الى أبيه نظرتة الى غريب ، بل والى عدو . ان على منبرنا هذا ، يا سادتى المحلّفين ، أن يكون مدرسةً للحقيقة والمعانى السليمة » .

هنا قاطعت الخطيب عاصفةً من تصفيق مسعور . ولئن لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها على هذا النحو ، فاننا نستطيع أن نؤكد أن نصف الجمهور قد انطلقت أكفه بالتصفيق . كما أن صرخات

حادثة وصيحات اعجاب قد فامت فى الجزء الأعلى من القاعة ، وهو الجزء الذى توجد فيه السيدات ؛ وأخذت الأيدي تلوح بالمناديل ؛ واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يهز جرسه بغير انقطاع . كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور ، ولكنه لم يجرؤ أن يمضى الى حد « اخلاء القاعة » عملاً بتهديداته السابقة : ذلك أن التصفيق والتلويح بالمناديل قد نشب حتى فى صف الكراسى الموضوعة فى خلف ، الموقوفة على كبار الموظفين ، وأكثرهم شيوخ يرتدون ملابس رسمية تزينها الأوسمة والنياشين . لذلك اكتفى الرئيس ، منذ هدأت الضجة وسكن الصخب ، أن كرر تهديده السابق بلهجة قاسية قائلاً انه سيخلى القاعة اذا تكرر ما حدث مرة أخرى . وهذا فيتوكوفتش يستأنف مرافعة منفعلاً ، فيقول :

« سادتى المحلّفين ، انكم تذكرون تلك الليلة الرهيبة التى طال الحديث عنها أثناء هذه الجلسة ، تلك الليلة التى دخل فيها المتهم الى منزل أبيه بعد أن تسلق السور ، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرجل الذى ولده وأساء اليه وأهانته وكان عدوه . اننى أعود فأقول ملحاً : ان المتهم لم ينجىء ليسطو على المال ، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بينت ذلك ؛ لا ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل ! كلا ثم كلا . فلو قد كان ينوى ارتكاب جريمة ، اذن لاحتاط للأمر سلفاًفتزود ، على الأقل ، بسلاح ، بسلاح حقيقى ، لا بمدق الهاون هذا الذى تناوله بغيريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك حق المعرفة . لنسلمّ جدلاً اذن بأنه خادع يقظة أبيه باللجوء الى تلك الاشارات السرية ، فدخل البيت . لنسلمّ بهذا جدلاً ، لأننى لا أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات ، كما سبق أن قلت ذلك . ولكن فلنسلمّ جدلاً ، خلال بضع دقائق ، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً . انى لأقسم لكم بكل ما أقدمه فى هذه

الحياة يا سادتي المحلفين ، أن المتهم ، بعد أن اجتاز جميع الغرف راضياً فاقنتع بأن المرأة التي يبحث عنها ليست في المنزل ، كان سينصرف مسرعاً دون يلحق بمنافسه أى أذى لولا أن منافسه هذا هو أبوه • لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً في أكثر تقدير ، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله • لقد كان في عجلة من أمره ، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين توجد تلك المرأة • ولكنه رأى نفسه على حين فجأة أمام أبيه ، أمام أبيه ، وجهاً لوجه ••• آه يا سادتي ! ان رؤية ذلك الأب هي التي كانت سبب كل شيء ، ذلك الأب الذي كان عدوه منذ طفولته ، وكان يضطهده ويسومه سوء العذاب ، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له على حبه ! ان شعوراً ابلكره لا يغالب قد استولى عليه حينذاك واستبد بروحه ، فأصبح لا يستطيع أن يفكر • ثار كل شيء في نفسه حينذاك • كان ذلك انفجاراً جنوناً ، ولكنه جنون طبيعي ، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التي تحكم الانسان بغير شعور وغير لجام ، شأن كل ما هو من الطبيعة • ولكن القاتل ، حتى في تلك الدقيقة ، لم يقتل ! اننى أؤكد هذا وأصيح به هنا ! كلا ، وانما هو اكتفى بأن رفع مدهقه بحركة استياء مشمئز ، دون أن يكون في نيته أن يقتل ، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل • ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق المشثوم في تلك اللحظة ، فلربما كان سيكتفى بأن يضرب أباه ، أما أن يقتله فلا • وحين هرب بعد ذلك كان لا يدرى أقتل العجوز الذي ضربه أم لا • ان قتلاً يحدث في هذه الظروف ليس بقتل • وان قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن اباه أيضاً • لا يا سادتي ، ليس يمكن أن يوصف قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب • اننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن جريمة قتل أب الا بسبب وهم قائم في الأذهان ! ولكننى أعود فأسألكم مرة أخرى صادقاً كل الصدق ، بكل نفسى : هل كان ثمة قتل فعلاً ؟ تخيلوا ياسادتي المحلفين أننا حكمنا على

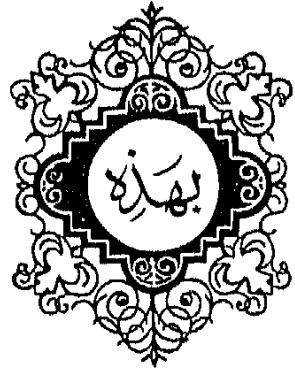
هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك : « ان هؤلاء الناس لم يفعلوا في سبيلي شيئاً من اجل ان يصلحوا أمرى ويحسنوا مصيرى + لم يهتموا بتربيتى ، ولم يحاولوا ان يجعلوا منى انسانا افضل + ان هؤلاء الناس لم يعطونى ما أشربه ولا ما آكله ، ولم يساعدونى يوماً فى حبسى المظلم ، وها هم أولاء يرسلوننى الان الى السجن فى المنفى ! ألا انى اذن اليوم براء حيالهم ، لا أدين لهم بشيء ، ولن أدين بشيء لأحد من الناس فى هذا العالم بعد هذه الساعة قط ! انهم جميعاً أشرار ، فسأكون شريراً مثلهم + انهم جميعاً قساة ، فسأكون قاسياً مثلهم » + ذلكم ما سيقوله يا سادتى المحلفين + أحلف لكم أنكم اذا حكمتم عليه كتمت تريحونه بهذا الحكم الذى سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره + صحيح أنه سيلعن الجريمة التى ارتكبها ، ولكنه لن يشعر بالندامة والتوبة + انكم اذا حكمتم عليه كتمت تحطمون الى الأبد ما فى نفسه من امكانيات اصلاح حاله ، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر الى آخر عمره + فلماذا لا تؤثرن على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هائلاً هو أفظع عقاب يمكن تصوره ، مع انقاذكم أنفسه ، ومنحه فرصة أن يُخلق خلقاً جديداً الى الأبد ؟ ألا فأرهبوه برحمتكم ، فترؤوا وتسمعوا كيف سينفض مروءع النفس عندئذ ، قائلاً : « هل أستطيع أن احتل هذه الرحمة ، هل أنا جدير بهذا الحب كله ، هل أنا استحق هذا الحب فعلاً ؟ » + كذلك سيكون ردُّه على رحمتكم + اننى أعرف هذا الرجل يا سادتى المحلفين ، أنه متوحش ، ولكنه نبيل القلب فى قرارة نفسه + لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم ، لأنه ظامئ الى الحب قبل أى شيء آخر ، وسيشتعل قلبه عندئذ اشتعالاً رائعاً ، وسيولد ولادة جديدة نهائية + ان هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل انسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخائقة + فاشملوا هذه النفس برحمتكم وبرهنوا لها على حبكم ، فاذا هى

تلعن وضعها السابق وموقفها الماضي ، لأن فيها قدراً كبيراً من الأشواق
 النبيلة المكبوتة • لسوف تتفتح روح هذا الانسان متى خطفت بصره رافة
 الله وطيبة الانسان وعدالة البشر • لسوف تروّعه عندئذ جريمته ، فيسحفه
 عذاب الضمير ، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذى يقع على عاتقه بعد
 الآن • لن يقول بعدئذ : « أنا الآن براء لا أدين لأحد بشيء » ، بل
 سيهتف قائلاً : « أنا آثم أمام جميع الناس ، لأننى أحط الناس قاطبة » •
 ومن خلال دموع ندامته وتوبته ، سيصبح قائلاً وهو يشعر بعاطفة لاذعة
 كأنها حرق : « جميع الناس خير منى لأنهم أرادوا خلاصى لا ضياعى ! » •
 سهلٌ عليكم يا سادتى المحلفين أن تحققوا فعل الكرم والرحمة هذا ،
 وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً اذا أنتم أصدرتم حكمكم بادانته رغم عدم
 توفر الأدلة المقنعة حقاً ! لأن نبرىء عشرة مجرمين خير من أن نجبرم
 بريئاً - هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذى انطلق فى آخر قرن من
 تاريخنا المجيد ؟ هل علىّ أنا ، أنا المخلوق الضعيف ، أن أذكركم بأن
 القضاء الروسى لا يهدف الى العقاب فحسب ، وانما يهدف كذلك الى انقاذ
 الانسان الذى زلت قدمه فسقط ؟ للشعوب الأخرى أن تتمسك بحرفية
 النص ما شاءت ، ولها أن لا تفكر الا فى العقاب ما حلا لها ذلك ؛ أما نحن
 الروس فنبقى أوفياء لروح النص ومعنى القانون ، ونريد قبل كل شيء
 آخر أن نقيّل عثرة الساقطين وأن نبعثهم بعثاً جديداً • ما دام الأمر كذلك ،
 ما دام هذا هو الطابع الذى تتصف به بلادنا ويتميز به قضاؤنا ، فاننا
 نستطيع أن نوّكد أن المستقبل لوطننا • لا يا سادتى ، ليست روسيا
 ترويكاً مسعورة ! كفوا عن ترويعنا بهذا التشبيه ! ليست روسيا ترويكاً

جامحة تتنحى الشعوب الأخرى من أمامها مشمّزة ! فانما روسيا مركبة
 فخمة ذات عظمة وجلال تتقدم نحو هدفها هادئة متتدة مظفرة • ياسادتي ،
 ليس بين أيديكم مصير موكلّي فحسب ، بل مصير العدالة الروسية أيضاً •
 فأنقذوا هذه الحقيقة الغالية التي عهد بكم إليها وأؤتمنتم عليها ، دافعوا عنها
 فترهنوا بذلك على أننا أوفياء لها ، وعلى أنها في أيدي أمينة » •

١٤

صمدلحونا



الكلمات ختم فيتوكوفتش مرافقه ، فاذا بالحماسة
المحمومة الهاذية تنفجر في الجمهور انفجاراً
لا سبيل الى دفعة كأنها العاصفة • كان يستحيل
وقف هذا الانفجار : فالنساء تنشج وتتحب ،

وعدد كبير من الرجال يكون ، حتى لقد شوهدت دموع في أعين اثنين
من كبار الموظفين • وبدا على الرئيس أنه يدعن ، حتى أنه تأخر في هز
جرسه • « لو شاء أن يلجم حماسة كتلك الحماسة لكان ذلك منه
تديساً للمقدسات ! » ، ذلك ما هتفت تقوله سيدات مدينتنا فيما بعد •
وكان المحامي منفعلاً انفعالاً صادقاً هو أيضاً • وفي تلك الدقيقة انما اعتقد
صاحبنا هيوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن ينهض « ليثير بعض
الاعتراضات » • نظر اليه الناس نظرة توشك أن تكون كرهاً وبنفضاً :
« كيف ! ماذا يريد ؟ أهو من يجيز لنفسه أن يرد الآن ؟ » • كذلك
دمدمت السيدات • ولكن ما كان لجميع نساء الأرض ، وعلى رأسهن
زوجة هيوليت كيريلوفتش ، أن يجدى احتجاجهن في شيء ، لأنه كان
يستحيل ، حتى في هذه الحالة ، أن يُصدّ وكيل النيابة عن الكلام في تلك
اللحظة • كان هيوليت كيريلوفتش شاحب الوجه ممتقع اللون ، وكان
يرتعث انفعالاً • ان الكلمات الأولى التي قالها كانت مضطربة غير

مفهومة ، لأن الرجل كان يختق بكلامه ، وكان ينطق بألفاظه نطقاً مبهماً غير متميز ، وكانت عباراته مختلطة مشوشة • ولكنه لم يلبث أن استرد سيطرته على نفسه • وساقنصر هنا على نفل بضع جمل من رده :

« ••• يعاب علينا أننا ألفنا رواية أو أنشأنا قصة • ولكن ما الذى فعله الدفاع غير تركيب أوهام وتلفيق خرافات لا يصدقها العقل ؟ ألا ان مرافعته لم يكن يعوزها الا الوزن والقافية حتى تكون قصيدة • هو يرى اذن ان فيدور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على أرض الغرفة بانتظار وصول حبيته ! ••• بل هو يذكر لنا أيضاً نص كلمات لا بد أن يكون فيدور بافلوفتش قد نطق بها فى تلك الظروف الغريبة ! ••• كيف يمكن البرهان على أنه أخرج المال من الظرف ؟ من ذا الذى سمع الكلمات التى قالها حينذاك ؟ وهذا الانسان الضعيف العقل ، سمردياكوف ، الذى يصوره لنا الدفاع فى صورة بطل رومانسى يثار من المجتمع لولادته غير الشرعية ، هل الكلام عنه على هذا النحو الا قصيدة من طراز قصائد بايرون ؟ أما ذلك الابن الذى اقتحم منزل أبيه وقتل أباه دون أن يقتله مع ذلك ، فان الكلام الذى قاله الدفاع عنه ليس شعراً ولا هو رواية أو قصة ، وانما هو أبو الهول يطرح ألغازاً يعجز هو نفسه عن حلها • من قتل فقد قتل • كيف يقتل انسان دون أن يقتل ، من ذا الذى يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا الكلام ؟ ولقد نودى بعد ذلك بأن منبرنا يجب أن يكفل للحقيقة وللأفكار السليمة أن تدوى فى الأرجاء ، تم ها هم يعلموننا من على منبر « الأفكار السليمة » هذا ، كما يعلمون بديهية من البديهيات ، أن اطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أب بيد ابنه انما هو وهم من الأوهام الاجتماعية ! ولكن اذا كان علينا أن نعد جريمة قتل الأب وهماً من الأوهام الاجتماعية ، واذا اكتسب كل ابن حق سؤال أبيه عن الاسباب التى توجب عليه أن يحبه ، فما عسى تصير اليه بلادنا ،

ما عسى تصير اليه الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا ، ما عسى تصير اليه الأسرة ؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بذلك الخوف الذي تحسه النفوس المؤمنة بالخرافات ، شبيه بخوف بائعات موسكو من « الكبريت » ! ألا انهم ليشوهون ويفسدون أقدس قواعد العدالة الروسية ، ويعيثون بصيرتها ومستقبلها ، وذلك كله في سبيل الوصول الى الهدف الحقيقي الذين يسعون اليه ، في سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه ، والعمو عما لا يمكن العفو عنه . لقد صاح المحامي يقول : « حطّموه برحمتكم ! » . ألا ان هذا هو كل ما يتناه المتهم ، ولتروُن غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه ! يخيل الى أن المحامي كان متواضعاً جداً وكان قنوعاً جداً حين اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم . ترى لماذا لم يطالب بانشاء جائزة تسمى باسم قاتل ابيه ، تخليداً لذكرى فعله في نفوس الأعتاب والجيل الجديد ؟ ويريدون أن يصححوا الانجيل وتعاليم الدين ، فيقولون : « هذا من الأمور الغيبية ! » . ألا اننا نحن الذين نطبق المسيحية الحقة التي يضبطها حكم العقل في ضوء الأفكار السليمة ! ومضوا الى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح في صورة باطلة ! « سيكال لكم بالكيل الذي كلتم به » : بهذا هتف المحامي ، ثم أسرع يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذي كالوا لنا به . فانظروا الى ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة هذا ! واضح انهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فلبقون نظرة سرية على الانجيل الا عشية القائهم مرافعاتهم أملاً في أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير في النفوس ، ما احتاجوا الى ذلك طبعاً ! ألا ان المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذي هو سلوك عالم خبيث فاسد سرير ؛ وانما هو يأمرنا ، على خلاف ذلك ، أن نغفر الاساءات التي أُلحقت بنا ، وأن نمد خدنا الأيسر ، بدلاً

من أن نكيل للمسيئين الينا بالكيل الذى كالوا لنا به : ذلكم ما يعلمناه اياه الرب ؛ ان الرب لم يقل ان منع الأبناء من قتل آبائهم وهم من الأوهام الاجتماعية ! ألا فليمتنعوا عن استخدام هذا المنبر ، منبر الحق والمعانى السليمة ، فى تصحيح تعاليم ربنا الذى اقتصر المحامى فى مرافعته على أن يسميه باسم « المصلوب الذى كان يجب بنى الانسان » ، خلافاً لما تفعل روسيا الارثوذكسية كلها التى تبتهل الى الرب قائلةً : « انت الهنا ! » .

عندئذ تدخل الرئيس ليذكر وكيل النيابة بالتصد والاعتدال ، راجياً منه أن لا يبالغ ويغلو ، وأن لا يتعد عن الموضوع ، الى آخر ما هنالك ، مستعملاً اللغة المعهودة فى الرؤساء . وكانت القاعة تضطرب وتتحرك . لقد أصبح الجمهور عصياً ، وأصبحت تُسمع صيحات استياء واستهجان هنا وهناك . وعدل فيتوكوفتش عن الرد ، ولم يزد على أن تقدم واضعاً يده على قلبه ، فقال بضع كلمات تفيض وقاراً وورصانة ، قالها بلهجة انسان أودى شعوره وأسىء اليه ؛ وعاد يشير انساره عابرة ساخرة الى « الروايات » و « السيكولوجيا » ، ووجد السبيل الى أن يستشهد بالقول المأثور : « قد غضبت يا جوبتر ، فأنت اذن على خطأ » ، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأيد صغيرة ، لأن هيبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شيء من جوبتر البتة ؛ ثم أعلن يقول بهيئة رصينة وقورة انه لن يرد حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم ؛ أما فيما يتعلق « بالصورة الباطلة التى قال وكيل النيابة ان المحامى رسمها للمسيح » ، وفيما يتعلق بأن المحامى لم يتنزل فيسمى المسيح الهاً وانما اقتصر على تسميته باسم « المصلوب الذى يجب بنى الانسان » « مخالفاً بذلك الارثوذكسية مخالفةً ما ينبغى أن يسمح بها من على منبر الحقيقة والمعانى السليمة » ، فقد قال فيتوكوفتش ان فى هذا « غمزاً » ، وانه حين جاء الى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا

المنبر بحرية ، دون أن يتعرض لانتهاكات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف مستقيم « ... ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكره بالتزام النظام ، فما كان من فيتوكوفتش الا أن انحنى قائلاً انه أنهى كلامه ، ولم يبق لديه ما يضيفه ؛ وعاد الى مكانه تصحبه دمدمات الاستحسان والتأييد من الجمهور . أما هيوليت كيريلوفتش فقد كان « منسحقاً انسحقاً نهائياً » فيما أكدت سيداتنا من بعد .

وطلب الى المتهم أن يتكلم ، فنهض ميتياً ، ولكنه لم يقل الا بضع كلمات . كان يبدو مهودود القوى روحاً وجسماً . ان هيئة الكبرياء والغوه التي كانت بادية فيه حين دخل قاعة المحكمة في الصباح قد اختفت الآن أو كادت . كان يلوح عليه أنه قد عاش في هذا النهار ساعات حاسمه نعلم فيها أشياء أساسية وفهم أموراً رئيسية كان يجهلها قبل ذلك . ان مسوته ضعيف واهن ، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ في بداية الجلسة ؛ وفي كلامه الآن نبرة جديدة ، نعمة فيها اذعان وانكسار ومذلة . قال :

« ماذا أستطيع أن أقول لكم يا سادتي المحلفين ؛ لقد دفت ساعة حسابي ، ووضع الله يده عليّ . ذلك تكفير عن حياتي المضطربة الفاسدة ! ولكنني أؤكد هنا ، أؤكد تأكيد من يعترف أمام الله : « أنني لم أسفح دم أبى » ؛ لا ، لست أنا مرتكب هذه الجريمة ! أعود فأكرر لكم « أنني لست الذي قتله » . لقد عشت حياة فاسقة ، ولكنني كنت أحب الخير . كنت أفكر دائماً في اصلاح نفسي ، ومع ذلك ظللت أعيش كما يعيش حيوان متوحش . أشكر للسيد وكيل النيابة أنه قال عنى أموراً كنت أجهلها أنا نفسي . ولكن قوله انني قتلت أبى قول خطأ . لقد أخطأ السيد وكيل النيابة ! وأشكر للمحامي دفاعه عنى أيضاً . لقد بكيت وأنا أصغى الى كلامه . ولكن من الخطأ أن يُقال انني قتلت أبى ؛ وما كان

ينبغي حتى أن يفترض افتراضاً أنني فعلت ذلك ! أما الأطباء فلا تصدقوهم ! اننى أملك عقلي كاملاً ، ولكن نفسى مرهقة + ان تسامحتم معى فاطلقتم سراحي دعوت لكم وصليت من أجلكم ؛ وانى لأعدكم بأن أصلح ما فسد من أمرى ، أحلف لكم على ذلك أمام الله ؛ وان حكمتم علىّ توليت بنفسى تحطيم سيفى وقبليت حطامه + ولكن ترفقوا بى : لا تحرمونى من الهى + اننى أعرف نفسى ، فلو فعلتم لثرت وتمردت ! ان نفسى مرهقة أيها السادة + + + فترفقوا بى ! » +

قال ميتيا هذا الكلام وعاد يجلس على كرسيه بما يشبه السقوط + لقد تهدم صوته ، ولم يكذب يستطيع أن ينطق جملته الأخيرة الا فى كثير من العناء +

وانتقلت المحكمة بعد ذلك الى تحرير الأسئلة التى يجب أن تلقى على المحلفين ، ودُعيت الأطراف الى الادلاء بالتسائج التى انتهت اليها + ابن أدخل فى وصف التفاصيل + ونهض المحلفون أخيراً للمداولة + وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه اليهم الا جملة واحدة ، قال : « لا تتحيزوا ، لا تتأثروا بالأقوال البليغة الفصيحة التى تضمنها خطاب الدفاع ، بل زنوا قراركم ، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة اليكم ، الخ الخ + + + » + وعلقت الجلسة بعد خروج المحلفين + أصبح يحق للحضور أن ينهضوا ، وأن يسيروا ، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر مع الأصدقاء ، وأن يمضوا الى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام أو شراب + وكان الوقت متأخراً ، فالساعة هى الواحدة من الصباح ، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف + كانت أعصاب الجميع مشدودة متوترة ، وقد بلغ فرط احتياج النفوس أن أحداً لم يدر فى خلداه أن ينصرف ليرتاح + كان الناس ينتظرون قرار المحكمة بما يشبه الحمى + على أن القلق لم يكن عاماً شاملاً ؛ ان السيدات خاصة هن اللواتى سيطر

عليهن نفاذ الصبر الى حد الهستيريا . ومع ذلك لم يساورهن أى خوف .
 كن وهن يتهيأن للحظة الحماسة العارمة المؤثرة ، كن يقلن : « لا شك
 أنه سييراً » . ويجب على أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من
 الرجال أيضاً كان يشاطرهن هذا اليقين من أن المتهم سييراً ، فبعضهم
 معتبط بذلك مبتهج له ، وبعضهم يقطب الجبين استياءً ، بل ان منهم من
 استطالت أنوفهم امتعاضاً واستهجاناً : كان هؤلاء لا يريدون البراءة .
 أما فيتوكوفش فكان واثقاً بالنصر موقناً منه . وكان الناس يحيطون به ،
 وبهنتونه ، ويمدحونه . فقل لجماعة منهم ، كما روى ذلك فيما بعد :
 - هناك تيارات تعاطف تشد المحامى الى المحلفين كخيوط لا ترى ،
 وهذه الخيوط تنعقد وتدرّك أثناء المرافعة نفسها . لقد ربحتنا القضية ،
 لا تخافوا ***

- انى لأتساءل عما عسى يقرره فلاحونا الصغار الآن !

كذلك قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين عابس الوجه وهو
 يقترب من جماعة حمى فيها وطيس المناقشة . انه أحد مالكى الأفيسان
 فى ضواحي مدينتنا .
 فأجابه آخر :

- ان هيئة المحلفين لا تضم فلاحين فحسب ، ففيها أربعة موظفين
 أيضاً .

فقال أحد أعضاء « مجلس المدينة » مؤمناً وهو ينضم الى الجماعة :

- نعم نعم ، يوجد موظفون ***

- هل تعرفون نازارييف ، بروخور ايفانوفتش نازارييف ؟ انه
 ذلك التاجر الموشح الصدر بوسام . هو عضو فى هيئة المحلفين .

– وماذا ؟

– هو واحد من أذكى أعضاء الهيئة •

– ولكنه يصمت طول الوقت •

– صحيح • يصمت • هذا أفضل • ليس أناس بطرسبرج هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يلقنوه دروساً • انه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك • ان له اثني عشر ولداً ، تصوروا !•••

وفي جماعة أخرى هتف أحد الموظفين يقول :

– هه ! وكيف لا يبرئونه ؟

فقال صوت آخر بلهجة جازمة :

– سيبرئونه حتماً •

فعاد الموظف يقول :

– عار أن لا يبرئوه ، خزي أن لا يبرئوه • صحيح أنه قتل ، ولكنه قتل أباه ، قتل ذلك الأب • ثم انه كان في حالة احتياج شديد ••• من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدق دون أن يكون في نيته أن يقتل ، فاذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة • على أنني أرى أن اقحام ذلك الحادم في القضية أمر مؤسف • كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر • لو كنت في مكان المحامي ، لصحت أقول صراحة :
« نعم قتل ، ولكنه ليس مجرمًا ؛ وليأخذكم الشيطان جميعاً ! » •

– ولكن هذا بعينه هو ما قاله ، باستثناء حكاية الشيطان هذه •

فتدخل صوت ثالث يقول :

– بل كاد يقول لهم « فليأخذكم الشيطان » يا ميشيل سيميوننش •

- تصوروا يا سادة ! لقد برأوا عندنا ، أثناء الصيام ، ممثلةً ذبحت
عنق زوجه عشيقها الشرعية +

- نعم ، ولكنها لم تقطعه الى آخره .

- أو شكت أن تقطعه على كل حال .

- هل سمعتم ما قاله عن الأبناء ؟ كان كلامه رائعاً +

- رائعاً !

- وقوله عن الغيبة أو الصوفية ، هه ؟

- دعوكم من الغيبة أو الصوفية + أولى بكم أن تفكروا في هيوليت

وفي المصير الذي ينتظره + لسوف تفقأ امرأته عينيه بسبب ميتا +

- أهى فى القاعة ؟

- ما هذا السؤال ؟ لو كانت فى القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة +

ولكنها فى الدار ، لأنها تشكو من أوجاع فى أسنانها ، هىء هىء !

وفي جماعة ثالثة دار الحديث التالى :

- من الجائز أن يُبرأ ميتا !

- لا ينقصنا الا هذا ! لسوف يقرب غداً كل شىء فى كبابريه

« العاصمة الكبرى » ، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام +

-- انه لشيطان رجيم حقاً !

- الشيطان هو الشيطان ، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا +

أين عسى يوجد الشيطان ان لم يوجد فى هذه القاعة ؟

– كفاكم بلاغة وفصاحة أيها السادة ! ليس يجوز تحطيم جمجمة
أبٍ على كل حال • والا فالى أين المصير ؟

– وما قاله عن المركبة المظفرة ، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة
المظفرة ؟

– نعم ، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة !

– سيردها فى الغد عربة بسيطة « ما احتاج الى ذلك » ، على حد
تعبير وكيل النيابة • لا شىء الا الانتهازية !

– لقد زادت براعة الناس • قل لى : ألا تزال توجد حقيقة
فى روسيا ؟

ولكن جرس رئيس المحكمة أخذ يرن • لقد تشاورت هيئة المحلفين
خلال ساعة كاملة • ساد صمت عميق منذ عاد الحضور الى أماكنهم • هأنذا
أرى هيئة المحلفين تدخل القاعة • ولكن فلأوجز ! لن أذكر ، بالترتيب ،
الأسئلة التى كان عليها أن تجيب عنها ، لأننى نسيتهما • كل ما أتذكره
هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس : « هل ارتكب المتهم
جريمة القتل عن سابق تصور وتصميم بقصد السرقة ؟ » (نسيت النص
الدقيق) • خيم على القاعة صمت كصمت الموت • وقال رئيس هيئة
المحلفين ، وهو أصغر الموظفين سنًا ، قال بصوت قوى واضح دوى
فى أرجاء القاعة دوى قرع الناقوس حين يعنى ميتاً :

– نعم ، انه مذنب •

وكان هذا الجواب نفسه جواباً عن سائر الأسئلة : نعم ، مذنب ،
مذنب فى كل مرة ، دون وجود أى ظرف مخفّف • لم يكن أحد يتوقع
ذلك ، لأن جميع الناس كانوا يقدرّون أن تكون هنالك أسباب مخففة على

الأقل • استمر الصمت الذى يشبه أن يكون صمت الموت ، وأصبح الجمهور كالتجمد دهشة ، يستوى فى ذلك الذى كانوا يتمنون أن يُحكم على ميتيا ، والذين كانوا يتمنون أن يُبرأ • ولكن هذا السكون لم يدم الا بضع دقائق أعقبها جلبة كبيرة • فأما الرجال فان عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى ، حتى لقد أخذ بعضهم يفرّك الأيدي غبطة وسروراً دون أن يحاول اخفاء فرحته ؛ وصُعق المستاءون منهم فأخذوا يرفعون اكتافهم ويتهايمسون ، ولكنهم لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد • وأما السيدات ، فيارب السماء ! لقد خيّل الىّ أنّهن سيقمن بثورة ! انهن فى أول الأمر لم يصدقن آذانهن ؛ ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات فى جميع أرجاء القاعة : « ما معنى هذا ؟ ما هذه الحكاية ؟ » ، وأخذن يثبن عن أماكنهن • واضح أنّهن كان يخيل اليهن أن كل شيء يمكن أن يتغير ، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر • وفى تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة ، وأعول يقول بصوت ممزّق ، ماداً ذراعيه الى أمام :

— اننى أحلف أمام الله ، بانتظار عدالته الرهيبة ، اننى برىء من دم أبى ! أما أنت يا كاتيا فاننى أغفر لك • ويا اخوتى ، يا أصدقائى ، ترفقوا بالأخرى وأحيطوها برعايتكم •••

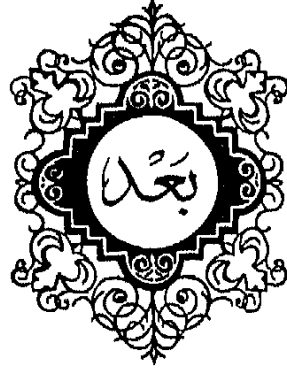
لم يكمل ميتيا كلامه ، وانفجر ينتحب • كان ينشج نشيجاً صاخباً ، بصوت ليس صوته ، صوت مخيف ، لا يدرى المرء من أين يصدر • وفى أعلى القاعة ، من ركن مظلم بالشرفة ، انطلقت صرخة حادة : انها جروشنكا • كانت جروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة الى القاعة ، قبل القاء مطالعة النيابة •

واقيد ميتيا • وأرجىء اعلان الحكم الى الغد • ونهض الجمهور فى جلبة شديدة • ولكننى كنت قد أصبحت لا أصغى الى شيء • كل ما وعته ذاكرتى لا يعدو بضع صيحات سمعتها على درجات مخرج القاعة :

- لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاماً بالسجن مع الأشغال الشاقة*.
- لن يقل عن ذلك !
- نعم ، لقد صمد فلاحونا •
- اتصفوا من ميتنا !

خاتمة :

١ مشاريع فرد



صدر الحكم على ميتيا بخمسة أيام ، ذهب أليوشا في الصباح المبكر الى كاترين ايفانوفنا ليتخذ معها اجراءات أخيرة في أمر يههما كليهما كثيراً ، وليقوم عدا ذلك بمهمة كان قد كلف بالقيام بها . الساعة تجاوزت الثامنة قليلاً ، واستقبلته المرأة الشابة في تلك الغرفة نفسها التي سبق أن استقبلت فيها جروشكا منذ بضعة أسابيع . وفي الغرفة المجاورة كان يرقد ايفان فيدوروفتش غائباً عن وعيه بتأثير الحمى الحارة . لقد نقلته كاترين ايفانوفنا الى منزلها فور حدوث المشهد الذي وقع في جلسة المحاكمة ، دون أن تبالي بالأقاويل التي كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها ، ودون أن تقلق لما سيصعب عليها المجتمع من ضروب اللوم . وقد سافرت احدى قريبتها اللتين كانتا تعيشان معها ، سافرت الى موسكو منذ نهاية المحاكمة ، وبقيت الأخرى في منزل كاترين ايفانوفنا . ولكن كاترين ايفانوفنا ما كان لها أن تتراجع عن انفاذ ما عزمته أمرها عليه ولو كانت وحيدة في منزلها ، وسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً . وكان الطبيبان فارفنسكى وهرتسنشتوبه يعالجان ايفان . أما الاخصائي الذي جاء من موسكو فقد سافر دون أن يرضى أن يفصح

عن رأيه فيما عسى تصير إليه حالة المريض ، وفيما عسى يكون من أمر تطور المرض . وكان الطيبان يبدلان لكاترين ايفانوفنا وأليوشا أنواع التشجيع ، ولكنهما لا يجازفان فيهبان لهما آمالاً قاطعة . وكان أليوشا يزور أخاه المريض مرتين في اليوم . على أنه انما جاء الآن لأمر محرج احراجاً خاصاً ، مربك ارباكاً شديداً ، وهو يشعر بمدى الصعوبة في مواجهة الموضوع ، ولا يعرف من أين يأتيه . وكان عدا ذلك في عجلة من أمره ، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وأن ينهض بعبء ثان ، في حى غير هذا الحى من المدينة ، فكان يحسن به اذن أن يسرع . انهما يتحدثان منذ ربع ساعة . وكاترين ايفانوفنا شاحبة الوجه ممتعة اللون ، تبدو مرهقةً مهدودة القوى ، ولكنها في الوقت نفسه مضطربة اضطراباً يشبه أن يكون مرضاً ، لأنها كانت في الواقع تدرك الهدف الذى جاء من أجله أليوشا . قالت لأليوشا بلهجة تفيض ثقة :

– لا يقلقك أمر القرار الذى سيتخذه ، فانه لا بد أن يتلبث على هذا الحل أخيراً : فليس أمامه من مخرج آخر غير الفرار ! ان هذا المسكين ، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير – أوه ! لا ! لست أقصد دمترى فيدوروفتش ، وانما أقصد ذلك الراقد وراء هذا الباب ، ذلك الذى ضحى بنفسه فى سبيل أخيه – (كذلك أضافت تقول كاتيا وقد سبطت عيناها) قد أطلعنى منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا . ولعلك تعلم أنه اتصل باشخاص عدة من أجل انفاذ هذا المشروع وقد ألمعت لك الى هذا من قبل على كل حال سيتم الفرار فى المرحلة الثالثة من مراحل الطريق فى أغلب الظن ، أثناء سفر قافلة السجناء الى سييريا . أوه ! ما يزال الأمر بعيداً . وقد زار ايفان فيدوروفتش رئيس المحطة الثالثة . ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذى سيقود القافلة ، لأن ذلك يستحيل أن يُعرف سلفاً . وقد أطلعك

غداً على تفاصيل الخطة التي تركها لي ايفان فيدوروفتشس قبل المحاكمة بيوم ، احتياطاً لما قد يحدث له ... تمّ هذا في ذلك اليوم نفسه الذي رأيتنا تتشاجر فيه ... أنت تذكر هذا ... لقد خرج من عندي فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية + تتذكر هذا ، أليس كذلك ؟ فهل تعرف فيم كنا نتشاجر ؟

قال أليوشا :

– لا ، لا أعرف +

– أخفى عنك هذا طبعاً ! فاعلم اذن أن المشاجرة كانت تدور على موضوع الفرار هذا نفسه + كان قد عرض لي ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، الأمور الأساسية من هذه الخطة ؛ وفي تلك اللحظة انما قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام + فحين أعلن لي ان دمترى فيدوروفتشس سيهرب الى الخارج مع تلك المخلوقة اذا حكم عليه ، شعرت فجأة بغضب شديد + لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت ، لأنني أجهل أنا نفسي سبب غضبي ... آه ! السبب هو تلك المخلوقة طبعاً ! فبسببها انما ثارت ثائرتي ، لأن تلك المخلوقة تطمع في أن تسافر الى الخارج مع دمترى فيدوروفتشس !

بهذا صاحت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد أخذت شفتها تختلجان من فرط الغضب + ووالت كلامها تقول :

– فلما لاحظ ايفان فيدوروفتشس أنني غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أنني أغار منها ، وأنتى اذن ما زلت أحب دمترى فيدوروفتشس . هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى في ذلك اليوم + لم أشأ أن أقدم له شرحاً ، ولا كنت أستطيع أن اعتذر اليه أيضاً + ولكن كان يحز في نفسي أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة ايفان فيدوروفتشس يمكن أن يهجم في نفسه

اننى ما زلت أحب ذلك الـ ... مع أننى كنت قد أكدت له أنا نفسى مند
 مدة طويلة أننى أصبحت لا أحب دمترى ، وأننى لا أحب أحداً الا هو
 ايضاً ! ... فلما غضبت من تلك المخلوقة ، ثارت نائرتى على * وبعد
 ذلك بثلاثة أيام ، فى ذلك المساء نفسه الذى جئت فيه الى * ، جاءنى .
 ايفان بظرف مختوم وطلب منى أن لا أفص الظرف الا اذا وقع له شىء * .
 أوه ! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه * وقال لى ان الظرف يتضمن عرضاً
 مفصلاً لمشروع الفرار ، وان على أن أتولى وحدى انقاذ ميتيا ، اذا مات
 هو أو مرض مرضاً خطيراً * وفى تلك المناسبة نفسها ترك مالا* ، قرابة
 عشرة آلاف روبل – هو ذلك المبلغ نفسه الذى جاء على ذكره وكيل
 النيابة فى مطالعته بعد أن علم مصادفة أن ايضاً قد كلف أحد الناس
 باحضاره من مركز الاقليم لقاء سندات يبدلها * وقد أدهشنى أشد
 الدهشة عندئذ أن ألاحظ أن ايفان فيدوروفتش ، رغم غيرته على* ورغم
 اقتناعه باننى ما زلت أحب ميتيا ، لم يعدل عن فكرة انقاذ أخيه ، وأنه
 يعهد الى* ، الى* أنا ، بالقيام بهذه المهمة * آه ... ما كان أقوى روح
 التضحية فى سلوكه هذا ! لا يا ألكسى فيدوروفتش ! انك لا تستطيع أن
 تدرك ادراكاً كاملاً كل ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات !
 تميت او اسقط على قدميه ، شعوراً باعجاب لا حدود له * ولكن هجس
 فى نفسى فجأة أنه قد يعزو هذه البادرة منى الى فرحتى بانقاذ ميتيا
 (كان سيؤول بادرته هذا التأويل حتماً) ، فما ان تصورت أنه قد
 يفترض هذا الافتراض الظالم فى حقى حتى ثارت نائرتى من جديد ،
 واشتد حنقى ، فبدلاً من أن أقبل قدميه ، رحى أضايقه * آه ...
 ما أشقانى ! ذلك هو طبعى ... انه طبع رهيب ... عجيب ! سوف
 ترى ، سوى ترى : سوف أعمل كل ما من شأنه أن يبعث فى نفسه
 التعب والسأم والضجر منى ، فاذا هو يهجرنى أخيراً الى امرأة أخرى

يسهل عليه أن يتفاهم معها أكثر مما يسهل عليه أن يتفاهم معي ، تماماً كما فعل دمترى • ولكن في هذه الحالة ••• لا ••• لن احتمال في هذه المرة ••• سوف أنتحر ! وحين دخلتَ عليّ ، بعد أن أمرته بالصعود ثانيةً ، جنّ جنوني غضباً من نظرة الكره والاحتقار التي لاحظت أنه رشقني بها في تلك اللحظة • وعندئذ - هل تتذكر ؟ - عندئذ انما صرخت أقول انه « هو وحده » الذي جعلني أعتقد بأن ميتيا قاتل ! ••• لقد كذبت عندئذ عامدةً ، بغية أن أجرحه مرة أخرى • والحقيقة هي عكس ذلك : فانا التي كنت قد سعيت الى اقناعه بأن ميتيا قاتل • آه ••• ان طبعي اللعين هو سبب البلاء كله ! أنا ، أنا المسئولة عن ذلك المشهد الرهيب الذي حدث في جلسة المحاكمة ! لقد أزداد أن يبرهن لي على نبل نفسه ، أراد أن يبيّن لي أنه ، رغم حبي أخاه ، لن يقبل أن يضيقه غيرهً وانتقاماً • لهذا انما تكلم على ذلك النحو أمام المحكمة ••• أنا سبب كل شيء ، أنا وحدي الأئمة !

لم يسبق لكاتيا أن اعترفت لأليوشا بمثل هذه الاعترافات في يوم من الأيام ، فأحس أليوشا أنها كانت عندئذ تعاني من ذلك العذاب الذي لا يطاق ، ذلك العذاب الذي يجعل النفس العاتية المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها وجبروتها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم • ثم لقد كان أليوشا يدرك أن لتباريحها سبباً آخر أيضاً ، سبباً رهيباً حاولت أن تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا ، ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراعا نذل نفسها أمامه الى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها ، وأن تحدثه عن هذا السبب من تلقاء نفسها في هذه اللحظة نفسها : الواقع ان كاتبها كانت تتألم من « الحيانة » التي قارفتها في المحكمة • وأحس أليوشا أن ضميرها كان يدفعها الى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً ، أن تتهم نفسها بدموع غزار وصرخات حادة ، وربما برطم جبينها بالأرض في نوبة هستيرية من نوبات

عذاب الوجدان • وكان أليوشا يخشى هذا المشهد ، ويرفق بحال المرأة الشقية • وكان هذا يفاقم حرجه وارتبأكه من القيام بالمهمة التي كُلف بها • وعاد يتكلم عن ميتيا •
فقاطعته بعناد جازم :

– لا تقلق له ! صدقنى أن معارضته لن تستمر طويلاً • أنا أعرفه ، أعرف طبعه حق المعرفة • ثق أنه سيوافق على الفرار أخيراً • لا تنس خاصةً أن الأمر ليس بقريب ، وسيكون في وقت ميتيا متسع لاتخاذ قراره . ومن الآن الى أن يحين الموعد ، يكون ايفان قد أبل من مرضه ، فيتولى القضية بنفسه ، ولن يكون علىّ أنا أن أهتم بها • لا تخف ، سيوافق على الهرب • بل انه لموافق منذ الآن : فأنتى له أن يترك تلك المخلوقة ! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه هذه المرأة الى المعتقل ، فلم يبق له الا أن يهرب • هو يخاف منك خاصةً ، يخاف أن تلومه على الهرب لأسباب أخلاقية • فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق ، ومن واجبك أن تأذن له ما دام هذا الأذن ضرورياً لا بد منه •

بهذه العبارة ختمت كاتيا كلامها بلهجة مسمومة • وصمتت بضع لحظات ، وابتسمت ، ثم أردفت تقول :

– انه يتحدث في السجن عن نشيد ، عن صليب عليه أن يحمله ، عن واجب عليه أن يقوم به ••• هل أدري ماذا أيضاً ؟ اننى أتذكر هذا الكلام لأن ايفان فيدوروفتش قد روى لى تفاصيل كثيرة فى هذا الموضوع • ليتك تعلم بأى طريقة كان ايفان يتكلم ! (هكذا هتفت كاتيا تقول فجأة فى اندفاع لا تقاوم) • ليتك تعلم كم كان يجب هذا الشقى حين كان يتكلم عنه ، وكم لعله كان يبغضه فى الوقت نفسه أيضاً ! أما أنا ، فقد أصغبت عندئذ الى هذه القصة التي رواها لى باكياً ، أصغبت اليها

وأنا أتفرد فيه متكبرة متعجرفة ساخرة ! ألا ما أحطنى من مخلوقة !
 نعم أنا التي يجب أن أسمى مخلوفة ! بسببى انما أصيب بالحمى الحارة !
 أما الآخر ، الذي حكم عليه ، فانه غير مستعد لأن يتألم البتة + وهل
 فى وسع امرئ منله أن يتألم ؟ + + + ان رجلاً من نوعه لا يتألم أبداً +

هكذا ختمت كاتيا كلامها حانقة غاضبة + ان نبرة بغض واسمئزاز
 واحتقار فد طافت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة + ومع ذلك
 فانها هى التى خاتمت + قال أليوشا لنفسه : « انما هى تكرهه فى بعض
 اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت فى حقه » + كان أليوشا يتمنى أن
 لا تكرهه الا فى بعض اللحظات + وقد لاحظ أليوشا فى الكلمات الأخيرة
 التى قالتها كاتيا شيئاً من تحد ، ولكنه لم يحفل بالأمر +
 وأضافت كاتيا تقول بلهجة فيها مزيد من الاستفزاز :

— انما كان هدفى من استدعائك اليوم هو أن تعدنى بأن تمارس
 تأثيرك فيه لاقناعه ، اللهم الا أن تعد الفرار عملاً منافياً للشرف ، مناقضاً
 للكرامة ، أو + + + ماذا أقول ؟ + + + ربما كنت تعد الفرار مخالفاً
 للمسيحية ، هه ؟

فتمتم أليوشا يجيبها :

— لا + + + لماذا ؟ سأقول له كل شيء +

ثم قال لها فجأة وهو يحدق الى عينيها بحزم :

— هو يرجوك أن تجيئى اليه اليوم +

فارتعشت كاتيا بكل جسمها ، وتقهقرت قليلاً الى وراء ، ودمدمت

تقول وقد اصفر وجهها اصفراراً شديداً :

— أنا ؟ + + + ولكن هل هذا ممكن ؟

فعاد أليوشا يقول بالحاح وقد انتعش فجأة :

- ليس هذا ممكناً فحسب ، بل هو ضرورى أيضاً . لا بد أن يراك ، الآن خاصة . ولولا أن ذلك واجب حتماً ، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أولئك فى غير طائل . انه مريض . انه يشبه أن يكون مجنوناً . انه لا يكف عن مناداتك . وهو لا يريد أن يراك من أجل أن يصالحك . كل ما يطلبه هو تذهيى اليه وتظهرى له عند باب غرفته . ان تحولاً كبيراً قد حدث فى نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم . لقد أدرك مدى الاثم الذى اقترفه فى حقك . ليس يسألك أن تغفرى له . هو نفسه يقول : « أنا لا أستحق الغفران » . كل ما يرجوه هو أن تظهرى له عند باب غرفته ***

تمت كاتيا تقول :

- أنت تخرجنى *** كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئنى طالباً منى ذلك *** كنت واثقة بأنه سيدعونى . ولكن لا *** مستحيل .

- مستحيل ، غير مستحيل *** يجب عليك أن تفعلى . تذكرى أنه لأول مرة فى حياته يدرك مدى الاساءة التى ألحقها بك . بدرك هذا لأول مرة فى حياته . انه لم يدركه فى يوم من الأيام ادراكاً كاملاً كما يدركه الآن . قال لى : « اذا رفضت أن تجيىء فسأكون تعيساً بقية عمرى » . هل تفهمين ؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيداً ! أليس هذا مما يستحق الشفقة ؟ تذكرى أيضاً أنك تزورين انساناً بريئاً (هكذا هتف أليوشا يقول فجأة بلهجة فيها تحدى) . ان يديه طاهرتان لم يلوثهما دم . فاذهبى اليه ، اذهبي اليه بسبب هذه الآلام الذى لاحدود لها ! *** اذهبي ، مدى اليه يدك فى هذه الليلة *** اظهرى له على الباب فحسب ، على الباب فحسب *** هذا واجب عليك ، هذا واجب عليك ***

هكذا ختم أليوشا كلامه ملحاً على كلمة « واجب » إلحاحاً يكاد
يشتمل على عنف وقسوة *

قالت كاتيا بصوت فيه أنين :

– هذا واجب علىّ ، ولكن ... لا أستطيع ... سينظر الىّ ...
لا ، لا ، لا أستطيع *

– يجب أن تلتقى نظراتكما * كيف يمكنك أن تعيشى فى المستقبل
إذا لم تعزى أمرى ؟

– أوثر أن أظل أتألم طول حياتى !

– يجب أن تذهبى إليه ، يجب *

كذلك قال أليوشا ملحاً لا ينثنى عن عزمه *

قالت كاتيا :

– ولكن لماذا اليوم ؟ لماذا حالاً ؟ يستحيل علىّ أن أترك المريض

وحده *

– بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات * لن يطول غيابك * ما كنت

لأقول لك هذا لولا أنه حق * ليكن فى قلبك نىء من شفقة *

أجابت كاتيا تقول بلهجة عتاب مر :

– أنا أولى بالشفقة *

وأخذت تبكى *

قال أليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها :

– معنى هذا أنك آتية * سأبلغه أنك ستجيئين *

هتفت كاتيا تقول مذعورة :

– بل لا تقل له شيئاً البتة • سأذهب إليه ، ولكن لا تبلغه ذلك ••
وقد لا أدخل عليه ••• لا أدري بعد •••

قالت ذلك وتحطم صوتها • كانت تتنفس في مشقة • ونهض
أليوشا لينصرف • فسأله فجأة بصوت خافت وقد امتنع لونها من جدبده :

– فماذا لو لقيت أحداً هناك ؟

فأجابها أليوشا وقد أدرك من معنى :

– فانما أسألك أن تجيئى الآن لأنك لن تلقى أحداً • لن يكون
هناك أحد • ثقي بذلك •

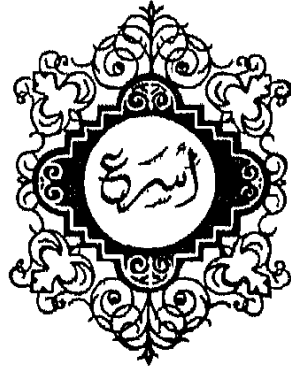
وختم كلامه يقول بالحاح :

– سننتظرك •

وخرج من الغرفة •

٢

صار الكذب إلى حقيقة لحظة



ألوشا الى المستشفى الذى كان فيه ميتيا الآن •
 لقد أصيب ميتيا بحمى عصبية بعد صدور الحكم
 بيومين ، فنُقل الى مستشفى مدينتنا ، وأودع
 القسم المخصص للسجناء • ولكن الدكتور
 فارفنسكى رضى أخيراً بعد شفاعات أشخاص كثيرين (السيدة هوخلاكوفاء
 ليزا ، الخ) أن لا يترك ميتيا بين السجناء ، ونقله الى غرفة صغيرة
 مستقلة ، هى تلك الغرفة نفسها التى أقام بها سمردياكوف • ان على
 نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية ، وأن موظفاً من الموظفين كان يربط
 فى آخر الدهليز ، فلبس على فارفنسكى أن يخشى اذن تتيماً من هذه الميزة
 التى تفضل بها على السجنين والتي تخالف القانون قليلاً • كان الطيب
 شاباً طيب القلب رحيم النفس ، فأدرك مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل
 ميتيا من عناء وألم اذا هو وجد نفسه فجأة يعيش فى وسط قتلة واصوص ،
 وأدرك أنه لا بد له من مرحلة انتقال تنهأ له فيها أسباب التعود على
 الوضع الجديد • وقد أذن لأقرباء السجنين وأصدقائه ضمناً بأن يزوروه ،
 أذن بذلك الطيب' والمراقب وحتى رئيس الشرطة • ولكن ألوشا
 وجروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين يجيئان الى ميتيا أثناء تلك الأيام •

وقد حاول راكيتين أن يدخل عليه مرة أو مرتين ، ولكن ميتيا رجبا
الدكتور فارفسكي ملحاً أن لا يسمح له بالدخول .

وجد أليوشا أخاه مضطجعاً على مضجعه بمعطف المستشفى . كان
به شيء من حمى ، وكان رأسه ملفوفاً بفضوة مبتلة بخل . فلما أبصر
ميتيا أخاه أليوشا حدّق اليه بنظرة غامضة يخالطها نوع من خوف .

وكان ميتيا قد أصبح منذ صدور الحكم عليه كثير الوجوم . وكان
يتفق له أن يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر في أمر من الأمور
تفكيراً أليماً ، وكان يبدو عليه في مثل تلك اللحظات أنه نسي من حوله
نسياناً تاماً . حتى اذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخذ يتكلم ، استرسل
في حديث من الأحاديث ارتجالاً ، وعالج موضوعاً يختلف كل الاختلاف
عما كان يهمه أن يقوله في الواقع . وكان يثبت على أخيه في بعض الأحيان
نظرة مثقلة بالألم والعداب . وكان يرتاح الى وجود جروشكا أكثر من
ارتياحه الى وجود أليوشا . صحيح أنه كان لا يكاد يكلمها ، ولكن وجهه
كان يشرق فرحاً متى جاءت .

جلس أليوشا على مضجع أخيه دون أن ينبس بكلمة . وكان أخوه
ينتظره في هذه المرة مهموماً قلقاً ، ولكنه يخشى أن يسأله . كان يقدر
أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجيء اليه ، وكان يحس في الوقت
نفسه أن رفضها المجيء سيورثه ألماً لا يطاق . وكان أليوشا يحزر
عواطفه .

بدأ ميتيا الكلام فقال بعصية :

— يُقال ان تريفون بوريمشس كاد يخرب فندقه ، فهو يقتلع
أخشاب الأرض ، وينزع ألواح الجدران ، حتى لقد هدم الرواق هدماً
تاماً . انه يبحث عن الكنز ، عن الألف وخمسمائة روبل التي اتهمني

وكيل النيابة باخفائها هناك • انه منذ أن عاد الى موكرويه قلب كل نبيء
عاليه سافله • يستحق هذا الوغد ذلك • علمت هذا من حارس هناك
قصته على أمس •

قال أليوشا :

— اسمع • انها ستجىء • ولكننى لا أعرف بعد متى تجىء • ربما
جاءت اليوم ، أو غداً ، أو فى يوم قريب ، لا أعرف على وجه الدقة •
ولكنها ستجىء ، حتماً •

انتفض ميتيا ، وبدا عليه أنه أراد أن يقول شيئاً ، ولكنه صمت •
لقد هزه هذا النبأ هزاً عميقاً • كان واضحاً أنه يتحرق شوقاً الى معرفة
تفاصيل الحديث الذى جرى بين أليوشا وكاتيا ، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل
أخاه فى ذلك : فان كلمة فيها قسوة أو احتقار تقولها كاتيا كفيلة فى هذه
اللحظة بأن تطعنه كخنجر •

— اليك ما قالته فيما قالت من أمور أخرى : انها تطلب منى ملحة
أن أهدىء ضميرك فيما يتعلق بالفرار • وستولى هى تدبير الأمر اذا لم
يُشف ايغان من مرضه الى ذلك الحين •

قال ميتيا مفكراً :

— سبق أن ذكرت لى ذلك •

فأجابه أليوشا :

— ونقلت أنت هذا الكلام الى جروشنكا •

فقال ميتيا معترفاً :

— صحيح •

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلة وجلة :

– لن تأتي جروشنكا هذا الصباح • لن تأتي الا فى المساء • حين
حكيت لها أمس أن كاتيا تهىء أمر فرارى ، سكتت فى أول الأمر
وتقبضت سفتها ، ثم دمدمت تقول : « لها ما تشاء » • لقد أدركت أن
الأمر جد • لم أجرؤ أن أقول لها أكثر من ذلك • أحسب أنها تدرك
الآن أن كاتيا لا تحبنى أنا ، وانما تحب ايفان •

فأفلت من أليوشا هذا السؤال :

– أنت متأكد من هذا ؟

– ربما كنتُ مخطئاً فى ظنى •

ثم أسرع يضيف قوله :

– على كل حال ، لن تأتي هذا الصباح • لقد كلفتها بمهمة ستقوم
بها ••• أما ايفان فانه خير منا جميعاً • هو الذى يستحق الحياة ، لا نحن •
وسيسُفنى •

قال أليوشا :

– تصور أن كاتيا رغم خوفها الشديد عليه تكاد تكون واثقة بأنه
سيسُفنى •

– هذا برهان على أنها واثقة بأنه سيموت • فمن الخوف انما تحاول
أن تقنع نفسها بأنه سيسُفنى •

قال أليوشا فى قلق :

– ان أخانا ايفان قوى الجسم متين البنية • أنا أيضاً أتمنى بحرارة
وقوة أن يبل من مرضه •

– سوف يبل من مرضه • ولكنها ، هي ، واثقة بأنه سوف يموت •

وصمت الأخوان بضع لحظات • كان واضحاً أن هناك هماً ثقيلًا
يعذب ميتيا •

وانطلق ميتيا يقول فجأة بصوت راعشٍ مثل بالدموع :

– أليوشا ، اننى أحب جروشنيكا حباً رهيباً •

فأسرع يقول له أليوشا :

– لن يسمحوا لها بأن تتبعك الى « هناك » !

فاستأنف ميتيا كلامه يقول بصوتٍ أصبح مهتزاً ومختلجاً على حين
فجأة :

– اليك ما كنت أريد أن أقوله لك أيضاً • اذا ضربونى أثناء
الطريق ، أو «هناك» ، فلن أحتمل ذلك وان أسمع به : سأقتل أحداً
فيرموننى بالرصاص • أننى لى أن أحتمل هذا عشرين سنة ! لقد بدأوا
يخاطبوننى منذ الآن بصيغة المفرد هنا • الحرس ينادوننى بقولهم «أنت» •
لبثت أفكر وأتساءل طوال الليل • لا ، لست مستعداً ، لست قادراً على أن
أحتمل هذا المصير ! لقد أردت أن أنشد «نشيداً» ، وهأنا ذا أعجز عن
احتمال أن يخاطبنى حارس من الحرس بصيغة المفرد ! لو كانوا سيأذنون
لجروشنيكا بأن تصحبنى لاحتملت كل شىء فى سبيلها ••• الا الضرب
طبعاً ••• ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك •

ابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة ؟ وبدأ الكلام فقال :

– اسمع يا أخى • اليك رأيى فى هذا الموضوع ، أعلنه لك مرةً
واحدة الى الأبد • أنت تعلم حق العلم أننى لن أكذب عليك • فاسمع :
أنت غير مهياً ، وذلك الصليب لم يُخلق لك • أكثر من ذلك : ليس من
الضرورى البتة أن تقبل عذاباً شديداً يفوق طاقتك • لو كنت قد قتلت

أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنة • ولكنك برىء ، وهذه الكفارة فوق ما تطيق • كنت تريد أن تتألم لتخلق نفسك خلقاً جديداً ، ولتصبح انساناً آخر • فى رأى أنه يكفىك أن تظل طول حياتك تفكر فى هذا الانسان الآخر ، وأن يظل هذا الانسان الآخر مائلاً أمامك حيثما وُجدت ، وأينما هربت • ذلك كافٍ من جهتك • وأن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شأنه الا أن يعزز شعورك بواجبك ، وهذه الفكرة الدائمة المستمرة التى ستتبعك حيثما تذهب قد تساهم مزيداً من المساهمة فى خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك « هناك » ؛ ذلك أنك لن تحتل نظام الحياة هناك ، فاذا أنت تتور وتمرد وتقول لنفسك آخر الأمر فعلاً : « هأنأ ذا الآن براء تجاه المجتمع » • لقد صدق المحامى حين قال هذا الرأى • ان من المحن القوية ما لا طاقة لكل انسان به • ان من الناس من لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن • تلك هى آرائى ما دمت حريصاً كل هذا الحرص على معرفتها •

ثم أضاف أليوشا يقول مبتسماً :

– لو كان سيعاقب على هربك أشخاص آخرون – كالضباط أو الجنود – لما « سمحت » لك بأن تهرب • ولكن يظهر أن فى امكاننا ، بشىء من الحذق والبراعة ، أن نجنبهم المتاعب ، وفى امكانهم أن يخرجوا من الأمر بغير كبير عناء (رئيس المحطة نفسه أكد هذا لايفان) • صحيح أن رشوة الموظفين عمل غير شريف ، حتى فى حالة من هذا النوع ؛ ولكننى أمتنع هنا عن ابداء رأى واصدار حكم • فلو كلفنى ايفان أو كلفتنى كاتيا بأن أتولى هذا الأمر من أجلك ، لما أحجمت عن استعمال الرشوة • أنا أعلم ذلك • ان من واجبى أن أقول لك الحقيقة كلها فى هذا الموضوع • ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله • ولكن ثق على الأقل أننى لن ألومك ولن أدينك • وأنسى لى أن أكون

قاضيك في هذه المسألة ! هذا كل شيء * أحسب انني قلت كل ما كان
يجب على أن أقوله في هذا الصدد *

هتف ميتيا يقول :

- ولكنني سأدين نفسي بنفسي * سوف أهرب ، هذا أمر مفروغ
منه ، هذا أمر تقرر حتى قبل أن تكلمني فيه * وهل يستطيع ميتكا
كارامازوف الا أن يهرب ؟ هه ! ... ولكنني سأدين نفسي بنفسي بعد
ذلك ، وسأكفر عن هذا الذنب دلوال حياتي في البلد الذي سألجأ اليه *
قل لي : أليس يفكر اليسوعيون هكذا ؟ ألا يتكلمون كما تتكلم نحن
الآن ؟

- بلى ... هكذا يفكرون *

بهذا أجاب أليوشا وهو يتشم برفق وهدوء * فصاح ميتيا يقول
وهو يضحك بفرح ومرح :

- أحب فيك أنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفى شيئاً * هأنا ذا اذن
قد فاجأت أليوشا متلبساً بما يفعله يسوعى ! وددت لو أقبلك من أجل
هذا ، هل تعلم ؟ اسمع اذن ما أريد أن أقوله لك أيضاً ، لأنني أريد أن
أفتح لك النصف الثاني من نفسي كذلك * اليك القرار الذي اتخذه
بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من جميع النواحي :
هبنى هربت ، بسال وجواز سفر ، فأقمت في أمريكا * سوف يعزيني
ويواسيني ويشد أزرى ويقوى عزيمتي أن أتصور أنني اذ أهرب
لا أهرب لأفرح وأسعد ، وانما أهرب لألقى نفسي في سجن آخر مختلف
عن السجن الذي كنت سأودع فيه هنا ، ولكنه سجن على كل حال ،
سجن يعدل السجن هنا أو هو أسوأ منه * أوه ! انني أمقت أمريكا هذه
منذ الآن ... شيطان يأخذها ! ... وستكون جروشنكا معي ...

طيب ... ولكن فكّر قليلاً : ما الذى فى جروشنكا من امرأة أمريكية ؟
 فيم تشبه جروشنكا امرأة أمريكية ؟ انها روسية ، روسية حتى النخاع
 من عظامها ، وستشعر هنالك بالحنين الأليم الى الارض التى ولدت فيها .
 وسوف أرى فى كل لحظة أنها من أجلى انما ارتضت عذاب النفس هذا ،
 وأنها فى سبيلى انما حملت ذلك الصليب ، هى التى لم تقترف ذنباً ولم
 ترتكب اثماً ! وأنا ؟ هل تظن اننى سأستطيع أن أطيق معايشة أولئك
 الجفأة من سكان تلك البلاد حتى ولو كانوا كلهم خيراً منى ؟ اننى أكرهها
 منذ الآن ، أمريكا هذه ! شيطان يأخذ سكان تلك البلاد ولو كانوا جميعاً ،
 من أولهم الى آخرهم ، تكنيكيين من الطراز الأول ! ذلك أنهم ليسوا هم
 الناس الذين يحبهم قلبى ، ليسوا هم البشر الذين يستهوون فؤادى !
 أنا أحب روسيا يا ألكسى ، أنا أحب الهنا الروسى ، رغم أننى لست أنا
 نفسى الا انساناً شقيماً تافهاً . ولكنى سأختق هنالك ، سأختق ...
 بهذا هتف ميتياً فجأة وقد سطعت عيناه واختلج صوته . ثم أردف
 يقول مسيطراً على انفعاله :

— فإليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسى . اصغ الىّ : سأذهب مع
 جروشا ، فمتى وصلنا الى هناك اندفعنا نعمل فوراً : نستصلح الأرض
 ونحسبها فى مكان بعيد لا تجاورنا فيه الا الدببة ، مكان هو أنأى ما يكون
 عن المناطق الآهلة بالسكان . لا بد أن توجد هنالك أماكن نائية مقفرة !
 يُقال انه ما يزال يوجد فى أمريكا سكان حمر يعيشون فى أقاصى البلاد .
 فالى هناك سنذهب ... الى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ ... وسنشرع ،
 أنا وجروشا ، فى دراسة قواعد اللغة على الفور ، لا نضيّع يوماً واحداً .
 ونقضى فى ذلك ثلاث سنين : نزرع الأرض وندرس قواعد اللغة .
 وفى نهاية تلك السنين الثلاث ، نكون قد أتقنا اللغة الانجليزية ، وأصبحنا
 نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين . فمتى تم لنا إتقان اللغة الانجليزية

اتقاناً كاملاً فلنا لأمریکا وداعاً ، وعدنا الى روسيا كمواطنين أمريكيين .
ولكن لا تخف : لن نرجع الى هذه المدينة . وانما سنختفى في مكان ما ،
بعيد عن هنا ، بالشمال ، وربما بالجنوب . والى أن نعود يكون قد تغير
مظهرى ، وتبدلت هيئتى ، ويكون قد حدث لها هي أيضاً مثل ذلك .
ثم ان أحد أولئك الأطباء الأمريكيين سيستطيع أن يجرى تعديلاً
في ملامح وجهى ، كأن يزرع فى خدى شامة اصطناعية مثلاً ! انهم هناك
بارعون فى التكنيك ! وسأفقا احدى عينى اذا اقتضى الأمر ذلك ، وسأرخصى
لحيتى طويلة جداً ، بيضاء كل البياض (ذلك أن لحيتى ستكون قد شابت
بسبب ما أكون قد قاسيت من حنين الى الوطن) . وبذلك آمل أن لا أعرف
حين أعود . واذا افتضح أمرى رغم ذلك ، فلا ضير . . . سيرسلونى
عندئذ الى المعتقل فى سيبيريا . . . سيكون ذلك قدراً ولا شك ! . . .
وهنا أيضاً ، فى روسيا ، سنحرق الأرض فى ركن ناءٍ بعيد ، وسأظل
أظهار حتى المات بأننى أمريكى . هكذا سيتاح لنا على الأقل أن نموت
فى وطننا وأن نُدفن فى تراب بلدنا . تلك هى خطتي ، وذلك هو
قرارى الذى لن أرجع عنه . هل تؤيدنى فى هذا ؟

- أؤيدك .

كذلك قال أليوشا الذى لم يشأ أن يعاكسه وينغظه . وصمت ميتيا
لحظة ثم هتف يقول :

- ما أسد ما شوّ هوا الوقائع فى المحاكمة ! يا لها من مسرحية !

فقال أليوشا وهو يتنهد :

- حتى بدون ذلك كانوا سيحكمون عليك .

فاستأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت فيه ألم :

– نعم ، لقد ضاقوا بي في هذه المدينة ؛ سامحهم الله ، ولكن هذه قسوة فظيعة ***

وساد الصمت مرة أخرى • ثم قال ميتيا فجأة :

– أليوشا ، يجب أن أعرف حتماً : أهي آتية أم لا ؟ أجب ***

ماذا قالت لك ؟ بماذا وعدتك ؟

قال أليوشا :

– وعدتني بأن تجيء ، ولكنني لا أدري هل تستطيع أن تجيء

اليوم •

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلى :

– ليس هذا سهلاً عليها •

قال ميتيا :

– أقدر ان هذا ليس سهلاً عليها • وكيف يكون سهلاً ! أليوشا ،

اننى أكاد أجن • ان جروشلا لا تكف عن التفرس فيّ • يبدو أنها

تدرك • آه ••• رباه ! اللهم ألهمنى الصبر ! أنظر ماذا اطلب الآن :

اننى اطلب كاتيا ، لا بد لى من كاتيا ••• أأنا أدرك ما الذى أريده بهذا ؟

هذه حمى آل كارامازوف ! هذا هو اندفاعنا المخزى ! لا ، لست قادراً على

على أن أتألم ، وأأسفاه ! ما أنا الا انسان شقى تافه ••• ذلك كل

شئ !•••

في تلك اللحظة صاح أليوشا :

– هي ذى !

كانت كاتيا قد ظهرت فى عتبة الباب • وتوقفت بضع لحظات تتأمل

ميتيا بنظرة زائفة تائهة • وثب ميتيا واقفاً على قدميه ، وعبر وجهه عن
ذعر ، وامتقع لونه ، ولكن سرعان ما ارتسمت على شفقيه ابتسامة مذلة
وضراعة ، ومدّ ذراعيه فجأة نحو كاتيا بحركة لا تقاوم • فاستجابت
كاتيا لهذه البادرة ، واندفعت اليه ، فأمسكت يديه ، وأجلسته على مضجعه
عنوةً ، وجلست الى جانبه وهي ما تزال ممسكة يديه ، وأخذت تضغط
عليهما ضغطاً قوياً عنيفاً يشبه أن يكون تشنجاً • وأرادا أن يتكلما عدة
مرات ، ولكنهما أمسكا عن الكلام في كل مرة ، لينظر كل منهما
في الآخر صامتاً ، مبتسماً ابتسامة غريبة ، وكأن كلاً منهما قد سُدّ الى
صاحبه والتصق به •

دمدم ميتيا أخيراً :

– هل غفرت لي ؟

والثفت في اللحظة نفسها نحو أليوشا ، وصرخ يسأله وقد التهاب
وجهه بفرح عظيم :

– هل تسمع ماذا أسألك ؟

وهتفت كاتيا تقول فجأة :

– لأن لك قلباً كريماً هذا الكرم انما أحببتك • ولكن لست أنا من
يغفر لك ، لأنني أنا التي احتساج الى غفرانك • ولكن ليس هذا بالأمر
الهام ••• لأن هذا الجرح سيظل نازفاً في قلبي طول حياتي سواء أغفرت
أم لم تغفر • ستكون أنت عذابي ، وسأكون أنا عذابك • حسن هذا •••
وتوقفت كاتيا عن الكلام لتسترد أنفاسها ؛ ثم استأنفت تقول متعجلةً
بصوتٍ أصبح شديد الحماسة والحرارة على حين فجأة :

– هل تدري لماذا أتيت اليك ؟ لأقبّل قدميك ، لأشد على يديك ،

هكذا ، الى حد ايلامك ، كما كنتُ أفعل في موسكو ، أما زلت تتذكر ؟

نعم ، جئت لأقول لك مرةً أخرى انك أنت الهى ، انك أنت فرحتى ،
ولأصرخ أمامك ملء حنجرتى : انى أحبك حب الجنون •
صاحت تقول ذلك بصوتٍ كأنه الأنين ، ثم أطبقت بشفتيها على يد
ميتيا فجأةً ، وأخذت تتدفق من عينيها دموع •
لبث أليوشا صامتاً متحيراً : انه ما كان له قط أن يتوقع مشهداً كهذا
المشهد •

وتابعت كاتيا كلامها فقالت :

– الحب قد انقضى يا ميتيا ، غير أن ما انقضى يظل عزيزاً فى نفسى
الى حد الألم • تذكر هذا الى الأبد •

ثم دمدمت تقول وهى تبسم ابتسامةً متشنجةً ، وتحديق الى عينيه
من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح :

– لنفرض ، خلال لحظة ، أن ما حلمنا به قد تحقق • أنت تحب
الآن امرأةً أخرى ، وأنا أحب رجلاً آخر • لا بأس ••• سأظل أحبك
مع ذلك الى الأبد ••• وستظل تحبني أنت أيضاً • أكنت تعرف ذلك ؟
هل تسمع ؟ أريد أن تحبني ، أريد أن تحبني مدى الحياة !

كذلك صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفى صوتها ارتعاش يشبه أن
يكون تهديداً •

أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة من كلماته ليسترده أنفاسه :
– سأحبك ، نعم ••• هل تعلمين أننى كنت أحبك أيضاً منذ خمسة
أيام ، فى ذلك المساء ••• حين أُنعمى عليك ونُقلت من قاعة
المحكمة ••• سأحبك طول حياتى ! ذلك ما سيكون ، ذلك ما سيكون
الى الأبد •••

هكذا أخذنا يتبادلان أقوالاً طائشة تفيض حماسة وحمياً ، ولعلها تفيض كذباً • ولكن كل شيء قد أصبح في تلك اللحظة صدقاً وحقيقة ، وكانا كلاهما مخلصين كل الاخلاص •

وصاح ميتيا يسألها فجأة :

– كاتيا ، أتعقدين بأننى قتلت ؟ أنا أعلم أنك لا تعقدين الآن بذلك ••• ولكن فى تلك المرة ••• أثناء ادلائك بشهادتك أمام المحكمة ••• هل يمكن حقاً أن تكونى قد اعتقدت بأننى قتلت ؟

– لا ، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك ! لم أعتقد بذلك فى وقت من الأوقات ! ولكنى كرهتكم فى تلك الآونة ، فأفنت نفسى خلال لحظات بأنك القاتل ••• أفنت نفسى بذلك فى تلك الدقيقة ذاتها التى أدليت فيها بشهادتى ••• أفنت نفسى بذلك ، فسرعان ما اقتنعت ••• ثم كفت عن الاقتناع منذ انتهيت من الادلاء بشهادتى • أريد أن تعرف هذا • لقد نسيت اننى انما جئت الى هنا لأعاقب نفسى •

أضافت كاتيا ذلك وقد تبدل تعبير وجهها فجأة وأصبح صوتها لا يشبه فى شيء ذلك الصوت الذى كان يتمم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل •

قال ميتيا فجأة وقد فقد كل تحفظ :

– روحك معذبة يا امرأة •

قدمت كاتيا :

– دعنى انصرف • سأعود اليك ، أما الآن فلا أطيق البقاء • اننى

متألّة •

ونهضت لتصرف • ولكنها سرعان ما أطلقت صرخة حادة

وتراجعت الى وراء • كانت جروشنيكا قد ظهرت في الغرفة • لقد دخلت
بغير ضجة ، ولم يكن يتوقع احد أن يراها • انجهدت كاتيا نحو الباب
مسرعةً ، ولكنها ما ان وصلت الى مستوى جروشنيكا حتى توقفت فجأة ،
ودمدت تقول لها بصوت فيه أنين وتوجع وقد صار وجهها كالشمع
اصفراراً :

- اغفري لي !

فحدقت اليها جروشنيكا تحديقاً منفرساً ، حتى اذا انقضت بضع
نوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره :

- كلتانا شريرة • نحن متساويتان في الشر • فعلام تغفر كل منا
للأخرى • أنقذيه ، فأدعو لك الله الى آخر أيامي !

صرخ ميتا يقول لجروشنيكا بلهجة عتاب شديد :

- لم تشائى أن تغفري لها ؟

ودمدت كاتيا تقول بسرعة :

- لا تخافى ! سأنقذه •

وأسرعت تفر من الغرفة •

وعاد ميتا يهتف قائلاً بمرارة :

- كيف رفضت أن تغفري لها ؟

فتدخل أليوشا يقول بحرارة :

- لا تلمها يا ميتا ! ليس من حقك أن تلمها !

وأجابت جروشنيكا تقول باشمئزاز :

- لم يصدر كلامها من أعماق نفسها ، وإنما أوحاه اليها العجب والكبر والصلف • ألا فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شيء !

وصممت كأنما لتكبت العواطف التي كانت تحتاج نفسها • لم تكن قد ثابت الى هدوئها ، وقد جاءت مصادفةً كما اتضح ذلك فيما بعد ، دون أن تتوقع لقاء كهذا اللقاء •

قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه :

- أليوشا ، حاول أن تلحق بها ••• واطرح لها ••• قل لها ••• لا أدري ماذا ••• ولكن لا تدعها تنصرف على هذه الحال !

فصرخ أليوشا يقول وقد اندفع فى اثرها :

- سأعود اليك هذا المساء !

وأدركها فى الشارع • كانت تسير بخطى سريعة ، وتبدو مستعجلة ، ولكنها حين أبصرت أليوشا قالت له بلهجة قوية :

- لا ، يستحيل على أن أذل نفسى أمام تلك المرأة ! وإنما سألتها أن تغفر لى ، لأننى أردت أن أمضى فى التضحية الى نهايتها ، أن أشرب الكأس حتى الثمالة • وقد منعت عنى غفرانها • فمرحى لها ••• اننى أحبها لموقفها هذا !•••

أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج ، وطاقف بعينها لهيب من كره وحشى !

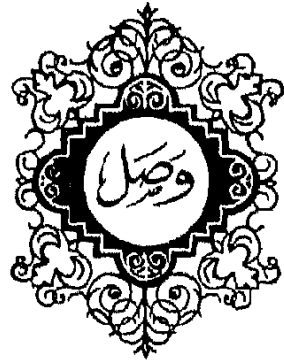
دمدم أليوشا يقول :

- لم يكن يتوقع أخى حضورها • كان واثقاً بأنها لن تجىء !

فقالت تحسم الحديث :

- لا أشك في ذلك • ودعنا من هذا • اسمع : يستحيل على أن
 أذهب معك الآن الى الجنـازة • لقد بعثت اليهم بأزهار للنعش • أظن
 أنهم ما يزال معهم بقية من مال • قل لهم ، اذا لزم الأمر ، أنني لن
 أتركهم في المستقبل أبداً ••• والآن دعنى ، دعنى ، أرجوك •••
 هانت ذا قد تأخرت منذ الآن ، فلن تدرك الا القديس الثاني •••
 اتركنى ، أضرع اليك !

جهازة ايليوشا . التابئين قرب الصحرة



أليوشا متأخراً بالفعل • كانوا ينتظرونه ، وقد هموا أن يذهبوا الى الكنيسة بدونه ، حاملين النعش الصغير المزين بالأزهار تزييناً جميلاً • انه نعش ايليوشا ، الصبي المسكين • لقد مات بعد الحكم على ميتا بيومين • استقبل أليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق الصبي الراحل • كانوا جميعاً ينتظرونه بصبر نافذ ، وابتهجوا أخيراً بوصوله • ان عددهم اثنا عشر صبياً يحملون حقائب المدرسة على ظهورهم • كان ايليوشا قد قال لهم قبل موته : « سيكي بابا ، فابقوا الى جانبه » ، وتذكر الأطفال وصيته • وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين •

هتف كوليا وهو يمد يده الى أليوشا :

— ما أسعدنى برؤيتك يا كارامازوف ! ان ما يجرى هنا رهيب • ان ما يجرى هنا تمزق رؤيته القلب • ليس سنيجريف سكران • نحن نعلم أنه لم يشرب اليوم شيئاً البتة ، ولكنه كالسكران • اننى قوى القلب رابط الجأش ، ولكن هذا المنظر رهيب • لا أريد أن أؤخرك يا كارامازوف ، ولكن هل يمكنى أن ألقى عليك سؤالاً واحداً قبل أن تدخل ؟

سأله أليوشا وقد توقف عن السير :

- ماذا يا كوليا ؟

- هل أخوك مذنب أم هو برىء ؟ أهو الذى قتل أباك ، أم القاتل هو ذلك الخادم ؟ سوف أؤمن برأيك ايمانى بقانون • ان هذا السؤال فد حرمنى النوم أربع ليال •

أجابه أليوشا :

- الخادم هو الذى قتل • أخى برىء •

فهتف الفتى سموروف يقول فجأة :

- ذلك هو رأيى أنا أيضاً •

صاح كوليا يقول :

- اذن سيهلك بريئاً ، سيهلك شهيداً من شهداء الحقيقة • لقد هوى ، ومع ذلك لا بد أن يكون سعيداً ! ألا اننى ، من جهتى ، لمستعد أن أغبطه وأحسده !

قال أليوشا مدهوشاً :

- كيف ؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام ؟

فأجابه كوليا بحماسة :

- أوه ! لشد ما أتمنى أن أضحي بنفسى يوماً فى سبيل الحقيقة •

قال أليوشا :

- ولكن لا فى قضية من هذا النوع ، فيما أتخيل ... لا فى مثل هذا الجو من الحزى والهول !

– طبعاً ••• أنا أتمنى أن أموت فى سبيل الانسانية كلها • أما هذا
الجزى الذى تشير اليه فلا قيمة له ! ألا سحقاً لأسمائنا ! اننى أحترم
أخاك •

– وأنا أيضاً أحترمه •

كذلك قال صوت آخر فى جماعة التلاميذ ، على نحو لم يكن
متوقعا • انه صوت ذلك الصبي الذى أكد فى الماضى أنه يعرف أسماء
بناة طروادة ؛ وكما حدث فى المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة •
دخل أليوشا الغرفة • كان ايليوشا مسجى فى نعش صغير أزرق
مزدان بتخريم أبيض ، وقد أغمضت عيناه وضمت يدها • ان ملامح
وجهه الناحل لم تكد تتغير • والأمر الغريب أنه ما من رائحة تعفن
تفوح من جثته • وكانت يدها جميلتين جمالاً خاصاً • انهما متصلبتان
على صدره ، يحس المرء حين يراها أنهما مقدودتان من مرمر • وكان
وجهه يعبر عن الجد ، وكأنه يعبر عن تفكير • وقد وضعت بين أصابعه
أزهار • وكان النعش كله ، من جهة أخرى ، مزداناً فى الباطن والظاهر
بأزهار أرسلتها ليزا هوخلاكوفا منذ الصباح • وقد وصلت الآن أزهار
أخرى أرسلتها كاترين ايفانوفنا ، وفى اللحظة التى فتح فيها أليوشا
الباب كان الكابتن ينثر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيد
مرتعشة • لم يكد ينظر الى أليوشا • وكان غير عابىء بأحد على كل
حال ، حتى ولا بامرأته الخرفة التى كانت تبكى وتحاول أن تنهض على
ساقها المريضتين لتأمل طفلها الميت من قرب • أما نينا فكان التلاميذ قد
نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش ، فهى الآن مسندة رأسها الى
النعش ، ولا شك أنها تبكى هى أيضاً فى صمت • وكان وجه سنيجيريف
يعبر عن حركة ونشاط ، غير أن فيه شراسة وشكاسة على شىء من
قسوة • كان فى اشاراته وحركاته جنون ، وكذلك فى الأقوال الذى

تطلق من لسانه • كان يصيح في كل لحظة قائلاً : « بنى الصغير
الشهم ، بنى الصغير الشجاع ! » • لقد كان يحب ، حتى أثناء حياة
ابنه ، أن يناديه بقوله : « بنى الشهم الشجاع ! » •

قالت الأم الحرفة وهى تتحب :

– بابا ، اعطنى بضعة أزهار أنا أيضاً • خذ منه هذه الزهرة
البيضاء التى يمسكها بيده ، واعطنى اياها !

أكانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هى التى أعجبتها ذلك الاعجاب
كله ، أم هى كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التى يمسكها ابنها بيده ،
ذكرى منه ؟ لا أحد يعلم ، ولكن الأم كانت تضرب اضطراباً رهيباً
وهى تمد يديها نحو الزهرة المشتهاة •

صرخ سنجيريف يقول بلهجة قاسية :

– لن أعطيها أحداً ، لن أعطى شيئاً • هذه الأزهار له هو ، لا لك
أنت ! كل شىء له هو ، وليس لك شىء البتة !

قالت نينا فجأة وهى ترفع وجهها المبلل بالدموع :

– بابا ، اعط ماما زهرة !

– لن أعطى شيئاً ، لن أعطيها هى خاصة ، لأنها لم تكن تحبه ! لقد
أخذت منذ هذا المدفع الصغير من قبل ، وارتضى هو أن يهديه اليها •

كذلك قال الكابتن وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذى تنازل
فيه ايليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه •

• غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها ، وأخذت دموعها تسيل •
• واذا لاحظ الصبية أن الأب لا يترك ابنه ، مع أنه آن أو ان نقله ،
• فقد تحلقوا حول الميت الصغير حلقة كثيفة ، وأخذوا يُنهضون النعش •

زار سنجيريف يقول فجأة :

- لا أريد دفنه في المقبرة • سوف أدفنه قرب الصخرة ، قرب
صخرتنا • هذا ما أراده ايلوشا • لن أسمح بنقله •

الواقع أن سنجيريف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه قرب
الصخرة • احتج الحاضرون • وأخذ أليوشا وكراسوتكين وصاحبة البيت
وأختها وسائر الصبية ، أخذوا يحاولون اقناعه •

قالت صاحبة البيت العجوز :

- يا للفكرة العجيبة ! كيف يُدفن قرب صخرة حقيرة كأنه
منبوذ • المقبرة فيها صلبان وأرضها مباركة مقدسة • والناس يجيئون اليها
فيصلون على روحه • وأناشيد الكنيسة تصل الى هناك ، وللشماس
صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبي
كأنها تُتلى على قبره •

وأخيراً حرك الكابتن يده بإشارة تتم عن الاذعان والرضوخ وكأنه
يقول : « خذوه حيث شئتم ! » • أنهض الصبية النعش وساروا به ،
حتى اذا مروا بالأم توقفوا لحظةً وأخوه لتستطيع أن تودع ايلوشا
الوداع الأخير • فلما رأت الأم فجأةً ، من قرب ، ذلك الوجه الصغير
الغالي الذي كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد ، أخذت ترتعش وهي
ترجح رأسها الأشيب ترجيحاً هسترياً من أمام الى وراء ، فوق النعش •
صرخت نينا تقول للأم :

- ماما ، ارسمى عليه اشارة الصليب وباركيه !

ولسكن المجنونة ظلت تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير
ارادة ، وقد تشنج وجهها على ألم شديد ؛ وفجأةً أخذت تلطم صدرها

بقبضة يدها • وابتعد الصبية بالنعش • فلما مروا باخته نينا ألصقت الفتاة شفقتها بشفتي أخيها المتوفى مرة أخيرة • وحين خرجوا من الدار اتجه أليوشا الى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقيين ، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت :

- أعرف واجبي • لن أتركهم • نحن أيضاً مسيحيون !

وكانت العجوز تبكى أثناء كلامها •

لم تكن الكنيسة بعيدة • انها على مسافة ثلاثمائة خطوة في أكثر تقدير • وكان النهار مضيئاً هادئاً ، على شيء من صقيع • وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤذنةً بالصلاة • ان سنيجيرييف يركض وراء النعش مضطرب الحركة ، زائغ البصر ، تائه الهيئة ، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذي يشبه أن يكون كساءً من أكسية الصيف ، حاسر الرأس يمسك بيده قبعته المهترئة الطويلة الحواف ، المصنوعة من لباد • كان كمن تملأ ذهنه مشاغلٌ لا سبيل حلها ؛ هو تارةً يمد ذراعه على حين فجأةً ليساعد في حمل النعش فلا يزيد على أن يعوق أولئك الذين يحملونه ، وهو تارةً أخرى يهرع الى جانب محاولاً أن يصطف في الموكب • وسقطت زهرة على الثلج ، فأسرع يلتقطها كأن سقوطها هذا يمكن أن يؤدي الى عواقب خطيرة لا يعلم الا الله ما هي !

وصرخ يقول مذعوراً على حين فجأةً :

- رغيف الحبز ! نسينا الرغيف !

ولكن الصبية نبهوه الى أنه قد أخذ الرغيف ، وأن الرغيف هو الآن في جيبه • فأسرع يخرججه ، حتى اذا تأكد من وجوده اطمأن باله • وقال لأليوشا شارحاً :

– ان ايليوشا هو الذى أمر بهذا • كان لا ينام الليل ، وكنت
أجلس قربه • وفجأة أمرنى قائلاً : « بابا ، حين يهلون على قبرى
التراب ، فاشتر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير ، فأسمع صوتها ،
فلا أشعر بأننى وحيد • » •

قال أليوشا :

– فكرة حسنة • يجب فعل ذلك أحياناً كثيرة •

– كل يوم • سأفعل هذا كل يوم !

بهذا أجاب الأب متحمساً •

ووصل الموكب أخيراً الى الكنيسة ، ووضع النعش فى وسطها ،
وأحاط به الصبية يحرسونه بأبهة وجلال الى آخر القداس • انها كنيسة
قديمة فقيرة ، وان عدداً كبيراً من أيقوناتها معلق بغير أطرف • وفى كنائس
من هذا النوع انما يُصلى أحسن الصلاة فى أكثر الأحيان • بدا على
سينجريف أثناء القداس أنه هداً قليلاً ، غير أن قلقاً لاشعورياً ، قلقاً ليس
له سبب ظاهر ، كان يجتاح نفسه من حين الى حين • واقرب من النعش
مرة ليرتب الغطاء وليعدل العصابة التى تعصب جبين الميت * . وفى مرة
أخرى سقطت احدى الشموع فأسرع يعيدها الى موضعها فشغل بهذا العمل
مدة طويلة • وعاد اليه الهدوء بعد ذلك من جديد ، فوقف عند التابوت
مذعناً ، على شىء من قلق وحيرة فى تعبير وجهه • حتى اذا انتهت قراءة
ما قرئ من الانجيل ، قال سينجريف لأليوشا هامساً فى أذنه (وكان
أليوشا الى جانبه) : لم تكن القراءة « كما يجب أن تكون » ، ولكنه لم
يشرح جوهر فكرته • وحين أنشد نشيد الكروبين ، صاحب الأب
الانشاد بصوت خافت ، ولكنه لم يلبث أن توقف عن الانشاد فجأة
وارتمى جاثياً على ركبته ، ثم سجد حتى التصق جبينه بالبلاط ، ولبث

على هذا الوضع مدة طويلة • وأخيراً نُليت صلاة الجنائز ، ووزعت الشموع ، فاضطرب الأب عندئذ من جديد ، ولكن مهابة الغناء الجنائزي المؤثر لم تلبث أن نفذت الى قلبه فهدأت روعه ، ثم عاد الى ذاته ، وتجمع على نفسه ، وأخذ يبكي بنشيج قصير سريع ، خائفاً صوته في أول الأمر ، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاحباً غير مكظوم • حتى اذا آن أوان التوديع وأريد اغلاق التابوت ، أسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون اغلاقه ، وألصق شفثيه بوجه صغيره الميت ، وراح يغمره بالقبل في ظمأ لا يرتوى ، وطفق يقبله على الفم مزيداً ومزيداً من التقييل لا يريد أن يتوقف • وردّوه أخيراً الى الصواب واستطاعوا أن ينحّوه • وفيما هو ينزل على الدرجات ، غيّر رأيه فجأة ، فأغار بذراعيه على التابوت فاختطف منه بضع زهرات ، وأخذ يتأملها • ان فكرةً جديدة قد نبتت في نفسه عندئذ ، حتى لكأنه نسي ، خلال لحظات ، الأمر الذي هو فيه • وهوى ، شيئاً فشيئاً ، الى نوع من تأمل عميق ، فلم يُظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين أنهض التابوت الصغير لنقله الى القبر • كان القبر قريباً كل القرب ، فهو في الحوش الى جانب الكنيسة • وقد تكلف ثمناً باهظاً تولت دفعه كاترين ايفانوفنا • وقام الحفارون بانزال التابوت في القبر بعد اجراء الطقوس المألوفة ؛ فبلغ سنيجيريف (وكان يحمل الأزهار بيده) بلغ من شدة ميله على القبر المحفور أن الصبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه الى وراء • غير أن من يراه في تلك اللحظة يخيّل اليه أنه أصبح لا يفهم ما يجري حوله فهماً واضحاً • حتى اذا أهملت على القبر أولى مجارف التراب ، خرج من خدره فجأة ، فأشار بيده الى التراب الذي كان يتكوم ، ودمدم بعبارات غامضة لم يفهما أحد • على أنه لم يلبث أن صمت فوراً • وذُكّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الحبز ، فاضطرب فجأة ، وأخرج الرغيف من جيبه ، وأخذ يفتته ،

مبشراً فتاته على القبر ، مدمماً في تشفع قلق : « هياً أسرعى يا عصفيرى الصغيرة ! » • وقال له أحد الصبية ان الازهار التى يمسكها بيده تعوق حركته ، واقترح عليه أن يحملها عنه لحظات ، ولكنه أبى أن يعطيها ، حتى لقد بدا عليه زعرٌ من تصور أن أحداً يريد انتزاعها منه • حتى اذا ألقى نظرة على القبر ، فاطمأن الى أن كل شيء قد تم على ما يرام ، وأن فتات الحُبز قد نثر ، استدار فجأة ومضى متجهاً الى البيت وقد هدأ هدوءاً كبيراً على حين بغتة • ولكن خطواته اخذت تسرع شيئاً بعد شيء ، وأخذ يتعجل المشى مزيداً من التعجل حتى صار كمن يركض ركضاً • ولم يتركه أليوشا والصبية •

هتف يقول :

– أزهار للأم • لا بد من أزهار للأم • لا بد من أزهار للأم • لقد أوذيت الأم وأولمت •

ولفت أحدهم انتباهه الى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد ، فاذا بهذه الملاحظة تغضبه ، واذا هو يرمى قبعته على الثلج بعنف قائلاً :

– لا أريد قبعة ، لا أريد قبعة !

فمال الفتى سموروف على الثلج ، فتناول قبعة اللباد وتولى حملها • وكان جميع الصبية يبكون ، ولا سيما كوليا والصبى الذى اكتشف بناء طروادة • أما سموروف فكان يبكى بكاءً غزيراً هو أيضاً ، ممسكاً قبعة الكابتن بيده ، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد كان يتلألأ احمرارها فى الثلج ، فرماها فى الهواء على سرب من العصافير ؛ فلم يصبها طبعاً ، فعاد ينضم الى جماعته وهو يبكى • وفى منتصف الطريق توقف سنيجيريف فجأة ، وشرذ فكره نصف

دقيقة ، ثم اذا هو يستدير كأن فكرة مباغتة قد انبجست في ذهنه ،
واندفع يمضى نحو الكنيسة ، نحو القبر الصغير المهجور • ولكن الصبية
لحقوا به وأدركوه في مثل لمح البصر وأحاطوا به من جميع الجهات
ليصدوه ، فتهاوى عندئذ على الثلج محطماً مهدم القوى ، وأخذ يئن
منتحباً صائحاً :

- بنىّ الشهم الشجاع ايلوشا ، بنىّ الشهم الشجاع !

أنهضه أليوشا وكوليا محاولين أن يواسياه ويهدئاه •

دمدم كوليا يقول له :

- ما هذا يا كابتن ؟ ان على الرجل الشجاع أن يعرف كيف

يحتمل الألم !

وقال له أليوشا :

- سوف تُفسد الأزهار ، بينما الأم تنتظرها • هي الآن في البيت

لأنك رفضت أن تعطيتها بعض أزهار ايلوشا • وفي البيت أيضاً السريرُ

الصغير الذى كان يرقد عليه ايلوشا •

فصاح سنيجيريف يقول وكأنه ذاكرته قد عادت اليه فجأة :

-نعم نعم ، لنركض الى البيت •

وأضاف يقول مذعوراً من تصور أنهم قد يُبعدون سرير ابنه :

- سوف يرفعون السرير ، سوف ينقلون السرير !

وأخذ يركض نحو البيت • ولم تكن المسافة الباقية طويلة •

ووصل الجميع فى وقت واحد • وفتح سنيجيريف الباب بسرعة ، وصاح

يقول لامراته التى خاشنها تلك المخاشنة كلها منذ قليل :

– ماما ، ماما العزيزة ، ان ايليوشا يرسل اليك هذه الأزهار •
ثم أضاف يقول وهو يمد اليها الأزهار التي تجلدت وتكسرت
بعض التكسر حين كان يتخبط في الثلج :
– ماما المسكينة ! ان ساقك مريضتان !•••

ولكنه فى تلك اللحظة نفسها أبصر فى ركن من الأركان أمام
سرير ايليوشا ، حذاءى ابنه اللذين رتبتهما صاحبة البيت هناك منذ
هنيهة – وهما حذاءان عتيقان حال لونهما واهترأت أطرافهما ورقعتا
فى كل موضع ؛ فلما رآهما رفع ذراعيه وركع أمامهما ، فتناول أحدهما ،
وأطبق عليه بشفتيه يقبلهما تقبيلاً نهماً ، ويثن قائلاً :

– بنىّ الشهم الشجاع ايليوشا ، بنىّ الشهم الشجاع ، أين هما
الآن قدمك الصغيرتان الحلوتان ؟

فأعولت المجنونة تسأل بصوت ممزّق :

– الى أين أخذته ؟ الى أين أخذته ؟

وأجهشت نينا تبكى وتتنحب أيضاً • فخرج كوليا من الغرفة
مسرعاً وتبعه الصبية الآخرون ، ولحق بهم أليوشا الى الخارج ، وقال
يخاطب كوليا :

– لدعهم ييكون • ليس هناك ما نعمله الآن ، فلسنا نستطيع أن
نعزيهم • لنتظر هنا بضع لحظات ، ثم نعود ندخل الغرفة •
قال كوليا مؤيداً :

– نعم ، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً • فطيع ، فطيع !

ثم أضاف يقول خافضاً صوته على حين فجأة حتى لا يسمعه أحد
غير أليوشا :

- هل تعلم يا كارامازوف ! اننى أشعر بحزن رهيب ، وانى لمستعد
أن أهب كل شىء فى العالم من أجل يُبعث حياً ، لو كان ذلك فى الامكان.
قال أليوشا .

- وأنا أيضاً . ولكن ذلك غير ممكن وا أسفاه !

- هل يجب علينا أن نعود اليهم فى هذا المساء ؟ ما رأيك
يا كارامازوف ؟ ان من الجائز أن يكب على الشراب ويسكر !

- من الجائز فعلاً أن يسكر . ولكننا سنجىء وحدنا نحن الاثنين .
هذا كاف . وسنقضى فى صحبتهم ساعتين ، مع الأم ونينا . أما اذا جئنا
جميعاً فقد نوظف آلامهم .

كذلك اقترح أليوشا .

قال كوليا :

- ان صاحبة البيت تهيىء المائدة الآن . أغلب الظن أنها تفعل ذلك
اعداداً لوجبة احياء ذكرى الميت . وسيجىء القس . هل علينا أن نعود
الى الغرفة يا كارامازوف ؟

أجابه أليوشا :

- حتماً !

- ما أغرب هذا كله يا كارامازوف ؟ أياكون الناس فى مثل هذا
الألم ثم يأكلون الفطائر ؟ ما أكثر ما هنالك من أمور غريبة فى ديانتنا !

قال الفتى الذى اكتشف بناء طروادة ، قال فجأة بصوت عالٍ :

- هناك أيضاً سمك سومون .

فقال له كوليا بصوتٍ حائقٍ :

– أرجوك ملحاً يا كارتاشوف أن لا تتدخل في حديثنا بسخافاتك،
لا سيما وأن أحداً لم يسألك عن شيء ، وأنا نؤثر أن نجهل وجودك !
فاحمر وجه الفتى احمراراً شديداً ولكنه لم يجرؤ أن يجيب . وكان
الصبية يسرون في الطريق على مهل ، فصاح سموروف يقول فجأةً :
– تلكم هي صخرة ايليوشا ، الصخرة التي كان يراد أن يدفن
تحتها .

توقف الجميع أمام الصخرة ولبثوا صامتين ، فنظر اليهم أليوشا ،
ورأى بخياله المشهد الذي قصه عليه سنيجيريف ، ورأى ايليوشا باكياً
معانقاً أباه قائلاً له : « بابا ! حبيبي بابا ! ما أشد ما أذك ! » . وتحرك
شيء ما في نفس أليوشا عندئذ ، فطاف بنظرة رصينة ثابتة على هذه الوجوه
الفتية النضرة الزاهية ، وجوه التلاميذ ، رفاق ايليوشا ، وقال لهم :
– يا أصدقائي ، أحب أن أوجه اليكم بضع كلمات هنا ، في هذا
المكان بعينه .

فأحاط به الصبية وهدقوا اليه بأعينهم المنتبهة .

قال أليوشا :

– يا أصدقائي ، سنفترق عمّا قريب . أنا الآن مقيم في هذه
المدينة قرب أخويّ اللذين سيُرحل أحدهما بعد مدة قصيرة ، أما الثاني
فيُحضر . ولكنني سأبارح هذه الديار قريباً ، وربما غبت عنها سنين
طويلة . سنفترق اذن يا أصدقائي . لذلك اقترح عليكم أن نتعاهد هنا ،
قرب هذه الصخرة التي كان ايليوشا يحب أن يقف عندها ، على أن
لا ننسى الراحل الصغير أبداً . هذا أولاً ؛ وأن نتعاهد ثانياً على أن يتذكر

بعضنا بعضاً على الدوام • يجب علينا ، مهما يقع لنا فى هذه الحياة ، ولو طال فراقنا عشرين عاماً ، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذى دفننا فيه الصبى المسكين الذى كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك - قرب الجسر الصغير ، هل تتذكرون ؟ - ثم أصبحنا نحبه جميعاً كل هذا الحب • لقد كان فتى شهماً ، طيب القلب ، شجاعاً ، قوى الشعور بالشرف والاباء والشمم ، عميق الاحساس بالمرارة من الالهانة التى ألحقت بابيه ، تلك الالهانة التى تمرد بسببها وثار • يجب أن نظل نتذكره طوال حياتنا • مهما يكن مصيرنا المقبل ، وأية كانت الأمور الخطيرة التى ستشغل فكرنا ، وسواء أصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن فى الحسبان ، يجب أن لا ننسى أبداً هذا العهد الذى أسعدنا فيه شعورنا بالاتحاد فى هذه المدينة على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبى الراحل ، وأسعدنا فيه هذا الحب الذى حملناه له والذى لعله جعلنا خلال هذه الفترة أحسن مما نحن فى الواقع • يا طيورى الصغار - اسمحوا لى أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة - اننى أتأمل الآن وجوهكم التى تفيض طيبة ولطفاً ورقة ، فأقول لى ، يا أبنائى الأعززة ، انكم قد لا تدركون أقوالى الآن لأننى فى كثير من الأحيان أعبر تعبيراً غامضاً ، ولكنكم ستحتفظون بذكرها على الأقل ، ثم يأتى يوم نقرونى فيه على رأبى • ألا فاعلموا اذن أنه ليس فى حياتنا شيء أقوى ولا أطهر ولا أقدس من ذكرى طيبة ، ولا سيما اذا نفذت الى نفوسنا أثناء طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء • ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم • ألا فاعلموا أن ذكرى مشرقة مقدسة يحملها المرء فى نفسه منذ طفولته هى خير تربية وأفضل تهذيب • ورب ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافية لخلاصنا ولو لم يبق فى قلوبنا أى شيء سواها • قد نصبح أشراراً فيما بعد ، قد نعجز فى المستقبل عن مقاومة

فعل سيء ، قد نسخر من ألم الانسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً الى « التآلم في سبيل الانسانية » ، كما قال كوليا منذ قليل ، قد نستهزىء بمنزل هؤلاء الناس في خبث وسر ، ولكن مهما نصبح أشراراً ، لا سمح الله ، فسنظل نتذكر اليوم الذي دفنا فيه ايليوشا ، والحب الذي حملناه له في الآونة الأخيرة ، وهذه المودة والصدقة والمحبة التي ترين على حديثنا في هذه الدقيقة قرب هذه الصخرة • ان أشدنا ميلاً الى القسوة وحباً بالتهكم - هذا اذا أصبحنا قساة متهكمين في يوم من الأيام - لن يجرؤ ، متى استيقظت في خياله هذه الذكرى ، لن يجرؤ ، في قرارة نفسه ، أن يسخر من العواطف الطيبة والمثاعر الكريمة النبيلة التي هزته أثناء هذه اللحظات • ومن يدري ؟ ربما استطاعت هذه الذكرى أن تصده في اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيء ، فمتى تذكرها تاب الى ذاته وحدث نفسه قائلاً : « نعم ، لقد كنت في ذلك الوقت طيباً شجاعاً شريفاً » • قد يبتسم قليلاً حين يتذكر هذا العهد ••• لا ضير ••• انه لأمر طبعي أن يتندر الانسان على ما هو خير وطيب وبراءة • تلك خفة وطيش لا أكثر • ولكن أؤكد لكم يا أصدقائي أن أحدنا ما ان يبتسم قليلاً حينذاك حتى يبادر الى لوم نفسه في قرارة قلبه قائلاً : « لا ، لقد أخطأت حين ابتسمت ، فلا مزاح في هذه الأمور ! » •

هتف كوليا يقول وقد اسطعت عيناه :

- ذلك ما سيكون يا كارامازوف ! اننى أفهمك يا كارامازوف ! واضطرب الصبية الآخرون أيضاً ، وتمنوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما ، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم ، وحدثوا الى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال • وتابع أليوشا كلامه فقال :

- انما أقول لكم الآن هذا الكلام مخافة أن نصبح أشراراً • ولكن لماذا نتصور هذا الامكان ، علام نقدّر أن من الجائز أن نصبح أشراراً ؟

أليس كذلك يا أصدقائي ؛ ألا فلنكن ولنصبح خياراً قبل كل شيء ،
ولنكن شرفاء بعد ذلك ، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً الى الأبد • انسى ألح
على هذا ؛ وأعاهدكم ، من جهتي ، على انسى لن أنسى أى واحد منكم !
سأظل أتذكر ، ولو بعد ثلاثين عاماً ، كل وجه من وجوهكم هذه التي
تنظر الى الآن • منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا نؤثر « أن
نجهل وجوده بيننا » • ولكن انسى لى أن أنسى وجود كارتاشوف الذي
أصبح لا يحمر فى هذه اللحظة كما احمر حين ظن أنه اكتشف
طروادة ، والذي ينظر الى الآن بعينيه الطيبتين الباشيتين الفرحتين .
يا أصدقائي ، يا أصدقائي الأعزّة ، لنكن جميعاً كراماً شجعاناً كما كان
الصغير ايلوشا ، لنكن جميعاً جسورين نبلاء أذكاء مثل كوليا (الذي
سيتهيج ذكاؤه مزيداً من التوهج حين يكبر) ، ولنكن جميعاً خجولين
على ذكاء وحلاوة مثل كارتاشوف ! ولكن لماذا أتكلم عن هذين الاثنين
فيحسب ؟ انسى من اليوم أحبكم جميعاً يا أصدقائي ، فستحيون جميعاً
فى قلبى ، وأرجو أن أحيا فى قلوبكم أيضاً ! من ذا الذي وحدنا الآن
على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التي سنظل نتذكرها بغير انقطاع ، والتي
سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر ؟ من ذا الذي
وحدنا على هذه العاطفة الا ايلوشا ، ذلك الفتى الطيب الرائع ، ذلك
الفتى الذي سنظل نحمل ذكراه الغالية الى الأبد ؟ نعم ، يجب أن نتذكر
ايلوشا مدى الحياة ، يجب أن لا ننساه قط • ألا فلتعش فى أرواحنا ،
ألا فلتعش فى قلوبنا ذكرى هذا الفتى الأبدية ، الآن والى آخر الزمان !

- نعم نعم ، ذكراه الأبدية !

كذلك ردّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على

قسمات وجوههم عاطفة قوية عارمة •

- ألا فلنتذكر وجهه ، فلنتذكر ثيابه ، وحدائه الصغيرين

الفقرين ، ونعشه ، ألا فلنتذكر أيضاً أباه الشقي الخاطي ، ولنتذكر تلك
الجرأة التي أظهرها ايليوشا في دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف !
- نعم نعم ، فلنتذكر هذا كله ! لقد كان شجاعاً ، وكان طيباً !
بهذا راح يهتف الصبية من جديد •

وصاح كوليا قائلاً :

- آه ••• كم كنت أحبه !

- يا أصدقائي الأحبة ، يا أبنائي ، لا تخافوا الحياة ! ما أجمل
الحياة حين يحقق المرء في هذا العالم شيئاً من خير وعدل !

- نعم نعم ، صحيح •••

كذلك ردّد الصبية في حماسة •

وقال صوت على حين فجأة ، هو صوت كارتاشوف فيما يبدو :

- نحن نحبك يا كارامازوف !

فكرر جميع الصبية قوله :

- نحن نحبك ، نحبك !

وسالت دمة من أعين عدد كبير منهم •

وصاح كوليا يهتف بلهجة فيها حماسة :

- مرحى كارامازوف !

فأضاف أليوشا يقول بانفعال :

- وعاشت أبديةً ذكرى الميت الصغير !

فردد الصبية بصوت واحد :

- عاشت أبدية !

وقال كوليا سائلاً :

- كارامازوف ، هل صحيح ما تعلمنا اياه الدين من أننا سنُبعث
أحياء بعد الموت فى يوم من الأيام ، فىرى بعضنا بعضاً ، ونرى
أيلوشا ؟

- هذه حقيقة مطلقة • لا شك فى أننا سنُبعث أحياء بعد الموت ،
ففلتقى جميعاً ، ويقص بعضنا على بعض ضاحكاً ما وقع له •

بهذا أجاب أيلوشا بين هزل وحماسة • فقال كوليا صائحاً :

- آه ••• ما أروع هذا !

- كفانا الآن كلاماً ، وهياً بنا الى وجبة احياء ذكرى الميت •
ولا تقلقنكم الفطائر التى سنأكلها • هذه عادة قديمة جديرة بالاحترام ،
لها جانبها الجميل أيضاً • هياً بنا الى الطعام يداً بيد •

كذلك قال أيلوشا ضاحكاً • فصاح كوليا يقول من جديد بصوت
يفيض حماسة :

- نعم ، يداً بيد ، وليكن الأمر كذلك على مدى حياتنا كلها •
مرحى كارامازوف •

وردّد سائر الصية هتاف كوليا بصوت واحد •

حواش

- ٧ ★ « كان سكرتيراً حكومياً » : السكرتير الحكومي موظف من الدرجة الثانية عشرة وهي رتبة تقابل في الجيش رتبة ملازم ثان .
- ٨ ★ « كوليا » : تصغير نيقولا
- ١٣ ★ « كتاب سماراجدوف » : هو « كتاب التاريخ العلم » الذي سبق أن جاء ذكره في الجزء الأول من هذه الرواية . راجع حاشية الصفحة ٢٩٩ من المجلد الأول من هذه الرواية .
- ١٧ ★ « ناستيا » : تصغير آناستازيا
- ١٩ ★ « كوستيا » : تصغير كونستانتين
- ٧١ ★ « قريب محمد أو الجنون النافع » : رواية فرنسية ماجنة من تأليف فروماجيه (١٧٤٢) وقد ترجمت الى الروسية سنة ١٧٨٥ في عهد « حرية الطباعة » . ولم تنشأ الرقابة الوقائية الا سنة ١٧٩٢ بعد ظهور الكتاب الثوري الذي ألفه ن . آ . راديشتييف .
- ٨٢ ★ « اللغات المندثرة » : المقصود بها هنا اللاتينية واليونانية القديمة ، أو ما يسمونه في الغرب اللغات الكلاسيكية . ومن المعروف أن وزير التعليم ، الكونت دمترى تولوستوى قد زاد زيادة كبيرة عدد ساعات تدريس اللاتينية واليونانية القديمة في المدارس الثانوية . وذلك اجراء كانت الاوساط الليبرالية تعده رجعيًا .
- ٨٩ ★ « واعلم من جهة أخرى أنني لا آخذ على المسيح شيئاً . . . ولو عاش في عصرنا لانضم الى الحركة الثورية . . . » : يروى دوستوييفسكى في « يوميات كاتب » (مجلة «المواطن» ١٨٧٣ ،

- العدد الاول) حديثه مع الناقد الشهير ف.ج. بيلنسكى الذى مات سنة ١٨٤٩ ، فيقول ان بيلنسكى قال له : « ثق أن مسيحك لو ولد فى عصرنا لما كان الا انسانا تافها عاديا ، ولا محى أمام العلم المعاصر ومحركى الانسانية ٠٠٠ » .
- ٩٠ ★ « قرأت كلامه عن تاتيانا ٠٠٠ » : ان تاتيانا هى الشخصية الرئيسية فى رواية بوشكين التى هى أجمل أعماله : «أوجين أونيجين» .
- ٩١ ★ « الشعبة الثالثة » : هى ادارة الشرطة السياسية التى كان مقرها قرب «جسر الجنازير» على نهر فونتانكا . والشطران التاليان مستمدان من قصيدة هجائية ساخرة نظمها الشاعر الفكاهى د. ميناييف بمناسبة حفلات يلقى فيها الشعر على الشعب وتنظمها جمعية خيرية فى مبنى قريب ، ولكن ما لبث هذان البيتان أن أصبحا يقصدان «الشعبة الثالثة» .
- ٩١ ★ « الناقوس » : مجلة ثورية أصدرها آ.ج. هرتسن فى لندن .
- ١٠٧ ★ « ألا فليعقل لسانى اذا نسيتك يا اورشليم ٠٠٠ » : المزمور المائة والسابع والثلاثون ، ٥ - ٦ .
- ١٣٠ ★ « الشائعات » : لعل الاشارة هنا الى مجلة « الصوت » ، التى أصدرها آ.آ. كرايفسكى من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٨٣ ، وكانت ذات اتجاه لبرالى معتدل .
- ١٣١ ★ « سكو تو يريجونيفسك » : اسم فكه من اختراع المؤلف .
- ١٣٥ ★ «ان فى النية اقامة نصب تذكارى لبوشكين ٠٠٠» : كان الناس منذ سنة ١٨٦٠ يتكلمون عن اقامة نصب تذكارى للشاعر الكبير بوشكين ، وفى سنة ١٨٧١ أعلن فى الجرائد عن اكتتاب تبرعات .
- ١٦١ ★ « الايطيكا » : هى كلمة يونانية معناها علم الاخلاق .

- ١٦٢ ★ « كلود برنار » (١٨١٣ - ١٨٧٨) : هو عالم الفزيولوجيا الفرنسي المشهور ، مؤسس علم الامراض التجريبي . وقد نشرت عنه فى الآونة التى بدأ فيها دوستويفسكى كتابة روايته طائفة كبيرة من المقالات . وان ميتيا يطلق اسم برنار على الماديين الملحدين .
- ١٦٣ ★ « لا جدال فى الآراء » : قالها كوليا باللغة اللاتينية (de opinionibus non est disputandum) ، وهى تحريف للمثل اللاتينى القائل : « لا جدال فى الأذواق » (de gustibus non est disputandum)
- ٢٣١ ★ « بيتر » : هو اسم التحبب المؤلف الذى كان سكان بطرسبرج يطلقونه فى الماضى على مدينتهم .
- ٢٣٦ ★ « لم أكن الا خادما لتشاردا » : تعبير مستمد من قصة «بوفاء ابن الملك» ، وهى قصة شعبية جدا فى روسيا . واسم لتشاردا هو تحريف لاسم رتشارد ، الخادم الوفى الأمين للملكة « الشقراء » .
- ٢٤٠ ★ « مواعظ أبينا المقدس اسحق السورى » : اسحق السورى ناسك من القرن السابع قرأ دوستويفسكى خطبه ومواعظه مترجمة الى الروسية .
- ٢٤١ ★ « لا تسقط أى تفصيل من التفاصيل » : تروى أرملة دوستويفسكى ان هذه العبارة كانت من العبارات الأثيرة عند زوجها الراحل .
- ٢٧٠ ★ « أنا شيطان ، ولا شىء مما هو انسانى غريب عنى » : وردت هذه الجملة باللغة اللاتينية ، وهى تحريف فكه لجملة الشعاعر اللاتينى الهزلى تيرانس الذى يقول : « أنا انسان ، الخ . » .
- ٢٧٣ ★ « وسيدون جاتسوك ذلك فى التقاويم » : هو الكسندر جاتسوك (١٨٣٢ - ١٨٩١) ، ناشر حولية « تقويم الصليب » ، التى كانت رائجة جدا فى ذلك الحين .
- ٢٧٦ ★ « كتبت أيضا مسرحيات هزلية » : أقوال المتفاخر هلمستاكوف ، شخصية قصة جوجول « المراجع »

- ★ ٢٧٦ « لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشكوك ٠٠٠ » : كتب دوستويفسكى فى دفتر من دفاتره يقول : « المفتش والفصل المخصص للحديت عن لاطفال ٠٠٠ حتى فى أوروبا لا يوجد ولم يوجد تعبير عن الالحاد يبلغ هذا المبلغ من القسوة . فأنا لا أومن اذن بالمسيح ايمان صبى ولا أعترف به اعتراف فتى غر ٠٠ ان تسبيحى قد مر بهوة من الشكوك ، كما يقول الشيطان فى روايتى » .
- ★ ٢٧٨ « أنا أفكر فأنا اذن موجود » : هى القاعدة الشهيرة التى تقوم عليها فلسفة الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) .
والتى وردت فى كتابه « مقالة فى المنهج » (الجزء الرابع)
- ★ ٢٧٩ « ينكر كل شىء ، ينكر القوانين والشعور والايمان » : جملة مستمدة من المسرحية المشهورة التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » (الفصل الرابع ، المشهد الرابع) .
- ★ ٢٨٥ « وأرجلهم فى الفضاء ، على حد التعبير الذى يحبه جوربونوف : هو ايفان جوربونوف (١٨٣١ - ١٨٩٠) ، الفنان الهزلى الذى اشتهر كثيرا بقصصه المضحكة ونوادره التى كان يلقيها فى الجمهور .
- ★ ٢٨٨ « ٠٠٠ أن أرتدى ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم فى القفقاس ، فهو يضع على رداثه وسام «الاسد» و «الشمس» ٠٠٠ » : أى موظف من الدرجة الخامسة نال فى القفقاس هذا الوسام من شاه ايران (فالأسد والشمس هما شعارا تلك البلاد) .
- ★ ٢٨٨ « حين جاء مفسستوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم هو لا يستطيع أن يفعل الا الخير » : هذه هى الكلمات التى قالها الشيطان فى الفصل الاول من «فاوست» جوته (الفصل الثالث) .
- ★ ٢٨٨ « لص اليمين » : لص اليمين ولص الشمال هما فيما تقول

- الأناجيل السارقان اللذان صلبا مع المسيح ، وآمن أولهما قبل موته .
- ★ ٢٩٣ « تذكر محبرة لوثر » : ان المصلح الدينى مارتان لوثر قد تراءى له الشيطان أثناء اقامته فى قصر فارتنبورج ، فرماه بمحبرته . وما يزال الناس يرون بقعة الحبر على جدار غرفة النسيك التى كان يقيم فيها لوثر . وان هلدوسات ايفان كارامازوف تذكر بعض الشئ بذلك « الحوار مع الشيطان » الذى تحدث عنه المصلح الدينى .
- ★ ٣٣٥ « خدما التاج » : أى خدما العرش ، أى خدما المملكة ، أى خدما الدولة . كان تعبير «خدمة التاج» شائعا جدا فى بولندا حيث كان تستعمل كلمة التاج وحدها دلالة على المملكة ، ولم يكن هذا التعبير شائعا فى روسيا مثل هذا الشيوخ .
- ★ ٣٣٨ «الاخوان المورافيين» : ملة بروتستانتية ظهرت فى مورافيا فى القرن السادس عشر .
- ★ ٣٤٥ « باسم الاله الاب ، باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس» : بالألمانية فى الأصل .
- ★ ٣٦٨ «خبزا ومشاهد سيرك !» : باللاتينية فى الاصل . وذلك ما كان يطلبه الشعب فى روما القديمة .
- ★ ٣٨٦ « ان كاتبنا كبيرا من كتاب عهد قريب ، قد شبه روسيا بعربة ترويكما تعدو عدوا سريعا نحو غاية مجهولة . . . » : هو الكاتب الروسى الكبير جوجول فى كتابه « النفوس الميتة » (الجزء الاول ، الفصل ١٠) . والترويكما عربة تجرها ثلاثة أحصنة .
- ★ ٣٨٨ « من بعدى الطوفان » : عبارة تنسب الى لوييس الخامس عشر .
- ★ ٤٥٨ « . . . مخبأ فى قبو من أقبية قصر أودولف » : الاشارة هنا الى الرواية التى كتبها آن رادكليف بعنوان « أسرار قصر أودولف (١٧٩٤) » ، والتى أصابت نجاحا كبيرا فى أوروبا كلها .

- ★ ٤٨٤ « أنا الراعى الصالح ٠٠٠ » : من أقوال المسيح فى انجيل القديس يوحنا (الاصحاح العاشر ، ١١) .
- ★ ٤٨٥ « وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم » : رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس (الاصحاح السادس ، ٤) .
- ★ ٤٨٥ « بالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » : من أقوال المسيح فى انجيل متى (الاصحاح السابع ، ٢) وانجيل مرقس (الاصحاح الرابع ، ٢٤) .
- ★ ٤٨٦ « أن لا نكون شببهين ببائعات موسكو السمينات اللواتى يؤمن بالخرافات ، فيخشن كلمتى «معدن» و «كبريت» : ان الخشبية الخرافية من هاتين الكلمتين الأجنبيتين قد أبرزها آ . ن . أوستروفسكى فى مسرحيته الهزلية «الايام المشؤومة» (الفصل الثانى ، المشهد الثانى) التى مثلت سنة ١٨٦٣ .
- ★ ٤٨٨ « اطرّدوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة » : تعبير شائع مستمد من مقالة للكاتب ن . م . كارامزين ، وقد أصبح هذا التعبير من الامثال السائرة فى روسيا .
- ★ ٤٨٨ « قل لى يا أبى لماذا يجب على أن أحبك » : لعسل هذه الجملة مستمدة من مسرحية «اللصوص» للشاعر الالماني شيلدر ، (الفصل الاول ، المشهد الاول) .
- ★ ٥٠٥ « لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاما بالسجن مع الاشغال الشاقة » : كانت عقوبة جريمة قتل الأب فى قانون الجزاء الروسى لعام ١٨٤٥ هى الاشغال الشاقة المؤبدة . ولكن الليوتنان ايلنسكى ، الذى تشبه حالته حالة ميتيا ، لم يحكم عليه الا بعشرين عاما ، بسبب الشك فى ارتكابه الجريمة .
- ★ ٥٣٨ « ليعدل العصاة التى تعصب جبين الميت » : هى عصاة من قماش الساتان أو من الورق يمثل عليها يسوع المسيح ومريم العذراء والقديس يوحنا ويحاط بها جبين الميت .
- ★ ٥٣٩ « راح يفرقه بالقبل فى ظمأ لا يرتوى » : فى روسيا يبقى التابوت مفتوحا أثناء قداس الجنائز ، حتى اذا انتهى القداس جاء الأهل وغيرهم يقبلون الميت قبله أخيرة . وبعد ذلك بغلق التابوت .

فهرس

الصفحة

٥	الجزء الرابع
٧	الباب العاشر (الصبيان)
٧	١ - كوليا كراسوتكين
١٦	٢ - الأولاد
٢٧	٣ - التلميذ
٤٣	٤ - « يوتشكا »
٥٦	٥ - على سرير ايليوشا
٨٦	٦ - نضح مبكر
١٠٠	٧ - ايليوشا
١٠٩	الباب الحادى عشر (الأخ ايفان فيدوروفتش)
١٠٩	١ - عند جروشكا
١٢٦	٢ - القدم الصغيرة المريضة
١٤٥	٣ - شيطان صغير
١٥٨	٤ - النشيد والسر
١٨٣	٥ - ما أنت ، ما أنت !
١٩٦	٦ - أول اجتماع بسمردياكوف
٢١٤	٧ - ثانى اجتماع بسمردياكوف
٢٣١	٨ - ثالث وآخر اجتماع بسمردياكوف
٢٦٠	٩ - الشيطان ، كابوس ايفان فيدوروفتش
٢٩٦	١٠ - « هو الذى قال ذلك ! »
٣٠٧	الباب الثانى عشر (خطأ قضائى)
٣٠٧	١ - اليوم الحاسم
٣٢٠	٢ - شهود خطرون

الصفحة

٣٣٧	٣ - الشهادة الطبية ورطل من بندق
٣٤٧	٤ - الحظ يبتسم لميتيا
٣٦٤	٥ - نازلة مباغثة
٣٨٢	٦ - مطالعة النياية • عناصر بارزة ..
٣٩٩	٧ - لمحة تاريخية
٤٠٨	٨ - مقالة عن سمردياكوف
٤٢٥	٩ - سيكولوجية سريعة ، عربة الترويكا تعدو • خاتمة ..
٤٤٦	١٠ - المرافعة • سلاح ذو حدين
٤٥٤	١١ - لم يكن ثمة مال ، لا ولا سرقة
٤٦٥	١٢ - لا ولا كان قتل
٤٨٠	١٣ - سفسطائي
٤٩٤	١٤ - صمد فلاحونا
٥٠٦	خاتمة
٥٠٦	١ - مشاريع فرار
٥١٦	٢ - صار الكذب الى حقيقة، لحظة
٥٣٢	٣ - جنازة ايليوشا • التأبين قرب الصخرة
٥٥٠	حواش

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الأول</u>
الفقراء	المثل
المجلد التاسع	قلب ضعيف
الجريمة والعقاب - ١-	<u>المجلد الثاني</u>
المجلد العاشر	نيتوتشكانزفانوفنا
الجريمة والعقاب - ٢-	الليالي البيضاء
<u>المجلد الحادي عشر</u>	بروخارتشين
الأبلة - ١-	الجماعة
المجلد الثاني عشر	المهرج
الأبلة - ٢-	السارق الشريف
<u>المجلد الثالث عشر</u>	البطل الصغير
الشياطين - ١-	قصة في تسع رسائل
المجلد الثالث عشر	شجرة عيد الميلاد والزواج
الشياطين - ٢-	زوجة آخر، وزجل تحت السرير
<u>المجلد الرابع عشر</u>	<u>المجلد الثالث</u>
المرامق - ١-	قريبة ستيبانتشيكوفوسكانها
المجلد الخامس عشر	حلم العم
المرامق - ٢-	<u>المجلد الرابع</u>
قصص	مذلون مهانوف
<u>المجلد السادس عشر</u>	<u>المجلد الخامس</u>
الاخوة كارامازوف - ١-	ذكريات من منزل الأموات
<u>المجلد السابع عشر</u>	<u>المجلد السادس</u>
الاخوة كارامازوف - ٢-	في قبوي
<u>المجلد الثامن عشر</u>	قصة اليممة
الاخوة كارامازوف - ٣-	ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
	التمساح
	<u>المجلد السابع</u>
	المقامر
	الزوج الأبدي

دوستوييفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستوييفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهبائين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستوييفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستوييفسكي كان راعداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف. سربرنوف